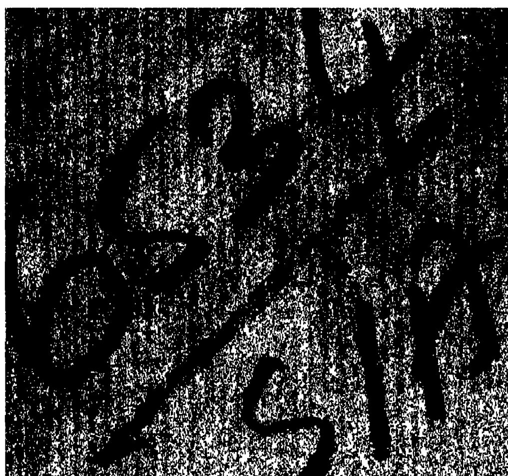


كتاب

خطط الشام

الجزء الرابع

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٥ هـ و ١٩٢٦ م

كتاب

خطط الشام

الجزء الرابع

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

[illegible] ١٩٢٦ م

التاريخ المدني

العلم والادب

ما يُراد بالعلم والأدب } نريد بالعلم علم الدين والدنيا ، فالعالم بالحديث عالم ، والعالم بالطب عالم ، والعالم بالكلام عالم ، والعالم بالهندسة عالم ٠ والكيمياء علم ، والبيطرة علم ، والتاريخ علم ، والجدل علم ، وشرف هذه العلوم بشرف مقاصدها ، وأشرفها في نظر الالهيين ما هذب النفس وأعدها للحياة الخالدة ٠ وعلوم الدنيا هي الوسيلة الى تلك السعادة كما قال حجة الاسلام الغزالي ان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم امورهم في الدنيا ، ولعمري انه متعلق ايضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ٠ فان الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا ٠

وقد كان البشر قبل ظهور الاديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا ، وكانت بسائط على حالة ابتدائية بالطبع ، ويعكفون من جهة أخرى على تماثيلهم وأربابهم ومعابدهم يجوّدون صنعها ، ويجددونها ويفنون بمدحها ، فلما جاءت الأديان المعروفة تغير الشكل بصورة أخرى ، وبقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع والدول ٠ اما الادب فالذي كانت العرب تعرفه انه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم ٠ واصطلح الناس بعد الاسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أديبًا وعلوم العربية أدباً ٠ والمراد بالاسلام كما قال النووي من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل الهجرة النبوية بنحو ست سنين ٠

للاهوية والاهواء تأثير في العلم ، والعلوم ربيبة البلاد المعتدلة او الباردة اكثر من البلاد الحارة والوبيئة ، لان اهل هذه قصيرة آمالهم في الحياة ، محدودة مطالبهم، فاترة هممهم، مثلوم حدهم، متداعية صحتهم . ومن صرف وكده ايضاً الى الاهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه ، لتوزع القوى ، وانصراف رغبته عن الفانية الى الباقية ، واشتغال الذهن بامور لا يتسع لغيرها في الاغلب . وكلما توغلت امة في مضمار المدنية نظرت الى علوم الدين وعلوم الدنيا نظرة واحدة ، وشرّفت ماتشتد حاجتها اليه منها ، وأقبلت بكليتها على المشتغلين بها . فقد رأينا جامعات اوربا في القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الاكثر ، فلما عظمت مطالب البشر ، وأخذت المدنية تسير سيرها ، أصبحت العلوم الدينية في جامعاتهم تقرأ كما يُقرأ التاريخ والادب والطبيعة ، لا فضل لديني لاهوتي على طبيعي رياضي ، الا بالاثر الناتج عن درسه و بحثه ، هذا ان لم يرجحوا في عرفهم العالِمَ الثاني . وبينا نجد تماثيل العلماء بالمئات في شوارع الغربيين وساحاتهم ومتاحفهم ودور العلم والصناعات عندهم ، لا نشهد من علماء الدين الا نفراً قليلاً أُقيمت لهم التماثيل داخل البيع والكنائس فقط .

كان الاقتصار على العلم الديني في الصدر الاول للاسلام ، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة ، ورأى علماء الامة انها نافعة لقوام الدين والدنيا ، وبذلك أقنعوا العامة ومن فوق درجتهم ، فأقبل الناس عليها ، وكانت العناية اولاً بعلوم القرآن والسنة ، ثم أقبل الناس على الفقه « توصلاً الى نيل العز ودرك الجاه » ذلك لان حالة الزمن اقتضت الاقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس واتساع المملكة الاسلامية ، ثم أقبلوا على علم الكلام ، لما رأوا له رواجاً بين السلاطين وللحاجة الماسة اليه خصوصاً وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصاراً وعشاقاً ، وتولدت من فتح باب المناظرة في الكلام تعصبات فاحشة وخصومات أفضت الى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ثم مالوا الى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذاهب الشافعي وابي حنيفة ، ونشأت فتن من تخاصم الحنابلة مع الشوافع ، والسنة مع الشيعة ، والمعتزلة مع الحشوية حتى اضطر السلطان سنة ٢٧٩ ان يحلف الوراقين ببغداد ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفه ، كأنهما بعض المخدرات التي تضر بالعقل . ثم كثرت العلوم بين العرب

في المدن على توالي الايام، وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة ، الى ان أخذت بالتطور طوراً جديداً أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن على ما سيجيء ٠

وأهم العوامل في اضمحلال العلم في كثير من بلاد الاسلام زهد الملوك والامراء فيها واشتغال الناس بالفتن والغوائل ٠ ومذاخذ العلماء يتعلمون علوم الدين للجاه والمال ، ضعفت علوم الدين والدنيا معًا ٠ وأصبح السلطان للممخرقين والمعطلين والمتهوسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم ، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق ، وتهذيب الأخلاق ، على ان من تعلم علماً للاحتراف لم يأت عالمًا وانما يجيء شبيهاً بالعلماء ٠ ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الامر ، ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد ، فأقاموا للعلم مأتماً ، وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العالية والانفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل ، فيكون ذلك سبباً لارتفاعه ، ومن هنا هُجرت علوم الحكمة وان كانت شريفة لذاتها اهـ ٠

ان الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جداً ، ولكنهم يكونون على الاكثر ممن نسميهم او اكثرهم باهل النبوغ والعبقرية ، لانهم يتفانون في مقصدهم ويأتون بالجديد والإبداع فيبرّزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر وعنواناً للتصدر ، وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الارض ، وتبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقاباً ودهوراً ، ومن هذا الفريق أنجبت الشام قديمًا وحديثًا جماعةً افتخرت بهم ، وعُدُّوا باعمالهم بالقياس الى حال هذا القطر والى مجموع علماء الامة كتلة صالحة أثرت تأثيراً محموداً في العلم والمدنية ، وقد عرفنا تراجم اكثر رجال العهد العربي لقربه منا ، ولاطراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة ، فوقفنا بها على منازعهم وأعمالهم الا قليلاً ٠ وقد غابت عنا تراجم كثير من المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقيين لانه جاء زمن والقوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من اهل الصناعات فقط ، لا من أهل العلم ٠ كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعةً من الصناعات ٠ وقد اصطلح المتأخرون

على ان المراد بالعلم اذا أطلق يقصد منه العلم الديني . ومن الغريب ان بعض المتأخرين ممن دوّنوا تراجم اهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والمخرفين ولم يذكروا مثلاً تراجم اهل تلك الايام من المقدرين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا باعمالهم مدنية اعصارهم .

لم يتسلسل العلم قروناً طويلة في الشام تبعاً لتغير الدول وانصراف الهمم « والعلم مذ كان محتاج الى العَلَم » ذلك لان الشام كان في جميع أدواره ممراً للفاتحين يطمع فيه جيرانه ، بل البعيدون عنه لتوسطه بين قارات آسيا وافريقية واوربا . والقدر الذي عرفناه من رسوخ العلم في ديارنا كافٍ ولا شك في إنشاء مدنية صالحة خصوصاً اذا دعمها ما كان ينهال عليها من علوم أهل العراق والجزيرة ومصر والاندلس وفارس وغيرها . وكأن الشرق مُني بالتساهل والاهمال ، وعدم التسلسل في الفكر والاطراد في العمل ، فكان مظهر الحياة الفردية في الاعم الأغلب من حالاته ، وعلى العكس في الغرب فانه كان ولا يزال مثال الحياة الاجتماعية والتعصب للفكر والاستماتة فيه ، والتسلسل في الافكار .

فقد رأينا الغرب في قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشتد في إرهاق الافكار الحرة ، وديوان التفتيش الديني يحرق الانفس البشرية بالعشرات والمئات للقضاء على الفلسفة والتجدد ، بيد ان الغرب كان اذا هلك فيه رجل بطريق الإلحاد والخروج عن مألوف القوم ، يقوم غيره من أخلافه في الحال يتناول ما بدأ به سلفه ، ناسياً ان الهلاك يحل به اذا اشتهر امره . ورأينا في هذا الشرق القريب أناساً ينزعون الى التجديد والإبداع فكان نصيبهم من الحياة ضرب أعناقهم ، او إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم في خمول وتقية ، وكان نصيب الامة العربية ان يقل فيها جداً ظهور من يخلفهم في دعوتهم ، وقد يأتي العصر والعصران ولا يظهر فيها نابغة يذكر وعالم مبدع ، وجاء زمن وهو ليس ببعيد ، وقد أصبح الناس ينكرون البديهيات في العلم ، ويحرمون ما حلل الله من ضروبه النافعة في قيام المجتمع الانساني ، فغارت ينابيعه من أرضنا وفاضت في الغرب وزادت مع الايام فيضاناً ، وقويت تقية العلماء ودخل في غمارهم الجاهلون فسقطت هيبة العلم . وكان من نتائج عمل الغربيين تلك الحضارة الحديثة المدهشة ومن تفاشلنا وتجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس وإضاعة مدنية الاجداد الا قليلا .

نعم العلم ابن الحرية ، والأدبُ ربيب التسامح ، وقد شاهدنا أجدادنا في هذه الديار المثالَ الصالح في هذا الباب على اختلاف العصور والمذاهب ، وكان العرب في أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل . فان كانت أنطاكية وبيروت قبل الاسلام عاصمتي الحكمة والأدب والشرائع ، فقد امتازت بعدهما حلب والمعرة وطرابلس ودمشق وحمص بهذه الخصائص . والعلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب الا في ظل السلام وصلاح السلطان .

هذا شأن العلم اما الادب وهو منظوم الكلام ومنثوره فيتصرف ايضاً على هذا المثال ، وبه ولا سيما بالشعر أدركنا بعض الحالة الاجتماعية والروحية التي كانت عليها تلك الاعصر ، ورأينا فيه تبدلاً محسوساً في القرون التالية ، فكانت الآداب في الشام في القرن الاول غيرها في القرن الثاني والثالث ، وقد استحكمت اسباب الحضارة وعم الترف ، ونقلت علوم الأوائل وراجت سوق الشعر في الرابع والخامس في الشمال ، وما لبثت في أواخر هذا القرن ان عراها الكساد قليلاً ، ثم هبت الى الحياة بعض الشيء في السادس والسابع تبعاً للحالة السياسية التي كانت عليها البلاد زمن الحروب الصليبية ، ولم ينشأ في الشام خلال القرنين الثامن والتاسع شاعر يجوز عدُّه في مصافّ المفلقين على مثال شعراء القرن الثالث والرابع ، اما في القرون الاربعة التالية فضعفت حالة الشعر اكثر من ذلك بما لا يقدر ، وأصبح نظماً لا شعراً ففقدت منا اكثر ما نقل من الشعر الروح وبقي جسماً له من الشعر قوافيه وأوزانه ، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم وتتأثر أنفاس الابن بانفاس أبيه وجده .

ان حكمنا على المنظوم يسوغ ان نورده في المنثور ، فبعد ان كان الانشاء في القرنين الاولين للاسلام يسير مع الطبع غالباً ونبغ فيه في الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذي وضع أساس الكتابة المرسلة ، ورأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب في الادارة او السياسة او القضاء او في امر مهم من امور الدولة في سطرين او ثلاثة لا غبار عليه من الكلفة بتة بل هو الفصاحة والبلاغة بجملتها وتفصيلها ، وهكذا معظم آل بيته من بني أمية وبني مروان ، ومن نشأ في دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن ابيه وصالح بن جناح — شهدنا التكلف بادياً في كتابة القرون

التالية التي انتقلت فيهـا صناعة الكتابة الى بغداد او القاهرة وضعف امرها بالشام . وكان الشام يتبع العراق تارة ومصر تارة أخرى ، حتى اذا كان القرن السادس ، ونبغ في الدولة الصلاحية القاضي الفاضل بطريقته المستملحة في الكتابة المسجعة على الاغلب ، وحذا حذوه العماد الكاتب ثم ضياء الدين ابن الاثير صاحب المثل السائر وغيرهما من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة وهي احتذاء مثال المجودين من القـدماء لحصرها في قيود الجناس والبديع والاسجاع الثقيلة على الطباع فجمدت القرائح وقل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها ، فما بالك بالانشاء الذي هو ابتكار المعاني والابداع في القوالب . واذا استطعنا ان نعد عشرة كتاب في القرن الواحد لا نقوى على عدّ منشيء واحد فيه . وحكمنا هذا مبنيّ على ما قرأناه فيما خلفه السلف في هذه الديار من الكتب والآثار المبعثرة في بطون الدفاتر ، وربما كان في المفقود الذي لم يصلنا من هذا النوع ما يؤهلنا لو ظفرنا به ، ان نصدر حكماً أصح من هذا على فنون الانشاء والكتابة والشعر والنظم ، والانشاء من الكتابة كالشعر من النظم .

ولو لم ينبغ في الكتابة من المؤلفين أمثال القفطي و ياقوت وابن ابي أُصيبعة وابن العديم ثم الصفدي وابن فضل الله والمقريزي والشهاب الحلبي وأمثالهم في القرنين السابع والثامن لقلنا ان الانحطاط في الكتابة بدأ في الشام منذ القرن السادس ، بيد انها أصبحت في الحقيقة سجعاً كسجع الكهان بظهور ابن عربشاه الدمشقي وابن حجة الحموي وأمثالها في القرن التاسع ، اما في القرن العاشر وما بعده فان الكتابة كالشعر كانت الى التكلف والسجع غالباً ، ومن أُفلت من المؤلفين من قيود التكلف ، ونجـا من الترصيع والتسجيع ، جاء كلامه مقبولاً في الجملة وقليل ما هم .

بقيت الكتابة والشعر ترسفان في قيودهما القـديمة الى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للامة في مصر بضعة شعراء ومنشئين أُدخلوا الآداب في طور جديد ونزعوا عنها ثيابها البالية ، وألبسوها حلة قشيبة ، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده وابراهيم المويلحي ثم المنفلوطي وطه حسين وعباس محمود العقاد وأضرابهم . ومن الشعراء أمثال محمود سامي واسماعيل صبري ثم حافظ ابراهيم واحمد شوقي وتلك الحلبة ، وانتشرت كتاباتهم وقصائدهم في العالم العربي ومنهـا اقتبس شعراء الشام وكتابه

وبطريقتهم اقتدوا وغيروا أسلوبهم من حيث يشعرون او لا يشعرون . وما أسلوبهم الا الجمع بين متانة القدماء ورقة المحدثين ومعانيهم وتصوراتهم ، وأصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الادب العربي اي منذ زهاء خمسة عشر قرناً . وكان للصحف والمجلات ولانتشار الآداب الانكليزية والفرنسية والتركية وغيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا ، والمبرزون فيه مازالوا قلائل جداً ، ويرجى ان لا يمضي عقدان او ثلاثة من السنين حتى تكون الشام اخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية ، والنظر الى وفرة السكان والغنى ، وتوفر أسباب التعليم العربي في القطر المصري .

***

العلم والأدب عند أقدم شعوب الشام } صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن ذكر الرجال الذين اشتهروا مثلاً على عهد الحثيين ومن كان قبلهم من القبائل التي نزلت الشام ، وخلفت فيها آثاراً في العمران لا يتأتى ايجاد مثلها الا بالعلم ، ولم ينقل الا اسماء قليلة لمن اشتغلوا بالعلم الديني والدنيوي على عهد بعض الدول الخالفة ، ولا سيما الكلدان والعبران والرومان واليونان ، ولولا بعض عاديات أثرت عن الامم التي تأصل حكمها في بعض أرجاء البلاد ، وأخبار نقلتها التواريخ الصحيحة ، لقلنا ان اكثرهم كانوا أمماً بدوية على الفطرة . وأهم ما أثر عن الفينيقيين مما ساعد العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة ، بل تحسين اصولها وجعلها مطابقة للاصوات ، ونقلهم لها الى الامم التي أبحروا اليها واتجروا معها ، وعنهم أخذتها أمم الحضارة الحديثة النازلة على شواطيء البحر المتوسط وما اليها . وهذا الاختراع أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر العلم . قال بورتر : لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف هجائية وليس هم اول من استعملوا الكتابة لانا علمنا من الآثار انها كانت عند المصريين والكلدانيين قبل عهدهم غير ان كتابتهم لم تكن بحروف وفق الاصوات البشرية الاصلية كالحروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون واعتبروا بها كل

الاعتبار لانهم أتقنوا الكتابة ونشروها بين اكثر الامم المتمدنة لاتساع تجارتهم فان الحروف الهجائية في لغات اوربا وغربي آسيا وشمالي افريقية مشتقة من حروفهم ·

وأخبار العلم قبل الاسلام في الشام ضئيلة ومنها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه وسلامة أذواق بنيه · وكان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة منقطعة لا مطردة ، ويخرج العلماء والفلاسفة فرادى ، انتقلت الينا اسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم او يعملون مجتمعين مع أقرانهم في ظل الحكومات مثل يوسيفوس المؤرخ اليهودي في سنة ١٠٠ م وله عدة تواريخ وقد صار والياً على الجليل ، وكتب بالسريانية ثم ترجمت كتاباته باليونانية ، ومنهم يوستوس الطبراني اليهودي المؤرخ وفيلون اليهودي الجبلي وفيلودوس الابيكوري من جدر وتيودور الخطيب من عسقلان وأقليدس المهندس النجار الفيلسوف الرياضي الذي نبغ في صور ، كما نبغ فيها فرفوريوس الفيلسوف ، وكان بعد زمن جالينوس ، ونبغ في العلم بولودر المهندس الدمشقي الذي أقام عمود ثراجان في رومية وبنى جسراً على نهر الطونة (الدانوب) وجاء في رفنية ارسطيفس الرفني وفلسفته هي الفلسفة الاولى قبل ان تتحقق الفلسفة ، وثاوذوسيوس الفلكي كان في القرن الاول قبل المسيح في مدينة طرابلس الشام ، وممن نشأ في اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة وتوفلس صاحب الحجج في قدم العالم ·

واشتهر في هذه القرون الاولى هرميوس البيروتي تلميذ فيلون المؤرخ الفينيقي في فنون الأدب ، وطوروس البيروتي في الحكمة ، ولو بركوس البيروتي في اللغويات والفلسفيات ، ومناسياس البيروتي في الخطابة ، واشتهر في الآداب مرقس كالريوس پروبس البيروتي ، وفي الجغرافيا مارينوس الصوري ، وكان معاصراً لبطليموس القلوذي في القرن الثاني للمسيح · وكانت انطاكية على عهد خلفاء الاسكندر او سلوقس نيقاتور ومن جاء بعده مباءة أدب وحكمة ، ونبغ فيها من الشعراء ورجال الدين والأدب والخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليوناني ، والقديس لوقا ، والشاعر ارستياس · وكما كانت انطاكية دار حكمة وعلم ، كانت بيروت تدعي مرضعة الحكمة على عهد الرومان ، لانه كانت فيها

مدرسة الفقه التي أسسها على الغالب بعض امبراطرة الرومان من الشاميين — وقد نشأ من حمص وبصرى امبراطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية وحكموها — وكانت اللغة اللاتينية لسان العلم في تلك المدرسة ، ويدرس فيها الفقه والآداب واللغة يقصدها الطلاب من جميع انحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية ومن أبناء العرب ، وقد تخرج باساتذتها أناس تألقت شهرتهم في الادب والشريعة ، وكان قضاة الرومان من خريجيها مدة اربعة قرون ، وكان اثنان من تلامذتها من جملة اعضاء المجمع الذي ألفه الامبراطور يوستنيانوس لتدوين الفقه وقيل ثلاثة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروتاوس ، ومن أساتذتها اميل بابنيان من بيروت وكان من أشهر فقهاء الرومان ، وعد من جملة الفقهاء الخمسة الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة ، واذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله ، ومنهم اولبيان وهو من المشهورين من فقهاء الرومانيين ذهب بعضهم الى ان مولده ببيروت وغيرهم الى انه في صور ، ومنهم يوليوس بولس الحمصي وهو مشهور في الفقهاء الرومان ، ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني ، ومنهم لوسيان السميساطي كان نقاشاً فقيهاً فيلسوفاً بليغاً ، ومنهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ ، ولنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساموزات اسقف انطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكتها . وممن كان في تدمر وفي ارجاء الشام على ذاك العهد كيكاراتيس الصوري وعالم المؤرخين يوسانياس الدمشقي ونيكوماخوس المؤرخ . وممن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر وكانت تعرف التدمرية والمصرية واليونانية واللاتينية والعربية على الأرجح لان اسماء اولادها عربية — كاسيوس و يونيسيوس واوريجانس فيلسوف قيسارية . ومن علماء بيروت الاقدمين هرمبوس له تآليف عديدة وسيلير الفيلسوف ومناسيا ألف كتاباً في البيان والفيلسوف الافلاطوني طورس والطبيب اسطرابون وساويرس بطريرك اليعاقبة وهذا كان في القرن الخامس للميلاد . وكثر في القرن الثالث للميلاد ببلاد الشام الكتاب وارباب القرائح واهل العلم والحصافة والحكمة وممن نشأ فيها من الادباء والفلاسفة لوسين وجامبلتوس وبلوتين . قال سنيوبوس : حفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا

ورياضيات وطب. فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم واكملوها ونشروها ·

* * *

مواطن العلم في القطر قديماً — كان العلم يدرس في تلك الاحقاب في اربع مدارس وهي القسطنطينية والاسكندرية ورومية وبيروت ، وقد أنشأ الرومان مدرسة في قيسارية ، وأخرى في آثينة ، وكان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن ، ولكن دون مكانة مدرسة جارتها بيروت · وقد الغى يوستنيانوس مدارس قيسارية وآثينة والاسكندرية ، وابقى مدارس رومية والقسطنطينية وبيروت ، ولقب بيروت بأم العلوم وظئر الشرائع · وأعفى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من الضرائب تنشيطاً لهم · قال المسعودي : انتقل مجلس التعليم من آثينة الى الاسكندرية وجعل اغسطس الملك لما قتل قلوبطرة الملكة التعليم بمكانين الاسكندرية ورومية ، ونقل تيودوسيوس الملك التعليم من رومية ورده الى الاسكندرية · وقد خربت مدرسة بيروت قبل الاسلام بالزلازل التي تواترت على الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠ م الذي التهم بيروت ومساكنها ومعاهدها ·

قال استرابون الجغرافي اليوناني من اهل القرن الاول قبل الميلاد لم يبق في صور وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة ، بل كان فيهما كثير من أصحاب علم الهيئة والعلوم الرياضية والخطباء والفلاسفة ، ومدارس تقتبس فيهما كل العلوم البشرية ، وقد أنشأت صيدا في ايامنا كثيراً من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا وديودوت ابوه ، ونشأ في صور انتيباتر وقبله ابولون ، وكان في ايامنا فيلسوف اسمه بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه ·

وكانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية هما لغة العلم في هذه الأحقاب ، ولكن السريانيين أصحاب البلاد الأصليين لم يكونوا دون الرومانيين واليونانيين في تخريج الرجال ، ولا سيما في عهد النصرانية · فقد هبت في المئة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية

السريانية بحلب وجوارها من رقدتها ، فسار في طليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير ، نشأ في حلب او في صقعها ودرس الآداب السريانية في مدرسة الرُّها ، وهي احدى المدارس العالية في العالم السرياني ، ونشأ منهم سمعان العمودي و بالاي والقديس اسحق الانطاكي ، ومن فحول شعراء السريان ، اخسنايا المنبجي احد غلاة المنوفسية (الطبيعة الواحدة) ويوحنا بن افتون القنسريني شيد ديراً على ساحل الفرات عرف بدير قنسرين ، وكان جامعة للآداب والمعارف الآرامية عصراً طويلاً مات سنة ٥٣٨ وتوما الحرقلي نشأ في دير ترعيل قرب حلب وتلقى دروسه في قنسرين وقد ترجم الأناجيل وغيرها من الاسفار المقدسة من اليونانية الى السريانية ٠

ومن المدارس التي أنشأها السريان في غير أرض الشام ، ولكنها خرجت للشاميين رجالاً ايضاً ، وسرى من علومها على هذا القطر نسمات مباركات ، مدرسة حران ، وقد اخذت الشام ولا سيما شماليها منذ القرن الخامس تغص بالمدارس والاديار حيث تُدرس الآداب السريانية ، ويتنافسون مع المدارس العالية الاخرى في بلاد السريان ، وكانت حران بمثابة آثينة العالم الآرامي ، كما انبعثت من مدرسة نصيبين في ديار مضر في القرن الرابع شعلة الآداب الكلدانية الآرامية ٠ وفي تاريخ كلدء واثور ان مدرسة نصيبين كانت اول مدرسة في الشرق ، أزهرت في القرن الخامس والسادس والسابع وبلغت عزها ومجدها ، واشتهرت مدرسة نصيبين اكثر من مدرسة اورهاي اشتهار مدرسة المدائن وغيرها ، وكان صيتها في فارس والروم وايطاليا وافريقية ، وهي اول كلية لاهوتية بل اول جامعة درّس فيها علم الالهيات ، وظهر منها علماء كفاة كتبوا في كل فن ولا سيما في الالهيات ٠ واشتهر اليعاقبة كالنساطرة في العلم والتأليف ٠ والنسطوريون اكثر عدداً ، واليعاقبة اكثر مادة ٠ وكان يرشح من علوم هؤلاء الاشوريين على بلاد الشام شيء كثير للاشتراك في اللغة والدين اذ ذاك ٠

هذا بعض ماانتهى الينا من أخبار العلم ونوابغه في الشام من الفينيقيين والسريانيين والرومانيين والبيزنطيين ، وما زالت بعض آثارهم وأخبارهم شاهدة بفضلهم ، وانهم ليسوا دون من خلفهم في امور كثيرة ، مما اهتدي اليه العقل البشري ، فان حرمنا

كتبهم لان الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم مزبورة على بعض الاحجار ، دونوا فيها أعمالم الحربية ومآثرهم العلمية ، لا جرم ان من ينشئ هذه المصانع وينزل فيها لا بد ان يكون على جانب من الغنى ، وهذا لا يزكو الا بالعلم المختلف الضروب وفي ظل حضارة رائعة ·

* * *

العلم عند العرب وما حملوا منه الى الشام

تاريخ العلم في العرب من أغرب ما سمع في تاريخ البشر ، فبعد ان كانوا نصف متمدنين يكثر فيهم الأميون ويقل من يكتب فيهم حتى في اهل الطبقة الاولى ، ويعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة ، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل الى أنوار العلم ، ومن ضيق البداوة الى متسع المدنية · ولما جاء الاسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر والخطب ، لا يعرفون غير الفصاحة والبلاغة ، وهما في مجتمعهم جماع كل العلوم ، وكانوا ينقلون أنسابهم وأخبارهم في الصدور ، وعلومهم في الطب والنجوم عبارة عن تجارب شخصية اوتقليدية ، ولم يكن التدوين يعهد عندهم ، وكانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربي قبل الاسلام بقليل نقلها الى الحجاز حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ، وكان قدم الحيرة فعاد الى مكة بهذه الكتابة · وقيل لابي سفيان بن حرب ممن أخذت هذه الكتابة فقال من واضعها مرامر بن مرة · واول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاصي بن أمية أمره الرسول صلى الله عليه وسلم ان يعلم الكتاب بالمدينة ، ثم كان ممن أسر ببدر ولا مال له ، فقبل منه ان يعلم عشرة من غلمان الانصار الكتابة ويخلى سبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت ·

ولما فتحت الشام وكانت أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب والوسط والتنوخيين في الشمال من عمال الروم ومن كان ينزلها من القبائل والبطون العربية في أرجاء تدمر والفرات وغزة وسينا ، كان الشعر مما يفاخرون به ، واذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه واعتمدوا على قريحته في الشدائد · وكان جبلة بن الايهم من ملوك الغسانيين شاعراً مجيداً يعجب بالشعر ويجيز عليه وهو ممدوح حسان بن ثابت ومن اهل بيته فصحاء لا يستهان بهم · ولطالما جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء

جزيرة العرب فكأنهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم وقبيلهم ، ومنهم امرؤ القيس وقد ذكر في شعره بعض بلاد الشام ، وكذلك حسان بن ثابت ذكر بلاد الغساسنة ومنازلهم. وأقام المتلمس المتوفى سنة ٥٨٠ م في حوران عند الغساسنة الى وفاته .

قال الجاحظ : لم يكن العرب تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ولا حساباً ، ولا اصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ، ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ، ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ، ولا أصحاب احتكار لما في ايديهم ، وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ، ورؤوس المكاييل ، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغناء الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث الغرة ، ولم يحتملوا ذلاً قط فيميت قلوبهم ، او تصغر عندهم أنفسهم ، وكانوا سكان فياف ، وتربية عراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق (اي الندى والغيم اي ان ارضهم جافة) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم : أذهان حداد ، ونفوس مفكرة ، فحين جلوا حدهم ، ووجهوا قواهم الى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتثقيف اللغة ، وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر ، بعد قيافة الاثر ، وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، وتعرّف الانواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية ، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم اكبر ، وهممهم أرفع ، وهم من جميع الامم أفخر ، ولايامهم اذكر اهـ .

***

جمع القرآن ونشره في الشام } اول عمل عظيم قام به الصحابة (رضوان الله عليهم) على عهد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) جمعُ القرآن، وكانوا ستة نفر من الانصار على ما روى ابن سعد وهم أُبيّ بن كعب ومُعاذ ابن جبل وابوالدرداء وزيد بن ثابت وسعد بن عُبيد وابو زيد ثابت. وكان مُجمّع ابن جارية قد جمع القرآن الاّ سورتين او ثلاثاً . وكان ابن مسعود قد أخذ بضعاً وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمّع . قال وكان بقي على مجمع بن جارية سورة

او سورتان حين قُبض النبي (ص) وفي رواية ابن النديم ان من جماع القرآن عدا من ذكروا ، علي بن ابي طالب وعبد بن معاوية رضي الله عنهما . فلما كان زمنُ عمر بن الخطاب كتب اليه يزيد بن ابي سفيان : ان اهل الشام قد كثروا وربلوا وملؤا المدائن ، واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن و يفقههم ، فأعنّي يا امير المؤمنين برجال يعلمونهم . فدعا عمر اولئك الخمسة فقال لهم : ان اخوانكم من اهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن و يفقههم في الدين ، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم ، ان أجبتم فاستهموا ، وان انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا ، فقالوا : ما كنا لنتساهم . هذا شيخ كبير لأبي ايوب ، واما هذا فسقيم لابيّ بن كعب . فخرج معاذ وعبادة وابو الدرداء . فقال عمر : ابدؤا بحمص فانكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة منهم من يَلْقَن ، فاذا رأيتم ذلك فوجّهوا اليه طائفة من الناس ، فاذا رضيتم منهم فليقم بها واحد ، وليخرج واحد الى دمشق ، والآخر الى فلسطين . وقدموا حمص فكانوا بها حتى اذا رضوا من الناس اقام بها عبادة ، وخرج ابو الدرداء الى دمشق ، ومعاذ الى فلسطين . واما معاذ فمات عام طاعون عَمواس ، واما عبادة فصار بعد الى فلسطين فمات بها ، واما ابو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات . وابو الدرداء هذا هو الذي قال : لا يكون (المرء) عالمًا حتى يكون متعلماً ولا يكون عالمًا حتى يكون بالعلم عاملاً .

قلنا وهذه اول بعثة علميـة حجازية اتت الشام لتعلم اهلهـا وتثقفهم . و يرجع الفضل الأول في اقتراح انفاذها لاحد ابناء ابي سفيان النجباء كما كان ابوسفيان وابو حرب نقلا الخط العربي الى الحجاز ، والشـام مدينة لأمية في امور كثيرة لاشتراكها في خدمة الحضارة اشتراكاً عمليًا بفضل عقلهم ونبوغهم .

قال زيد بن ثابت : أُرسلت الى ابي بكر فأتيته فاذا عمر بن الخطاب عنده فقال ابو بكر: ان عمر اتاني فقال لي ان القتل قد استحرّ بالقراء يوم اليمامة واني اخشى ان يستحر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن ، فأرى ان يجمع القرآن بحال فقلت لعمر : كيف افعل شيئًا لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال عمر: هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري ورأيت ذلك الذي رآه عمر . قال زيد بن ثابت قال ابوبكر : انك رجل شاب

عاقل لا نتهمك . قد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) فتتبَّع القرآن واجمعه، قال زيد : فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان اثقل عليَّ من الذي امرني به من جمع القرآن ، أجمع من الرقاع واللخاف (١) والعسب (٢) وصدور الرجال حتى وجدت سورة التوبة مع ابي خزيمة الانصاري لم اجدها مع احد غيره . فكانت الصحف عند ابي بكر حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة ابنة عمر — رواه صاحب الفهرست .

وامر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذي كتب في زمن سلفه ابي بكر وتفريقه في الامصار ، وكان بلغ عثمان ما وقع في امر القرآن من اهل العراق فانهم يقولون : قرآننا اصح من قرآن اهل الشام ، لانا قرأنا على ابي موسى الاشعري ، واهل الشام يقولون : قرآننا اصح لانا قرأنا على المقداد بن الاسود ، وكذلك غيرهم من الامصار ، فأجمع رأيه ورأي الصحابة على ان يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة ابي بكر رضي الله عنه ، وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحرق ما سواه من المصاحف التي بايدي الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها الى مصر من الامصار . وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بامر عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقال عثمان : ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم .

فتح العرب الشام ولم يحملوا اليه غير دين يبعد عن الشرك وعبادة الاصنام ، وغير بلاغة الشعر والخطب المغروسة في طباعهم ، وفطر سليمة جبلت عليها نفوسهم ، فاقتبسوا في الحال مدنية من نزلوا عليهم وتمثلوها وهضموها في اقصر مدة ، واتوا بعدها بامور جديدة ، على ماقاموا بمثل ذلك في بغداد ومصر وفارس والاندلس وغيرها . ولقد اظهروا وهم في اوج عزهم من التسامح مع اهل البلاد الاصليين ما دهش له

(١) اللخاف ككتاب حجارة بيض رقاق . (٢) العسب بضمتين جمع العسيب وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها .

المخالفون واستغرب به الموافقون ، ولا غرو اذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد ان ثبت ان الرسول عليه السلام امر زيد بن ثابت ان يتعلم كتاب اليهود اي يتعلم لغة غير لغة العرب ٠

***

العلم والأدب في القرن الأول } ومن شعراء الأمويين جرير والفرزدق وكانت للاخطل الشاعر صحبة بيزيد بن معاوية مدحه وهجا الانصار، وما فيهم بيت الا و يقول الشعر ولم يمسه احد بسوء ، وكان خلفاء الشام يقربونه على حين كان اهل نحلته يتبرمون بسلاطة لسانه ، حتى ان الاسقف حبسه مرة في الكنيسة بدمشق لشتمه أعراض الناس ، واسترساله في هجوهم ، هذا والملوك تهابه ، والخلفاء تكرمه ، وذكره في الناس عظيم ٠ ومنهم مسكين الدارمي والراعي والراجز العجلي والأحوص وعدي بن الرقاع القضاعي وعلقمة بن عبدة وجناح بن روح والربيع بن مطر التميمي وحكيم بن عباس بن الاعور الكلبي والحسين بن عبيد الكلابي وانيف العذري واسباط بن واصل الشيباني صديق الخليفة يزيد بن الوليد وجواس بن القعطل الكلبي وعثمان بن الوليد القرشي ٠ وكان معاوية ومن خلفه من خلفاء بني أمية وبني مروان يفضلون عليهم ، ومن شعرائهم نابغة بنى شيبان النصراني كان يفد على المروانيين فيجزلون عطاءه ، وكان الأمويون يرسلون لابي العباس الاعمى احد شعرائهم بعطائه الى مكة ، وغالوا في الحرص على اكرام الشعراء ما خلا عمر بن عبد العزيز فانه كان همه ان لا ترهق الرعية بالظلامات ، ولا يعطي لاحد شيئاً جزافاً ، وكان يقصي الشعراء عن حضرته لارتكابهم المطاعن والتشبيب في أشعارهم ، ولكنه كان رضي الله عنه يفضل على العلماء فقد كتب الى والي حمص : « انظر الى القوم الذين نصبوا انفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا وان خير الخير اعجله والسلام اه » ٠ وظلت القبائل في الاسلام اذا نشأ منها شاعر تغتبط وتفاخر ، واذا عدمته ذلت ، لانها تعده لسانها الناطق ومدون مفاخرها ٠

وقد اعطى النعمان بن بشير عامل حمص اعشى همدان شاعر اليمن عشرين الف

دينار من مال اليمانية ، اقتطعها برضاهم من عطائهم ديناراً ديناراً ، وكان من خلفاء الأمويين مثل يزيد الاول والوليد الثاني من يقول الشعر الجيد وكان عبد الملك من اكثر الناس علماً وأبرعهم أدباً .

وقد نشأ في القرن الاول من الفقهاء والمحدثين جملة صالحة في الشام منهم عبد الرحمن بن غنم بن سعد الاشعري الصحابي ، بعثه عمر بن الخطاب الى الشام يفقه الناس فتفقه عليه عامة التابعين بالشام (٧٨) ومنهم فضالة بن عبيد الصحابي ولي قضاء دمشق لمعاوية وامّره غزو الروم في البحر (٥٣) ، وابو الدرداء الخزرجي الزاهد الحكيم المقري ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان مات سنة ٣٢ واول من أحدث رواية القرآن بدمشق هشام بن اسماعيل وبفلسطين الوليد بن عبد الرحمن . ومن علماء الشام ابو ذر جندب بن جنادة الغفاري صادق الاسلام واللسان . واوس بن اوس الصحابي الشاعر سكن بيت المقدس والرملة (سنة ٣٢) ، ومن اخبا ـهم عبيد بن شريه الجرهمي وفد على معاوية بن ابي سفيان ودوّن اشياء في أخبار الملوك اخذ عنه علاقة بن كرَ الكلابي من بني عامر بن كلاب ايام يزيد بن معاوية ، وكان عارفاً بايام العرب وأحاديثها وهو احد من أُخذت عنه المآثر وربما جاز ان يعدّ اول من دوّن التاريخ في الشام ، والقاسم بن عبد الرحمن الشامي من فقهاء دمشق (١١٢) .

ومن علماء الشاميين ابو ادريس الخولاني فقيه الشام وقاضيه ، وعمرو البكالي المحدث الفقيه ، و بشير بن الوليد الأموي كان يقال له عالم بني مروان ، وابراهيم بن كثير بن المرتجل الرملي ، وكان عبادة بن الصامت والي بيت المقدس لعمر بن الخطاب قرأ عليه ابو سلام الحبشي واسمه محظور و يقال الباهلي الدمشقي ، وشهر بن حوشب الاشعري المحدث (١٠٠) ، وبلال بن ابي الدرداء الانصاري قاضي دمشق (٩٣) ، وابو مسلم الخولاني شيخ الفيحاء وزاهدها من سادات التابعين ، وثور بن يزيد الحمصي المحدث ، ورجاء بن حيوة بن جندل الكندى الأردنيّ و يقال الفلسطيني الفقيه كان ثقة عالماً كثير العلم ، وروح بن زنباع يكنى بابي زرعة و يقال بابي زنباع الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان ، ورجاء بن ابي سلمة الفلسطيني المحدث . ومالك بن دينار احد الاعلام أقام في القدس (٢٣) وجبير

ابن نفير الحضرمي عالم اهل الشام (٧٩) وغيلان بن مروان الدمشقي من كبار المعتزلة وكان الحسن يقول اذا رأى غيلان في الموسم « أترون هذا هو حجة الله على اهل الشام ولكن الفتى مقتول » وكان أوحد دهره في العلم والزهد قتله هشام بن عبد الملك وقتل معه صاحبه صالحاً لانه كان ينال من بني أمية ٠

ونشأ من الكتاب في هذا القرن عبد الله بن اوس الغساني سيد اهل الشام وفي الفلسفة ساويرا سابوخت أسقف قنسرين اليعقوبي كان على عهد السفيانيين في الشام ممثل الحركة الأدبية وقد جادل الموارنة بحضرة الخليفة معاوية سنة ٦٥٩ م والف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطرلاب والفلسفة واللاهوت ، ويعقوب الرهاوي وغيرهم ، ونشأ في القرن السابع للميلاد اي في القرن الاول للهجرة كالينيكيوس البعلبكي وهو مهندس كيماوي قيل انه مخترع النار اليونانية المركبة من النفط والكبريت والقطران وغيرها ، وكان الروم باستعمالهم لها نجوا من حصار معاوية للقسطنطينية ٠ وكان ابو قرة اول كاتب نصراني ديني كتب بالعربية ٠ ومن مشاهير المسيحيين في القرون الاولى القديس يوحنا الدمشقي (٧٨٠ م) كان علماً في عصره والف كتباً كثيرة في اللاهوت ومنهم قزما المنشى وقزما البار وندراوس الاقريطشي والبطريرك صفرونيوس وهذا هو الذي سلم القدس لعمر بن الخطاب ٠

وكان سرجون بن منصور المسيحي من أمناء سر معاوية يأتمنه على الاموال اي انه كان وزير ماليته ، وظلت دواوين الخراج في الشام تكتب بالرومية وعليها سرجون ثم ابنه منصور بن سرجون الى ان نقلت الى العربية ، نقلها ابو ثابت سليمان بن سعد وكان على كتابة الرسائل ايام عبد الملك ٠ وكان نقل الديوان من الرومية الى العربية وضرب النقود وكتابتها بالعربية على عهد عبدالملك بن مروان اول خطوة في رسم المشخصات العربية في الامة ، وتأسيس قواعد المملكة على الاصول ، وبذلك اصبحت الدولة العربية مستقلة من كل وجه ٠

***

خالد بن يزيد اول فيلسوف مسلم عني بالنقل واوائل التدوين } وكانت الكتب التي ترجمت لابي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان

الأموي حكيم آل مروان وعالم قريش، اول نقل اوتعريب كان في الاسلام في عاصمة الشام . وخالد بن يزيد هذا زهد في الخلافة وعشق العلم ، واذا أنشأ جده معاوية ملكاً في الشام دام الف شهر ، فانه أنشأ بعلمه مملكة باقية بقاء الدهر ، فقد « امر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية ، وامرهم بنقل الكتب الى الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي » والصنعة صنعة الكيمياء . فترجمت له كتب فيها كما ترجمت له كتب في الطب والنجوم . وممن نقل له اصطفن القديم ، نقل من اليونانية واللاتينية كتب الكيمياء ، وكان خالد هو نفسه بصيراً بالطب اخذه عن يحيى النحوي واخذ الكيمياء على مريانس الرومي واتقن هذين العلمين والف فيهما وله رسائل وكتب في غير هذه الاغراض ، دالة على معرفته و براعته ، وله شعر كثير ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسبقه . وكان من الطبقة الثانية من تابعي اهل الشام وقيل عنه قد علم علم العرب والعجم ، وكان خطيباً شاعراً حازماً ذا رأي ، فهو اول من اعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب اهل الحكمة ورؤساء اهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات . هذا ما اجمع عليه المؤرخون في خالد الا ان يوليوس روسكا الالماني قال : ليس لدينا شهادة من عصر خالد بن يزيد نثبت ميله العلمي وليس فيما نعرفه عن الحياة الرسمية في ذاك العصر أقل اشارة تدعو الى الظن ان ابن خليفة في دمشق عُني بالعلم اليوناني وعبثاً يُبحث المرء عن رجل اهتم بترقية العلم في المغنين والموسيقيين والشعراء والنساء والرجال الذين كانوا ينادمون اهل القصر الأموي فان المهندسين الذين كانوا يبنون قصور الخلفاء والجوامع هم من الغرباء وكذلك نجد من الغرباء ايضاً الاطباء والفلكيين ، هؤلاء هم الحاشية ولكننا لا نستطيع ان نبين ولا ان ننقض ما ذكر من ان خالداً له كان ولع بالكيمياء وما من تأليف علمي او شعري مما نسب اليه يمكن ان يعتبر انه من تأليفه اه عن المجلة الآسياوية البارزية الصادرة سنة ١٩٢٤ م .

واسمع الآن ما قاله صاحب الفهرست قال محمد بن اسحق الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معوية وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي وهو اول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء وكان جواداً

يقال انه قيل له : لقد فعلت اكثر شغلك في طلب الصنعة فقال خالد ما أطلب بذاك الا ان اغني اصحابي واخواني اني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني فلم اجد منها عوضاً الا ان أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا احوج احداً عرفني يوماً او عرفته الى ان يقف بباب سلطان رغبة او رهبة و يقال والله أعلم انه صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه كتاب الحرارات ، كتاب الصحيفة الكبير ، كتاب الصحيفة الصغير كتاب وصيته الى ابنه في الصنعة .

جاء في التاريخ العام لم يعرف العالم القديم منذ القرن الثامن الى القرن الثاني عشر سوى مدنيتين مدنية البيزنطيين ومدنية العرب . وقد دبت الروح في هذه بما تهيأ لها من الانتشار فأزهرت في آسيا واوربا وافريقية من الصين الى اسبانيا فنشأت مدنية العرب من احتكاكهم بالمدنيات الشرقية ، وأثر فيها مؤثران الفارسي واليوناني فان فارس على عهد الحكومة الساسانية نشأت لها شبه نهضة ، وذلك لوقوعها بين ثلاث ممالك كبرى بيزنطية والصين والهند وأصبحت مدة اربعة قرون نقطة تبادل الفكر الانساني . وبينا كانت فارس تتلقى سفراء الصين وتجدد بالاخذ من المصادر الهندية آدابها وافكارها كانت تقبل الكهنة النساطرة وأصحاب الفلسفة الافلاطونية من آثينة والاسكندرية يكافؤنها على ضيافتها لهم بترجمة تآليف فلاسفة يونان وعلمائهم . وقد عاونت فارس على انتشار التهذيب اليوناني بعد دولة السلاقسة (السلوقيين) في الشام والبطالسة والبارثيين والساسانيين فلما جاءت العرب وجدت المدنية اليونانية راسخة في جميع البلاد التي داهمتها اولاً مثل الشام ومصر والعراق على تخوم آسيا الصغرى . فكانت تقترب من المملكة البيزنطية فبدت لهم من وراء المدنية البيزنطية القريحة اليونانية كما تجلى لهم من الفرس المدنيات القديمة من الهند والصين على نحو ما وجدوا في بلاد كنعان ومصر تذكارات من الامم القديمة التي لا تزال عليها مسحة الاجيال العريقة في القدم ومصانعها وأعمالها .

ولما بلغت الدولة العربية غاية عزها ، بل بعد ان تمزقت وتقسمت أصبح دينها واحداً ولسانها واحداً وقوانينها المعمول بها واحدة ، وذلك من نهر السند الى أعمدة

هر كول وتمت الوحدة بين اولئك الشعوب المختلفة ديارهم ، وأخذوا يقتبس احدهم من الآخر من تبادل التجارة وسياحة الافراد وتنقل الجيوش والامم وانتشار المعتقدات والاخلاق والافكار يتصادمون ويتمازجون ويتحدون ويتداخلون وكل شعب ينقل الى الآخر تقاليده وتاريخه وملكاته الطبيعية . فالمدنية التي عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست اذاً عربية صرفية بل هي بحسب النموذجات التي تشبعت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه يونانية وفارسية وشامية ومصرية واسبانية وهندية ، ولكن اذا وجب ان يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف الانكار بان قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لنقل هذه المدنية ينقلون الى الشعوب الجاهلة في افريقية واسبانيا واوربا اللاتينية معارف الشرق الادنى والاقصى وعلومه واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان ، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي صبَّت فتمازجت تمازجاً متجانساً أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم . وبفضلهم تيسر للحضارة الاسلامية في القرون الوسطى التي عاونت فيها ايد أخرى ان تكون ذات وحدة موصوفة ، فالتقليد فيها محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، فان سلطة الاساتذة الأقدمين لا تمنع الابحاث العلمية والاختراعات الحديثة كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار التفنن ولطافة الابداع في الاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها اه .

وخالد بن يزيد اول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الاسلام ففي دمشق اذاً أنشئت اول دار للكتب في العالم العربي، ودمشق اول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة فأولي ابو هاشم بعمله هذه الامة وهذه العاصمة شرفاً لا يبلى على الايام . وان الشام ليفخر بان فيه قامت اول دولة عربية ممدنة، وتمت فيه كثير من مشخصات الامة العربية، ومن اولها التدوين والترجمة ، فالشام اول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والادب فباعتها من غيرها وهذا يعدّ من مفاخرها التالدة . وخالد بن يزيد اول من عُني بعلوم الفلسفة ولم ينفرد بذلك المنصور العباسي خلافاً لما قاله كاتب چلبي من ان علوم الاوائل

كانت مهجورة في عصر الاموية . قال الاصفهاني كان خالد بن يزيد ينزل حلب وتوفي سنة ٨٥ هـ .

وبذا رأينا ان التدوين حدث في القرن الاول في العلوم الدنيوية ويرى المستشرق نالينو الايطالي انه ربما كان اول كتاب ترجم من اليونانية الى العربية كتاب أحكام النجوم المنسوب الي هرمس الحكيم ، واختلفوا في اول من صنف في الاسلام ، فقيل الامام عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥ اول من صنف في الحجاز ، وقيل ابونصر سعيد بن ابي عروبة سنة ١٥٦ اول من صنف بالعراق وقيل ربيع بن صبيح سنة ١٦٠ وكان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن والحديث ومعانيهما ثم دوّنوا فيما هو كالوسيلة اليهما .

والحقيقة ان التدوين حدث في عصر الصحابة الكرام على ما في « توجيه النظر » فقد ذكر بعض الحفاظ ان زيد بن ثابت ألف كتابا في علم الفرائض وذكر البخاري ان عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً أُلف في عهد ابن عباس في قضاء علي . وذكر صاحب الفهرست انه رأى في مدينة الحديثة — حديثة الفرات وتعرف بحديثة النورة على فرسخ من الانبار — خزانة للكتب فيها بخطوط الامامين الحسن والحسين وأمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل ابي عمرو بن العلاء وابي عمرو الشيباني والاصمعي وابن الاعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والاوزاعي وغيرهم . قال ابن النديم وكان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد ادم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من اهل مكة على فلان بن فلان الحميري من اهل وزل صنعا عليه الف درهم كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها اجابه شهد الله والمكان .

وذكر المؤرخون ان اول كتاب نقل الى العربية كتاب اهرن بن اعين وجده عمر بن عبدالعزيز في خزائن الكتب فأمر باخراجه ووضعه في مصلاه واستخار الله في اخراجه الي المسلمين للانتفاع به ، فلما تم له في ذلك اربعون صباحاً أخرجه الي

الناس وبثه في أيديهم . وعمر بن عبدالعزيز هو الذي قال كنت أصحب من الناس سراتهم ، واطلب من العلم شريفه ، فلما وليت امر النــاس احتجت الى ان أعلم سفساف العلم ، فتعلموا من العلم جيده ورديئه وسفسافه ..

***

علماء القرن الثاني والادب
والنقلة والمنشئون فيه

مضى القرن الاول وجاء الثاني فكثر القراء والمحدثون والشعراء بل النقــلة والمترسلون والكتاب بكثرة الفتوحات وفرط العنـاية بالعلم والادب وشدة الحاجة اليهما ، وقد نبغ في هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حيوة الفلسطيني الكندي الفقيه العالم الذي كان يجالس عمر بن عبد العزيز (١١٢) ومكحول مولى بني هذيل فقيه الدمشقيين واحد أوعية العلم والآثار (١١٣) وعبد الله بن عامر اليحصبي القارئ المحدث احد القراء السبعة من التابعين من اهل دمشق (١١٨) وسليمان بن ابي موسى الاشدق الفقيه وكان أعلم اهل الشام بعد مكحول (١١٩) وربيعة بن يزيد شيخ دمشق بعد مكحول (١٢٣) وسليمان بن حبيب المحاربي قاضي دمشق اربعين سنة (١٢٦) ويحيى بن يحيى بن قيس الغساني كان ثقة اماماً عالماً بالفتوى والقضاء وسيد اهل دمشق (١٣٥) ويزيد بن يزيد بن جابر الازدي امام فقيه (١٣٤) والعلاء بن الحرث الحضرمي الفقيه (١٣٦) ويحيى بن الحرث الزيادي المقري الدمشقي وعليـه دارت قراءة الشاميين (١٤٥) وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (١٥٤) وعبد الرحمن ابن عمرو الاوزاعي البيروتي (١٥٧) كان امام اهل الشام وعالمهم قيل انه أجاب في سبعين الف مسألة ، وصار يُعمل بمذهبه في الشام نحو مائتي سنة وآخر من عمل بمذهبه احمد بن سليمان بن جندلم قاضي الشـام وعمل أهل الاندلس بمذهبه اربعين سنة ثم تناقص بمذهب الامام مالك. وكان الاوزاعي عظيم الشأن بالشام وأمره فيهم أعز من امر السلطان . وكان مع علمه بارعاً في الكتابة والترسل .

ومن علماء الشام يونس بن ميسرة بن حلبس كان ثقة ولما دخل المسوّدة اي العباسيون في اول سلطان بني هاشم دمشق دخلوا مسجدها فقتلوا من وجدوا فيه فقتل يومئذ يونس بن ميسرة بن حلبس ، وقتل جد ابي مسهر عبد الاعلى بن مسهر

الغساني الدمشقي وذلك سنة ١٣٢ وثور بن يزيد الكلاعي الحمصي وكان ثقة في الحديث (١٥٣) والوليد بن مسلم الدمشقي صاحب الاوزاعي وكانوا يقولون علم الشام عند اسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم فأما الوليد فمضى على سننه ميموناً عند أهل العلم متقناً صحيح العلم (١٩٥ او١٩٤) ومن المحدثين الفقهاء في دمشق المطعم بن المقدام الصنعاني وابومرثد الغنوي وابراهيم بن جدار العذري ومبشر بن اسماعيل الحلبي مولى كلب كان ثقة مأموناً (٢٠٠) ويحيى بن عمرو السيباني من أهل الرملة (وسيبان بالسين المهملة بطن من حمير) (١٤٨) وصعصعة بن سلام الدمشقي المحدث كان اول من أدخل علم الحديث الى الاندلس . وصدقة بن عبد الله السمين من كبار محدثي دمشق (١٦٦) والهقل بن زياد مفتي الوليد بن مسلم وله تصانيف تبلغ السبعين (١٩٥) وعبد الله بن ابي زكريا الخزاعي الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه ويجلسه معه على السرير (١١٧) ونمير بن اوس الاشعري المحدث (١٢١) وربيعة بن يزيد القصيري من أئمة التابعين (١٢٢) وابراهيم بن عبلة من علماء التابعين (١٥٢) وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (١٦٥) وسعيد بن عبد العزيز التنوخي الفقيه العالم (١٦٧) ومحمد بن الوليد الزبيدي كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث (١٤٨) ويحيى بن حمزة كان كثير الحديث وكان قاضياً بدمشق (١٨٣) وبقية بن الوليد الحمصي المحدث (١٩٧) واسد بن وداعة الطائي الحمصي المحدث (١٣٧) .

وحرص المسلمون في الصدر الاول بعد علم الدين على علم الطب ، وكان من الاطباء من القرنين الاول والثاني زمرة صالحة مختلفة مذاهبهم منهم الحكم بن ابي الحكم الدمشقي الطبيب وكان ابوه ابوالحكم طبيباً في صدر الاسلام ، وكان ابوالحكم يستطبه معاويه ويعتمد عليه اعتماده على ابن أُثال من الاطباء المتميزين بدمشق . ومنهم عيسى ابن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير . وتياذوق كان في اول دولة بني مروان ومشهوراً عندهم بالطب . ومنهم عبد الملك بن ابجر الكناني كان طبيباً عالماً ماهراً يقيم في اول امره في الاسكندرية لانه كان المتولي للتدريس بها بعد الاسكندرانيين ، ولما ملك المسلمون الاسكندرية اسلم ابن ابجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب .

وفي اواخر المئة الاولى مالت النفوس الى الكتابة ميلها الى الشعر من قبل للاغراض التي تتوقف عليها في التأليف والمكاتبات ، وكان عبدالحميد بن يحيى الكاتب امام الانشاء العربي وواضع أساسه في مدينة دمشق ايضاً ، وكان عالمًا في كل فن من فنون الادب (١٣٢) وهو الذي فك قيود الانشاء وضبط اصوله وكتب ختنه سالم ويكنى ابا العلاء لهشام بن عبد الملك وهو احد الفصحاء والبلغاء . وقد نقل من رسائل ارسطاليس الى الاسكندر ونُقل له وأُصلح هو وله رسائل ومجموع نحو مائة ورقة . وكتب قنان بن متى ليزيد بن ابي سفيان لما ولي الشام ثم لمعاوية بعده ووصله معاوية بابنه يزيد وفي خلافته مات . واستكتب يزيد ابنه قيس وكتب قيس لمروان ولعبد الملك ثم لهشام وفي ايامه مات واستكتب هشام ابنه الحصين ثم استكتبه مروان . ومنهم أسامة بن زيد ابو عيسى التنوخي الكاتب ويقال الكلبي ولي كتابة الوليد بن عبد الملك وكان على ديوان الجند بدمشق . ومن المشهورين بالبلاغة والخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمي نسب الى منبج ، وخالد بن عبد الله القسري الخطيب المفوّه (١٢٦) وابو السامي كاتب الوليد بن معاوية وعبد الله بن خراش كاتب كلثوم بن عمرو العتابي وابو مسلم الشامي .

قلنا ان النقل نشأ في الشام بعناية خالد بن يزيد الأموي ، وزاد النقل بعده ، ومن الناقلين اي المترجمين جبلة بن سالم كاتب هشام ، وكان ناقلاً من العربي الى الفارسي ونقل بعضهم شيئًا من تواريخ الامم عن الفارسية لهشام بن عبد الملك ولم يلبث النقل ان صار الى بغداد بانتقال الخلافة اليها فانتقل بذلك المترجمون الذين أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف ، وكان يحسن العربية والسريانية واليونانية ، جيد النقل فصيح اللسان ، ومثل ابي عثمان الدمشقي الذي كان منقطعًا الى الامير علي بن عيسى وعبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي المعروف بابن الناعمة ، وزروبا بن ماجوه الناعمي الحمصي وكلاهما من النقلة ، وهلال بن ابي هلال الحمصي صحيح النقل ولفظه مبتذل وحنين بن اسحق البغدادي المولد نشأ في الشام وتعلم فيه .

وظهرت آثار معارف هؤلاء النقلة على عهد المنصور والمأمون العباسيين لشدة

رغبة الدولة اذ ذاك في النقل من السرياني واليوناني والفارسي والهندي وغيره . وللشاميين منذ القديم ميل الى النقل عن الامم الاخرى ، هكذا فعلوا في كل قرن فقد كان الناقلون منهم في القرنين الاول والثاني وكذلك في القرون التالية الى يومنا هذا وهم أقدر الامم على تعلم اللغات الغريبة والاجادة فيها كأهلها . وكان اكثر النقل عن السريانية ، وهذه نقلت عن العبرانية ، وهذه نقلت عن اليونانية ، ولذلك تعب فلاسفة المسلمين في حل رموز الفلسفة اليونانية لانها نقل عن نقل ، وذكر احد المعاصرين من الافرنج ان كتب ارسطو كانت تنقل ليفهمها اهل القرون الوسطى من اليونانية الى السريانية ومنها الى العربية ومنها الى العبرية ومن هذه الى اللاتينية وكان التراجمة بادئ بدء لا يدركون فهم المعاني من كتب العرب وينقلونها الى اللاتينية حرفاً بحرف بدون محصل . وقال نالينو : ان اكثر نقلة القرن الثاني كانوا ضعافاً في العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع وكثيراً ما ترددوا في تعريب المصطلحات العلمية المجهولة عند العرب في ذلك العصر ، ومن المعلوم ان طريقة التعريب لم تتقن الا في القرن الثالث .

وقد سلك جميع فلاسفة المسلمين طريقة ارسطاطاليس في جميع ما ذهب اليه وانفرد به سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي افلاطن والمتقدمين . قال المؤرخون : ان المنصور كان اول خليفة قرب المنجمين واول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية ككتاب كليلة ودمنة وكتاب أقليدس وكتب اليونان فنظر الناس فيها وتعلقوا بها . وقالوا ان المأمون او اباه الرشيد أنشأ دار الحكمة ببغداد وكان يجتمع فيها علماء ذلك العصر للبحث والمذاكرة ، وان المأمون جرت بينه وبين ملك الروم مراسلات في شأن العلم واستأذنه في انفاذ من يجمع من الكتب المدخرة في خزائن الروم فأذن ملك الروم فأنفذ المأمون الحجاج بن مطر ويحيى بن البطريق ويوحنا بن ماسويه وغيرهم وعادوا الى بغداد بكتب كثيرة من العلوم وأُخذوا بترجمتها .

كادت تصبح دمشق دار العلم والفلسفة فتراجعت تراجعاً ظاهراً بانقراض دولة بني مروان منها ، فانتقل العلماء والنقلة الى عاصمة اتسع صدرها اكثر من الشام للعلوم البشرية ، ووجدت من رجال بني العباس في بغداد معاضدة فعلية وحرية وتسامحاً

مستغرباً ، فانتقلت مجالس العلم من الشام الى العراق ، وكان عمر بن عبد العزيز في خلافته نقل التدريس الى انطاكية سنة ٩٩ ثم انتقل العلم الى حران في ايام المتوكل وكانت حران من ارض الجزيرة مدينة الصابئين . ولها منذ عهد المتوكل القدح المعلي في إنشاء علماء ورياضيين وفلكيين ، ولو لم ينبغ فيها غير ثابت بن قرة وأولاده وغير البتاني صاحب الزيج لكفاها فخراً على غابر الدهر ، ومعظم الصابئة الذين تخرجوا في حران دانوا بعد بالاسلام ، ونقلوا العلوم الى العراق والشام ، الا ان اعمالهم كانت عمل أفراد لا عمل جماعة ، فلم تسمع لها تلك الرنة القوية كما كان على عهد الخلفاء الأُوَل من العباسيين في بغداد ، وكان من أثرها في القرون التالية انشاء المدرسة النظامية ثم المستنصرية ، من أقدم جامعات العرب . وحافظت انطاكية على مكانتها الاولى أوائل ظهور الدين المسيحي حتى القرن الثاني للهجرة وربما زادت ونبغ فيها كثير من الرجال .

***

العلم والادب في القرن الثالث لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذي سلفه من النهضة وتجلي آثار النبوغ والتجدد ، بل كان كالتتمة لبعض ما سمت له الهمم في القرنين الماضيين ، وعلى صورة ربما كانت أضعف ، ولكن زاد التدوين فيه اكثر من ذي قبل ، وأخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية وبقيت الشام بمعزل ، واذ كانت العلوم الفلسفية قد راجت في بغداد أواخر القرن الثاني والثالث سرى منها شعاع الى الشام بالطبع لكن عراها ما خنقها . فقد ذكر المؤرخون ان المهدي العباسي بلغه وهو في حلب ذاهباً الى غزو الروم ان في تلك الناحية زنادقة فجمعهم وقتلهم وقطع كتبهم . وما يدرينا ان كان هؤلاء الزنادقة فلاسفة فلطالما وصم اهل الفلسفة بتلك الوصمة . وممن افضل على الشام من العباسيين الخليفة المأمون فانه أنشأ فيها مرصداً فلكياً عمله له يحيى بن ابي منصور وهو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين في ايامه وكان ذلك في سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة بعد المائتين وبطل الامر بموت المأمون في شهور ثماني عشرة . وقام في الشام أمثال محمد بن عائذ صاحب المغازي والفتوح وغير ذلك من

المصنفات المفيدة (٢٣٣) وعبد الله بن ذكوان القارئ الحافظ (٢٤٢) وهشام بن عمار خطيب دمشق وقاريها وفقيهها ومحدثها (٢٤٥) واحمد بن ابي الحواري من كبار المحدثين والصوفية (٢٤٦) ومحمود بن سميع صاحب الطبقات وأحد الاثبات الثقات (٢٥٩) وابو زرعة البصري وعبد الرحمن بن عمرو المحدث صنف كتباً (٢٨١) وابو مسهر عبد الاعلى الغساني شيخ دمشق وعالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز التنوخي وغيره من الشاميين (٢١٨) وصفوان بن صالح المؤذن المحدث (٢٣٩) والقاسم ابن عثمان الجوعي شيخ دمشق وزاهدها (٢٤٨) والحافظ زكريا بن يحيي الشجري المعروف بخياط السنة (٢٨٧) وعبد الغفار بن عثمان والوليد بن مزيد العذري البيروتي كان من اهل العلم والرواية وكان الاوزاعي يقول فيما عرفت ما حمل عني اصح من كتب الوليد بن مزيد (٢٠٣) وولده ابو الفضل العباس بن الوليد البيروتي كان من اهل العلم والرواية (٢٧٠) والامام محمد بن ادريس الشافعي الكلبي احد الائمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومئة وتوفي بمصر سنة ٢٠٤ وهو اول من صنف في اصول الفقه . ومن اعيان العلماء محمد بن عوف الطائي الحمصي (٢٦٩) ذُكر عند عبد الله بن احمد بن حنبل في سنة ٢٧٣ فقال ما كان بالشام منذ اربعين سنة مثل محمد بن عوف . وعبد الله بن اسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي ومحمد عبد الله بن عبد السلام بن ايوب البيروتي وآدم بن ابي اياس العسقلاني من مشايخ البخاري في صحيحه (٢٢١) وهشام بن العازي بن ربيعة الجُرَشي الصيداوي (٢٥٦) والحافظ ابوبكر محمد بن بركة بن الحكم بن ابراهيم بن الفرداج الحميري اليحصبي القنسريني المعروف ببرداعس من اهل قنسرين سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها عن ابي جعفر احمد بن محمد بن رجاء المصيصي ويوسف بن سعيد بن مسلم وهلال بن ابي العلاء الرقي وابي زُرعة الدمشقي .

ولقب حافظ كان يطلق على من يحفظ الوفاً من الاحاديث باسانيدها ، وفي تدريب الراوي وكانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث باسناده سواء كان عنده علم به اوليس له الا مجرد رواية ، ويطلقون اسم المحدث على من كان ارفع منه والعالم على من يعلم المتن والاسناد جميعاً ، والفقيه على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد . وكان السلف يطلقون

المحدث والحافظ بمعنى والمحدث من عرف الاسانيد والعلل واسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند احمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضم الى هذا القدر الف جزء من الاجزاء الحديثة . هذا أقل درجاته فاذا سمع ما ذكر وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في اول درجات المحدثين . سأل تقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزي عن حد الحفظ الذى اذا انتهى اليه الرجل جاز له ان يطلق عليه الحافظ قال يرجع الى أهل العرف .

وممن كان في الشام الامام محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق كان والده جندياً موسراً قال والده ترك ابي ثلاثين الف درهم فأنفقت خمسة عشر الفاً على النحو والشعر وخمسة عشر الفاً على الفقه والحديث . وعثمان بن خرداذ الانطاكي المحدث . وابو الحسن محمد الغساني الصيداوي المعروف بابن جميع الحافظ المحدث وابو عبد الله محمد بن علي الصوري الحافظ . واحمد بن الخليل الحلبي المحدث واحمد بن المسيب الحلبي المحدث وعبد الله بن اسحق الصُّفَّري المحدث ومؤمل الرملي وابن بويه الربيع بن نافع ويزيد بن خالد بن يزيد بن عبد الله ابن موهب الرملي روى عن الليث بن سعد والمفضل بن فضالة وروى عنه ابو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني وابو زرعة الرازي ومات سنة ٢٣٢ وموسى بن سهل الرملي (٢٦٢) وعبد الله بن محمد بن نصر بن طويط ويقال طويث ابو الفضل البزاز الرملي الحافظ سمع في دمشق هشام بن عمار ودُحياً وهشام بن خالد بن احمد ابن زكوان ووارث بن الفضل العسقلاني ونوح بن حبيب القومسي .

ومن شعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصي وعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بني العباس وأصله من سلمية وادريس بن يزيد النابلسي الاديب الشاعر وادهم بن محرز والعتابي وابو تمام . واشتهر في هذا القرن بالهندسة ابوبكر البناء المهندس الذي بنى لابن طولون ميناء عكا .

* * *

الادب في القرن الرابع ونهضته على عهد سيف الدولة

قل في القرن الثالث في الشام الشعراء والادباء ، ولم ينبغ فيه الا رجال في الحديث ، والمغازي والفقه ، فطلع القرن الرابع وقد ظهر فيه الادب العربي في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله ، ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير ، اللهم الا اذا كان على عهد الامويين ولم تبلغنا جميع أخبار شعرائه ونعني به عهد سيف الدولة ابن حمدان في حلب ، وقد قصده نوابغ الشعراء والادباء ، وتجلى في علم الأدب وشعر العرب روح غريب كان القرنان السالفان كالمقدمة للكتاب الكبير الذي صدر في القرن الرابع وشرحه نوابغ الأدب أحسن شرح .

قال الثعالبي: و يطول بنا الكلام في ذكر المتقدمين من شعراء الشام ، فأما المحدثون فخذ اليك منهم العتابي ومنصور النمر والاشجع السلمي ومحمد بن زرعة الدمشقي وربيعة الرقي على ان في الطائيين (ابي تمام والبحتري) اللذين انتهت اليهما الرياسة في هذه الصناعة كفاية وهما هما . ومن مولدي اهل الشام المعوج الرقي والمريمي والعبامي المصيصي وابو الفتح كشاجم والصنوبري وابو المعتصم الانطاكي ، وهؤلاء رياض الشعر وحدائق الظرف . قال : انبعثت قرائحهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاؤوا .

و يقال انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وانما السلطان سوق يُجلب اليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً محبّاً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به . ولقد أورد صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة ومن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الايام .

وبينا كان سيف الدولة يفضل على الشعراء و يأخذ بايديهم كان الفاطميون وهم مثله شيعة يُرهقون بعض علماء السنة في الشام إرهاقهم لهم في كل قطر حكموه حتى قتلوا على رواية بعض المؤرخين بعض من تظاهروا بالسنة . ومن خلفائهم من كان يتساهل مع اهل السنة فيؤذنون و يصلون على مراسمهم . ومن رأي القلقشندي ان الفاطميين كانوا بالعكس يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من اظهار شعائرهم

على اختلاف مذاهبهم ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك ، ومذاهب مالك والشافعي واحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب ابي حنيفة و يراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه ٠

وكان في هذا القرن اكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بالشام من اليهود واكثر الاطباء والكتبة نصارى ٠ وانحطت مدن الشام في العلم انحطاطاً كثيراً ومنها حمص ٠ ذكر السيوطي انه نزلها خلق من الصحابة وانتشر بها الحديث زمن التابعين والى ايام حريز بن عثمان وشعيب بن ابي حمزة ثم اسماعيل بن عياش وبقية وابي المغيرة وابي اليماني ثم اصحابهم ثم تناقص ذلك في المائة الرابعة وتلاشى ثم عدم بالكلية ٠

كان ابو فراس الحمداني الذي قال فيه الصاحب بُدِئَ الشعر بملك وختم بملك ، يعني امرأ القيس وابا فراس — ابن عم سيف الدولة وأعطاه على بيت واحد ضيعة بمنبج تغل الف دينار ٠ ولطالما اعطاه واعطى الشعراء في بابه ولا سيما ابو الطيب المتنبي عشرات الالوف من الدنانير مع الإقطاعات والضياع، وكان ابوبكر وابو عثمان الخالديان من خواص شعراء سيف الدولة وكانا على خزانة كتبه ٠ وربما قلّ في الملوك من مُدح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى ان كلاًّ من ابي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وابي الحسن علي بن محمد السميساطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت ٠ وكان ابو محمد الفياض كاتباً لسيف الدولة ونديمه معروفاً ببعد المدى في مضمار الأدب وحلبة الكتابة ، اخذ بطرفي النظم والنثر ، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه في السفارة الى الحضرة احداً ، لحسن عبارته ، وقوة بيانه ، ونفاذه في استغراق الاغراض ، وتحصيل المراد ٠

ومن خواص شعراء سيف الدولة ابو العباس احمد بن محمد النامي وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة ، ومنهم ابو الفرج عبد الواحد الببغا من اهل نصيبين ومن شعرائه او ما قربوا من عصره الخليع الشامي والوأواء الدمشقي وابو طالب الرقي وابو حامد احمد بن محمد الانطاكي المعروف بابي الرقعمق ، وابو القاسم الحسن الواساني الدمشقي واحمد بن محمد الطائي الدمشقي وابن ابي الجوع وابن رشدين وكشاجم

(وأقام كشاجم في الرملة كثيراً فسمي الرملي ٣٦٠) والصنوبري وابوالفتح البكتمري وابو الفرج العجلي وابوحصين الرقي وابو الفرج سلامة بن بحر . ومن علماء الأدب واللغة ابن خالويه وابن جني . ومن الشعراء ابو محمد جعفر وابو احمد عبد الله ابناء ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها والمختصين بسيف الدولة . وكان جعفر بن ورقاء الشيباني (٣٥٢) من بيت إمرة وتقدم وآداب ، وكان المقتدر يجريه مجرى بني حمدان وتقلد عدة ولايات ، وكان شاعراً كاتباً جيد البديهة والروية ، وكان يأخذ القلم ويكتب ما أراد من نثر ونظم كأنه عن حفظه ، وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر مشهورة — قاله ابن النديم . ومن الشعراء منصور واحمد ابناء كَيْغَلَغ وابو علي احمد بن نصر بن الحسين البازيار نديمه مشهور في البلغاء وابو زهير المهلهل نصر بن حمدان والمغنم المصري واسمه ابو الحسن محمد الشعباني وابو عبد الله محمد بن الحسين وابو نصر بن نباتة التميمي والشيظمي وابو العباس الصَّنَوْبري وابو العباس الناشئ وابو نصر البنص كان من جلسائه وتولى القضاء ، وابو القاسم الرقي المنجم الفلكي صحب سيف الدولة وخدمه واختص به وحضر مجالس انسه ، وعبد العزيز ابن نباتة السعدي كان شاعراً مجيداً وله في سيف الدولة غرر القصائد ونخب المدائح (٤٠٥) ومن شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد الله بن حصينة المعري (٣٢٧) وممن اجتمع بسيف الدولة وجالسه مدة ثم جاء معه الى دمشق فتوفي فيها المعلم الثاني فيلسوف الاسلام ابو نصر محمد الفارابي صاحب التآليف الممتعة في الحكمة (٣٣٩) وكان سيف الدولة عين له اربعة دراهم كل يوم .

وقام في هذا القرن من العلماء ابراهيم بن عبد الرزاق الانطاكي مقري اهل الشام (٣٣٨) ومن المحدثين عمر بن علي العتكي الانطاكي الخطيب الحافظ صاحب كتاب المقبول وعبد الوهاب الكلابي المحدث (٣٩٦) ومحمد بن عبيد الله يعرف بابن ابي الفضل ابو الحسن الكلاعي الحمصي المحدث (٣٠٩) وعمر بن حسن الخرقي الحنبلي الدمشقي صاحب التصانيف العديدة واحمد بن سليمان بن جدلم الفقيه (٣٤٧) واحمد ابن شرام الغساني احد النحاة المشهورين بالشام (٣٨٧) ومحمد بن احمد بن ابي بكر البناء المقدسي الجغرافي الرحالة صاحب كتاب احسن التقاسيم المطبوع وابو مسهر

البيروتي المعروف بمحول الحافظ الثقة الثبت المشهور (٣٢١) وابو طاهر بن ذكوان البعلبكي المؤدب(٣٥٩) والمنجم الصابي البعلبكي كان صحب الإخشيد محمد بن طغج وابو القاسم علي بن احمد الانطاكي كان رياضياً مهندساً وله تصانيف جليلة وكان مشاركاً في علوم الأوائل (٣٧٦) وابراهيم الأزدي العجلي الانطاكي الفقيه المقري (٣٣٨) ومحمد ابن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب وغيره توفي في يافا (سنة ٣٢٧) ومحمد التميمي المقدسي كان مختصاً بالحسن بن عبدالله بن طغج · والحافظ احمد بن عمير مولى بني هاشم شيخ الشام في وقته رحل وصنف وذاكر وحدث (٣٢٠) وابو الحسين ابن كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوي وعيسى الرقي المنجم الطبيب وكلاهما من أطباء سيف الدولة · وكان عيسي ينقل من السريانية الى العربية ويأخذ اربعة أرزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين · وعبدالله بن عطيه المقري الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين الف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة (٣٨٣) وعبدالرحيم بن نباتة الفارقي صاحب الخطب المشهورة كان خطيب حلب وبها اجتمع بابي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة (٣٧٤) وقام في حلب اربعة من الشعراء المعدودين وهم ابو الحسن المستهام الحلبي وابو محمد الماهر الحلبي وابن الفتح الموازيني الحلبي وابو الفرج بن ابي حصين القاضي الحلبي · ومن الشعراء الشاميين ابو الجود الرسعيني واسمه محمد بن احمد وابو مسكين البردعي شاعر محدث يتنقل في البلدان وكان مجوداً · والخليع الرقي واسمه محمد بن ابي الغمر القرشي · ومن المهندسين الرياضيين المجتبى الانطاكي (٣٧٦) وديونيسيوس بطريرك اليعاقبة له تاريخ · وقيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ ·

* * *

الآداب في القرن الخامس } امتاز القرن الخامس بان نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عُنوا بالفلك والعلم الطبيعي والرياضي والطب ، كما امتاز بان نبغ فيه في الأقطار العربية الاخرى من الفلاسفة امثال ابن رشد وابن سينا والبيروني والغزالي والرازي ممن هم فخر العرب على تعاقب الحقب · وقد انتقلت من كتبهم وافكارهم اشياء كثيرة الى بلاد الشام ، ويصح ان يقال ان

العلم اقترب من العلوم المادية في هذا الدور ، فبعد ان ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة والشعر ونقل الاحاديث والعناية بالدين وتم تدوين أقوال ارباب المذاهب والشعراء انصرفت العناية الى علوم الدنيا • وممن نشأ في هذه الديار من هذا القبيل ابو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والتقسيمات والهندسة وعلم الهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب وله عدة تآليف (٥٠٠) ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم والهندسة والهيئة وعلم المساحة والميقات والفلك (٥٠٠) ورضوان الخراساني نزيل دمشق العالم بالرياضيات • وجورجس بن يوحنا اليبرودي العالم بالطب وله عدة رسائل ومقالات • ومن المؤرخين حمزة بن اسد ابو يعلي التميمي المعروف بابن القلانسي العميد صنف تاريخاً للحوادث بعد سنة اربعين واربعمائة الى حين وفاته وقد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق تولى رئاسة دمشق مرتين • ومبارك بن شرارة ابو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني كان له جرائد مشهورة بحلب عند اهلها يحفظونها لاجل الخراج المستقر على الضياع اذا اختلف النواب في شيء من هذا النوع رجعوا اليها وله تاريخ حلب توفي في حدود سنة ٤٩٠ في صور • ومن الحفاظ محمد بن علي الصوري الحافظ قالوا كان يذاكر بمائتي الف حديث • قال غيث : سمعت جماعة يقولون مارأينا أحفظ منه (٤٤١) والحافظ محمد بن جميع الغساني الصيداني ويقال له الصيداوي (٤٠٢) وعبد الواحد الشيرازي المقدسي الانصاري شيخ الشام في وقته نشر مذهب الامام احمد بن حنبل فنما حوله ثم أقام بدمشق فنشر المذهب بها وله تصانيف مهمة (٤٨٦) وسلامة بن اسماعيل بن جماعة المقدسي الضرير كان كثير الحفظ الف تآليف (٤٨٠) والحسن بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني صاحب الخطب البديعة مشهور بنثره (٤٨٢) •

ومن الكتاب والخطباء صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي الكاتب وابواليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني كان صاحب الديوان بحلب وتادرس بن الحسن النصراني كان وزير صالح بن مرداس وصاحب السيف والقلم وعبدالله بن اسعد فقيه بحمص يعرف بابن الدهان • وأسامة بن مرشد الكناني الملقب بمؤيد الدولة من ساكني حماة كانت له يدبيضاء في الادب والكتابة والشعر • وعبدالعزيز بن احمد

الكناني الدمشقي الصوفي المحدث (٤٦٦) نصر بن ابراهيم المقدسي النابلسي عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور فأقام بهـا عشر سنين ثم جاء دمشق (٤٩٠) علي بن داود الداراني الخطيب (٤٠٢) وهو الذي طلع الى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم وأرادوه على ان يخطبهم فوثب اهل داريا بالسلاح وقالوا : لا نعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم : اما ترضون يا اهل داريا ان تسمع الناس في البلاد ان اهل دمشق احتاجوا اليكم في امام · ومن مشاهيره الحسين ابن علي بن شواش الكناني المقري (٤٩٧) والحسين بن علي بن ابراهيم الاهوازي شيخ القراء بدمشق (٤٤٦) والخطيب ابو نصر بن طلاب مسند دمشق (٤٧٠) وابو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الواعظ العالم شيخ الشافعية في عصره (٤٥٦) ومن الشعراء عبد المحسن الصوري الشاعر (٤١٨) وابو الفتيان بن حيوس الحلبي الشاعر · محمد بن سنان الحلبي الشاعر · ابو مشكور الحلبي الشاعر · احمد ابن فضالة الدمشقي شاعر · علي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة يعرف بابن القارح من شيوخ الادب راوية للاخبار كتب لابي العلاء المعري رسالته المشهورة فأجابه عنها برسالة الغفران وكلا الرسالتين مطبوع ·

وأهم ما يفاخر به هـذا القرن نبوغ ابي العلاء احمد بن سليمان المعري التنوخي حكيم العرب وأديبهم ، وقد كانت المعرة في ايامه كعبة القصاد ، من طلاب الآداب ، جذبهم اليها ابو العلاء بعقله وعلمه ، فجعلها دار حكمة وأدب ، كما جعل سيف الدولة في القرن الذي قبله مدينـة حلب مجمع الادباء والشعراء بفضل احسانه ومشاركته · أحسن نابغة الشام ابو العلاء المعري الى الآداب العربية اي احسان ، وهو من بيت أدب وفضيلة ، كان ابوه عبد الله بن سليمان لغوياً شاعراً ، وأخوه الأكبر محمد بن عبد الله واخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين ، وكان الشعر والأدب متسلسلاً فيهم من بطون كما تسلسل في بيتهم القضاء مدة مائتي سنة · ومن شيوخ ابي العلاء ابوبكر محمد بن مسعود النحوي ومحمد بن عبـد الله بن سعد النحوي الحلبي ، ومن تلامذته ابو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التاريخ المشهور ، وابو يعلي عبد الباقي بن ابي الحصين ، وابو محمد عبد الله الخفاجي ، ورشاء بن لطيف

ابن ماشاء الله المقري وهذا كان اول من أنشأ في دمشق داراً للقرآن في حدود سنة ٤٤٤ والخطيب التبريزي والحسن علي بن همام والامير ابو الفتح الحسن بن عبد الله بن ابي حصينة ومئات غيرهم من أهل المعرة وكفرطاب وحلب ودمشق وحمص وحماة وطرابلس والرقة وهكار والمصيصة وبغداد وتبريز والاندلس الى غيرهم من التنوخيين اهل بيته ، وكان اكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم . وممن صحب ابا العلاء المعري واخذ عنه كثيراً علي بن القاضي التنوخي كان من اهل بيت كلهم فضلاء ادباء ظرفاء . ومما يستدل به على انتشار الآداب في هذا العصر وتغالي الناس في الشعر والأدب ما قيل من ان سبعين شاعراً رثوا المعري على قبره يوم مات ، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذاك العهد .

ومما يذكر في هذا القرن ان القاضي جلال الملك ابا الحسن علي بن محمد بن احمد بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة وذلك في سنة اثنتين وسبعين واربعمائة لتكون مركزاً من مراكز التشيع ، فنشرت العلوم والآداب واصبحت طرابلس مباءة علم ودرس ومباراة في التعلم وجهز هذه الجامعة الدينية بمئة الف مجلد وربما كانت على عهده قبل استيلاء الصليبيين عليها اول بلدة علمية في الشام على ما رأى فان برشم .

* * *

العلم والادب في القرن السادس دخل القرن السادس وعلى كثرة ما كان فيه من الفتن وأقلها الحروب الصليبية التي كانت على أشدها ، نشأ للامة في هذه الديار علماء خدموا العلم في فنون مختلفة ، وامتاز هذا القرن بان أنشئت فيه (٥١٥) اول مدرسة بحلب لاهل السنة أنشأها بدر الدولة سليمان بن أرتق صاحب حلب وسماها المدرسة الزجاجية حتى كان نور الدين زنكي فأنشأ المدارس واول مدرسة أنشأها كان سنة ٥٤٥ في حلب سماها المدرسة العصرونية وهو اول من أنشأ داراً للحديث في الاسلام . ثم كثر إنشاء المدارس في هذا القرن والذي بعده فأخذ الفقهاء والمحدثون والادباء يتخرجون فيها على نظام في الجملة ، فكثر بنور الدين وصلاح الدين عدد العلماء .

وقد تخلى الناس عن الشعر قليلاً في هذا القرن اي كانت العناية به أقل من عصر سيف الدولة وعصر ابي العلاء المعري ، وان كان نور الدين وصلاح الدين وأسرتهما ممن يجيزون عليه ويعجبون به ويترنمون بسماعه ، وكان من أهل بيت صلاح الدين الشعراء المفلقون . ومما عُني به نور الدين محمود بن زنكي انه كان يجلب العلماء من القاصية و يسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابوري وشرف الدين بن ابي عصرون وكان يبني لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مريديهم أنواع الاحسان والرواتب . وقد أحصي فقهاء مدارس دمشق في عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه ، كان يعطيهم من صدقاته . ومن كتاب للقاضي الفاضل لصلاح الدين : ومما يجب ان يعلم المولى ان ارزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي الف دينار بشهادة الله وربما كانت ثلاثمائة الف دينار .

وقد أزهرت في هذا القرن مدرسة اليعاقبة في طرابلس ايضاً ومنها نشأ ابوالفرج بن العبري صاحب التاريخ المطبوع المعروف به . وتجلت في هذا القرن للصليبيين فوائد المدنية الاسلامية بعد ان كانوا تذوقوها من جوارهم في الاندلس . وتعلم كثير من المحاربين والقواد والامراء منهم اللغة العربية في بلاد الشام . قال في تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها : اما بشأن اللغة (اي في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الاحوال على صورة مطردة ، وهو ان لغة الاكثر تمدناً قداثر أهلها في غيرهم . وكان اكثر الامم تمدناً بلا مراء الشرقيون ولا سيما العرب واليونان . وقد تعلم قليل جداً من العرب والترك والفرس لغة الافرنج ما عدا بعض التراجمة الرسميين . وعلى العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم الى فلسطين . الى ان قال : ولا ريب ان مجاورة التمدن الاسلامي قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي والفنون العربية تؤثرها فينا منذ زمن طويل . ومعلوم ما تدين به لهذا التأثير كل من الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ فقد اخذنا عن العرب اشياء كثيرة من مثل طريقة الارقام وشروح ارسطو حتى حمام الزاجل والشعار (Armoiries) وأدوات الموسيقى والأزياء والأقمشة والزهور والبقول . وبعد فاذا حدث أحياناً ان الاشياء التي

نقلت لم تكن تسمى الا باسماء المدنية الشرقية التي أخذت منها مثل ثوم عسقلان وقماش دمشق فان غيرها قد احتفظت باسمائها العربية مع بعض التحريف وهي كثيرة و يتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الجملة اه . قلنا وعلى كثرة انتشار اللغة الفرنسية بين الصليبيين لم تكن اللغة الرسمية بل كانت الايطالية . قال بونفيس في القانون الدولي : كانت اللغة الايطالية لغة السياسة في الشرق وذلك في العصر الذي عقد فيه العرب والمسيحيون اتفاقاتهم السلمية الاولى .

وكان في هذا القرن ابو المجد محمد بن ابي الحكم ، وكان طبيباً مهندساً فلكياً (٥٧٠) ومنهم ابو زكريا يحيى البياسي من اطباء صلاح الدين وعمل لابن النقاش وهو علي بن عيسى بن هبة الله استاذه في الطب آلات كثيرة تتعلق بالهندسة وكان يعرف النجارة ، وابن النقاش هذا كان أوحد زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للمشتغلين عليه وكان يعالج ايضاً كتابة الانشاء (٥٧٤) وابو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم المغربي وهو عالم بالحكمة والطب والأدب والهندسة (٥٤٩)[1] . وعمر بن علي بن البذوخ الدمشقي عالم بالطب شاعر له تآليف (٥٧٦) وابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (٥٤٠) وموفق الدين بن المطران عالم بالطب والفلسفة متعين في الفنون الأدبية له عدة مصنفات (٥٨٧) وقد نعى على اهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بنفاق الخطب في هذا الشأن .

وابو الفضل عبد الكريم الحارثي المهندس الدمشقي وهو مهندس طبيب نجار نحات هندس اكثر أبواب المستشفى النوري الكبير اشتغل بالأدب وعلم النجوم والحديث له عدة مصنفات (٥٩٩) وهو الذي أصلح الساعات التي لجامع دمشق . وعلي بن عبد الباقي بن ابي جرادة العقيلي الانطاكي الحلبي عالم بالادب واللغة والحساب والنجوم والفلسفة مات سنة نيف واربعين وخمسمائة . زين الدين علي بن غانم

(١) قال العماد في الخريدة ان ابا الحكم كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله اربعون جملاً المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيّم .

الانصاري الدمشقي المعروف بابن منجه الحنبلي كان من أعيان أهل العلم وله رأي صائب وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص . ومحمد بن طاهر المقدسي ذو الرحلة الواسعة والتصانيف والتعاليق ذهب الى اباحة السماع (٥٠٧) والحافظ ابو القاسم علي ابن عساكر محدث الشام ومؤرخها ومن أعيان فقهائها صاحب تاريخ دمشق المشهور (٥٧١) وكتابه من أعظم المفاخر في التاريخ معدن أدب وركاز علم . وتوفيق بن محمد المهندس المنجم الاديب الدمشقي وله تصانيف (٥١٦) وابو البيان محمد بن محفوظ القرشي شيخ الطائفة البيانية ويعرف بابن الحوراني له عدة تصانيف (٥٠١) . ومخلص الدين ابو البركات عبد القاهر بن ابي جرادة الحلبي كان أميناً على خزائن نور الدين وكان كاتباً بليغاً نظماً ونثراً مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الاصول القديمة المستظرفة . وعبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل والتصانيف الجيدة ومحيي الدين بن الزكي الفقيه الخطيب (٥٩٨) وعماد الدين الاصفهاني العالم الكاتب الشاعر (٥٩٧) وكمال الدين محمد الشهرزوري الدمشقي الفقيه الاديب الشاعر الكاتب (٥٧٢) وشرف الدين عبدالله بن ابي عصرون الفقيه له عدة مصنفات (٥٨٥) . وعلي بن جعفر البلخي الدمشقي من أئمة الحنفية (٥٤٨) وسُلَيْم بن أيوب احد أوعية العلم صنف الكثير في التفسير والحديث والفقه والعربية نشر العلم في صور (٥٤٧) والحافظ ابو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي كان جوالاً في الآفاق يجمع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف وله تصانيف كثيرة (٥٦٧) وبهاء الدين بن شداد قاضي العسكر في زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع في سيرة صلاح الدين نشأ في حلب وعظم في أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره وارتفاع منزلته . مجد الدين طاهر بن نصرالله بن جهبل الحلبي والد بني جهبل الفقهاء الدمشقيين كان اماماً في الفقه والحساب والفرائض . ومحمد بن خضر المعري شاعر . وتقي الدين عبد الغني الجماعيلي له عدة مصنفات في الرجال (٦٠٠) والحسين الاسدي مسند دمشق (٥٥١) وقطب الدين النيسابوري العالم الفقيه (٥٧٨) والحسن بن هبة الله بن صصري التغلبي المحدث (٥٨٦) وتاج الدين الخراساني الفقيه الصوفي (٥٨٤) ونقية بنت غيث الارمنازي

الصوري الفاضلة الشاعرة الأديبة ولها شعر سائر (٥٧٩) وعلي بن الموازيني مسند دمشق (٥١٤) وابو طاهر بركات الخشوعي المحدث امتاز بالسماع (٥٩٨) • وموسى البلاغاشاني الفقيه (٥٠٦) وابو القاسم علي بن ابراهيم الحسيني الخطيب (٥٠٨) وهبة الله بن أحمد الاكفاني الامين المحدث (٥٢٤) وعلي بن مسلم السلمي الدمشقي الفقيه (٥٣٢) ونصر الله بن محمد المصيصي الدمشقي العالم (٥٤٢) ومن الشعراء والادباء احمد بن الخياط الدمشقي الشاعر الكاتب الأديب (٥١٧) واحمد بن منير الطرابلسي الشاعر الهجاء الوصاف المشهور (٥٤٨) ومحمد بن نصر بن عنين الدمشقي الشاعر الرقيق في التشوق للديار ووصفها (٥٤٨) وطراد بن علي الكاتب المعروف بالبديع كاتب شاعر (٥٢٤) وابو الوحش الشاعر وعبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الأديب (٥٥١) طبع ديوانه • وعرقلة الدمشقي النديم الخليع الشاعر ومحمد ابن حرب النحوي الأديب (٥٨٠) والحسين بن رواحة الانصاري الحموي الفقيه الاديب الشاعر (٥٨٥) ومسلم بن خضر بن قسيم الحموي الشاعر • والحسن بن ابي الحسن صافي النحوي المعروف بملك النحاة له مصنفات في الفقه والاصلين والنحو وله ديوان شعر (٥٦٨) وحسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر (٥٦٧) وعلوي ابن عبدالله بن عبيد الشاعر الحلبي المعروف بالباز الاشهب الاديب المتفنن (٥٩٦) وابن منقذ صاحب كتاب الاعتبار المطبوع وكان اهله أصحاب قلعة شيزر وهو شاعر كاتب • وزرعة بن موسى ابو العلاء الطبراني النصراني كاتب الامراء بني منقذ كان معاصراً لعبد الله بن محمد بن سنان شاعر •

وقد جاء حلب الشهاب السهروردي في عهد ملكها الظاهر غازي وهو فيلسوف الهي وناظر المدرسين والفقهاء والمتكلمين فبزهم و بان له فضل عظيم عليهم فصار مكيناً عند الظاهر غازي فشنع اولئك المدرسون عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى صلاح الدين يوسف وقالوا ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلقه فانه يفسد اي ناحية كان بها من البلاد فصدر امره بقتله فاختار ان يقتل جوعاً وعطشاً وهو في السادسة والثلاثين • وعلى كثرة ما أحسن صلاح الدين للبلاد في سياستها أساء الى الفلسفة بمجاراته اولئك المتعصبين الذي حملوه على قتل

السهروردي وربما كانت هذه الغلطة الفظيعة الوحيدة التي عُدت على صلاح الدين لانه بقتله قتل الحكمة ، وهي صناعة الصنائع ، في هذه الديار حتى ان سيف الدين الآمدي الفيلسوف النظار الكبير في القرن التالي لم يجرأ ان يقرئ احداً شيئاً من العلوم الحكمية ، وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا تقرأ الا اشياء قليلة منها وقل النابغون والمشتغلون بهذا الفن ، ومنذ أُهملت العلوم الفلسفية في الاسلام أخذ مستوى العقل في علماء المسلمين يضعف وأصبح الناس الى التقليد في كل العلوم المتعارفة، ولم نقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الاعلام، ولم ينشأ من الافراد أمثال قطب الدين النيسابوري والشهاب السهروردي وسيف الدين الآمدي ، ولا من الجماعات أمثال أعضاء جمعية إخوان الصفا وجمعية أصحاب التوحيدي الذين ذكر محاوراتهم في المقايسات ممن كانوا في بغداد، وتعرض لاخبارهم ابن النديم في الفهرست والقفطي في أخبار الحكماء وابن ابي أُصيبعة في طبقات الاطباء والبيهقي في تاريخ حكماء الاسلام وصاعد في طبقات الامم .

ولقد أبان رنان كيف ان الفكر الديني لسوء حظ الاسلام تغلب بعد جدال طويل فخنق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جعلت المدنية العربية بتأثيرات الفارسية واليونانية والنسطورية واليهودية ردحاً من الدهر، وارثة المدنية اليونانية . قال واوربا مدينة لمدنية العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى .

***

العلم والأدب في القرن السابع لما خرب التتر بغداد سنة ٦٥٦ انتقلت الحركة الادبية بحكم الطبيعة الى الشام ومصر ولم تكن انقطعت منها كل الانقطاع من قبل ، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق الى دمشق والقاهرة . وفي هذا القرن تعينت المسالك العلمية وكثر الاخصائيون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبغ الشام طبقة عالية عُدّت تآليفهم من الامهات في خزانة كتب الامة العربية، ومرجعاً ثقة للاخلاف في أعمال الاسلاف فمن المؤرخين كمال الدين عمر بن ابي جرادة الحلبي العقيلي المعروف بابن العديم رئيس الشام صاحب تاريخ حلب ٦٦٠ وهو كمال الدين عمر بن الصاحب السعيد قاضي القضاة

نجم الدين أبي الحسن احمد بن الصاحب السعيد قاضي القضاة جمال الدين ابي غانم هبة الله ابن قاضي القضاة مجد الدين أبي عبدالله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين أبي الفضل هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن احمد بن يحيي زهير بن أبي جرادة . بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أ كرم به من بيت فضيلة وعلم ، يفخر المنتسب اليه وحق له الفخر . ومن مفاخر هذا القرن بحلب علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الاكرم احد الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر وله تآليف اكثرها في التاريخ والأدب (٦٤٦) وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ومن كتبه المطبوعة تاريخ الحكماء . وياقوت الرومي الحموي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الادباء والمشترك وغيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (٦٢٦) وفي حماة القاضي شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم له التاريخ الكبير المظفري في الملة الاسلامية (٦٤٢) وقام فيها عبدالرحمن البازري قاضي حماة وابن قاضيها وابو قاضيها . وفي حماة ايضاً علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (٦٤٢) والقاضي جمال الدين ابن واصل (٦٩٧) كان اماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والاصول والهيئة ألف تاريخاً في أخبار بني أيوب وله عدة مصنفات منها الانبرورية في المنطق صنعها للانبرور (الامبراطور) ملك الافرنج صاحب صقلية وبلاد انبولية والانبردية لما توجه اليه رسولاً في أيام الملك الظاهر بيبرس الصالحي سنة ٦٥٩ . ونبغ من المهندسين ابراهيم بن غنائم المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق ، واسمه لا يزال منقوشاً على يسار الداخل اليها في زاوية المدخل ، وهو الذي هندس القصر الأبلق الذي قامت التكية السليمانية في القرن العاشر على أنقاضه . ونبغ في حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة خلف عدة مصنفات منها المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء وكان في خدمته قريب مئتي متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك . وجاء الملك الناصر داود ابن الملك المعظم وكان شاعراً أديباً وفي أيامه راجت الفلسفة وأمن المشتغلون بها على أرواحهم . وجاء الملك الامجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

وكان شاعراً رقيقاً وله ديوان (٦٢٨) ونبغ في دمشق شمس الدين احمد بن خلكان قاضي قضاتها وصاحب وفيات الاعيان الفقيه المؤرخ المدقق (٦٨١) وموفق الدين احمد بن القاسم بن خليفه المعروف بابن أبي أُصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الاطباء المطبوع (٦٦٨) وعبدالرحمن ابو شامة وكان اماماً في فنون شتى له عدة تصانيف في التاريخ وغيره (٦٦٥) ومنها تاريخ الروضتين وذيله والاول مطبوع. وشمس الدين يوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان في التاريخ المطبوع ، أقام زمناً في دمشق (٦٥٤) وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر وله عدة كتب منها عشرة دواوين من منظوم الكلام ومطلقه في مدح صلاح الدين لم يصلنا منها الا المدبجات . ومن أدهش النوابغ في دمشق عز الدين الاربلي الفيلسوف الضرير كان بارعاً في الفنون الادبية رأساً في علوم الأوائل يقرىء المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة (٦٦٠) وعاش في دمشق ايضاً حكيمان عظيمان من حكماء الاسلام وماتا فيها وهما سيف الدين علي الثعلبي الآمدي سيد العلماء وأزكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعية والمبادي المنطقية أقام سنين كثيرة في حماة مستتراً ممن كانوا تحاملوا عليه ونسبوه الى الانحلال يريدون قتله . وقد صنف في اصول الفقه واصول الدين والمعقولات عدة مصنفات طبع له كتاب الإحكام ومات في دمشق سنة ٦٣١ والثاني الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي الاندلسي الدمشقي صاحب المذهب المشهور في التصوف وله عدة مصنفات في الأخلاق وكلام القوم منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم المطبوعان (٦٣٨) ونبغ في دمشق شمس الدين الخويي العالم في الحكمة والشرع والطب وغيره وله تآليف (٦٣٧) ورفيع الدين الجيلي عالم بالعلوم الحكمية واصول الدين والفقه والعلم الطبيعي والطب وله تآليف (٦٤١) واسماعيل بن عبد الكريم المعروف بابن المعلم كان شيخ الحنفية في وقته وشرف الدين بن الرحبي الطبيب الشاعر الأديب له تآليف (٦٦٧) وجمال الدين بن الرحبي الطبيب العالم ورشيد الدين الصوري طبيب متفنن في علوم كثيرة وله عدة تصانيف في الطب . ومهذب الدين يوسف بن ابي سعيد السامري طبيب متميز في العلوم الحكمية وأديب له من

الكتب شرح التوراة (٦٢٤) والصاحب امين الدولة ابو الحسن بن غزال عالم بالطب له فيه مصنف لم يوضع مثله (٦٤٣) ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي ويعرف بالدخوار عالم بالطب وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق ونجم الدين يحيى بن اللبودي عالم في الحكمة والهندسة والعدد صاحب المدرسة الطبية المنسوبة اليه في دمشق وصاحب دار الهندسة أيضاً ألّف وله ثلاث عشرة سنة في الرد على عبداللطيف البغدادي وله عدة مصنفات (٦٢١) وعلي الدين علي بن ابي الحزم ابن النفيس الدمشقي شيخ الاطباء بالديار المصرية وصاحب التصانيف الكثيرة كانت تصانيفه يمليها من حفظه وكان مشاراً اليه في الفقه والاصول والحديث والعربية والمنطق. وشمس الدين بن المؤيد العرضى الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق ودعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد الايلخاني وأقام نصيرالدين الطوسي مرصداً فلكياً في دمشق وكان مؤيد الدين العُرضي وابنه محمد من علماء الفلك وتولى مؤيد الدين الارصاد في مرصد مراغة وقد وضع محمد كرة لا تزال محفوظة في متحف درسدن في المانيا . وعثمان بن الصلاح المضروب به المثل في كل فن (٦٤٣) وعلي بن محمود اليشكري المنجم له يد طولى في علم الفلك وحل التقاويم شاعر خطاط (٦٨٠) وبدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم بالطب وعلوم الأدب له تصانيف طبية (٦٥٠) ونجم الدين ابن المنفاخ ويعرف بابن العالمة لان امه كانت عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهين اللوز طبيب عالم بالحكمة والمنطق والأدب له مؤلفات (٦٥٢) عز الدين ابن السويدي الدمشقي عالم بالطب والأدب شاعر مجيد. موفق الدين يعقوب السامري عالم بالطب وعلوم الحكمة له عدة مصنفات (٦٨١) ورشيد الدين علي بن خليفة بن ابي أُصيبعة عالم بالطب والعربية وله كتب في الطب وغيره (٦١٦) عبد العزيز بن رفيع الدين كان متميزاً في الحكمة والطبيعي والطب واصول الدين والفقه . وعفيف الدين التلمساني الدمشقي أديب له في كل علم مصنف (٦٩٠) وعبدالرحمن ابن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ ابي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيه وقته (٦٢٠) وشرف الدين احمد بن هبة الله بن عساكر مسند دمشق (٦٩٩) وكريمة بنت عبد الوهاب بن علي مسندة الشام ام الفضل القرشية الزبيرية وتعرف ببنت

الحبقبق (٦٤١) وفاطمة بنت احمد بن السلطان صلاح الدين المحدثة (٦٧٨) وفاطمة بنت عساكر محدثة (٦٨٣) وست العرب بنت يحيى بن قايماز ام الخير الدمشقية الكندية المحدثة . وزينب بنت علي بن احمد بن فضل الصالحية محدثة . وعائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسي المحدثة (٦٩٧) . وعلي بن داود القحفازي شيخ أهل دمشق في عصره وخصوصاً في العربية . .وعبد الوهاب بن سحنون طبيب مارستان الجبل بدمشق وله شعر وأدب وفقه (٦٩٤) وتاج الدين زيد بن الحسين الكندي علامة في فنون الآداب مفنن عُرف بعلو السماع (٦١٣) وعلم الدين السخاوي الدمشقي المقري النحوي الأديب الفقيه له تصانيف (٦٥٧) وكمال الدين ابراهيم بن احمد بن فارس التميمي شيخ القراء بدمشق (٦٧٦) وعلم الدين القاسم بن احمد المرسي اللورقي شيخ القراء والمتكلمين (٦٦١) وعمادالدين عبدالكريم بن جمال الدين الحرستاني خطيب الشام (٦٦٢) وعزالدين عبدالعزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الاسلام له تصانيف (٦٦٠) والحافظ شمس الدين محمد بن جعوان الحافظ النحوي (٦٨٢) ورشيد الدين الربعي مفسر لغوي كاتب (٦٨٧) ومحمد بن سعادة مفسر اصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣) وجاء من المحدثين موسى بن عبد القادر الجيلي مسند دمشق (٦١٨) والحافظ تقي الدين اسماعيل بن عبدالله الانماطي المحدث (٦١٩) ونجم الدين مكرم بن محمد بن ابي الصقر القرشي المسند الفقيه (٦٣٥) وتقي الدين اسماعيل بن ابي اليسر التنوخي مسند الشام (٦٧٦) والحافظ عبد العظيم وهو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (٦٣٥) وامين الدين القاسم بن ابي بكر الاربلي المقري المحدث (٦٨٠) ومحمد بن علي ابن الصابوني المحدث (٦٨٠) .

وجاء من العلماء في الشام عبدالله الجاعبلي الامام في علم الخلاف والفرائض والاصول والفقه والنحو والحساب والنجوم السيارة والمنازل (٦٢٠) ويعقوب بن صقلان المقدسي قرأ الحكمة على الفيلسوف الانطاكي وعرف بها (٦٢٦) ومحمد ابن القيسراني الدمشقي عالم بالأدب والهيئة (٦٣٠) وابو الفضل بن يامين الحلبي عالم بالرياضيات وعلم حل الزيج وتسيير المواليد (٦٠٤) واحمد بن هبةالله المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي اللغوي وعبدالله اليونيني الزاهد اسد الشام المحدث . ونجم الدين القمراوي عالم بالحكمة والشريعة .

وشرف الدين المتاني عالم بالحكمة والشريعة (وقمرا ومتان من قرى صرخد في جبل حوران) وهما اللذان ذهبا الى الموصل مختفيين ليلقيا الفيلسوف الاكبر كمال الدين بن يونس وحلا لغزه في الحكمة، وكان عجز العلماء عن حله، فسألهما عن موطنهما فقالا الشام فقال : من اي موضع منه قالا من حوران فقال : لا أشك ان احدكما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني . وفي هذا دليل على شهرتهما في العلوم الحكمية والدينية . وقمرا مزرعة يقال لها قميرة اليوم ومتان قرية صغيرة .

وكانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرين التي خربت في القرن الرابع وكفر طاب التي خربت في أواخر الخامس قال ابن العديم كانت كفرطاب مشحونة باهل العلم وكان بها من يقرأ الأدب و يشتغل به . وهاتان المدينتان اصبحتا الآن قريتين حقيرتين ، وبعض القرى في الغوطة الدمشقية كان بها علماء أعلام و يختلف اليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تآليف الحافظ ابن عساكر كتب في روايات أهل داريا وكفرسوسية وصنعاء دمشق والربوة والنيرب ومن حدث بهما وأهل الحمير بين وقبية وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والبلاط و بيت سوا ودومة ومسرابا وحرستا وكفر بطنا ولاقانية وجحيرا وعين ثرماء وجديا وطرميس و بيت لهيا و برزة . ومن هذه القرى ما دثر الآن ، وذكر المحدثين من أهل منين وأهل بعلبك مما دل على العناية بالحديث في القرن السادس .

ومحمد بن ميساس العرماني الشاعر الأديب وموسى القمراوي الفقيه الأديب المناظر (٦٢٥) ومسعود بن ابي الفضل النقاش الحلبي الشاعر والتاج الصرخدي محمود بن عدي التميمي الشاعر المحسن (٦٧٤) والرشيد البصروي سعيد بن علي احد ائمة المذهب الحنفي النحوي الشاعر (٦٨٤) ودام مذهب الأوزاعي معمولاً به في الشام حتى عم مذهب الشافعي وفي أيام الظاهر بيبرس أضيف الى القضاء الحنفي والحنبلي والمالكي . وعلي بن بلبان الكركي (٦٨٤) والفخر البعلبكي عبدالرحمن الحنبلي الفقيه المحدث (٦٨٧) وشرف الدين عبدالعزيز الانصاري شيخ شيوخ حماة قال الصفدي لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا اجزل ولا أفصح و برع في الفقه وحدث كثيراً (٦٦٢) ونبغ في حماة جمال الدين بن بركات

له تآليف في التاريخ . وتقي الدين ابو بكر بن الخيشمي الحموي كان اماماً في الأدب ومحمد بن المظفر بن ابي بكران الحموي عالم الائمة الفقيه المحدث . وعبد العزيز بن حجة الحموي الشاعر الأديب وابو المحاسن محمد بن عُنين الدمشقي الشاعر (٦٣٢) وجمال الدين محمد بن ابي الفضل الدولعي الفقيه الخطيب الدمشقي (٦٣٥) ومحمد شمس الدين الانصاري الكاتب بدمشق (٦٥٠) ومحمد بن العفيف التلمساني الشاعر (٦٨٨) ومحمد بن سوار بن اسرائيل شاعر (٦٧٧) ومحمد بن عبد المنعم التنوخي شاعر (٦٦٩) وابن الساعاتي الشاعر الدمشقي (٦٠٤) وفتيان الشاغوري الدمشقي الشاعر المبدع (٦١٥) وتقي الدين اليلداني المحدث (٦٥٥) وعلي بن عمر المشد شاعر (٦٥٦) وابو المحاسن الشواء الشاعر الحلبي (٦٣٥) ومحمد بن ابي اليسر التنوخي الدمشقي الكاتب الشاعر (٦٦٩) وعبد الرحمن بن ابراهيم الفزاري البدري الدمشقي امام فقيه ناظم ناثر له تصانيف جيدة (٦٩٠) ومحمد بن سعادة مفسر اصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣) وعبد العزيز السلمي الفقيه المجتهد له تصانيف (٦٦٠) وناصح الدين عبد الرحمن بن نجم الحنبلي الواعظ الفقيه (٦٣٤) ومحمد بن عبد الواحد السعدي المحدث الاصولي الفقيه له عدة تصانيف (٦٤٣) والحافظ زين الدين خالد بن يوسف السابلسي (٦٦٣) وابو السخاء فتيان الحلبي النحوي . ويحيى بن حميدة الحلبي المعروف بابن ابي طي صاحب التاريخ وطبقات العلماء (٦٣٠) وابو الفرج يحيى بن محمود الثقفي الحلبي محدث . واحمد بن محمد الطرسوسي الحلبي محدث . ويعيش بن علي الحلبي النحوي المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزمخشري وشرح تصريف الملوكي لابن جني وهما مطبوعان (٦٤٣) . وكانت حلب لما دخلها ابن خلكان في هذا العصر في سنة ٦٢٦ للاشتغال بالعلم الشريف ، أُمَّ البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين . ومما انفرد به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق فكان في هذه العاصمة أعظم جامعة اسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدنيوية فلم تكن دون القاهرة بازهرها الذي بني في القرن الرابع ولا بغداد بمدرستها النظامية التي أُسست في القرن الخامس .

***

الامام ابن تيمية والاصلاح الديني والأدب والعلم في القرن الثامن

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده ، أراد إرجاع الدين الى نضرته الاولى ، وتعريته من القشور التي ألصقها به الجهلة المتمسون ، فآذوه وعذبوه ، وسجنوه ونفوه ، ونعني به شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية نابغة النوابغ في الشرع وصاحب التآليف العديدة الممتعة ، فهو بلا مراء حجة الكتاب والسنة ، وامام المعقول والمنقول ، وسيد العلماء ، ورأس الفقهاء (٧٢٨) وان دمشق لتفاخر وحق لها الفخر بانها تجلت فيها روح ابن تيمية ، ودفنت أعظمه في تربتها ، ولكن عصره يُخجل كل الخجل من أعمال من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد ، ولا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فاكثروا من أذاه، طمعاً في نيل الحظوة من العامة والملوك ، واستعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة مصر والشام فاعتقل زماناً في القاهرة والاسكندرية ودمشق ، والامة وعقلاء علمائها تقدسه حتى لقي ربه • وقد أشبه ابن تيمية في دعوته في الاسلام «لوثيروس» صاحب المذهب الانجيلي في النصرانية بيد ان مصلح النصرانية نجح في دعوته ، ومصلح الاسلام أخفق و ياللأسف •

وقد انتشرت بعد عصره الفوضى العقلية بين المسلمين كما قال العلامة محمد عبده تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في انفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله ، غير انهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً، ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً ، فشردوا بالعقول عن مواطنها • وتحكموا في التضليل والتكفير وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام اه •

قال السيوطي : ان دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك وأولاده وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون في زمن التابعين وتابعيهم ثم الى أيام ابي مسهر ومروان بن محمد الطاطري وهشام ودحيم وسليمان بن بنت شرحبيل ثم أصحابهم وعصرهم • وهي دار قرآن وحديث وفقه ، وتناقص بها العلم في المائة الرابعة والخامسة وكثر بعد ذلك ولا سيما في دولة نور الدين وأيام محدثها ابن عساكر

والمقادسة النازلين بسفحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية والمزي وأصحابهما ٠

ونبغ أفراد في هذا العصر ولا سيما في الفلك والتاريخ والجغرافيا والحديث ، ومنهم بدمشق الحافظ علم الدين البرزالي محدث الشام وصاحب التاريخ والمعجم الكبير (٧٤٠) والحافظ جمال الدين المزي العالم الكبير صاحب التصانيف (٧٤٢) والحافظ محمد بن قايماز الذهبي عالم الشريعة والأدب والتاريخ وله عشرات من المصنفات أكثرها في التاريخ والرجال منها تاريخ الاسلام والمشتبه وميزان الاعتدال وطبقات الحفاظ وهذه الثلاثة الاخيرة مطبوعة (٧٤٨) والحافظ عماد الدين بن كثير المفسر المؤرخ الفقيه صاحب التآليف ومنها تاريخه المطول (٧٧٤) ومحمد بن ابي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي الامام الحجة المجدد في تآليفه من اكبر أنصار شيخ الاسلام ابن تيمية (٧٥١) طبعت بعض كتبه في السنة ٠ واحمد بن ٠ الله العمري الدمشقي امام أهل الأدب والتاريخ والجغرافية والاصطرلاب وحل التقاويم وصور الكواكب وله عدة مصنفات منها مسالك الابصار والتعريف بالمصطلح الشريف وهما مطبوعان ٠ ومسالك الأبصار معلمة أدبية تاريخية كبرى (٧٤٩) وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة ومنها الوافي بالوفيات (مخطوط) ونكات العميان وشرح قصيدة ابن زيدون وهما مطبوعان الى غير ذلك من الممتع (٧٦٤) والملك المؤيد اسماعيل ابو الفداء صاحب حماة وكان عالمًا فقيهًا مؤرخًا جغرافيًا فلكيًا منها تاريخه وكتابه تقويم البلدان وهما مطبوعان (٧٣٢) وكان يفضل على العلماء كثيراً أوى اليه اثير الدين الابهري فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين ابن نباتة في دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به ٠ وبعمل الملك المؤيد ابي الفداء وعمل أسرته من قبل ومن بعد أصبحت حماة مدينة علم وأدب وخرجت رجالاً يفتخر بهم في تاريخ العلم بعد ان كانت أشبه بالقرى في القرون الاولى للفتح للاسلامي ٠

ولا عجب فمثل هؤلاء الملوك على صغر بلادهم كانوا مادة العلم والأدب في تلك العصور على نحو ما كانت أسرة ميديسيس في ايطاليا تفضل على العلم والعلماء ، وكثيراً ما كان ملوكنا هؤلاء يحتالون لنشر العلم بطرق غريبة حتى ان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا

السبب جماعة · ومن قرأ المفصل تعلم النحو والأدب معاً · وفي أواخر دولة المعظم عيسى هذا وفي دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل وكثر ذلك فأخمد في الدولة الأشرفية · ولعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهري من الضرب الذي أوعز به ملك مصر الى فقهاء الشام في القرن الثامن كان من جملة ما ارتآه الجامدون من الاسباب للنيل من المجددين ·

وجاء في هذا العصر ابو بكر محمد الانصاري المعروف بشيخ الربوة الدمشقي كان يعرف الرمل والاوفاق ونحو ذلك من العلوم وهو صاحب نخبة الدهر في القوزموغرافيا والجغرافيا المطبوع والسياسة في علم الفراسة (٧٢٧) وابو بكر بن عبد الله بن ايبك صاحب صرخد له تآليف كثيرة · وجاء المؤرخ العظيم تقي الدين المقريزي البعلبكي صاحب خطط مصر واتعاظ الحنفا والتنازع والتخاصم وغيرها وكلها مطبوعة مهمة (٧٦٠) · وشيخ الاسلام محمد الاكمل بن مفلح الدمشقي الفقيه المؤرخ (٧٦٤) ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع وعيون التواريخ (٧٦٤) · وعمر بن الوردي المعروف بابن ابي الفوارس صاحب التاريخ وديوان الشعر والمقامات المطبوعة كان فقيهاً أديباً (٧٤٩) · وعلي بن ابراهيم علاء الدين بن الشاطر الملكي الدمشقي (٧٧٧) ويعرف ايضاً بالمطعم العلكي ، كان أوحد زمانه يعرف تطعيم العاج وعالماً بالهيئة والحساب والهندسة وكانت له ثروة ومباشرات ودار من أحسن الدور وضعاً وأغربها ، وله الزيج المشهور والأوضاع الغريبة التي منها البسيط الموضوع في منارة العروس بجامع دمشق يقال ان دمشق زينت عند وضعه ، وفي تاريخ الصالحية ان ابن الشاطر هو صاحب الاسطرلاب والبسيط وكان له نظر على التوقيت بالجامع وألف الزيج والكرة وله الرسالة عليها · و يعرف علم الحيط في المزولة وتركيبها · والزيج كتاب يحسب فيه سير الكواكب ويستخرج التقويمات اي حساب الكواكب سنة سنة · والاسطرلاب قنطرة مقدار ثلث ذراع تدور ابداً على حركات الفلك على أوضاع مخصوصة تعلم منها الساعات المستوية والزمانية والمنحرفات · فجعل البسيط ابن الشاطر في مأذنة العروس وهذا مما لم يسبق اليه كالمزولة ولكن المزولة لا تكفي في ذلك فجعل البسيط ·

ومن المهندسين محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي والمعلم علي بن محمد التقي المهندس كان معاصراً لابن فضل الله وحدثه باحاديث عن الجامع الأموي • شهاب الدين احمد الحموي النقاش كتب الختمة الشريفة من أولها الى آخرها على خوصة مفصلة الاجزاء والسور • ومن المحدثين الحافظ شرف الدين علي بن محمد اليونيني البعلي (٧٠١) قال الزبيدي وله ولابيه ترجمة حسنة واخوته البدر الحسن والقطب موسى وأمة الرحيم حدثوا ومن ولده الصدر عبدالقادر وعم أبيه الزين عبد الغني وهم بيت علم وحديث • وعمر بن ابراهيم العجمي الحلبي فقيه فرضي حاسب له مصنفات (٧٧٧) وحسن بن عمر بن حبيب الحلبي له عدة تآليف منها درة الاسلاك في دولة الاتراك واكثر كتبه مسجعة (٧٧٩) وعلي بن مظفر الوداعي المقرىء المحدث الكاتب وقف التذكرة الكندية في خمسين مجلداً وضعها في المدرسة السميساطية وهي بخطه في فنون مختلفة (٧١٦) وقاضي القضاة بدمشق شرف الدين عبدالله ابن الامام شرف الدين حسن ابن الحافظ ابي موسى ابن الحافظ الكبير عبد الغني المقدسي (٧٣١) وجلال الدين القزويني امام البيان صاحب المصنفات والمثل السائر في الخطابة (٧٣٩) وضياء الدين علي بن سليم بن ربيعة الاذرعي فقيه أديب نظم التنبيه في الفقه في ستة عشر الف بيت وشعره كثير (٧٣٢) وزين الدين عبدالله ابن مروان الفارقي الخطيب الفقيه (٧٠٣) وشرف الدين احمد بن ابراهيم بن سباع الفزاري الخطيب النحوي المحدث (٧٠٥) وصفي الدين محمد بن ابي بكر الارموي القرافي صاحب التآليف (٧١٤) وشيخ الاسلام صلاح الدين خليل بن كيكلدي الدمشقي ثم المقدسي أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة (٧٦١) وبدرالدين محمد بن جماعة الكناني الحموي له عدة مصنفات (٧٣٣) وشيخ قراء دمشق شهاب الدين احمد بن محمد بن ابي الحزم سبط السلعوس (٧٣١) وشهاب الدين احمد بن البرهان له مصنفات (٧٣٨) • وشمس الدين محمد بن عبد الهادي البحر الزاخر في العلم (٧٤٤) وشيخ القراء ذو الفنون برهان الدين ابراهيم بن عمر الجعبري بالخليل (٧٣٢) وتصانيفه كثيرة • وبدر الدين محمد بن جماعة الكناني الحموي له معرفة بفنون وله عدة مصنفات (٧٣٣) ومحمد بن علي المؤذن المعروف بابن ابي العشائر (٧٨٩) له عدة

مصنفات منها تاريخ قنسرين · وامين الدين عبد الرحمن الفقيه المواقيتي سبط الابهري وكان له يد طولى في الرياضي والوفق والعمليات ومشاركة في فنون (٧٣٣) وشرف الدين هبة الله البارزي الجهني الحموي المؤلف العالم المشهور (٧٣٨) وفخر الدين عثمان ابن محمد البارزي الحموي شرح الحاوي في الفقه (٧٣٠) وشهاب الدين السبكي الفقيه له تآليف (٧٧١) والكمال ابن الزملكاني الفقيه الاصولي العالم بالعربية صاحب الرسائل (٧٢٧) والامير العالم سيف الدين ابو بكر محمد بن صلاح الدين بن صاحب الكرك وكان فاضلاً شاعراً (٧٣٠) وسليمان بن ابي العز الازرعي الفقيه (٧٠٧) والقاسم بن محمد الاشبيلي المحدث المؤرخ (٧٣٩) ومحمد بن سليمان الصرخدي الامام المصنف الجامع بين أشتات العلوم (٧٩٢) وقاضي القضاة جمال الدين يوسف المحجي (٧٣٨) وابن اخيه محمود بن محمد بن جبلة الخطيب ومحمد بن اسماعيل الكفربطناوي من فقهاء المدارس ، ومحمد بن يعقوب المعروف بابن الصاحب الحلبي (٧٦٣) فقيه أديب كاتب ومحمد بن عيسى البعلي كان صاحب فنون (٧٣٠) واسمى بنت محمد بن سالم بن صصري التغلبية المسندة المحدثة (٧٣٣) وزينت بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء · ومن الاطباء سليمان بن داود كبير الاطباء بدمشق (٧٣٢) واحمد بن الصلاح البعلبكي الطبيب في بعلبك صاحب التآليف ·

ومن الشعراء والكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (٧٣٧) والحسن بن علي المحدث الكاتب المجود (٧٣٩) وشهاب الدين محمود الحلبي الدمشقي الحافظ الكاتب الشاعر له تصانيف (٧٥٥) ومحمد بن الحسن الصائغ العروضي الأديب الشاعر له تآليف (٧٢٢) واحمد ابو جلنك الشاعر الحلبي (٧٠١) · ومن كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبي صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل واحمد الانصاري وكمال الدين الزملكاني الى أمثالهم ممن نبطوا العلم ونشروه وأظهروه ·

ويلاحظ ان أعلاماً من العلماء اشتهروا في هذا القرن والذي قبله وبعده ، وكثير منهم نشأ من قرى الجنوب والشمال فكانوا مادة الحواضر ، والقرى ما زالت مادة المدن في الزرع والضرع ، فأصبحت في هذا الدور مادتها في العقل وذكاء الطبع ، ومن مواطنهم اليوم من لا يعرف شيئًا مما يطلق عليه اسم العلم ، وبعضها في جاهلية

جهلاء ، مثل زملكا وحرستا وكفربطنا والمزة ويلدا وداريا وازرع ومحجة ونوى والجيدور وبيرود والبقاع وعجلون وصرخد ومتان وقمرا وحسبان والكرك وجبرين وبونين ، بل وانطاكية وصفد وبعلبك والمعرة وكفرطاب وشيزر . وتوشك بعض تلك القرى ان تدثر ، وأعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر فسبحان من هذا شأنه .

***

العلوم في القرن التاسع — بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع ، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً علمياً عظيماً ، او دل على نبوغ في فرع من فروع العلم ، وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين ، والسبب ان حكومة المماليك البرجية والبحرية كانت تشتد في إرهاق المتفلسفة والمتفقهة على غير الاصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى اربعة أئمة الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي . فكان المخالف قليلاً يعزر على مذهب المالكية والقتل ايسر مراتب التعزير عندهم ، ثم زادت الحال اشتداداً في أوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على البلاد ، وقتله لبعض العلماء ، وحمله معه الى سمرقند كل ممتاز بعلم او صناعة . ومع هذا نشأ في هذا القرن أفراد قلائل في العلم ذكر التاريخ تراجمهم ، ومنهم تقي الدين ابوبكر بن احمد ابن قاضي شهبة صاحب الطبقات وغيره (٨٥١) وشهاب الدين احمد بن علاء الدين حجى الحسباني الدمشقي الحافظ المؤرخ له كتاب سماه الدارس في أخبار المدارس ولعله الأصل لكتاب النعيمي في المدارس وله ذيل على تاريخ ابن كثير وغيره (٨١٥) واحمد بن محمد بن عربشاه له عدة مصنفات في الأدب والتاريخ شاعر كاتب مجيد في اللغات العربية والفارسية والتركية ومن تآليفه عجائب المقدور في أخبار تيمور وهو مطبوع (٨٥٤) وصالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت وامراء الغرب المطبوع كان في أواسط القرن التاسع ونقل عن احمد بن شباط الغربي الأديب المؤرخ ايضاً .

ومن الفقهاء ابراهيم بن محمد العجلوني الفقيه كان في الشاميين نظير البيجوري في المصريين (٨٢٥) وابراهيم بن ابراهيم النووي متميز في الفرائض والحساب ومتعلقاتها له تآليف (٨٥٠) وابراهيم بن علي الحسني البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو والمنطق

والحكمة وأدب البحث وغيرها . وابراهيم بن محمد بن مفلح فقيه (٨٠٣) وعبد الله بن مفلح رئيس الحنابلة في زمانه (٨٣٤) وتقي الدين الحصني عالم له مصنفات في الفقه وغيره (٨٢٩) وابو بكر محمد بن مزهر الدمشقي الفقيه انتهت اليه رياسة عصره (٨٣٢) وعلاء الدين البهائي الغزولي عالم دمشق (٨٨٥) له كتاب مطالع البدور في منازل السرور مطبوع . و برهان الدين ابراهيم البقاعي ترك مائة مؤلف كان اماماً بالعربية والأدب والدين والتاريخ نظم الدرر في تناسب الآي والسور في التفسير وعدة تواريخ للرجال . وعبد الله التنوخي اللبناني المعروف بالسيد فقيه أديب مشارك في الطب والفلك (٨٨٤) .

ونشأ في هذا القرن شمس الدين احمد الطولوني كبير المهندسين وكان ابوه وجده مهندسين على ما في الضوء اللامع . وخليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقي صنف تاريخاً للحوادث وغيره (٨١٥) وبدر الدين محمود العيني (٨٥٥) الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات في التاريخ وغيره . ونور الدين عبد الرحمن ابن العيني عالم دمشق في هذا القرن . وشهاب الدين احمد المقدسي المشهور بابن زوجة ابي عذيبة (٨٥٦) صاحب تاريخ دول الاعيان . واحمد بن حجر العسقلاني الفقيه المحدث المؤرخ (٨٥٢) صاحب تاريخ الدرر الكامنة وإنباء الغمر . واحمد بن خليل المعروف بابن اللبودي عالم مفنن له أدب وشعر وبعض تآليف (٨٩٦) واحمد بن المحوجب عالم بالدينيات واللسانيات . واحمد بن عبد الله العامري فقيه اصولي له تآليف . واحمد بن محمد الكشك عالم فقيه (٨٣٧) وزين الدين بن رجب الحنبلي له عدة مصنفات . وابو العباس المالكي الفقيه العالم المفنن له عدة مصنفات . وعبد الرحمن العيني فقيه عالم بعلوم اللسان له عدة مصنفات (٨٩٣) وعبد الرحيم بن عبد الرحمن الحموي فقيه أديب له بعض مصنفات . ومحمد بن خليل القباقبي الحلبي (٨٤٩) امام في القراآت صنف فيها . وعبدالله ابن قاضي عجلون فقيه عالم بالمعقولات (٨٦٥) وقاضي القضاة شهاب الدين العوني الناصري خطيب الخطباء (٨١٥) . وصدقة الجيدوري المقري (٨٢٥) ونور الدين ابو الثناء خطيب الدهشة استوطن حماة له تآليف كثيرة . وشيخ الاسلام محمد الجزري الدمشقي المقري صاحب

المصنفات الجليلة في القرآآت (٨٣٣) . وعائشة بنت عبد الهادي محدثة دمشق (٨١٥) وابو البقاء البدري له تآليف (٨٨٧) وعلاء الدين ابن خطيب الناصرية الحلبي المؤرخ (٨٤٣) . وتقي الدين ابوبكر بن علي بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة وثمرات الأوراق وغيرهما وهما مطبوعان وكان رئيس أدباء عصره (٨٣٧) . وزين الدين ابن الشحنة الحلبي الفقيه المؤرخ (٨١٥) كتب في عدة فنون وله أراجيز في اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض . ومحمود ابن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب (٨٩٠) له عدة تآليف منها الدر المنتخب في تاريخ حلب طبع مختصره . واحمد السرميني الحلبي الفلكي (٨٢٤) علم في الهيئة وحل الزيج وعمل التقاويم . وعبد الملك البابي الحلبي (٨٣٩) علم بالقرآآت له نزهة الناظرين في الأخلاق . وشيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام السعدي المقدسي العالم الرحلة صاحب التآليف (٨٥٠) . والبدر البشتكي محمد بن ابراهيم الدمشقي (٨٣٠) . وعلي بن خليل الطرابلسي (٨٤٤) له كتاب في الفقه اسمه معين الحكام . وابن حبيب الحلبي (٨٠٨) فقيه حلب له عدة مصنفات . وجمال الدين عبد الله بن جماعة المقدسي أحد الائمة الأعلام صاحب التآليف (٨٦٥) . والبرهان الحلبي المحدث (٨٤١) وتقي الدين عبد الله توقشندي المقدسي عالم زمانه في الارض المقدسة (٨٦٧) .

ومن علماء السريان نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة في حلب أواخر القرن الخامس عشر . وقد امتاز هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال الدويهي في حوادث سنة ٨٧٥ هـ : وقد أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم فاذاهم ينيفون على مئة وعشرة وفي ذلك الوقت أهملوا الخط الاسترنكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور .

***

إنحطاط العلم والأدب في القرن العاشر — زاد انحطاط العلم في القرن العاشر ، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار مثل القرنين السالفين ، وكانت الآداب تسير اذ ذاك بقوة التسلسل منبعثة قوتها من تاريخها القديم القويم ، واذ اختلف لسان الحاكم والمحكوم عليه ، وخصت

الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك ، مالت النفوس عن العلم ، اللهم الا من كانت لهم فطر سليمة عشقوه لفائدته في تهذيب النفس ، والتحلي بالفضائل وقليل ما هم . فقد ذكر المقدسي ان أهل الدولة العثمانية كانوا لا يعولون المدارس في الشام احداً من أبناء العرب، زاعمين ان العلماء في العرب كثير وانهم ان ولوا عربياً من غير طريقهم ، كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن إرضائهم ، وضاق الامر على ملازمي الروم . وحصر الترك عنايتهم بالاستانة كما حصروها من قبل ببورصة ، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم ، بل جامعة ذاك العصر ، كما قال جودت . وكان العلماء بعد الفتح العثماني يأتون الى القسطنطينية زرافات ، ولذلك لم يكن حظ للولايات دع البعيدة من عناية الدولة العثمانية بها وترقيتها في العلم والآداب . أراد الفاتح ان يعوض دار ملكه ما فقدته من العلماء الروم بسقوط الدولة البيزنطية ممن رحلوا الى بلاد الافرنج ولا سيما ايطاليا ونشروا فيها بعض المعارف الطفيفة . وفي التاريخ العام ان الناس بالغوا بتأثير اليونان الذين جاؤوا من القسطنطينية الى الغرب بعد الفتح التركي وبما أثروه في حركة النهضة فقد عد التاريخ منهم عشرة وكثير منهم كانوا من الفقراء الذين لم يرزقوا قرائح ولا شهرة .

وتسلسل العلم الديني في بعض البيوت بدمشق في هذا القرن والذي بعده على صورة غريبة مثل بني الغزي وحمزة وفرفور والعمادي والنابلسي ومفلح فكان ذلك من آكد أسباب النجاح ، وممن نبغ بدمشق محمد بن محمد الغزي العالم بعلوم اللسان وغيرها وله عدة مصنفات (٩٣٥) . ومحمد بن بدر الدين الغزي الفقيه المفسر النحوي المحدث المقرئ الاصولي النظار المؤرخ وله مئة وبضعة مصنفات (٩٨٤) . وعبد الرحمن بن فرفور عالم بالتاريخ والأدب (٩٩٢) . ومحمد بن حمزة امام في الدينيات (٩٣٣) . وعلي بن اسماعيل بن عماد الدين الفقيه (٩٧١) . واسماعيل النابلسي العالم في المعقولات والمنقولات (٩٩٣) . وابراهيم بن عمر بن مفلح فقية (٩١٧) . وشمس الدين محمد بن علي بن طولون النحوي الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة في التاريخ على اختلاف ضروبه (٩٥٣) . وعبد القادر النعيمي المؤرخ المحدث الف كتباً كثيرة منها الدارس (٩٢٧) . وعبد الباسط العلموي اختصر بعض كتب النعيمي

وزاد عليها ومنهـا مختصر الدارس (٩٨١) . وابن سكيكر الدمشقي المؤرخ له زبدة الآثار في ما وقع لجامعه في الاقامة والأسفار (٩٨٧) . وبهاء الدين محمد بن يوسف الباعوني ومؤلفاته مثل مؤلفات عمه أراجيز تاريخية (٩١٠) . ومن علماء القرن في دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التآليف (٩٥٠) . ومحمد ابن مكي عالم بالطب والهيئة والهندسة والفلك (٩٣٨) . وابوبكر البـلاطنسي عالم في الدينيات (٩٣٦) . وابوبكر بن محمد القاري فقيه متكلم اصولي نحوي مقرئ (٩٣٥) وابو الفتح البستري له يد طولى في علم الدين (٩٦٢) . واحمد بن محمد الشويكي عالم ديني له تآليف (٩٦٦) . واسماعيل الكردي البـاني عالم في المعقولات (٩٥٦) . وعثمان الآمدي عالم في المعقولات خطيب متفنن (٩٨٥) . ومحمد بن محمد بن عماد الدين عالم في الدينيات (٩٨٦) . واحمد بن احمد الطيبي الفقيه النحوي له عدة مصنفات (٩٧٩). وأسد الشيرازي عالم في البلاغة والعربية والمنطق والاصلين بارع في الفقه (٩٩٨) . ومحمد بن هشام نحوي (٩٠٧) . ومحمد بن منيعة عالم قوال بالحق (٩ ٤) . ومحمد الكنجي له يد في النحو والحساب والميقات والقرآن (٩٣٢) . ومحمد الكفرسوسي عالم فقيه (٩٣٢) . ومحمد الميـداني عالم بالقراآت والعربية له عدة مصنفات (٩٢٣) . وابراهيم ابن الهلالي فقيه محدث (٩١٦) . وابو بكر ابن قاضي عجلون امام مفنن (٩٢٨) . ويوسف بن حسن المبرد عالم مصنف (٩٠٩) .

وجاء في القدس عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي صاحب تاريخ القدس والخليل المطبوع . و برهان الدين المقدسي الفقيه الأديب له عدة مصنفات (٩٢٢). وفي غزة ابو عبد الله محمد بن قاسم الغزي (٩١٨) له كتب في الفقه والاصول وغيرها . و برهان الدين ابراهيم بن يوسف الحنبلي المعروف بابن الحنبلي له عدة كتب (٩٥٩) . وفي دمشق يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) الفقيه المؤرخ صاحب الرسائل . وفي حلب رضي الدين محمد ابن الحنبلي المؤرخ العالم له عدة تآليف منها في تاريخ حلب (٩٧١) . ومحمد بن علي شمس الدين الحلبي المعروف بابن الطباخ وكان واحداً في التجارة سفراً وحضراً وعني بسماع الحديث وحفظ تواريخ من أدركه

من المتقدمين والمتأخرين (٩٦٨) . وعبد البر ابن الشحنة الحلبي الاصولي الفقيه (٩٢١) . وزين الدين عمر الشماع الحلبي المؤرخ المحدث له عدة مصنفات جيدة (٩٣٦) . وفي الرملة شمس الدين الرملي العالم الفقيه (٩٢٣) . وفي حماة نور الدين محمود بن ابي بكر المصري الحموي الحلبي الفقيه . وفي دمشق هاشم بن السيد ناصر الدين السروجي الحلبي الحسيني رئيس الأطباء بالمستشفى النوري (٩٦٤) . وفي حماة محب الدين بن داود الحموي له تآليف . وفي دمشق المؤرخ موسى بن يوسف بن أيوب القاضي شرف الدين الدمشقي الشافعي ألف تاريخاً في مجلد وتذكرة في مجلدين (١٠٠٠) .

ومع انحطاط محسوس في حركة العقول في هذا العصر كان في الشام بعض النساء العالمات مثل فاطمة بنت قرقماس شيخة المدرستين العادلية والزجاجية معاً انتهت اليها رياسة أهل زمانها بحلب اخذت العلم عن زوجها (٩٦٦) . وعائشة الباعونية الدمشقية المحدثة المتصوفة الشاعرة المجيدة لها عدة تآليف ومنها البديعية وشعرها لطيف (٩٣٢) .

وفي نهر الذهب انه كان قدوم الرهبنة الفرنسيسكانية الى حلب سنة ٩٨٩ هـ (١٥٧٠ م) وقد أقاموا في قيسارية الشيبان اتخذوها ديراً لهم .

* * *

الآداب في القرن الحادي عشر — اما القرن الحادي عشر فهو شبيه بتاليه وسالفه من حيث قلة الإبداع والتجدد والاكتفاء بالموجود ، لكن عدد العاملين والمتأدبين كان أكثر على ما يظهر او انه دوّن كله ولم يفقد ، فقد نشأ في دمشق احمد بن محمد الغزي عالم بالدينيات وله بعض التآليف (١٠١٧) . ومحمد اكمل الدين بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ كتب تاريخاً ترجم فيه معاصريه وله تعليقات تاريخية مهمة (١٠١١) . والنجم محمد الغزي محدث الشام صاحب التآليف منها في التاريخ وتراجم الرجال (١٠٦١) . واحمد بن سنان القرماني الأديب المؤرخ صاحب التصانيف وله تاريخ آثار الدول المطبوع (١٠١٩) . وعبدالوهاب الفرفوري الفقيه (١٠٧٣) . واحمد بن ابي الوفاء بن مفلح الحنبلي الفقيه المحدث عارف بالفرائض

والحساب والتاريخ (١٠٣٨) . ومن الفقهاء محمد الداودي (١٠٠٦) . ومن علماء العربية محمد الخوخي (١٠٢٢) . وفي الفقه محمد الحصكفي صاحب التصانيف في الفقه وغيره (١٠٨٨) . ومحمود الباقاني له عدة تصانيف (١٠٠٣) . وابو بكر بن عبد المعروف المعروف ابوه بملا جامي من محققي علماء الاكراد (١٠٧٧) . واحمد بن محمد الزريابي فقيه المالكية (١٠٥٠) . وكمال الدين بن مرعي العيثاوي الفقيه (١٠٨٦) . ورمضان العطيفي الفقيه النحوي الراوية (١٠٩٥) . وعبد الباقي بن فقيه فصة محدث مقرئ أثري (١٠٩١) . ويحيى الشاوي له تآليف . وشمس الدين بن بلبان عالم بالسنة (١٠٨٣) . والشاكر الحموي كان متصوفاً ناظماً وناثراً وله ديوان في ثلاث مجلدات .

ومن أدباء هذا القرن وشعرائه ابو بكر بن منصور العمري شيخ الادب (١٠٤٨) وابراهيم الصالحي الشاعر المعروف بالاكرمي (١٠١٢) . وعمر بن محمد المعروف بابن الصغير شيخ الأدب بالشام بعد شيخه ابي بكر بن منصور العمري شاعر مجيد عارف باطب (١٠٦٥) . وابراهيم الفتال الشاعر (١٠٩٨) . وابو بكر بن احمد المعروف بابن الجوهري . ومحمد الكريمي (١٠٦٨) . وعبد الكريم الطاراني الشاعر الكاتب المؤرخ (١٠٤١) . وعبد اللطيف البهائي شاعر متفنن (١٠٨٢) . وعبد اللطيف ابن المنقار شاعر (١٠٥٧) . والحسن البوريني الشاعر اللغوي له تآليف منها تراجم رجال عصره وشرح ديوان الفارض وهذا مطبوع (١٠٢٤) . واحمد العناياتي الشاعر (١٠١٤) . واحمد بن الشاهيني الأديب اللغوي (١٠٥٣) . واحمد الصفوري الشاعر الأديب المؤرخ (١٠٤٣) . واحمد بن محمد بن المنقار أديب شاعر (١٠٣٢) واسماعيل النابلسي الفقيه له بعض التآليف (١٠٦٢) . ودرويش محمد بن احمد الطالوي الدمشقي الأديب (١٠١٤) . ومنجك بن محمد بن منجك صاحب الديوان المطبوع (١٠٨٠) . وشهاب الدين العمادي شاعر منشئ (١٠٩٨) . وعبد الحي العكري المعروف بابن العماد مصنف أديب مفنن اخباري أثري (١٠٨٩) . وعبد الرحمن بن النقيب منشئ شاعر (١٠٨١) . وابراهيم العمادي احد بلغاء الشام

المذكورين (١٠٩٨) . واحمد بن المنلا النخجواني الملقب بالمنطقي شاعر ناثر فقيه ينظم وينثر في الألسن الثلاثة .

وظهر في دمشق في العلوم والفنون بضعة أفراد منهم علاء الدين بن ناصر الدين علي الطرابلسي عالم بالرياضيات والقراآت والفرائض والفقه وله تآليف (١٠٣٢) . وعمر بن محمد القاري عالم مفنن له باع في الهيئة (١٠٤٦) . وعمر بن يحيي المعروف بالدويك كان عارفاً بفنون عديدة منها الرياضيات والفلك والميقات وله شعر (١٠٨٣) ومحمد بن يونس الطيب الحطيب (١٠٠٨) . والمنلا محمود الكردي عالم في كثير من الفنون (١٠٤٧) . وابن الحكيم المصاحب ابوبكر بن محمود رئيس أطباء دمشق وخطيب أمويها عالم في العلوم الغريبة مثل علم الوفق وعلم الحرف وله يد طولى في العقليات (١٠٠٧) . وعبد القادر بن عبد الهادي رياضي فقيه اصولي (١١٠٠) . وعبد الحي بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (١٠٨٩) . وابراهيم بن الأحدب الزبداني نزيل صالحية دمشق محدث فرضي رحلة أخذ الفرائض والحساب عن العلامة محمد النجدي و يلحق بابن الهائم في هذين العلمين (١٠١٠) . ونشأ في هذه المدينة أيوب الحلوتي من المتصوفة له في التصوف رسائل (١٠٧١) . ومن الخطباء الشهاب احمد بن يحيي الهنسي الخطيب ابن الخطيب ابن الخطيب . واحمد بن محمد البصراوي شمس الدين و يعرف بابن الامام (١٠٠٣)

وجاء في البلاد الاخرى ابو الجود عبد الرحمن الحلبي البتروني كان محققاً في المذهب والتفسير والبحث نظاراً (١٠٣٩) . وابو الوفاء محمد بن عمر العرضي الحلبي أحد أعيان العلماء في المعرفة والاتقان والحفظ والضبط له تاريخ معادن الذهب وله رسائل وتآليف (١٠٧١) . ومحمود البيلوني الحلبي كان اذا تكلم في فن من العلم يقول سامعه لا يحسن غيره (١٠٠٧) . وفتح الله البيلوني الحلبي له عدة مصنفات وحواش ومجاميع وشعر (١٠٤٢) . ونور الدين بن برهان الحلبي صاحب السيرة الحلبية وغيرها من الحواشي والشروح والرسائل (١٠٤٤) . وعلي البصير له كثير من التآليف في الفقه وغيره من المعارف (١٠٩٠) . ومحمد بن حسن الكواكبي رئيس حلب في الفنون والعلوم النقلية والعقلية الف مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير وهو شاعر

مجيد (١٠٩٦) . وتاج الدين عبد الوهاب بن رجب امام في العربية (١٠١٥) . وعلي البصير الحموي له تآليف في الفقه وغيره . ومحمد بن ابي بكر الملقب محب الدين الحموي له تآليف عديدة في الفقه والتفسير والعربية ورسائل ورحلات وكان عالمًا بالفرائض والحساب والمنطق والحكمة والزايرجا والرمل وهو جد الشيخ محمد المحبي مؤلف خلاصة الأثر (١٠١٦) .

ومن علماء السريان اندراوس اخيجان الحلبي أول بطاركة الكاثوليك . وابو السعود الكوراني الحلبي الشاعر الأديب (١٠٥٦) . واحمد بن خليل الاطامي الحمصي الفقيه مفتي حمص وعالمها (١٠٠٤) . واحمد بن النقيب الحلبي الأديب المتفنن (١٠٥٦) . وباكير بن احمد المعروف بابن النقيب الحلبي لم يكن في حلب من أدباء عصره اكثر رواية منه للنظم والنثر (١٠٩٤) . وبشير بن محمد الحلبي القدسي الأديب الشاعر لم يكن في زمنه من أقرانه من يدانيه فيه الا شرف الدين العسيلي (١٠٦٠) . وتقي الدين التميمي الغزي صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية وهو عالم وأديب (١٠١٠) . وحسن بن محمد ابو الفوارس الحموي المعروف بابن الأعوج امير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند احد من امراء عصره . وحسين الجزري الحلبي الشاعر (١٠٣٣) . وحسين بن عبد الله المعروف بالمملوك متصوف عالم متبحر (١٠٣٤) . وخير الدين الرملي الامام المفسر المحدث الفقيه اللغوي صاحب التآليف والفتاوي ومنها المطبوع (١٠٨١) . ورجب بن علوان الحموي امهر ما كان في العلوم الرياضية كالهيئة والحساب والفلك والموسيقى وغيرها (١٠٨٧) . وسرور بن سنين الحلبي شاعر (١٠٢٠) . وصالح بن سلوم الحلبي رئيس الأطباء (١٠٨١) . وصلاح الدين الكوراني الحلبي شاعر (١٠٤٩) . وعبد الحق الحمصي الملقب زين الدين الحجازي عالم بالمعقولات . وعبد الله بن حجازي الحلبي الشهير بابن قضيب البان شعره وانشاؤه في الألسن الثلاثة مطبوع وله تآليف (١٠٩٦) . وفتح الله النحاس الحلبي الشاعر (١٠٥٢) . ومحمد القاسمي الحلبي شاعر ناثر (١٠٥٤) . ومحمد الكواكبي الحلبي عالم في المنقول والمعقول (١٠٩٦) . ومحمد بن عبد القادر المنعوت شمس الدين الشهير بالحادي الصيداوي

أديب فقيه (١٠٤٢) . ومحمد التمرتاشي الغزي رأس الفقهاء الحنفية له التآليف المفيدة الكثيرة (١٠٠٤) . ومحمد بن علي المعروف بالحريري و بالحرفوشي العاملي الدمشقي اللغوي النحوي الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (١٠٥٩) . ومحمد البيلوني الحلبي راوية للشعر والوقائع خبير بصنعة النقد أديب (١٠٨٥) . ومحمد بن محمد الملقب نجم الدين الحلفاوي الحلبي أديب بليغ (١٠٥٤) . وعلاء الدين محمد العسيلي القدسي له تصانيف دينية . وموسى الرام حمداني الحلبي البصير متفنن في الرياضيات والعلوم الحكمية وعلم الحرف والأخبار والأدب (١٠٨٩) . و بهاء الدين العاملي الفقيه الأديب صاحب المخلاة والكشكول وغيرهما من كتب الأدب وهي مطبوعة . ومحمد بن شمس الدين الفصي البعلبكي الفقيه وآباؤه كلهم رؤساء العلم في تلك الناحية وله تآليف (١٠٢٤) . وابو الوفاء بن معروف الحموي له تآليف (١٠١٦) . ومنلا حسين الأشقر كان جامعاً لأنواع الفنون (١٠٤٢) . وعبد القادر ابن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفاً (١٠٤٠) . وعبد النافع بن عمر الحموي كان متضلعاً من العلوم شاعراً (١٠١٦) . وداود الانطاكي ويعرف بالشيخ الصوري (١٠٠٥) الف كتاباً عظيماً في الطب سماه تذكرة اولي الألباب ، والتذكرة وغيرهما وهذا مطبوع . وتقي الدين الغزي التميمي (١٠٠٥) له الطبقات الحنفية .

***

العلوم والآداب في القرن الثاني عشر	دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد ، الا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً

لا ابداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفاً عن سلف ، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و « صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير » . كما قال احد العارفين بذاك القرن . وأصبح القوم الا قليلاً ممن عصم الله كما قال حجة الاسلام الغزالي ، والهمهم عواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم

رعونتهم ، وارادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم اغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم …

جاء في عاصمة البلاد زمرة من العلماء منهم ابراهيم بن حمزة محدث لغوي (١١٢٠). وابو الاسعاد بن أيوب محقق في علوم جمة مبرز في علوم الابدان (١١٠٦) . وابو الصفا المفتي فقيه مفسر نحوي . واحمد بن حسين باشا الكيواني أديب كاتب صاحب الديوان المطبوع (١١٧٣) . قال المرادي: وهو في هذا القرن اي الثاني عشر كالامير منجك المنجكي في القرن الماضي بل أرجح ، وان لم يكن أرجح منه فهو مقارن له . واحمد بن عبد الكريم الغزي فقيه نحوي له تآليف (١١٤٣) . واحمد بن علي المنيني المحدث اللغوي النحوي الأديب له تآليف منها شرح تاريخ اليميني المطبوع (١١٧٢). واحمد شاكر الحكواتي شاعر رحلة (١١٩٣) . واحمد الفلاقنسي أديب منشئ (١١٧٣) . واحمد المهمنداري فقيه مفنن له شعر وأدب (١١٠٥) واحمد البهنسي فقيه أديب (١١٤٨) . واحمد البقاعي أديب مفنن شاعر (١١٧١) . وأسعد الطويل أديب (١١٥٠) . واسماعيل الحائك فقيه عالم (١١١٣) . واسماعيل العجلوني رحلة له يد في العلوم لا سيما الحديث والعربية وله تصانيف (١١٦٢) . وحامد العمادي فقيه فرضي شاعر أديب له تآليف . وخليل الحصاني له يد في العلم ولا سيما التفسير (١١٢٣) . وزين الدين البصروي عالم أديب (١١٠٢) . وسعيد الجعفري عالم أديب له شعر (١١٨٣) . وسعيد السمان لغوي شاعر ناثر مجيد له تآليف (١١٧٢). وسعدي العمري شاعر ناثر (١١٤٧) . وسعدي بن حمزة محدث فرضي حيسوب مهندس مساح (١١٣٢) . وسليمان الحموي المعروف بالسواري كاتب شاعر (١١١٧). وصالح الجنيني محدث فقيه (١١٧٠) . وعبد الجليل المواهبي عالم في المعقولات (١١١٩) . وعبد الرحمن الصناديقي فقيه اصولي نحوي (١١٦٤) . وعبد الرحمن الغزي فقيه فرضي نحوي شاعر (١١١٨) . وعبد الرحمن الكيلاني عالم مدقق شاعر ناثر (١١٧٢) . وعبد الرحمن البهلول شاعر لغوي أديب (١١٦٣) . وعلي الطاغستاني عالم محقق مفنن (١١٢٩) . ومحمد الدكدجي صوفي مقرئ متفنن (١١٣١) . ومحمد

الكفيري فقيه أديب (١١٥٠) . ومحمد الغزي فقيه أديب مؤرخ نسابة (١١٦٧) .
ومحمد امين المحبي عالم أديب مؤرخ له تآليف منها خلاصة الأثر المطبوع (١١١١) .
ومحمود الجزيري عالم في الزايرجا والحرف والاوفاق والرياضيات (١١٤١) . ومحمود العبدلاني عالم محقق (١١٧٣) . ومراد المرادي عالم في المعقول والمنقول له تآليف (١١٣٢) . ومكي الجوخي عالم أديب متضلع له شعر وكتابة (١١٩٢) . ومصطفى اللقيمي عالم فرضي حيسوب ناظم ناثر (١١٨٧) . ومصطفى البكري عالم بلغت مؤلفاته ٢٢٣ مؤلفاً بين مجلد وكراسين وأقل وأكثر وله نظم كثير وقصائد خارجة عن الدواوين تقارب اثني عشر الف بيت (١١٦٢) . ومصطفى العلواني الحموى أديب ناثر ناظم (١١٩٣) . ومصطفى السفرجلاني متفنن في العلوم الحكمية له رسائل في المنطق والفلسفة والحكمة والكلام وشعر ونثر (١١٩١) . وموسى المحاسني عالم محقق (١١٧٣) . وعبد الرحيم المخللاتي عالم في الفرائض والحساب والفلك (١١٤٠) .
وعبد الرحمن الكابلي عالم محقق (١١٣٥) . وعبد الرحيم الطواقي فقيه نحوى فرضي له بعض تآليف ورسائل (١١٢٣) . وعبد الرزاق الرومي فقيه له تآليف . وعبد السلام بن محمد المعروف بالكاملي او الكامدي فقيه اصولي نحوى أديب (١١٤٧) .
وعبد الغني النابلسي امام في التصوف والفقه والتفسير وعلوم الأدب وله تآليف كثيرة ونظم ونثر المطبوع منها شرح الطريقة المحمدية والبديعية وكتاب في الزراعة وديوان (١١٢٦) . وعبدالفتاح بن مغيزل أديب طبيب (١١٩٥) وعبد القادر التغلبي فقيه فرضي (١١٣٥) . وعبد القادر الكردى عالم محقق له ثلاثون تأليفاً (١١٧٨) .
وعبد الله البصروى عالم محقق في العلوم والفنون مؤرخ (١١٧٠) . وعبد الله الطرابلسي أديب شاعر له تآليف ورسائل (١١٥٤) . وعبد الله المكتبي محقق في الحساب والفلك والهيئة والتقويمات (١١٦٢) . وعثمان الشمعة عالم بالدينيات وعلوم الأدب (١١٢٦) . وعثمان القطان عالم بالعقليات والنقليات (١١١٥) . وعمر البغدادى عالم محقق متصوف له رسائل وتآليف (١١٩٤) . وعمر الرجيحي كاتب أديب (١١٣٠) . وعلي العبادى عالم أديب (١١١٧) . وعلي التدمرى فقيه نحوي فرضي عالم بالحرف والزايرجة والوفق (١١٣١) . وعلي كربر عالم رحلة مقرئ (١١٦٥) .

ومحمد بن عيسى بن كنان مؤرخ أديب (١١٥٣) · ويوسف بن محمد الطرابلسي رئيس الأطباء ·

هذا غاية ما يقال في رجال دمشق اما في المدن الاخرى فقد نشأ في حلب طه الجبريني المفسر المحدث العالم بالمعقولات (١١٧٨) · واحمد الكواكبي الفقيه المفسر الشاعر الأديب (١١٢٤) · وابوالسعود الكواكبي العالم المحقق الشاعر (١١٣٧) · وبنو الكواكبي وبنو الشحنة في حلب من البيوت التي تسلسل فيهما العلم عدة قرون · والمطران جرمانوس فرحات (١١٤٥) كان يحسن عدة لغات وله تآليف بالسريانية والعربية (طبع منها كتابه في النحو) وهو تلميذ عالم عصره وفقيه مصره الشيخ سليمان الحلبي · وعبد الله زاخر (١١٦٢) مترجم الانجيل وطابعه · وعبداللطيف الاطاسي الحمصي الأديب عالم بالكيمياء والاوفاق وغير ذلك من الفنون الغريبة وله شعر كان حياً سنة ١١٤٠ · والبطريرك ميخائيل جردة الحلبي · والايكونيموس بطرس التولوي · والقس يوحنا زندو الحلبي · وعطاء الله زندو عبد المسيح لبيان الشاعر · والشاعران ميخائيل جبارة وانطون ذكرى · والخوري يوسف الشراباتي · والخوري يواكيم البعلبكي الواعظ له تآليف (١٧٨٢م) ·

واحمد العكي العالم الفقيه له تآليف كثيرة وشعر وأدب (١١٤٧) وعبد الله الاطرابلسي المعروف بالافيوني الفقيه له عدة تآليف وشروح (١١٥٤) · وعبد المعطي الحلبي له فتاوى ورسائل كلها منتخبة (١١٥٤) · وابراهيم الحاقلي له عدة تآليف ترجم عدة كتب من العربية الى اللاتينية منها كتاب ابلونيوس في الهندسة ومختصر في الفلسفة الشرقية (١٦٦٤م) وعدد تآليفه ٦٤ · البطريرك اسطفان الدويهي العالم المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع (١٧٠٤م) · وعلي البرادعي البعلي الواعظ كان جده الاعلى جلال الدين من العلماء الاجلاء · ومحمد التاجي الحنفي صاحب الفتاوى التاجية الفقيه (١١١٤) · والسمعاني اللبناني كتب بالعربية واللاتينية منها المكتبة الشرقية (١٧٦٨م) وله شهرة في ايطاليا واسبانيا وتآليفه كثيرة قال الدبس : بعد ان عدد تآليفه وأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وان كان مغرماً بالمطالعة عن ان يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه من باقي أعماله · والقس يوسف الباني

الحلبي ترجم عدة كتب الى العربية في الدين المسيحي • والبطريرك مكاريوس الحلبي نبغ في أواسط القرن السابع عشر للميلاد وهو صاحب الرحلة الى القسطنطينية وبلغاريا وروسيا •

***

العلم والأدب في القرن الثالث عشر } كان القرن الثالث عشر تتمة القرن الثاني عشر ، ولكن فيه بطء وضعف ، نشأ فيه من دمشق محمد بن حسين الحلبي العطار العالم بالرياضيات والفنون (١٢٤٣) اتهم بالتساهل في دينه فالتزم بيتــه فألف عدة رسائل بالفنون الحربية والفلك والحساب طبع بعضها • واحمد الكزبري العالم بالكتاب والسنة (١٢٤٨) • واحمد المنيني الفقيــه المحــدث (١٢٥٦) • واحمد بن اسماعيل بيبرس فقيــه (١٢٤٧) • واسعد المنير فقيــه (١٢٤٢) • وحامد العطار المحدث المفسر (١٢٦٣) • وكمال الدين الصمادي الجرائحي الدمشقي له تآليف في التاريخ (١٢٠٩) • وحسن جينة فقيه أديب له رسائل في الأخلاق (١٢٠٦) • وخليل الخشة فقيــه (١٢٤٢) • ورضاء الدين الحلبي فقيه (١٢٨٦) • وشاكر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب (١٢٢٢) • وصالح الدسوقي له بعض رسائل في الفقــه والأدب (١٢٤٦) • وعبد الرحمن الكزبري الفقيــه المحدث (١٢٦٢) • ومكسيموس مظلوم له خمسون تأليفاً ومعرباً (١٨٥٥ م) • ويوسف مهنــا الحداد عالم بالدينيــات والتاريخ والرياضيات يعرف اليونانية والعبرانيــة (١٨٦٠م) • وحسين الغزي الحلبي أديب (١٢٧١) • وانطون المخلع أديب يحسن الفــارسية عرب الكلستان للشيخ سعدي مطبوع (١٨٥١م) • وعبد القــادر العمادي فقيه (١٢٢٨) • وعبد الغني السقطي عالم مفنن (١٢٤٦) • وعمر الغزي فقيه (١٢٧٧) • وقاسم الحلاق فقيه مفسر محدث شاعر ناثر (١٢٨٤) • وكمال الدين الغزي عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (١٢١٤)• ومحمد الخللاتي فرضي موقت فلكي (١٢٠٧) • ونجيب القلعي فقيه (١٢٤١) • ومحمد عابدين فقيه واسع المادة صــاحب التآليف والرسائل المتقنة منهــا حاشيته المشهورة ورسائله وفتاويه وكلها مطبوع • وعبد الغني الميداني عالم بالاصول والفقه وفنون

العربية (١٢٩٩) . وعبد السلام الشطي شاعر فقيه (١٢٩٥) . ومصطفى المغربي التهامي عالم أديب شاعر (نحو سنة ١٢٨٠) . وعبد القادر الحسني الجزائري عالم بالتصوف والأخلاق والدين وله شعر ونثر وتآليف ومنها المواقف ورسائل منها مطبوع (١٣٠٠) .

ونشأ في حلب محمد نور الترمانيني (١٢٥٠) له عدة شروح على بعض كتب الآلات والأدب وله شعر وأخوه احمد الترمانيني (١٢٩٣) خلّف عدة تآليف وحواش وشروح ومنها كتاب الجامع في الكيمياء . ورزق الله حسون (١٨٨٠م) كاتب شاعر ضليع بالعربية وفنونها وله رسائل جيدة وهو اول من أنشأ صحيفة عربية بالاستانة . وفرنسيس مرّاش الأديب له عدة تآليف وديوان شعر (١٨٧٣م) . وعمر الانسي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٢٩٣) . وامين الجندي الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (١٢٥٧) . وبطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (١٨٥١م) . وناصيف اليازجي الشاعر اللغوي الأديب صاحب المقامات والديوان وغيرهما من كتب النحو والبيان وكلها مطبوعة اشتهر في هذا العصر كثيراً (١٨٧١م) . ونقولا الترك شاعر أديب له ديوان شعر وتاريخ حملة الفرنسيس على مصر والشام مطبوع وغيره . ومحمد الحوت البيروتي فقيه محدث له كتاب في الحديث (١٢٧٦) . وحسين بيهم البيروتي أديب له ديوان شعر (١٢٩٢) . ومحمد النصري كان في حدود المائتين والالف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب . ونصر الله الطرابلسي شاعر (١٨٤٠م) . واحمد البربير البيروتي شاعر عالم كبير له عدة مؤلفات طبع بعضها (١٢٢٦) . وحيدر احمد الشهابي اللبناني (١٨٣٤م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب اليه المطبوع . ومحمد ارسلان اللبناني له مؤلفات في الفلك والتاريخ (١٨٦٤م) . وناصيف المعلوف الأديب الكاتب ألف ٣٦ مؤلفاً طبع اكثرها . ونوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي له كتب في التاريخ والأدب . وعمر اليافي متصوف له ديوان شعر (١٢٣٤) . ومحمد الدباغ له عدة مصنفات (١٢٨٨) .

***

العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر
وفي النصف الثاني من هذا القرن بدأت تباشير العلوم الرياضية والطبيعية ، وكانت انحطت انحطاطاً أشبه بالإندراس ، تقبل على بلاد الشام من طريق الديار المصرية ، بواسطة النهضة التي انبعثت بعناية محمد علي عزيز مصر ومؤسس بنيان مملكة النيل ، فانه أنشأ مدارس للهندسة والطب والترجمة والفنون الجميلة والحربية والبحرية وغيرها ، فتخرج فيها كثير من المصريين وبعض أفراد من الشاميين ، وأخذت تسري من أنوارها أشعة نافعة على بلاد الشام .

ثم ان الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية في الاستانة ولاسيما المدرسة الحربية والطبية ، وبعد مدة مدارس الملكية والحقوق والزراعة والهندسة ، فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية ، فكان ذلك الى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم ، لان الدولة كانت تحرص على نشر لغتها ، وأبناء العرب اومن يريد ان يسلك مسالك الجيش والطب والادارة والهندسة والزراعة أرغمتهم الحالة على التخلي عن لغتهم ، فجاء اكثرهم ضعافاً حتى في العلم الذي أخصوا فيه ، وكانوا أضعف من ذلك في لغتهم ، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا وأفادوا بلادهم كما نبغ من مدارس الوطنيين المسيحيين مثل مدرسة عين ورقة الاكليركية التي أنشئت سنة ١٧٨٩ م ونبغ منها كثير من البطاركة والمطارنة والكهنة من الموارنة في القرن التاسع عشر . قال الدبس : ومن هذه المدرسة خاصة انبعثت علوم اللغتين العربية والسريانية بين نصارى الشام وغيرها من العلوم والفنون ، ومثل مدرسة كفتين للروم الارثوذكس ، والمدرسة الوطنية في بيروت ، والجامعة الاميركانية في بيروت التي علمت زمناً طويلاً العلوم بالعربية ومنها الطب ، فجاء من تلامذتها أفراد خدموا الآداب العربية .

ونشأ في لبنان بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط وكان يعرف العربية والسريانية والايطالية واللاتينية والعبرانية واليونانية ، ووجد من خديوي مصر وغيره من ملوك المسلمين وامرائهم تنشيطاً على اتمام عمله ، كما نشأ في تلك الحقبة احمد فارس الشدياق اللغوي المحقق صاحب جريدة الجوائب وكتاب

الساق على الساق وكشف المخبا والجاسوس على القاموس وسر الليال وغيرها وكلها مطبوع ، ووجد هذا من عزيز مصر وباي تونس وملك باهو بال تنشيطاً كثيراً ٠ وهنا يقضي الواجب ان نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد علي الكبير فان رجالها في كل دور قد تقيّلوا آثار جدهم الأعظم في الأخذ بايدي المعارف وبر المؤلفين والصحافيين والشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة والعاملين على الأخذ بايدي العاملين فيها ٠

ومن علماء القرن الأخير في دمشق سليم العطار محدث فقيه ٠ ومحمود الحمزاوي فقيه أديب له مصنفات ٠ وبكرى العطار امام العربية ولاسيما النحو والتصريف ثم الفقه والحديث ٠ وحسن البيطار فقيه ٠ واحمد المنير فقيه ٠ وسليم الحمزاوي فقيه محدث ٠ وعبد الله السكري فقيه ٠ ومحمد المنيني فقيه محدث ٠ وفي بيروت يوسف الأسير عالم بالعربية والفقه وله شعر وأدب وعدة تآليف نشر العلوم الاسلامية والعربية بين مسيحيي بيروت ولبنان (١٣٠٧) ٠ وابراهيم الأحدب عالم بالتفسير والحديث والاصول والفقه واللغة والأدب وله عدة تآليف ثلاثة منها دواوين باسمه ونحو ثمانين مقامة ونظم مجمع الأمثال للميداني وشرح رسائل بديع الزمان وهما مطبوعان وغير ذلك من المقالات في الصحف (١٣٠٨) ٠ وامين الشميل حقوقي مؤرخ له عدة تآليف (١٨٩٧) ٠ واسكندر ابكاريوس له تآليف في التاريخ (١٨٨٥) ٠ ويوحنا ابكاريوس (١٨٨٩) له قطف الزهور في تاريخ الدهور ومعجم انكليزي مطول ٠ ومحمد الحوت (١٢٧٦) فقيه محدث له كتاب في الحديث ٠ وعبد الغني الرافعي الطرابلسي (١٣٠٩) شاعر متصوف ٠ ومحمد الميقاتي الطرابلسي (١٣٠٢) شاعر ٠ وابراهيم الحوراني الحمصي (١٩١٦) أديب رياضي فلكي له عدة تآليف ومقالات وتحقيقات ٠ وسليم كساب لغوي أديب له عدة مصنفات (١٩٠٩) ٠ وميخائيل مشاقة الدمشقي رياضي فلكي موسيقي مؤرخ من رجال الاصلاح الديني في النصرانية (١٨٨٩) له تآليف ٠ وعمر اليافي (١٣٣٤) متصوف شاعر له ديوان ٠ وسليمان الصولة شاعر هجاء له ديوان (١٨٩١)٠ ويوسف الدبس (١٩٠٩) أديب له تاريخ سورية ٠ وجرجس همام رياضي أديب له المعجم العربي الانكليزي والكتب المدرسية والهندسية (١٩٢٠) ٠ وسعيد الخوري

الشرتوني لغوي أديب صاحب معجم أقرب الموارد وغيره من الكتب اللغوية والأدبية كان متقناً للفقه الاسلامي • ورشيد الشرتوني أديب نحوي كاتب له عدة كتب مدرسية وغيرها • ورشيد الدحداح اللبناني له عدة تآليف في التاريخ ونشر تآليف فيه (١٨٨٩) • وأديب اسحق كاتب مترسل شاعر سياسي (١٣٠٣) • وابراهيم سركيس أديب له بعض الرسائل والمصنفات • وسليم شحادة له اطلاع على التاريخ وهو احد مؤلفي كتاب آثار الأدهار المطبوع • وانطون الصقال شاعر كاتب • وقاسم ابو الحسن الكستي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٣٢٢) • وحسين الجسر فقيه أديب له عدة مصنفات منها الرسالة الحميدية في الرد على الدهريين وغيرها من المقالات في الصحف ومنها في الأخلاق والأدب (١٣٢٧) • ويوسف ضيا الخالدي المقدسي له عكاظ الأدب والتحفة الحميدية في اللغة الكردية • وروحي الخالدي له عدة تآليف منها علم الأدب عند الأفرنج والعرب • وطاهر الجزائري العالم بالتفسير والحديث والفقه والاصول والفلسفة والتاريخ والأدب واللغة له بضعة وعشرون مصنفاً مطبوعة في فنون مختلفة وله التفسير ومعجم اللغة وغيره مما لم يطبع وكنانيش فيها آراؤه ومطالعاته يحسن الفارسية والتركية وهو داعية العلم بين المسلمين في القرن الرابع عشر (١٣٣٩) ومؤسس دار الكتب الظاهرية بدمشق ودار الكتب الخالدية بالقدس وعشرات من المدارس الابتدائية والثانوية في الشام • ومحمد المبارك متصوف أديب لغوي شاعر ناثر له رسائل أدبية مطبوع بعضها (١٣٣٠) • ومحمد مرتضي متصوف فقيه أديب كاتب شاعر • وعبد الرزاق البيطار فقيه أديب له تاريخ لرجال عصره مخطوط • وجمال الدين القاسمي فقيه محدث اصولي أديب شاعر كاتب له تفسير القرآن وعدة كتب في الاصلاح الاسلامي وتاريخ دمشق وبعضها مطبوع (١٣٣٢)• وعبد الله الحموي شيخ القراء • وشاكر الحمزاوي فقيه • وشبلي شميل فيلسوف كاتب أديب طبيب له تآليف وآثار في النشوء والارتقاء والفلسفة • وجرجي زيدان مؤرخ كاتب قصصي له عدة مصنفات منها روايات تاريخية وتاريخ التمدن الاسلامي وآداب اللغة العربية (١٩١٤) • رفيق العظم مؤرخ سياسي اجتماعي كاتب له عدة مصنفات منها أشهر مشاهير الاسلام (١٣٤٣) • وسليم النير كاتب باحث •

ومات من الفقهاء خالد الاتاسي • وابو الخير عابدين • وامين السفرجلاني أديب له بعض تآليف • واحمد الزو يتيني الحلبي (١٣١٦) الفقيه البحر الزاخر • واحمد صلاح • ومحمد الزرقا • وصالح الرافعي • وتوفيق السيوطي • وصالح قطنا • واحمد الصديقي • وطاهر الحسيني • و يوسف الامام • وخليل التميمي • ومحيي الدين الحسيني • وابراهيم ابور باح • و بشير الغزي • ومصطفى كرامة • وصلاح الدين نفاحة • ومحيي الدين اليافي • ومحمد الحوت • وسليم المسوتي • وحسين العمري الى امثالهم •

وهلك في هذا القرن من الشعراء والكتاب والكاتبات والاديبات سليم قصاب حسن شاعر له ديوان • نجيب حداد شاعر كاتب قصصي (١٨٩١) • داود عمون شاعر أديب • يوسف خطار غانم • محمد الهلالي شاعر • اسكندر عازار • نعوم شقير كاتب له مؤلف في تاريخ سينا والسودان مطبوعان • امين حداد • نعوم لبكي • انطون رباط • ندرة مطران • ابوالخير الطباع • محمدعلي حشيشو • جرجي ديمتري سرسق • صادق المؤيد له رحلة السودان • فرح أنطون له عدة تآليف وترجمات مطبوعة • اسكندر شاهين له عدة كتب مترجمة • شاكر شقير كاتب شاعر • امين أرسلان • عمر حمد شاعر • عمر اليافي • محمود الشهال شاعر • نيقولا رزق الله • جميل مدور • نوفل نوفل • امين الشميل • صلاح الدين القاسمي • شاكر الخوري له كتاب هزلي • احمد الصابوني له تاريخ حماة مطبوع • محيي الدين الخياط كاتب له عدة كتب مدرسية حسن رزق • حسن بيهم • سليم سركيس كاتب هزلي • عبدالوهاب الانكليزي • سليم الجزائري • شكري العسلي له عدة رسائل اجتماعية وأدبية • رشدي الشمعة شاعر كاتب • احمد طبارة • عارف الشهابي • عبد الغني العريسي • جرجي حداد • سعيد عقل • باترو باولي • رفيق رزق سلوم • فيليب الخازن • فريد الخازن • محمد المحمصاني • عبد الحميد الزهراوي • عبد القادر المؤيد • حسين وصفي رضا شاعر كاتب • بشارة زلزل له عدة كتب في الطب وغيره • محمد عبد القادر الحسني • محيي الدين الحسني له مؤلفات • شاكر عون • سليم بسترس • سليم نقلا • سليم عباس • سليم البستاني • اسعد الشدودي • عبدالغني الرافعي • شاكر ابوناصر •

توما ايوب · منصور باحوط · خليـل باخوس · سليم باز · سليم جدي · فيليب جلاد · نجيب حبيقة · يوسف حرفوش · امين الخوري · يوسف دريان ·

وهلك من النساء في العهد الأخير عفيفة كرم · وردة اليازجي · عفيفة اوزون زينب فواز · وردة الترك · هيلانة البارودي · سلمى قساطلي · هنا كسباني · مريانا المراش · سارة نوفل · فريدة عطية ·

***

المعاصرون من العلماء والادباء } ومن شيوخنا وكهولتا وشباننا ونسائنا من اشتغلوا بالعلوم والآداب على اختلاف أنواعها

وممن اشتهر منهم: (اً) علماء الدين والفقه والقضاء: سليم البخاري · رشيد رضا · بدر الدين الحسني · عبد الله العلمي · عبد الله الجزار · مسعود الكواكبي · سعيد مراد الغزي · مصباح محرم · عبد المحسن الاسطواني · احمد عباس · محسن الامين · جرجس صفا · عطا الكسم · سعيد النعسان · سعيد الباني · بهجة البيطار · طاهر الاتاسي · يوسف النبهاني · محمود منقارة · عبد الكريم عويضة · عبد اللطيف نشابة · عبد الحميد الكيالي · عبد الحميد الجابري · عبد القادر بدران · عبد القادر القصاب · محيي الدين الحسني · نوري المفتي · طاهر المنلا الكيالي · احمد النويلاتي · خالد النقشبندي · يوسف الحكيم · امين سويد · نجيب قباني · توفيق الايوبي · عبد الكريم حمزة · نجيب كيوان · محمد الاسطواني · محمد الكسني · ابراهيم هاشم · سليمان احمد · طاهر ابو السعود · يوسف الامام الحسني · محيي الدين الخاني · عيسى العكرماوي · منيب هاشم · نمر الداري · فهمي الحسيني · عادل زعيتر · احمد الزرقا · نجيب ابو صوان · مصطفى برمدا · امين عزالدين · اسمعيل حافظ · ميخائيل عيد البستاني · مصطفى الخاني · مصطفى نجا · فارس الخوري · فوزي الغزي · فتح الله أديب · علي الكيالي · عبد المجيد المغربي · محمد الحسيني · محاسن الازهري · توفيق الدجاني · خليل الخالدي · ومن المنفردين بالقراآت في دمشق: محمد الحلواني · عبدالله المنجد · احمد دهمان · رضا الحديدي · محمد القطب · عبد الرحيم دبس زيت وغيرهم ·

(٢) العلوم الفلسفيـة والمادية : يعقوب صروف • منصور جرداق • جودت الهاشمي • مصباح حولاً • سعيد البحرة • رشدي سلهب • درويش ابو العافية • شكري خليفـة • امين معلوف • عبد الوهاب المالكي • اميل خاشو • يوسف افتيموس • حسن الحسني • ابراهيم الدادا • وجيه الجـابري • فيكتور كورنلي • اسمعيل باقي • احمد رستم • مصطفى الشهابي • وصفي زكريا وغيرهم •

(٣) العلوم الاجتماعية والتاريخية : شكيب ارسلان • فارس نمر • داود بركات • خليل ثابت • عيسى اسكندر المعلوف • نقولا حداد • محمد رستم حيدر • نسيم صيبعة • جميل بيهم • سعيد حيدر • جرجي يني • عمر الصـالح البرغوثي • خليل طوطح • ميخائيل الوف • قسطنطين الباشـا • سليم شحادة • نجيب صليبا • رفيق التميمي • اسد رستم • جميل مردم • راشد طبارة • اسعد منصور وغيرهم•

(٤) الأدباء : عبد الله البستاني • لويس شيخو • اسعد خليل داغر • سليم الجندي • اسعاف النشاشيبي • عارف النكدي • كامل الغزي • قسطاكي الحمصي• بطرس البستاني • مصطفى الغلاييني • سعيد شقير • اسعد الحكيم • توفيق شامية • رشيد عطية • امين ظاهر خيرالله • حنا صلاح • جميل الخاني • رشيد بقدونس • انيس المقدمي • جبر ضومط • جرجس منش • مرشـد خاطر • سليمان ظاهر • عزة دروزة • بندلي الجوزي • عبدالرحمن سلام • عبدالقادر المغربي • عبدالقادر المبارك • ابراهيم منذر • ميخائيل صقال • نجيب ميخائيل ساعاتي • جرجس شلحت• سامي جريديني • حسني عبدالهادي • راغب الطباخ • سامي الكيالي • عز الدين علم الدين • عبد الله النجار • عمر الاتاسي • ابيفانيوس زائد • علي ناصر الدين • عبداللطيف صلاح • عبدالله مخلص • عمر الزعني • حبيب كحالة • عارف الزين• فيليب طرازي • فائز الخوري • جرجي معمر • راجي الراعي • جميل معلوف عمر الفاخوري • جرجي باز • احمد صلاح الدين • احمد عبد المهدي • يوسف زخم • جميل الشطي • بدر الطاغستاني • صبحي القوتلي • صادق بهلوان • توفيق ناطور • انطون جميل • نزيه المؤيد • لويس معلوف • شكري الجندي • شاكر الحنبـلي • وصفي الاتاسي • حسني البرازي • زكي الخطيب • عارف الخطيب •

امين الحشيمي . انيس النصولي . أديب التقي . جودت الكيال . محمد الداودي . احمد عبيد . حمود الزبرؤتي . منح هارون . فائز الغصين . سامي العظم . خالد الحكيم . نظمي الحمزاوي . وجيه بيضون . نجيب الريس . شريف عسيران . أديب الصفدي . أديب فرحات . سعيد الصباغ . جمال الملاح . أديب وهبة . عبدالغني باجقني . عارف التوام . فوزي العظم . إحسان الشريف . سعيد المسوتي . حسن الحكيم . الياس القدسي . عبد الله رعد . صبحي ابو غنيمة . ميشل بيطار . ابراهيم حرفوش . توفيق حمادة . عبدالله رزق الله خير . سليم خطار الدحداح . ادوار الدحداح . حبيب الدرعوني . حكمة المرادي . بولس الزغبي . يوسف اليان سركيس . ميشال الياس سماحة . جورج سمان . سليم صادر . يوسف صادر . انطون جرجس فرج صفير . نعيم صوايا . اسكندر طحيني . بولس عبود . اميل عرب . صالحاني . يوسف علوان . يوسف غصوب . جبرائيل قرداحي . يوسف قيقانو . نجيب مخلوف . فيليب مسك . امين مشحور . حلمي مصري . عيسى بندك . شكري كنيدر . عبد الله صفير . حبيب زيات . احمد عمر المحمصاني . محمد علي الطاهر . يوسف حيدر . انطون شعراوي . توفيق الحلبي . توفيق جانا . اسعد ملكي . رزق حداد . عباس ابو شقرا . طه مدور وغيرهم .

(٥) الكتاب : احمد رضا . عبدالباسط فتح الله . خليل زينية . خليل سعادة . خليل سعد . سامي قصيري . نعوم مكرزل . يوسف الخازن . عبدالله الاسطواني . نجيب شاهين . اميل زيدان . ابراهيم سليم النجار . يوسف العيسى . بدر الدين النعساني . عادل ارسلان . محمد الجسر . توفيق اليازجي . ادوارد مرقص . امين الريحاني . محب الدين الخطيب . سليم قبعين . ميخائيل نعيمة . بولس الحولي . جبران تويني . جبران خليل جبران . شحادة شحادة . امين غريب . فؤاد صروف . سعيد ابو جمرة . يوسف البستاني . خليل السكاكيني . عادل جبر . نجيب نصار . رشدي الحكيم . عيسى العيسى . عبداللطيف الشطي . سليم ابكاريوس . امين الكيلاني . سعيد الزهور . خليل بدوي . خليل بدس . بطرس غالب . ناجي أديب . وجيه الكيلاني . لطفي الحفار . كاظم الطاغستاني . عمر الطيبي .

طاهر الكيالي • امين الحلبي راشد البيلانى • عبد الهادي اليزجي • فارس فياض • احمد الكرمي • احمد كرد علي • معروف الارناؤط • عبد الحسيب الشيخ سعيد • نجيب اليان • ايليا زكا • نجيب شقرا • زكي مغامز وأمثالهم •

(٦) الشعراء : فؤادالخطيب • امين ناصرالدين • خليل مطران • خيرالدين الزركلي • خليل مردم بك • شفيق جبري • سليمان التاجي • عبدالحميدالرافعي • مصباح رمضان • طانيوس عبده • الياس فياض • سليم عنحوري محمدالشريقي • نوفل الياس • محمد البزم • جرجي عطية • بشارة الخوري • شبلي ملاط • امين تقي الدين • رشيد نخلة • محمد سليمان • اسعد رستم • نخري البارودي • نسيب ارسلان • ايليا ابو ماضي • حليم دموس • ابو السعود مراد • عبدالرحمن القصار • كامل شعيب • عارف الرفاعي • نديم الملاح • محمد الفراتي • عبدالرحيم قليلات • جميل العظم • ابراهيم الشدودي • حسين الحبال • وغيرهم •

(٧) الخطباء : عبد الرحمن شهبندر • اسعد الشقيري • اسعد عفيش • نقولا فياض • غريغوريوس حداد • حبيب اسطفان • انيس سلوم • فيلكس فارس • حنا خباز • عبد الرزاق الدندشي • مصطفى الشماع • محمود النحاس • بدر الدين الصفدي • افرام ابيض • عبد الرحمن الكيالي • سامى السراج وغيرهم •

(٩) الكاتبات والشواعر والخطيبات : ماري زيادة • ماري عجمي • سارة خطيب • لبيبة هاشم • نجلا ابو اللمع • سلمى صائغ • جوليا طعمة • عفيفة صعب • عنبرة سلام • مسرة الادلبي • ماري يني • هيلانة البارودي • فاطمة سليمان • ابتهاج قدورة • بهيجة المؤيد • خيرية ترمانيني • امة اللطيف المؤيد وغيرهن •

* * *

تأثيرات الاجانب في التربية } ومن المعاهد التي خرجت أناسًا بالعربية والافرنسية كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت ، وكان اول نزول الآباء اليسوعيين في الشام ١٦٥٣ م ، فأسسوا مدرسة عينطورا بلبنان التي أخذها الآباء اللعازريون بعدمدة (١٨٣٤م) وخرجت كثيرًا من الأدباء باللغة الافرنسية فقط • وقد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين وهم يتلون القرآن ولكن بدون

ان يتدبروا معانيه ويفهموا إعجازه ، حتى أصبح الفقيه والمحدث والنحوي والبياني والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين الا بصعوبة ليس بعدها صعوبة . ويتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة الى المعاجم ، وضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ الا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم ان يسمع ويدون ، بل كانوا اذا أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئاً منها لأهل العصور التي سلفت ويوردونها بدون مناسبة ، بل ان الإجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من التحميدات والتقاريظ وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على صورة مستكرهة مهزعة ، وقد قويت في هذا العصر ، قاعدة خبز الاب للابن ، وكان المفتي ابو السعود من مشايخ الاسلام في الاستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والامامة وغيرها من المسالك الدينية توسد الى الجهلة بدعوى ان آباءهم كانوا علماء ، وهم يجب ان يرثوا وظائفهم ومناصبهم وان كانوا جهلة ، كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم . بل بلغت الحال بالدولة اذ ذاك ان كانت تولي القضاء للأميين ، وكم من أمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة ، اما في بلاد الأقاليم فربما كان الأميون اكثر من غيرهم ، لان أخذ القضاء في دار الملك كان متوقفاً على بذل شيء من الرشى ، فيصل اليه أجهل الناس وبذلك فترت الهمم ، وانصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين ، لان الجاهل والعالم كانا سواء في باب المشيخة الاسلامية ، ومن يحسن المصانعة والرشوة ويمت اليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة .

وأصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصبها ليتزلف بها الى الكبراء وأرباب الدولة ، والشاعر كطبال اوزامر اوقرّاد يغني و يلعب أمام من يعطيه دريهمات قليلة . وهناك شبكة رسمية أخرى يصطاد بها المال وهي ان من حفظ قواعد النحو والصرف في كتب لهم معينة ، وانقطع الى مدرسة من المدارس ، وجاز الامتحان ست سنين على أسلوب لهم مخصوص يعفى من الخدمة العسكرية ، فتعلم بذلك كثيرون ومن فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء وأدباء ، ثم أبطل ذلك في العقد الثاني من القرن الرابع عشر .

وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالافول والإندراس ، والمسلمون او الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من أهل هذه الديار يولون وجوههم قِبَل المناصب الدينية والادارية والعسكرية ، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة ، جعلت تدريس العربية وآدابها واللغات الحية اول بند من منهاج الدراسة فيها ، فجاء من أبنائهم ومن اخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب ، وإنهاض المجتمع ، ومنهم أفراد نزحوا الى مصر واميركا وتولوا الاعمال الكبرى وأظهروا آثار قرائحهم ونبوغهم ولا سيما في القرن التالي ، وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى وغناء اليهود ، فأصبح بالتعلم من النصارى نحاة ثقات ، ومن اليهود مغنون ومغنيات ، بمعنى ان الزمن أبطل ذاك الزعم .

***

الآداب في القرن الرابع عشر — اختص القرن الرابع عشر بان تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب ، فصار المقتدرون من الناس يلقون باولادهم لاي مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها ، ودبت الغيرة في نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية في بيروت وصيدا ، ومدارس الجمعية الخيرية في دمشق ، وكان تأسيسها في العقد الأخير من القرن الثالث عشر ، والكلية الاسلامية في بيروت والمدارس الأهلية الابتدائية ، والوسطى في دمشق وحماة وحمص وحلب وطرابلس تخرّجت هذه المدارس مئات من المتأدبين كما خرّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية ومدرسة الحكمة المارونية في بيروت ، فانها تخرّج بهما أفراد في الآداب .

وكان الفضل في هذه النهضة الشامية لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطاركة الموارنة وبطاركتهم وأساقفتهم وقسيسيهم بالعلم واللغة . اما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الاميركية اكثر من غيرها ، ولو لم تبطل تدريس العلوم بالعربية وتجعله انكليزياً منذ أوائل هذا القرن لتضاعفت الفائدة التي نشأت

من هذه المدرسة العالية ، وكان من استاذين من اساتذتها الدكتور فانديك الاميركاني والدكتور ورتبات الأرمني فضل على العربية بما كتباه في العلوم المختلفة باللغة العربية وكذلك كان شأن يوست الاميركاني فانه ألف كتباً علمية نافعة بلغتنا فعدّ منا .

ان المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الاميركيين واليسوعيين والالمان والانكليز والطليان واليونان والروس وغيرهم من الامم ذات المطامع في الارض المقدسة قد جعلت التربية متلونة في هذه الديار ، فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي أنشئت له مدرسته ، وانقسمت الامة بهذا الضرب من التعلم أقساماً شتى ، وتباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد ، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور ، ولأن معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة ، فالانجيليون او البروتستانت تنتشر دعوتهم كل يوم ، واليسوعيون ينزعون منزعاً آخر في التربية الدينية والسياسية ، وهكذا لو أردنا ان نعدد اسماء الجمعيات الدينية التي تعلم المسيحيين في بر الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين إرسالية ، ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميته وبلاده ، وكم رأينا رجالاً ونساءً درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لا عرب ولا افرنج ، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ، بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم ، وتسودّ بلادهم في عيونهم ، ولذلك صح ان يقال ان تلك المدارس لم تنفع البلاد النفع المطلوب ، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بان هيأت لها في هذه الديار أنصاراً .

وبينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها وشعورهم تركي صرف ولم ينفعوا بلاد الشام بشيء كثير من علمهم ، نشاهد كثيرين ممن درسوا في مدارس الرهبان والقسيسين والحاخامين يكتبون الافرنسية اوالانكليزية اوالالمانية اوالروسية اواليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات ، وكل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم والأديب ، بل ان معظمهم قد اسودت الشام الجميلة في عينه ، وهجرها الى قارة أخرى . ان الشامي المتأدب في الجملة بآداب قومه يحب لغته و يغار عليها ، ولذلك أسس عدة صحف

ومجلات راقية في مصر وبلاد المهجر من اميركا الشمالية والجنوبية ، وحبب المطالعة بالعربية الى من نزل عليهم من اهل البلاد ، او الى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا ومجلاتنا العربية خارج البلاد الشامية عن خمسين جريدة ومجلة حية ، وما ندري ان كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل ، فان الجيل الجديد من الشاميين في اميركا الشمالية والجنوبية لايعرف العربية الا قليلاً ، بل يتكلم بالانكليزية او الاسبانية او البرتغالية . وأعظم نقص في المدارس الأميرية والطائفية والاجنبية ان الاولى تصوغ موظفين والثانية والثالثة تهيء المتخرجين على معلميها الى الهجرة ، وتباعد بين أبناء الوطن الواحد وتبث مبادي اجتماعية لا تنطبق على حالة البلاد .

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعي التفريق في الوطنية وضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس الغير الوطنية في ديارهم . فان كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته اليها من النور القليل ، فقد أضرتها بانحلال عقدة الوطنية ، فمدارس الاميركان والروس واليونان والفرنسيس والانكليز والالمان قد أصلحت وأفسدت . أصلحت بتلقين من تخرجوا فيها شيئاً من معارف الغرب ، وأضعفت في نفوسهم حب الوطن بتحبيبها اليهم أوطاناً غير أوطانهم ، وتعريفهم الى رجال غير رجالهم ، ومساواتها في أعينهم الامم . والعاقل من حرص على نفع أمته قبل كل نفع وانتفع بما عنده قبل ان يتطال الى ما عند غيره . ومن زهد في لغة آبائه وجدوده كان حرياً بالزهد في وطنه ووطنيته . واللغة والوطن يصح ان يكونا اسمين لمسمى واحد . جنت مدارس الاجانب والحكومة على هذه البلاد أعظم جناية لان المتخرجين فيها اومعظمهم من الذكاء على جانب عظيم ، لم ينفعوا الدولة حق النفع ولم ينفعوا البلاد التي ولدوا فيها . ان المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأعلاق ونفائس المتاع ، استغفر الله بل ان من يسرق فلذات الاكباد ، ليخرجها على ما أراد ، أشق على النفس وطأة ، وأعظم في المغبة أثراً . وهل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال والرجال ؟ أو ليست الأرواح أثمن من كل بضاعة ، وهل أعز من الولد على قلب أبويه . ان المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني

هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها ، وناهب الروح ماذا يدعى في الشرع والعقل . ولم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى في عيونهم اللغات والعناصر كلها ، وتتجرد امة فتفنى لاحياء غيرها ، وتقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى ، ولا تهمها دارها وتريد هدمها لتعمر بانقاضها دار جارها .

في نحو سنة ١٢٧٨ فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية وهي اول مدرسة اميرية أنشئت في حلب . وأنشأ [1] مدحت باشا في دمشق سنة ١٢٩٥ هـ ثماني مدارس ابتدائية للذكور والاناث ودار صنائع ، وأسس مثل ذلك في أعمال ولايته الواسعة ، وما برحت المعارف مذ ذاك العهد تعلو قليلاً وتسفل كثيراً ، والحكومة لا تطلب من المدارس الابتدائية والثانوية الا ان تخرج لها طبقة من الموظفين ملكيين وعسكريين يكونون أتراكاً بألسنتهم لابقلوبهم ، عثمانيين بتربيتهم لا باصولهم ، وقد أخذ دعاة تتريك العناصر يقاومون لغة البلاد سراً ، فما هي الا بضع سنين حتى أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر او خمس عشرة سنة ، وهم لا يحسنون لغتهم ولا لغة الدولة الرسمية ، فضلاً عن اللغة الافرنسية التي كان تعلمها اذ ذاك رسمياً في الظاهر صورياً في الحقيقة ، على مثل ما كانت اللغة العربية في مدارس الحكومة ، وكان يندر بين من تخرجوا في هذه المدارس من يعاني الصناعات الحرة ، بل ان معظم من أتموا الدروس في مدارس الحكومة العثمانية نشأوا اتكاليين مغرمين بالوظائف فقط .

وما فتئت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالغرض من بعض الوجوه ، بل ما برحت بعد ان جعل التعليم بالعربية عقبى خروج الدولة العثمانية من هذه البلاد ، وروحها تلك الروح التركية لان معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية وتخلق بالأخلاق التركية ، وقد حاولت ادارات المعارف في فلسطين والشرق العربي وسائر البلاد الشامية نزع الروح القديم وتنشئة المعلمين نشأة عربية ، وليس في الوسع

(١) من تقرير لنا في إصلاح المعارف العمومية في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٣٩ — ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٠ .

ان يشيب المرء الا على ماشب عليه، وفاقد الشيء لايعطيه ، ولم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم الى ايجاد مثال من التربية يلتئم مع ماضي الامة العربية وينفعها في حاضرها ومستقبلها ، وتغذية العقول غذاء كافياً ينفعها في استخراج ثمرات الارض وكنوزها والتفنن في صنعها ووضعها ، وتجريد برامج التعليم من الزوائد التي يستغنى عنها في باب تربية الفتاة والصبي . اما التعليم الديني عند المسلمين فهو أحط تعليم ، أصيبوا بذلك بعد خراب المئات من المدارس الدينية في القطر وأكل اوقافها ، وقد تغافلت الدولة التركية عن إنهاضها ، ولم يتهيأ لها في الدور الحديث من يفكر حقيقة في إصلاحها ، واذا درس المشايخ الدروس النظامية ، وتأهلوا للقضاء والفتيا والتعليم أهلية حقيقية، على صورة تجمع بين النقل والعقل ، تخل بتعليمهم التاريخ والرياضيات والطبيعيات والاجتماعيات مشاكل كثيرة . ومن العجيب ان مدينة كدمشق مثلاً لا يقل سكانها عن ثلاثمائة الف نسمة كان فيها في الثلث الاول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة ومعهد مختلفة التشكل — عدا الكتاتيب الملحقة بالجوامع — تقرأ فيهـا دروس العلم والأدب والطب والهندسة ، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة ، ولذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك وتبكي ، وبلغت اكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والامامة من السخف بما تسأل الله معه السلامة .

وقد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها السيد عبد الحميد الكيـالي بمعاونة السيد يحيى الكيالي ناظر أوقافها كُبر هذا الامر ، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية والدينيــة مدة اثنتي عشرة سنة ، واتخذت من المدارس المدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية والشعبانية والقرناصية والاسماعيلية لانزال الطلبة، وربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ماهم بسبيله ، يتقاضونها من اوقاف تلك المدارس وعدد الطلبة اليوم في هذه المدارس مائة وخمسون يقرأون على اساتذة تلك المدينة على نظام في الجملة ويرجى ان يكون منهم علماء دينيون ومتأدبون .

اما علماء الدين عند المسيحيين والاسرائيليين فأخذوا يتعلمون في مدارس لهم نظامية في روسيا او ايطاليا او اميركا وغيرها فلا يرقى في الاغلب الى الرئاسة الدينية عندهم الا من توفرت فيه شروط العلم والنباهة، ويكون على الأغلب بانتخاب أقرانه، ولذلك جاء

بون شاسع بين عقلية علماء الدين من المسلمين وعقلية غيرهم من ارباب الأديان ، وغدا ارباب الانصاف يقولون بالرئاسة الدينية في الاسلام على النحو الذي هي في النصرانية ، لانه ثبتت فوائدها في تثقيف العامة وجمع كلمة خاصة ، ولان الحكومات ليس من شأنها ان تعلم الا البسائط العامة المشتركة ، والامور الأخرى من شأن زعمائها الذين تعتقد فيهم صلاحها . ومن أغرب الحالات ان مدارس الحكومة في جميع المقاطعات الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين ، اما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم ابنائهم على غير مدارسهم او من مدارس المبشرين . وبهذه الطرق المختلفة في مناحي التربية يستحيل ان يجتمع ابناء الوطن على مقصد واحد ، لان كل واحد يتعلم النفرة من مخالفه في معتقده ، وخصوصاً في مدارس بعض الرهبنات التي تهزأ بالاسلام والعرب ، وتحرّف التاريخ الصحيح ولا تعلم منه الا ما ينطبق مع رغائبها ، ولا يفيد شيئاً في تكوين الوطنية والقومية ، ولو اتحدت التربية واشترك جميع ابناء الشام في الداعي بها والاعتماد عليها ، لا تلبث هذه الامة خمسين سنة حتى تخرج سماؤها سلسلة طويلة من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها ، ارتفاعه عند أمم الحضارة الحديثة في الغرب ، ويؤثرون فيها كما أثر أجدادنا في مجموع الحضارات القديمة . وعندنا ان البلاد لا تنهض من كبوتها وضعفها في الأخلاق والعلم والشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، الا اذا تعلم المسلمون تعليماً صحيحاً ، لانهم ستة أسباع السكان ، والثروة الثابتة ملكهم ، وهذا لا يتم الا اذا تعلم ابناء غير المسلمين مع ابناء المسلمين تعليماً وطنياً واحداً .

***

الجامعات والكليات { احتفل الصهيونيون (سنة ١٣٤٣ ﻫ) بانشاء جامعتهم العبرية في القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية ولا تمضي خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مراقدها ، وفي فلسطين ٨٥ مدرسة ابتدائية ووسطى تعلم العبرية لاكثر من عشرين الف تلميذ وتلميذة ، كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الاميركية والمذهب الانجيلي من الجامعة الاميركية ، وانتشرت المدنية الافرنسية والكثلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية .

وفي ١٥ حزيران ١٩٢٣ أُسست في دمشق الجامعة السورية مؤلفة من المجمع العلمي العربي ومن مدرستي الطب والحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذي يفهمه العلماء من الجامعات ، ومازالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق ، ولا شأن للفصحى فيهما الا قليلاً ، لان معظم المدرسين من الطبقة التي تخرجت في مدارس الترك متوسطة في معلوماتها لتكون في جملة الموظفين في الحكومة العثمانية ولم تُعنَ بالمطالعة والبحث ولا بالتأليف والترجمة ، وفترت عن المطالعة منذ خرجت تحمل شهاداتها ، وبعض الشهادات التي كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم أمرها مشهور ، وهذه الطبقة لا تقيم للعربية وزناً ، ولا تكتب جملة مسبوكة ، ولا تكاد تلفظ كلمة صحيحة . ومن الغريب ان توسد هذه الاعمال العلمية الجليلة الى أناس هم أتراك في تربيتهم وافكارهم ومنازعهم في صميم بلاد العرب وفي جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية . ويرجى ادخال الاصلاح المنشود الى هاتين المدرستين العاليتين اذا وُسدت مناصب التعليم فيهما الى كفاة ، يحسنون العربية احسانهم العلم الذي يدرسونه ، وان تصقل أماليهم بايديهم صقلاً متقناً بحيث تصدر دروسهم عن علم أتقنوه وتمثلوه وهضموه وصار لهم ملكة خاصة ، لا مترجمة في الاكثر عن التركية ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون الى اليوم ، ومتى كانت اللغة التركية لغة علم وعنها يؤخذ في مثل هذا العصر ، والمعلوم ان لغات العلم ثلاث الانكليزية والافرنسية والالمانية ليس الا ، ومتى كانت تربية الاعاجم تصلح للامة العربية التي يجب ان تتكون بحسب تاريخها وتقاليدها ومنافعها الحاضرة والمقبلة .

ولا سبيل الى الانتفاع بالجامعة السورية نفعاً حقيقياً يتفق مع شهرة دمشق القديمة بالعلم — الا اذا تمت فروعها فأُنشئت فيها مدرسة للآداب وأُخرى للعلوم الطبيعية والرياضية وثالثة الالهيات ، وبذلك تتم فروعها وتنبعث منها انوار الحكمة الشرقية والمغربية ، ولا غضاضة علينا اليوم اذا جئنا من مصر وبلاد الغرب بعلماء اخصائيين في الفروع التي لا نحسنها من فروع العلم ، نتعلم منهم طريقتهم في البحث والدرس والتحليل والتركيب ، فالقطر المصري وهو اسبق منا في العلوم ما زال الى اليوم يأتي من الغرب بعلماء يوسد اليهم الادارة والتعليم في جامعته . وعلى ذكر القطر

المصري لا بأس بان نشير الى ان المتعلمين من الشاميين ما برحوا يفزعون الى مصر منذ أواخر القرن الماضي يخدمون الآداب و يرزقون منها ، فكان لمصر الفضل على الشام وبنيه لانها كانت منبعث قرائحهم . وكان في هذه المقايضة العلمية بين الشام ومصر من الفوائد ما لا يمكن احداً جهله .

وبعد ذلك يرجى ان لا يضيق كثيراً نطاق اللغة العربية في هذه الديار ، بعد ان رأى الناس امرها يضعف الحين بعد الآخر في الغرب والجنوب ، وهي الى ضؤولة في الشرق والشمال والوسط على ما يبذله المجمع العلمي العربي منذ سنة ١٣٣٧ هـ من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب وتراكيبهم ، وإرشاد المؤلفين والمترجمين فيما يعوزهم والأخذ بايديهم ، وتحبيب المطالعة الى الجمهور ، وتعليمه في محاضرات ودروس عامة ، وعرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقدتها . واذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء الهيين وعلماء مدنيين وأدباء ومهندسين وطبيعيين وكيماويين وأطباء وحقوقيين وأثريين يعرفون كيف يبحثون و يعلمون ، يقلُّ سواد الخانقين والعابثين و يزيد عدد العالمين والمتفننين .

* * *

الاخصاء { وبعد فان أهمّ ما ينبغي صرف العناية به اليوم نشر العلوم الانسيكلوبيذية اي المشاركة في العلوم المتعارفة ، ثم الانقطاع الى فرع واحد اي إلقاء النظر على المعارف التي تنير الفكر من العلوم اللسانية والطبيعية والرياضية والاجتماعية والتاريخية والادبية ثم معالجة موضوع واحد . فقد قال الافرنج : اذا كانت القرون الوسطى هي قرون التعميم في التعليم، فان هذا العصر عصر الإخصاء فيه . ولقد اتسعت معارف البشر النظرية والعملية بعد استقرار أمرها فاحتاج الناس ان يقسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم الى أقسام لا آخر لها، ينقطع اليها أفراد و يبحثون في مضامينها . فالاصول من المعارف هي المعلومات العامة وتفرعاتها هي الاخصائيات . كان باديء بدء كل شيء مفهوماً في الفلسفة ، فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم ، وتنقسم الى قسمين : المحسوسات

والمعقولات ، ودعيتا علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة ٠ اما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيماً معقولاً ، ولا جارية على طريقة معقولة ، وكان ارباب الافكار يحتقرونها فلا يمارسها الاالصعاليك ، ينصرفون اليها تقليداً ، و يخلفون في تعلمها آباءهم، بدون وقوف على القوانين الميكانيكية او الطبيعية التي كانوا يعملون بها على الدوام ٠

ثم حسنت حال الانسان بالتدريج ودخلت الاعمال في طور نظام ، وانتظمت العلوم الرئيسة ، لا سيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية اي التجارة والصناعة والحرف ، ونشأ الاخصاء في كل فرع من فروع هذه الطبقات ٠ فالطبيب مضطر الى تعلم امور كثيرة ، ولا يخصي في تعاطي فرع واحد الا في المدن ، اما في القرى فيمارس كل فرع من فروع الامراض الباطنية والخارجية ٠ وهكذا الحال في الأعمال التجارية والصناعية فان كل حرفة اومهنة تنقسم الى أقسام تدعى تقسيم الأعمال ٠

وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الاخصاء حتى ما يلزم الطاهي والبائع والسوقي من المعارف ، فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر وانتشارها ، ان يزيد ابداً الاخصاء في كل علم وشأن ٠ واذا نظرت الى الاخصاء من حيث العلم فانه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالم ، فان المبادئ الأولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس حتى العامة ، ومتى حاز المرء قسطاً من هذه العلوم السطحية ورأى ان يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف اليه وبدون ذلك يتقدم المرء في عمله تقدماً بطيئاً ، و يخلط فيه ، و يبقى متوسطاً والى الضعف ٠ والاخصاء ضروري ايضاً في العلم العملي اي في المعامل والأعمال اليدوية وذلك للاسراع فيها ، و يرى أرباب معامل الابر والخياطة في لندرا ان في تقسيم الاعمال اقتصاداً كبيراً ٠

اذا قسمت الاعمال وأخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها ، فالاخصاء يؤدي ولاجرم الى الضعف الأدبي ، وذلك ان العاملات مثلاً اذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر ، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في إبرهن فانهن لا يفقدن شيئاً من حواسهن ، ولكنه ثبت بالاخصاء انهن يفقدن حاسة النظر في أقرب وقت ٠ اما القوى العقلية والقوى المماثلة لها فانها تتأذى ايضاً ٠ ومن ينصرفون في العلم المحض الى الاخصاء ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين يعيشون في

العالم كأنهم ليسوا منه ، ويدهشون معاصريهم بغرابة أخلاقهم ، وتشتت افكارهم ، التي جرت مجرى الأمثال . وبالجملة فيقضى على كل مخصص في العلم او في الصناعة ان يحرز حظاً من المعارف لأول امره ، وان يخصي في علمين او ثلاثة ، فاذا مارس احدها أراح غيره اه .

* * *

الصحافة العربية

نشأت الصحافة Le Journalisme او La Presse وهي نشر صحف الاخبار، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة عام ١٥٦٦ م في مدينة البندقية في ايطاليا الجنوبية ، ولم تلبث ان انتشرت في اوربا ، ولكنها لم تُعرف في بلاد العرب الا في سنة ١٧٩٩ م أنشأها في مصر نابوليون بونابرت المتغلب على القطر المصري ، ولم تصل الى الشام الا في أوائل منتصف القرن التاسع عشر ، ففي بدء سنة ١٨٥١ أنشأ المرسلون الاميركان في بيروت اول مجلة عربية اسمها « مجموع فوائد » . وللشاميين الفضل الأول في إنشاء الجرائد جمع جريدة ، وهو الاسم الذي وضعه رجل لبناني للتعبير عن Journal او Gazette ثم وضع لبناني آخر اسم « مجلة » للتعبير عن Revue او Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التي تضم بين صفحاتها مختلف الفوائد في مختلف الموضوعات . ومازال للشاميين الفضل الاكبر في إنشاء الجرائد والمجلات التي لم يكن لها أثر في الحضارة العربية ، بل هي في الحقيقة بنت الحضارات الغربية الحديثة . وقد أنشأ الشاميون في الاستانة ومصر وتونس واوربا صحفاً عربية كثيرة ، وآزروا في صحف كثيرة ، كما أنشأوا في بلاد الشام صحفاً كانت تعلو وتسفل بحسب مقدرة القائمين بها واقبال الناس عليها ، ذلك لان الأمية كانت غالبة على البلاد ، ولم يكن الاقبال على مدارس المرسلين والمدارس الطائفية ، وهي التي سهلت درس العربية قبل غيرها ، هذا الاقبال الذي شوهد من بعد ، وخرّج مئات من الطلاب الذين كان أقل ما تلقفوه فيها تعلم مبادئ لغتهم ومبادئ اللغات الأجنبية .

ولما احتل البريطانيون مصر وزاد الضغط على الصحافة العربية في الشام ، هبط مصر كثير من نبهاء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف ومن المترجمين وغيرهم ،

وأنشأوا جرائد ومجلات ومنها الى اليوم جريدتا الاهرام والمقطم ومجلات المقتطف والهلال والمنار والزهراء والإخاء ، فانها ابلت بلاءً حسناً في خدمة الافكار ونشر الآراء العلمية والتهذيبية والأدبية والدينية . وقد نشرت في الشام وفي مصر باقلام الشاميين انفسهم صحف ومجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء ، وان كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم والأدب ، ولكن قضي عليها لقلة القراء ، ولان القائمين بها استندوا على معارفهم و كفاءآتهم فقط ، ولم يكونوا يعرفون طرق جلب المال ، ولم تعضدهم في اعمالهم النافعة جمعيات ومجاميع علمية ولاالتفتت الى اعمالهم الحكومات التفاتها الى الصحف السياسية .

ولما كانت الامة اعتادت الحياة الافرادية اكثر من الاجتماعية ، ظلت الصحف السياسية والمجلات العلمية مستندة الى قوى اصحابها فقط ، ولو كان في القوم أناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لألفوا شركات برؤوس اموال كبيرة لإنشاء بضع صحف ومجلات تخدم البلاد الخدمة اللازمة ، ولا تسف الى تناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات او من أفراد او من ارباب المظاهر ، يعطون المجلات او الجرائد بعض الشيء حتى تسبح بحمدهم وتنشر محامدهم وصورهم . وبذلك كادت تصبح الصحافة أشبه بشعراء عصور الإنحطاط الذين يرزقون على نسبة تعلقهم بكبير يصوغون له عبارات الثناء و يطرونه إطراءً مخجلاً . فالجرائد والمجلات بذلت الجهد والحق يقال ، في نشر الافكار والتهذيب في الشام على قلة الوسائط ، وكان صوتها يسمع اكثر مما سمع لو بذلت الامة العناية بتعهدها اكثر مما بذلت ، نعم كانت خير معلم وأجمل مدرسة للناس ، ترشدهم في جميع ما تشتد اليه حالة المجتمع الشامي من المعارف والافكار ، وتغرس في نفوسهم روحاً وطنياً لا تقوم الأمم بغيره ، وتلقين الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة لامة لم تستقر حالتها السياسية ، والغريب يدخل الى العقول من طريق الصحافة للوصول الى مآربه .

دخل منذ خمس وستين سنة كثير من النبهاء في الصحافة ، ولكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عدداً ، فنغّص المتوسطون عمل الذين كان يرجى من أقلامهم رفع مستوى هذا المجتمع . ومع كل الضعف الذي تجلت أعراضه في

كل أدوار الصحافة الشامية كان منها ان علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه ، علمتهم ان وراء حياتهم المادية حياة معنوية ، لا تبقى لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها ، علمتهم بسائط من التاريخ وحال الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين ، وان امتهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى ، ولا حياة لأحفادها بدون الأخذ من سيرة الأجداد ، والإقتباس من المدنية الحديثة كل مالا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم ، حتى أصبح بعض العامة ممن ادمنوا تلاوة الصحف وتفهمها ، أرقى عقلاً من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مئة اومئتين من السنين . علمتهم ان لا قيام لامرهم الا بالقومية العربية ، وان نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لان التساهل بامور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً . علمتهم ان الغرب لا يريد خيراً للشرق ، والشرق شرق والغرب غرب ، وان الأقليات التي كانت تصرفها اوربا بحسب أميالها السياسية لا تعيش الا بالاندماج في الاكثريات ، وتوحيد المقاصد وان كل أمة لا تُحكم الا برأي السواد الأعظم من أبنائها .

علم معظم الناس الا أناساً مأخوذين بتعصبات مذهبية ونعرات طائفية ، ان الغرب لتحقيق أغراضه يفادي بكل من يمتون اليه بصلة من صلات القربى المذهبية ، وان الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت وكان السبيل الى الحصول عليها ، وقاعدتهم كلهم الغاية تبرر الواسطة . ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة ، فكانت تحتال في اول دور ان تشرّف صاحب الجريدة برتبة لها ووسام ، ومن خالف الصدع بامرها تكسر قلمه وتشرده وتسجنه وتُنزل عليه غضبها ، وقد تجلى ذلك في الثلث الأخير من الدور الحميدي ، فلما أعلن القانون الاساسي اخذ الاتراك الذين قبضوا بعده على زمام المملكة يتوسعون في هذا المبدإ مبدإ السير بقوة الصحافة الى الغرض الذي يرمون اليه ، فصانعوا بعض اربابها وضحكوا من بعضهم باكرامهم واعطائهم مالاً . ولما جاءت الحكومات المنتدبة وهي من اعرف الأمم بتأثير الصحافة في الافكار لم تقصر في اتخاذ هذه النظرية على طريقة جمعت ايضاً بين الرغبة والرهبة والعطاء والمنع . ولم تخل الشام في كل دور من أناس باعوا في خدمة القوة ضمائرهم ، شأن كل أمة جديدة في الحياة السياسية ،

ولكن ظهر ذلك جلياً في صحافتنا لان الدعاة للقوة ضعاف ، حتى في فهم ما انتدبوا اليه ، فكانت تنكشف أعمالهم منذ اول يوم يسجون بحمد من استهووهم ٠

وبعد فالصحافة العربية في الشام تحتاج الى اربع صحف واربع مجلات على النمط العالي من نوعها في أم الحضارة ، تصدر في أمهات حواضر الشام (القدس وبيروت ودمشق وحلب) وترجع في شؤونها الى شركات منظمة تدير ماليتها، اوأحزاب سياسية دائمة تدير حركتها السياسية والعلمية ، ويوكل امرها الى كفاة من رجال البلاد ينسجون فيها على أحسن منوال نسجته صحافة اوربا واميركا ، ونحن لا نطال الى ان يكون للشام اليوم صحافة كصحافة بريطانيا العظمى بوفرة مادتها وصدق لهجتها لامنها ، وسرعة تناولها الأخبار ، وتنويع أساليب التعليم والتفهيم ، بل نرجو ان تكون للبلاد صحافة متناسبة مع ماضيها وحاضرها ، بحيث لا تكون الشام أحط من مصر في هذا الشأن على الأقل ٠ الصحافة عنوان ارتقاء الامة ، وليس ما يمنع من ابرازها في قوالب مقبولة لجميع الأذواق ، وهذا لا يتم الا اذا وسدت اعباء الصحافة لنبغاء البلاد ، دواء لا ثاني له طالما وصفه العارفون ٠

قلنا في سنة ١٣٢٨ﻫ (١٩١٠م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس) وقد رأينا هذا التهالك على إنشاء الصحف والمجلات حتى كان لنا منها نحو مئة صحيفة في هذا القطر الصغير ، نأسف لا كثرها على الورق الذي تطبع فيه والوقت الذي يصرف عليها ، وهي خلو من الفوائد اللازمة ، ولولا بضع جرائد ومجلات لا بأس بها في الجملة ، لقلنا انا بعد اشتغال ستين سنة في الصحافة لا نزال في حالة ابتدائية ، قلنا : للنجاح في الأعمال أسباب كثيرة ، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ، اذا اختل احدها تعذر النهوض بالشق الآخر ٠ وإنشاء الجرائد والمجلات لا يخرج عن هذا الحد المقرر ٠ وهل في الارض عمل لا يحتاج الى علم وتجارب ومال واستعداد ؟ ولطالما رأينا مصر في التلاثين سنة الأخيرة ، والشام في عهدها الدستوري الجديد وغيرهما من الأقطار والأمصار التي يتكلم اهلها بالعربية ، تتجرأ على اصدار الصحف بدون حساب ولا روية ، وأدركنا العامة اجرأ من الخاصة على اقتحام هذا المركون الصعب، وليس لديهم في الاغلب من وسائط النجاح كبير امر ، فلا يلبث ما ينشئ

ان يظهر الى الوجود حتى يختني اضطراراً لا اختياراً . وهذا هو السبب في تعدد الجرائد وقصر أعمارها واشمئزاز الناس منها ، اذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا عليها آلة للتكسب والتدجيل لا أداة للوعظ والارشاد والتعليم .

« ما رأينا صناعة من الصناعات استسهل الناس امرها كالصحافة ، فلم يعهد معلم في النجارة او الحدادة او البناء او الهندسة يحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة ويتصدر للاعتياش منها وهو لا يعرف من اسرارها سراً ، ولكن فن الصحافة في هذه الديار الذي يتوقف النجاح فيه على اسباب كثيرة أهمها العلم والتجربة والمال ، قد رأينا أناساً من الاغمار يدّعونه بدون خشية واكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلات دع تأليفها واصدارها .

« كان جمهور الناس الى عهد قريب يشارك الاطباء في طبهم فترى الكبير والصغير اذا عرض لهما مريض من خاصتهما ومعارفهما لا يتوقفان في وصف علاج يسميه ، مدعين ان ذلك من مجرباتهما او مجربات اصحابهما ، ولما كثر الاطباء واستنارت الامة بعض الشيء خفت هذه العادة في التعدي على الاطباء في طبهم الا عند الطبقة الجاهلة . اما الصحافة فيدخل فيها بالفعل أناس ليسوا منها وليست منهم ، ويصفون للامة ادوية تقيها الاسواء والارزاء والادواء ، و يعترضون على العالمين والحاكمين والسلاطين بلا خشية ولاحياء ، كأن طب الارواح ليس أصعب من طب الاشباح ، او كأن الصحافة من العلوم اللدنية لاالكسبية ، يتعلمها المرء بالذوق وتوحى اليه ايحاء .

« من اجل هذا احتقرت الامة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أدعيائها في أخلاقهم ومعارفهم ، ممن شانوا اسمها وعبثوا بجمالها ، تذرعاً الى مطمع ينالونه ، وصيت بالباطل يحصلونه ، ومقام عالٍ يتزلونه . نعم لم نشهد العطار بيطاراً ، ولا الإسكاف نجاراً ، ولاالحطاب رساماً ، ولاالفحام نظاماً ، ولا الجوهري حماماً . ولكن شهدنا الفلاح صحافياً ، والمتشدق مؤلفاً ، والثرثار محامياً ، والمكثار خطيباً . كما نشهد الاغنياء قد يحاولون بلوغ درجات الاذكياء ، والفقراء يقلدون الاغنياء .

« بيد ان سنن الفطرة التي لا تغالب ونظام هذا الكون البديع الذي قلما اختل يعاقبان المعتدي على ما لا يعلم بما جنته يداه ، كما قيل في الامثال الافرنجية كل خطاء

يحمل عقوبته فيه . وندر جداً في الناجحين من تيسر لهم الوصول الى ما وصلوا اليه الا باتخاذ الذرائع المنجحة ، ونسج حلل مجدهم بايديهم . رأينا كثيراً ولا سيما في مصر والشام التصقوا بالصحافة وأنفقوا ثرواتهم في سبيلها فلم ينجحوا في مسعاهم ، ورجعوا بعد العناء الطويل وخسارة المال صفر الأيدي خائبين ، لان مائدة العلم لا يجلس اليها طفيلي ، ولان التمويه ان صعب في عمل فهو في الاعمال العلمية أصعب .

الى ان قلنا ولقد شاهدنا عياناً ان معظم الصحف التي كتب لها البقاء في هذين القطرين الشقيقين خاصة هي التي قام باعبائها أناس متعلمون تخرجوا في الكتابة وتدربوا في السياسة وتذوقوا لماظة من العلوم التي لا يسع صاحب جريدة ومجلة جهلها . ومعظم من لا يحادنهم التوفيق أخفقوا لاسباب ناشئة من ضعفهم وقلة معارفهم في صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الادوات ان لم نقل انها تتوقف على ادوات اكثر . ولو كان قومنا يبالغون في انتقاء الرجال للاعمال، لوضع في قانوننا بند يُلزم كل من تصدر لمعاناة صناعة القلم ان يمتحن في الفن الذي يخوض عبابه ، كما يمتحن المتطببون والصيادلة ، فانشاء الصحف ان لم يكن أحق بالعناية من معرفة الامراض والعلل والعقاقير، فلا اقل من ان يكون على مستواها ، فكم من جاهل قتل نفساً زكية ، ومن صحافي جرع قراءه السم الزعاف على حين ينتظر منه الترياق النافع .

هذا ما قلناه ونزيد عليه ان الاخصاء اوالاختصاص العلة الاولى في نجاح اوربا في صحافتها يجب ان يكون له في صحفنا المقام المحمود ، وفي اليوم الذي أصبحت فيه توسد في مصر اعمال الصحافة الى امثال هؤلاء من الحقوقيين والكتاب والسياسيين دخلت مصر في حياة جديدة ، وهذا قريب المنال على الشام التي كان لبعض ابنائها خدمة تشكر في تاريخ الآداب والصحافة . ومن أهم مجلاتنا التي تصدر في الشام «المشرق» «الكلية» «الحارس» «الحدر» «المرأة الجديدة» «العرفان» «مجلة المجمع العلمي العربي» «المجلة الطبية» «مجلة المعهد الطبي» ومن المجلات المحتجبة «الرئيس» «الطبيب» «المقتبس» «الآثار» ومن صحفنا اليومية «لسان الحال» «الارز» «الاحرار» «المقتبس» «الف باء» «فتى العرب» «الرأي العام» «البلاغ» «الاستقلال» «الجوائب» «فلسطين» «العهد الجديد» «البرق» «الاحوال» .

الى ما هنالك من جرائد اسبوعية ومنهـا الجدي والهزلي المصوّر وغير ذلك ٠ يجب للصحافي قبل كل شيء ان يحسن الكتابة العربية كأحسن منشئيها ، ويكون قادراً على النقل والاحتذاء من افكار الغربيين ، اي عارفاً بلغة اولغتين من لغات السياسة والعلم ، وان يكون ممن عاني البحث وعرف المصادر التي يعتمد عليها في التعليق والشرح ، فالقوانين الدينية والزمنية وتاريخ الامة ولاسيا تاريخ هذا القطر والاقتصاد والاجتماع وحياة الامم وتاريخها وثوراتها ونهضاتها ونقاباتها وألوان أحزابها وأوضاعهـا كل هذه المسائل أقل ما يجب للصحافي المشاركة التامة فيه ٠ وبعدئذ يستطيع ان يكتب مقالاً نافعاً لجريدته ٠ اما المباحث الاخصائية كالمالية والزراعة والتجارة والفنون والأدب والشعر والآثار والتاريخ وغيرها مما هو بهجة الصحف ، يجعلها مدرسة تامة الادوات لانارة الافكار وبث الصحيح منها ، فيجب ان يوكل شأنها لاهل الإخصاء من العارفين بها ٠ وبذلك يصح ان يقال ان لنا صحافة راقية ، وما دامت الصحيفة الواحدة ينشئها واحد او اثنان او ثلاثة على الاكثر، تضطر الصحف الى ان تكون مقلدة ناقلة ضعيفة في معظم مادتهـا وأخبارها وأفكارها ، واذا زاد عليها خدمة غرض سياسي لا يحسن صاحبها التصرف فيه، فهناك البلاء الذي يقف لامحالة بالبلاد عن الرقيّ الاجتماعي والعلمي ٠

* * *

الطباعة والكتب ان فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم على يد غوتنبرغ الالماني في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد ، فأفاد المدنية والانسانية فائدة دونها جماع الفوائد — لم يصل الى بلادنا الا في القرن السابع عشر ، ومن اول الكتب العربية التي طبعت في رومية في القرن الخامس عشر الانجيل الشريف وقانون ابن سينا ، وقام بتأسيس مطبعة في الشوير من لبنان عبد الله زاخر الراهب الماروني سنة ١١٤٥ م وطبعت هذه المطبعة ٣٤ مؤلفاً خلال ستين سنة واكثرها ديني وهي مطبعة يدوية على الحجر ، وقد طبعت مطبعة الشوير المزامير سنة ١٦١٠ م ، ودخلت الطبـاعة الاستانة سنة ١١٣٥ هـ واول مطبعة أنشئت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس في أواسط القرن الثامن

عشر ، بل ان فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه الا بمجيء الارساليات والرهبنات الدينية من الغربيين ، والى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان في بيروت بل في الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأميركانية أُسست سنة ١٨٣٤ م واليسوعية ١٨٤٨ م) التي كان الغرض الاول منها نشر الكتب المقدسة والدعاية الى إنجيل المسيح في هذا الشرق القريب بين أبناء العرب ، ثم خدمة التهذيب والثقافة الانكليزية والافرنسية وبعد ذلك تعليم شيء من العربية . والكتب العلمية الحديثة التي ظهرت في هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل بان لا يتأتى نشر المبدإ الذي يريدونه قبل ان يخدموا البلاد بلغتها .

ربما بلغ عدد المطابع في الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية في بيروت ، وقلّ جداً فيها المطابع التي طبعت الكتب النافعة ولاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة . طبعت قصصاً معربة وأشعاراً ودواوين قديمة وحديثة وكتباً دينية ورسائل علمية في المعارف العامة وقليلاً من كتب العرب التي لا يزال الوف منها محفوظاً في خزائننا وخزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه و يجود العناية به من التصحيح والتعليق . ونحن قلما كتب لمطابعنا ان نتأسى بهم ونتعلم منهم . ولولا الوف من كتبنا طبعت في مصر والاستانة والهند واوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغنساء في تاريخ العلوم والآداب وبعث الأفكار من مراقدها واستخدام العلوم في رفاهية الناس ودفع بعضهم عن بعض . ذلك لان بعض من يرجى منهم خدمة الطباعة بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون احياءه من كتب القدماء ، او ما يؤلفونه هم على النمط الحديث ، لان الطابعين ينظرون الى ارباحهم اولاً ، وارباحهم موقوفة على كثرة ماينصرف من مطبوعاتهم ، والجمهور بالطبع كما هو في كل بلد لا يقبل على الجد اقباله على الهزل ، ولا يقدر ان المنفعة له في الصعب قبل السهل ، واكبر الظن ان كثيراً من ارباب المطابع هم من عامة الناس او يقربون منهم في الفكر والتعلم .

ولقد شاهدنا أناساً من الغيراء على العلم طبعوا مصنفاتهم بانفسهم فافتقروا اذ لم يعرفوا تصريفها ، والمؤلف غير التاجر ، ثم هم لم يجدوا في اغنياء البلاد وحكوماتها من

يناصرهم على ماهم بسبيله ولو بابتياع نسخ معدودة من كتبهم . ورأينا أناساً طبعوا كتباً سخيفة من تأليفهم فروّجوها هم او أحبابهم بالتحبيب والقحة فدرّت عليهم مالاً ونوالاً . فلاعجب اذا أصبح الطابعون والمصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة ، ولو كان في الطابعين من يخاطرون بطبع كتب العلم والأدب التي لها قراء مخصوصون لزاد عدد الراغبين في المسائل الجدية اكثر من الآن ولارتفع ميزان العقل اكثر مما ارتفع .

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين او لمن بعدهم في عهد ارتقاء العلم في العرب ، وقل ان طبع كتاب بذاك الإتقان الذي تطبع به الكتب في بلاد المدنية اللهم في بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت ام خسرت لانها لجماعات لا لافراد . وما عدا عشرات من الكتب العلمية والأدبية التي طبعها في بيروت خاصة علماء المشرقيات او من أخذوا عنهم طرائقهم في الطبع والنشر لم يكد يطبع في سائر مدن الشام كتاب يعد نموذجاً في انقانه ووضعه وتأليفه . وغاية ما نشروه كتب قصص وكتب مدارس ابتدائية او أشعار أناس تهجموا على التأليف تهجماً ولما يستعدوا له الاستعداد الكافي ، ولم يجوّدوا مصنفاتهم بانضاجها بالبحث والتنقيب وايراد الطريف من المباحث .

فالشام مقصر في هذا الشأن من وجوه كثيرة ولولا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا ، وما زالت تطبعها مطبعة ليدن في هولاندة منذ اكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشرقيات في الغرب لفاتنا الوقوف على امور كثيرة في مدنية العرب وتاريخهم ، والى اليوم لم تبلغ مصر على كثرة ما يطبع فيها من الكتب العربية وبعضها باتقان زائد في الطبع ، كمطبوعات المطبعة الاميرية ودار الكتب المصرية ، مبلغ مطبعة ليدن في الاجادة ولا سيما في الفهارس والشروح والهوامش والامانة في النقل الذي أصبحوا به قدوتنا وعنهم يجب أخذه .

تأملنا ملياً فيما تصدره المطابع من الكتب فرأيناها مصنفات هوائية موقتة الا قليلاً ، تخدم فكراً خاصاً ولا يتوقع منها الا الشهرة على الأغلب لا عموم الفائدة . ومعظم من يعدونهم من المؤلفين هم في الحقيقة مترجمون ، ومنهم من لايجيد الترجمة ، وكم من تأليف نظرت فيه فانقبضت نفسك مما في تضاعيفه من ضعف التأليف

ورداءة الطبع . ومع هذا كان الناس يؤلفون على عهد النهضة الأدبية الاولى اي في أواخر القرن الماضي اكثر من اليوم ، ولقد تسربت روح التفرنج الى طائفة ممن تلقنوا اللغات الأجنبية ، وغدوا لا يهتمون الا بالأخذ من كتب اللغة التي يحسنونها من لغات الغرب ، وفي الغالب تكون الافرنسية او الانكليزية . وقلما رأينا رجلاً كفوءاً من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير كتب الافرنج ان نقل لمن حرموا معرفة اللغات الغربية من بني قومه موضوعاً نافعاً لهم في اجتماعهم وصناعتهم وتمدنهم ، لان الأنانية زادت بزيادة المدنية .

وقد زاد في رداءة التآليف المطبوعة كون المؤلفين ، ومنهم الوسط في علمه وتأليفه ، يخافون نقد الناقدين عليها ، وكون بعض الصحف والمجلات تصانع في الاكثر هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع المؤلفين ، وتدهن دهاناً عجيباً لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة والمجلة اوعلى مشربه السياسي ! . او يكون ممن يتوقع منه ان يكتب له ذات يوم مقالة او يعاونه أدنى معاونة مادية . ولذلك استشرى الفساد وظن كل من طبع شيئاً انه خدم الامة خدمة صالحة . والنقد الذي هو من أهم الذرائع في السير نحو الكمال الى بحابح المدنية مما لا يؤبه له ، وربما تعرض صاحبه لمقت هؤلاء الطابعين والمؤلفين . قسم السيد اسعد داغر من يعرضون في سوق الادب بضاعتهم من ترجمة وتأليف وتصنيف الى فريقين ، فريق المحترفين وفريق الهواة فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم لينقوا شر المتربة ، و يعيشوا من شق تلك القصبة ، والهواة هم الذين يشتغلون بالعلم والأدب لان لهم فيهما حفاوة صحيحة مجردة عن المآرب ، ورغبة حقيقية منزهة عن حب الأرباح والمكاسب ، ومعظم هؤلاء هواة كانوا ام محترفين يشق عليهم ان تنتقد كتبهم ومؤلفاتهم و ينظرون الى الانتقاد والمنتقد بعين الشانئ الكاشح .

ليس في كل ما طبعته المطابع الشامية منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وهو عصر النهضة عندنا ، سوى كتب قليلة تستحق العناية وتستوقف القارئ للاخذ منها حاشا كتب محمد عابدين ، احمد فارس ، فانديك ، ورتبات ، يوست ، پورتر ، لامنس ، شيخو ، مشاقة ، ابراهيم اليازجي ، ابراهيم الحوراني ، طاهر

الجزائري ، عبد الرحمن الكواكبي ، سعيد الشرتوني ، جمال الدين القاسمي ، رفيق العظم ، شبلي شميل ، شكيب ارسلان ، نجيب الحداد ، يعقوب صروف ، عيسى المعلوف ، اسعاف النشاشيبي ، ابراهيم الاحدب ، يوسف الاسير ، بطرس وسليمان وعبدالله البستاني ، امين الريحاني ، خليل سعادة وأضرابهم ممن أبرزوا تآليف منقحة ، وفي بعضها ابداع وايجاد ، وذلك لانهم هضموا العلوم التي عرفوا بها ، وجاؤا بالجديد والمنسق ، وفيها افكار علمية او دينية صحيحة .



الفنون الجميلة



تعريف الفنون الجميلة — الفنون الجميلة اوالصنائع النفيسة واسماها بعضهم نواضر الفنون وقال آخر : ان العرب أطلقوا عليها اسم « الآداب الرفيعة » وهي الصنائع التي من شأنها إدخال السرور بجمالها وجلالها على النفوس البشرية ، وتربية ملكة الذوق والشعور ، وهي سبعة أقسام : الموسيقى ، الغناء ، التصوير ، النقش ، البناء ، الشعر والفصاحة ، الرقص . وارجعها بعضهم الى ثلاثة فروع فقط التصوير والشعر والموسيقى .

ولقد كان لهذه الديار حظ كبير من هذه الفنون بقدر ماساعدتها بقعتها وطاقتها ، وربما تم فيها اشياء لم تصلنا اخبارها ، وذلك لان الدول القديمة ضاعت أخبارها ، اما الدول التي تعاقبت على الشام بعد الاسلام ، فان ما وصلنا من بعض انباء هذه الفنون فيها قد تعرّض له كاتبوه بالعرض ، كأن يكون المشتغل بالموسيقى او التصوير مثلاً ذا مشاركة في فنون أخرى من أدب وشعر ، وطب وفلك ، وحديث وفقه ، او ان القوم دوّنوا عامة سير الموسيقيين والمغنين والمصورين والنقاشين مثلاً فضاع مادونوه في جملة ما ضاع من اخبار حضارتنا .

***

الموسيقى والغناء

نشأت الموسيقى مع البشر ولازمتهم في جميع ماعرف من أدوارهم في حياتهم الخاصة والعامة ، وفي مظاهر سلمهم وحربهم ، وسعادتهم وشقائهم ، وأفراحهم وأتراحهم ، وسفرهم وحضرهم ، وتعبهم وراحتهم ، ودينهم ودنياهم . وكيف لا تلازمهم والمرء من طبعه ان لا يستغني عن رفع صوته ، ليطرب نفسه وجليسه ، وقلبه يصبو بالفطرة الى سماع اوتار تهزه وتطربه . فالموسيقى تجمع الحواس وتنشط لها النفوس ، وبها يجسر الجبان ، ويعطف اللئيم ، ويرق الكثيف ، ويلين القاسي ، ويقوى الضعيف ، ويكف الظالم ، ويعتدل المائل ، فهي مدعاة السرور ، مجلبة الطرب ، مسلاة الحزين ، مفرّجة الكروب ، مهوّنة الخطوب ، عنواة الحياة الداخلية ، مظهر الأخلاق القومية ، مصورة الانفعالات النفسية ، أصدق عامل على التحمس ، أقوى دافع الى النهوض والتحسس ، معلمة أنفع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية ، دافعة عن مزالق الشباب وطيش الأحلام ، فيها يتجلى العقل البشري بإشارات وحركات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات .

ولقد ثبت ان العنصر السامي من أكثر العناصر ولوعاً بالطرب والخيال ، وقيل ان الحثيين وهم من عنصر آري على الارجح ومن أقدم شعوب الشام ، كانوا أقل عناية بالموسيقى والغناء من جيرانهم البابليين والآشوريين والآراميين ، ومع هذا كان لهم من الغناء ما ابتدعوه بفطرتهم ، ومنه ما أخذوه من مجاوريهم . وكان الآراميون مولعين بالغناء والضرب بالايقاع على آلات لهم يبوّقون بها ويزمرون ، ويُطرّبون بها فيَطرَبون ، وهي بالطبع على حالة ابتدائية على مثال الشعوب التي سبقتهم الى سكنى هذا القطر الفتان بطبيعته ، المعشوق بأشجاره وازهاره واطياره . ومثل هذا يقال في الفينيقيين الذين اقتبسوا مدنية الفراعنة ، وهم من أصل عربي سامي ، فانهم كانوا يعرفون الموسيقى ، ومنها ما نقلوه عن المصريين لتمازج مدنية السلائل المصرية بمدنية فينيقية الصغيرة ، واذ كان للمصريين عناية فائقة في معابدهم بالموسيقى على ما ظهر من تماثيلهم التي مثلت بها الضاربين والمغنين ، تعلم جيرانهم أهل فينيقية بعض هذه العناية ، ولكن على طريقة الإحتذاء لا إبداع فيها ، ويقال ذلك في الكنعانيين والاسرائيليين فقد أولعوا بها وظهرت آثارها في معابدهم وبيعهم ، وأمام

أربابهم ومعبوداتهم ، وفي حروبهم وغاراتهم ، وأعيادهم ومآتمهم واجتماعاتهم ، على ما فهم من نصوص التوراة . ومزامير داود مشهورة مذكورة ، والآلات التي اشتهرت عند الشعوب القديمة وعانت استعمالها ، ترجع في الاكثر الى شبابة وبوق وصنج وطبل ودف .

ولقد دلت بعض النقوش التي عثر عليها في البتراء وجرش وتدمر ان العمالقة والنبط والعرب لم يكونوا أقل من الشعوب التي سبقتهم الى نزول هذه الديار ولوعاً بالتلحين والايقاع والضرب على القيثار والنفخ بالمزمار ، وقد نقل اليونان والرومان الى هذه البلاد موسيقاهم واصول غنائهم على الارجح كما نقلوا أربابهم ، واقتبسوا أرباباً مع أربابهم ، واذ طال عهد دولتيهم كثيراً تأصلت موسيقاهم ، وتبنت مصطلحاتهم ، وربما نقلوا بعض مصطلح الامة التي حكموا عليها في غنائها وموسيقاها . ولما انتشرت النصرانية في القرن الثالث للميلاد في الشام عُني منتحلوها بالموسيقى في كنائسهم عناية اليهود بها من قبل في بِيَعهم ، واذ اقتبست النصرانية كثيراً من عادات الروم ومصطلحاتهم لم تقصر في اقتباس الموسيقى والتلحين والغناء لتبوت فوائدها الروحية .

ولما جلت بعض القبائل العربية الى الشام يوم سيل العرم وقبله وبعده ، حملت معها ما ألفت ان تفزع اليه من اللحون ، وتضرب عليه من الآلات ، حتى اذا كان الاسلام ، وكانت مدنية الفاتحين الى السذاجة والفطرة ، وكان غناؤهم لا يتعدى الحداء والإنشاد يوم الغارة والحَفْل ، وفي ظل الخيام والآطام ، أخذت موسيقاهم تقتبس من الموسيقى الشامية الرومية كما تقتبس من الموسيقى الفارسية . وقال بعض العارفين : كان اقتباسها من الموسيقى الفارسية فقط . وزعم بعضهم ان أخذها كان من الرومية اكثر . ولا يعقل ان يتأخر العرب في نقل الموسيقى الى القرن الاول للهجرة واستعدادهم لها كاستعدادهم لغيرها من الفنون ، ولهم من فطرتهم ومناخ ارضهم أعظم دافع للولوع بها ، وهم المعروفون بحب الارتحال ، وكانت لهم صلات مع جيرانهم من الأُمم الاخرى منذ الزمن الأطول « ولم تكن أُمة من الامم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب » .

ومع هذا فنحن مضطرون ان نشايع القائلين بان اول من غنى هذا الغنـاء العربي بمكة ابن مسجح ، نقل غناء الفرس الى غنـاء العرب ، ثم كثر الموالي من الفرس فكانوا يتحملون في مكة والمدينة ، ومنها ينتقلون الى الشام والعراق ومصر وغيرها من البلاد التي استظلت براية الاسلام · وعبارة ابي الفرج الاصبهاني في كتابه الاغاني — والاغاني معلمنا في فن الموسيقى — « سعيد بن مسجح ابو عثمان مولى بني جمح وقيل انه مولى بني نوفل بن الحرث بن عبدالمطلب ، مكي أسود مغنٍ متقدم ، من فحول المغنين وأكابرهم ، واول من وضع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس الى غناء العرب ، ثم رحل الى الشام ، وأخذ ألحان الروم والبربطية والاسطوخوسية [1] وانقلب الى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ثم قدم الى الحجاز ، وقد اخذ محاسن تلك النغم وألقى منها ما استقبحه من النبرات ، والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هـذا المذهب فكان اول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس فيه اه ·

وقد ذكر ابو الفرج عشرات من المغنين والملحنين والموسيقيين قاموا بعد ابن مسجح ومنهم نشيط وطويس وسائب خاثر ثم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وابن محرز والغريض · خدموا هذا الغناء المتعارف الذي مزج بالاصول الرومية والفارسية او بهما معاً · ونقل القلقشندي عن العسكري ان اول من أخرج الغنـاء العربي جرادة ، جارية ابن جدعان قال : وفيه نظر فان الغناء معهود من عهد عاد ، حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتـان يضرب بهما المثل فيقال غنته الجرادتان · وكان

(١) زعم الاب شيخو الى ان الاسطوخسية هي تقويم الاوزان وقال الاب انسطاس الكرملي ان الاسطوخوسية قوم من اسطوخوس اواسطوخاوس وهي جزيرة في جنوبي فرنسا وكان اهلها معروفين بالقصف والغناء والانس وقال : ان البيزنطية سكان مملكة الروم في القسطنطينية وقال بعضهم البربطية الضرب بالبربط كجعفر وهو العود من آلات الملاهي واصله بربت فان الضارب به يضعه على صدره وهو فارسي · وهي تتلاحم مع تقويم الاوزان اكثر · اي تعلم تقويم الاوزان والضرب بالعود ·

النضر بن الحرث بن كلدة اول من ضرب على العود أخذه عن الفرس وعلمه أهل مكة فانتشر في الحجاز وكان يتغنى ايضاً .

وفي القصة التي ساقها صاحب الأغاني في الدعوة التي دعي اليها حسان بن ثابت في آل نبيط وقد أتوا بجاريتين احداهما رائقة والأخرى عزة فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغنتا بقول حسان :

انظر خليلي بباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد

ورواية حسان نفسه انه كان في الجاهلية مع جبلة بن الايهم وقد رأى عنده عشر قيان خمس يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء اهل الحيرة ، اهداهن اليه إياس بن قبيصة وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها — وفي ذلك كله إشارة الى ان الغناء العربي في الشام أقدم من الاسلام .

* * *

موسيقى كل امة ملازمة لها كروحها ، وهي مظهر من مظاهر حياتها ومشخصاتها ، فلا يعقل ان تخلو امة من روح حتى تجيء امة أخرى فتقبسها روحها ، ولكن الامة اذا اختلطت بأخري ، وكان عند الثانية فضل على الاولى في شيء ، وفي الثانية طبيعة الاقتباس ومرونة على الاحتذاء والتشبه ، قد تحمل الاولى الى الثانية ما ينمي فيها ذاك الروح فتعدله على أسلوبها ومناحيها .

ولقد زعم بعضهم ان الاسلام لم يحل الموسيقى محلها اللائق بها ، وادعى بعضهم انه حرمها ، فكان الحظر أسهل من الاطلاق في نظرهم ، بيد ان الاسلام وهو دين الفطرة لا يخرج عن حد قيود العقل ، الا انه لا يقول بالافراط في شيء حتى ولا بالعبادة ، لانه يكون قد دعا اذ ذاك الى البطالة واللهو ، وهما مخالفان للشرع مقوضان للعمران ، وبذلك تكون الموسيقى وبالاً على من يأخذ نفسه بها ، ومصيبة على المجتمع الذي ينصرف الى سماعها ، ولو صح ما قالوا فلما ذا رأينا جلة من الصحابة والتابعين لحنوا وتغنوا ، وسمعوا الالحان وطربوا لها ، ولو لم يجزها الشارع الأعظم في أوقات معينة وحوادث وقعت ، هل كان يجرأ احد من أصحابه ومن بعدهم على الجلوس في مجالس الطرب ، والدين غض والعهد بصاحبه غير بعيد ، قال عبدالله بن قيس :

كنت فيمن يلقى عمر مع ابي عبيدة مَقْدَمَهُ الشام ، فبينما عمر يسير اذ لقيه المقلِّسون من اهل أذرعات بالسيوف والرَّيحان فقال عمر : امنعوهم فقال ابو عبيدة : يا امير المؤمنين هذه سنتهم ، او كلمة نحوها ، وانك ان منعتهم منها يروا ان في نفسك نقضاً لعهدهم فقال : دعوهم . والتقليس الضرب بالدف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم المصر باصناف اللهو . وقيل المقلس هو الذي يلبس القالس او القلنسوة وهي أشبه بقبعات الروم .

ولما استقر الملك لأمية في الشام ودخلت الحضارة كان في جملة ما دخل اليه الغناء على صورة لا خنا فيها ولا تبذل ، ولقد روى المبرّد ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه ، فلما أصبح قال ليزيد : من كان مُلهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذاً فأخثر له من العطاء . وروى ايضاً ان معاوية قال لعمرو بن العاص : امض بنا الى هذا الذي تشاغل باللهو وسعى في هدم مُروءته حتى ننعي عليه اي نعيب عليه فعله ، يريد عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، فدخلا اليه وعنده سائب خاثر وهو يلقي على جوارٍ لعبد الله فأمر عبد الله بتنحية الجواري لدخول معاوية وثبت سائب مكانه ، وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فأجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله : أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسي فأُلقيت وأُخرج الجواري فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديارَ التي كادت ونحن على مِنيً تحل بنا لولا نَجاءُ الركائب
ومثلكِ قد اصبيتُ ليست بكنةٍ ولا جارة ولا حليلة صاحب (؟)

وردده الجواري عليه فحرك معاويةُ يديه وتحرك في مجلسه ثم مد رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو : اتئد يا امير المؤمنين فان الذي جئت لتلحاه احسن منك حالاً وأقل حركة فقال معاوية : أُسكت لا ابا لك فان كل كريم طروب .

وقالوا ان معاوية قال ذلك لما دخل على ابن جعفر يعوده فوجده مُفيقاً وعنده جارية وفي حجرها عود فقال ما هذا يا ابن جعفر فقال هذه جارية أُرَوِّيها رقيق

الشعر فتزيده حسناً بحسن نغمتهـا قال فلنقل فحركت عودها وغنت وكان معاوية قد خضب ·

أليس عندك شكر للذي جعلت ماابيض من قادمات الريش كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه ريب الزمان وصرف الدهر والقدم

فحرك معاوية رجله فقال له ابن جعفر : لم حركت رجلك يا امير المؤمنين قال : كل كريم طروب ·

واذا تسرب بعض الشك في هذه الرواية فان الاصل فيها وهو وجود الغنـاء في دمشق أوائل الحكم العربي مما لا مجال للشك فيه · وقد روى الاصفهاني وتابعه على روايته كثير من مدوني السير ومنهم في المتأخرين النويري ان يزيد بن عبد الملك أغلى اثمن في ابتياع جاريتين مشهورتين بالغناء وهما حبابة وسلامة وذكر له مجالس معهما ولا سيما مجلسه في بيت رأس (في الأردن او في حلب) · وكان سليمان بن عبد الملك شديد الغيرة لا يجوّز الألحان خشية على الحرم ومع هذا فقد رأينا بعض خلفاء بني أمية في دمشق وامراءهم وساداتهم يضعون ألحاناً و يسمعون الغناء ويولعون بالموسيقى ، و يجيزون أربابها ويواسونهم من غير نكير : ومنهم عمر بن عبد العزيز ، وناهيك به من كامل ، في جميع الفضائل · فقد دوّنت له صنعة في الغناء ايام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيهـا ، وكان أحسن خلق الله صوتاً · قال ابو الفرج : واما الألحان التي صنعها فهي محكمة لا يقدر على مثلها الا من طالت دربته بالصنعة وحذق في الغناء · وممن صنع في شعره غناءً يزيد بن عبد الملك الأموي وممن غنى وله أصوات صنعها مشهور وكان يضرب بالعود و يوقع بالطبل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز ، الوليد بن يزيد · وقد ذكروا انه كان للخلفاء من بني العباس غناء ، ومنهم من كان يضرب بالعود ، ومن خلفاء العباسيين السفاح والمنصور والواثق وابن المعتز والمعتضد وكثير غيرهم من ابنـاء الخلفاء دع سائر الطبقات من اهل الرفاهية والسعة ، ممن كانوا في كل زمان ينشطون الى سماع الاغاني ، و يبرون الرجال والنساء من ارباب الموسيقي والغناء ، و يغالون بابتياع الجواري اللائي حذقن الغناء و برعن في الموسيقي وشدون شيئاً من الأدب ·

وكانت تغلو في العادة قيمة مثل هذه الطبقة من الجواري . والسواذج منهن اي غير المثقفات دون من عني اولياؤهن بثقافتهن في الرتبة والقيمة مهما بلغ من جمالهن، والموسيقى والشعر في مقدمة ما كان يطلب منهن .

وذكر المسعودي ان كثيراً من الجواري اشتهرن بالغناء بالمدينة وكان يقصدهن بعض الناس من بغداد وربما وافى الواحدةَ وجوه أهل المدينة من قريش والانصار وغيرهما ومنهن القارئة القوّالة ، ولم تكن محبة القوم اذ ذاك لريبة ولا فاحشة . وكان لبعض الموسيقيين والموسيقيات والمغنين والمغنيات من أرباب النباهة والفضل يد في اصلاح بعض الأحوال وتخفيف النوازل عند العظماء ، ولطالما ارتجلوا ألحاناً وأبياتاً ظاهرها طرب وغرام وسلوى ، و باطنها وعظ وعبرة وتعريض ، ذلك لان الموسيقى عندهم كانت على الاغلب مرافقة للشعر والأدب وكم من شاعر تدفقت الحكمة على قلبه ، وجاش بها صدره فهذّب نفساً بل نفوساً بابيات يقولها .

ذكروا ان المأمون ركب يوماً بدمشق يتصيد حتى بلغ جبل الثلج ، فوقف في بعض الطريق على بركة عظيمة في جوانبها اربع سروات لم ير أحسن منها ولا أعظم ، فنزل المأمون وجعل ينظر الى آثار بني أمية ويعجب منها و يذكرهم ودعا بعلويه فغنى :

اولئك قومي بعد عز ومنعة تفانوا فان لا تذرف العين اكمد

فآخذه المأمون لذكره مواليه من بني أمية فقال : مولاكم زرياب عند موالي في الاندلس يركب في مئة غلام وانا عندكم أموت من الجوع . وزرياب مولى المهدي صار الى الشام ثم صار الى المغرب الى بني أمية في الاندلس ونشر الغناء هناك وحظي عند الخلفاء .

جاء ابو النصر الفارابي الفيلسوف الى الشام على عهد سيف الدولة بن حمدان فأدهشه ومن عنده من الموسيقيين على اتقانهم لها ، وأقام في دمشق ومات فيها قال ابن ابي أصيبعة : ان الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقي وعملها الى غاياتها ، وأتقنها إتقاناً لامزيد عليه ، وانه صنع آلة غريبة يسمع عنها ألحاناً بديعة ، يحرك بها الانفعالات ، ويحكى ان القانون الذي كان يضرب عليه للطرب هو من وضعه ، وانه كان اول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم . وقد ذكر

المؤرخون من تنافس سيف الدولة ابن حمدان مع الوزير المهلبي للاستئثار بمغنية أديبة مشهورة اسمها الجيداء ما يدل على ولوع القوم بالموسيقى ، وكان لجيداء في مجالس سيف الدولة من إرتجال الألحان والأدب البارع ما اشتهر امره ، وفي عصره اشتهرت في انطاكية المغنية المشهورة « بنت يحنا » .

ولم تبرح الشام تخرج من رجال الموسيقى والغناء رجالاً كانوا بهجة عصورهم ، ومنهم ابو المجد بن ابي الحكم من الحكماء المشهورين من اهل القرن السادس كان يعرف الموسيقي و يلعب بالعود و يجيد الايقاع والغناء والزمر وسائر الآلات ، عمل ارغنا و بالغ في أتقانه[1] وحاول ايضاً عمل الأرغن واللعب به ابوزكريا يحيى البياسي من أطباء الملك الناصر صلاح الدين .

وكان من البارعين في هذا الفن من علماء هذه الديار قسطا بن لوقا البعلبكي وصفي الدين عبد المؤمن بن فاخر ونجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة وفخر الدين الساعاتي . وكان رشيد الدين بن خليفة أعرف اهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود ، وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى انه شوهد من تأثير الأنفس عند سماعه مثل ما يحكى عن ابي نصر الفارابي ، فكثر إعجاب الملك المعظم به جداً وحظي عنده . ومنهم علم الدين قيصر أخذ الموسيقى عن الفيلسوف كمال الدين موسى بن يونس في الموصل .

وكان احمد بن صدقة طنبورياً مقدماً حاذقاً حسن الغناء ومحكم الصنعة وكان ينزل في الشام فاستدعاه المتوكل الى بغداد وأجزل صلته . وكان خلفاء بني العباس كلما سمعوا بنابغة في هذا الفن حملوه من القاصية وأغدقوا عليه الهبات ذكراً كان ام أنثى ، ولهم في ذلك نوادر ان لم تصح كلها ففي بعضها اشارة الى ما كانوا فيه من حب هذا الفن .

---

(١) الغالب ان هذا الأرغن غير الذي يعرفه الافرنج لعهدنا قال الخوارزمي : الأرغنون آلة لليونانيين والروم تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها الى بعض و يركب على رأس الزق الأوسط زق كبير ثم يركب على هذا الزق أنابيب صفر لها قصب على نسب معلومة يخرج منها أصوات طبيعية مطربة مشجية على ما يريد المستعمل .

ومنهم الجمال البستي كان يلعب بالجغانة (الاصل الصغانة وهي القيثارة) ولي خطابة جامع التوبة بدمشق على عهد الملك الأشرف فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ وكان يتهم باستعمال الشراب وصاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل بن أيوب فكتب اليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زويتينية الرحبي ابياتاً يعرّض بها بالرجلين ويرجو ان يعاد جامع التوبة الى ما كان عليه محله من قبل وهو خان للفسق والفجور لان حظه حتى بعد ان صار جامعاً ان يتولاه موسيقار وشريب عقار فقال :

يا مليكاً اوضح الحـ ـق لدينا واقامه   جامع التوبة قد قلدني منه اامانه
قال قل للملك الصا لح اعلى الله شانه   يا عماد الدين يامن حمد الناس زمانه
كم الى كم انا في ضر وبؤس وإهانه   لي خطيب واسطي يعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبـ ـل يغني بجغانه   فكما نحن فما زلـ ـنا ولا ابرح حانه
ردني للنمط الا ول واستبق ضمانه

وكان محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٣١ شاعراً موسيقياً ملحناً قانونياً دهاناً وكان الكمال القانوني من المشهورين في عصره بقانونه ، وصفه عبد الرحمن بن المبجف (٦٣٥) الدمشقي فقال :

لو كنت عاينت الكمال وجسّه   اوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفة الـ   يسرى وفي اليمنى حياة الأنفس

وذكر ابن حجر في أخبار سنة ٧٧٩ ان دنيا بنت الاقباعي المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقدم في صناعتها فاستدعاها الناصر حسن على البريد الى مصر فأكرمها ، ثم وفدت على الملك الأشرف فحظيت عنده ، وهي كانت من أعظم الاسباب في إسقاط مكس المغاني ، سألت السلطان في ذلك فأجابها اليه ، واستمر إبطاله في الدولة . واشتهرت في القرن الثامن بدمشق فرحة بنت الخايلة المغنية كما اشتهرت المغنية المعروفة بالحضرمية وهي التي كانت مع عرب آل مرا يوم وافوا دمشق لحرب التتار في زهاء اربعة آلاف فارس فكانت تغنيهم من الهودج سافرةً وكانوا يرقصون بتراقص المهارى وتقول :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا جُذاماً وحِميرا
ولما لقينا عصبة تغلبية يقودون جُرداً للمنية ضُمّرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض ابت عيدانه ان تكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثله ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ومنذ الزمن الأطول الى ايامنا ما خلت الشام من عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة وزفانة . وكان في القرن التاسع الحسن بن احمد الحصوني (٨٤٠) يعرف بعض الآلات المطربة . ولم يخل عصر بعد زهو الشام على عهد الأمويين والعباسيين ومن بعدهم من المماليك وغيرهم من مبرزين في الغناء والموسيقى . واشتهر في دمشق بضرب القانون وكان استاذاً فيه احمد التلعفري (٨١٣) وكان كاتب المنسوب . ومن النابهين ابن القاطر الدمشقي من اهل القرن الحادي عشر كانت له شهرة عند أرباب هذا الفن فاذا حضروا معه مجلساً عظموه وتراخوا في العمل حتى يشير اليهم ، ذكر ذلك المحبي وترجم له ولرجب بن علوان الحموي وقال : ان هذا كان يعرف الموسيقى على اختلاف أنواعها وهو أعرف من أدركه وسمع به ، وله أغانٍ صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن . ومنهم برسلوم الحلبي رئيس اطباء الدولة العثمانية ونديم السلطان محمد بن ابراهيم كان حسن الصوت عارفاً بالموسيقى . واشتهرت أسرة بني فرفور في القرنين الماضيين بدمشق بالشعر والآداب وقد أخرجت رجلين من أبنائها عارفين بالموسيقى وهما جمال الدين وعبد الرحمن .

وفي تراجم اهل الغناء الذي كتبه الكنجي المتوفى سنة ١١٥٠ هـ ترجمة ستة وعشرين مغنياً من معاصريه في دمشق وفيهم المؤذن والمنشد في الاذكار والمغني على الآلات الموسيقية ، مما يدل على الاقبال على الموسيقى حتى في أعصر الظلمات ، فاذا كانوا في عصره على هذا القدر في دمشق فقط فكم كان في حلب وغيرها من المدن ، وحلب مشهورة من القديم بغرام ابنائها بالموسيقى منذ عهد سيف الدولة بن حمدان ، دع الموسيقيات والمغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهم أمثال علوة محبوبة البحتري في حلب التي ذكرها كثيراً في شعره الخالد .

ومن الموسيقيين من كانوا يمارسون الموسيقى للتكسب ، ومنهم من كان يخدم هذا

الفن المهم حباً به ، ومن هؤلاء طبقة من الرجال والنساء لا يُستهان بها ولكنها كانت ولا زالت متكتمة ، ومنهم من تستعمل من الموسيقى او تسمع منها ما لا يعبث بوقارها ان كانت من ارباب المظاهر الدينية او الدنيوية مخافة ان ترمى بما يثلم الشرف لان بعض الفقهاء شددوا على الغناء والموسيقى ، وكان بعضهم يعد ساقطاً من العدالة كل من يغني باجرة من الموسيقيين والمغنين ، ويتسامحون مع من يغني في جماعة من أصحابه ، ويعدون الغناء فنّاً يفقر صاحبه ، وجاء في الامة مثل شيخ الاسلام عبدالعزيز ابن عبد السلام (٦٦٠) وكان على نسكه وورعه يحضر السماع ويرقص ويتواجد والناس تقول في المثل « ما انت الا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام » . وصناعة الغناء كما قال ابن خلدون : آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كمالية واول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه .

ولقد ادركنا وأدرك أجدادنا ان بلاد الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين ، وكل مجلس من مجالسهم او سهرة من سهرياتهم ، اونزهة من نزهاتهم ، كانت تضم أناساً أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة ، فكان السرور يملأ القصور والدور ، والموسيقى والإنشاد من الامور المألوفة لا يُستغنى عنها بحال ، اما في القرى والبوادي فكان لهم الغناء والحداء ، وضرب الرباب والقيثارة والمزمار والدف والكوبة ، اي ان لهم مايطرب آذانهم وترتاح اليه أرواحهم وتسهل معاناته وممارسته ، ومن مشاهير الموسيقيين في النصف الاول من القرن الماضي محمد السؤالاتي الدمشقي اخذ عنه ارباب الموسيقى في عصره من المصريين والشاميين ذكره في سفينة الملك .

ومن اهل المظاهر الذين عُرفوا بالموسيقى في أوائل هذا القرن ابوالهدى الصيادي من حلب والشيخ عبد الرزاق البيطار من دمشق وكانا من أساتذة هذا الفن الجليل ، ومنهم من عُنوا بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء هذه الديار مثل محمود الكحال . احمد السفرجلاني . علي حبيب . عمر الجراح . عبدالقادر الحفني . ومحيي الدين كردعلي (توفوا) . وسامي الشوا . رحمون الحلبي . توفيق الصباغ . علي الدرويش . باسيل الحجار . محمد الشاويش . نجيب زين الدين . مصطفى سليمان بك . شفيق شبيب . محمد علي الاسطة . رضا الجوخدار . مصطفى الصواف . حمدي ملص . رجب

خلقي . يوسف الزركلي . محمد الانصاري . محمد محمود الاتاسي . ميشل الله و يردي . مدحت الشربجي . اليكسي بطرس . اليان نعمة . اسكندر معلوف . بولس صلبان . نصوح الكيلاني . تحسين يوقلمجي . عباد الحلو . طلعت شيخ الارض . حسن التغلبي . جميل البربير . احمد التنير . امين النقيب . محيي الدين بعيون . وديع صبرا . عزت الصلاح . قسطندي الخوري . احمد الشيخ . محمد الجراح . ابراهيم شامية . وغيرهم في ارجاء البلاد ممن جملوا الموسيقى حرفة او للتسلية في خلواتهم ومنهم من كانوا صلة بين الموسيقى القديمة والموسيقى الجديدة . ومن المنشدات المطربات فريدة مخيش . رمزية جمعة . خيرية السقا . نادرة . ساربنا . فيروز .

ولقد انبغت بيروت وحلب كثيرين من المغنين والغالب ان في هاتين المدينتين خاصية حسن الصوت . سألت صديقنا الشيخ كامل الغزي من أساتذة حلب عن المغنين والموسيقيين في بلده فكتب لي رسالة بديعة قال فيها :

ان حلب لا تخلوا في اكثر اوقاتها من الشداة والمترنمين الذين يعدون بالمئات و يعرف عند الحلبيين من يأخذ على غنائه اجرة باسم ابن الفن ، ومن رجال اواسط القرن الماضي مصطفى يشبك ، فتح نادياً لممارسة الفنون الموسيقية دعاه بقاعة بيت مشمشان ، كان يختلف اليه في أوقات معينة كثير من المولعين بالموسيقى ليتلقوها عن استاذها . وما زال الحلبيون يضربون المثل بالمكان الذي تتوفر فيه دواعي الطرب فيقولون : (ولا قاعة بيت مشمشان) . ومن رجال أواسط القرن الماضي عبد الله البو يضاني ومن رجال القرن الماضي وأوائل القرن الحالي محمد بن عبده . اسماعيل السيخ . جبرا الاكشر . آجق باش . طاهر النقش . محمد الوراق . الدرويش صالح قصير الذيل . محمد غزال . باسيل نجار . احمد سالم . احمد بن عقيل . وممن اخذ عن هذا بعض فصول الرقص المعروف بالسماح السيد احمد ابو خليل القباني الممثل الموسيقار الدمشقي والسيد عبده الحمولي المطرب المصري وهما من المشاهير . ومن تلامذته امرأة قنصل ايطاليا في حلب كانت تقول ان السيد احمد بن عقيل يقل نظيره في هذا الفن حتى في اوربا قال : ومن الاحياء في حلب عبده بن محمد عبده وشرف الدين المعري ومن قينات القرن الماضي واوائل القرن الحالي الحاجة عائشة المسلمينية .

وقال ان العود المعروف بالبربط لم يكن معروفاً في حلب في القرن الماضي حتى جاء حلب سنة ١٢٩٣ هـ رجل من اهل دمشق اسمه سعيد الشامي فأخذ الناس عنه . ومن العازفين في الكمنجة أوائل هذا القرن شعيا الكنجاتي واسحق عدس ونيقولا كي الحجار . ومن الاحياء سامي الشواء ووالده انطون موسيقار ايضاً . والعازفون بالناي المعروف عند العرب بالبراعة كان نابغة فيه أوائل القرن عبده زرزور وكل من في حلب اليوم خريجوه وتلاميذه اهـ . ومن الموسيقيين الحلبيين ايضاً عبد الكريم بلّة وحبيب العبديني واحمد مكانس وعمر البطش ومصطفى طمرق توفوا في أوائل هذا القرن .

ولقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية في أواخر القرن الماضي ، لانها خدمت اكثر من موسيقانا ، ثم جاءت الموسيقى الافرنجية ، فأصبحت الموسيقى الشامية مزيجاً لا يقام له وزن ، لم يحتفظ بالقديم وهو من روحه وعاداته ، ولم يحسن اقتباس الجديد لانه ليس من مصطلحه . ولا يفوتنا القول ان الموسيقى في العصور الاخيرة كان لها في اذكار بعض ارباب الطرق الصوفية مقام رفيع . ومنهم من اتبعها بالصنوج والأوتار ، ومنهم من شفعها برقص ، وقد قام منهم مبرزون في صنعتهم ، وماتت شهرتهم ، يوم سكنت نأمتهم ، والموسيقى في الكنائس على اختلاف الطوائف المسيحية وتباين العصور ، ما زالت شائعة معتبرة وكم من موسيقار عديم نقابت به الحال حتى رقي بفضله الى أرقى درجات الكهنوت .

***

التصوير { أخذ الحثيون التصوير على الاغلب كما اخذوا النقش والبناء عن جيرانهم من البابليين والاشوريين وربما اخذوا عن المصريين ايضاً ، لكنهم لم يجودوه كل الإجادة على ما رأينا من تصاويرهم المكتشفة ، وخالفنا رأي بعض المشتغلين بآثار هذه المحجبين بمدنية الحثيين على علاتها ، فان الآثار التي اكتشفت للحثيين في جرابلس منذ زهاء عشرين سنة تدل على مبلغ تلك الامة من الاتقان في النقش والتصوير . وقد قال لنا الاستاذ هروزني التشكي وهو إخصائي بآثار الحثيين : ان عادياتهم مما يعجب منه ، ولا تقلُّ بجمالها عن بقية آثار الأمم الاخرى ، وكذلك فعل الكنعانيون والفينيقيون والاسرائيليون ، اخذوا عن

أشور و بابل ومصر هذا الفن ، ولم يعرف انه كان لهم طرز خاص في التصوير ، وكانوا على ما ظهر دون من اقتبسوا عنهم ، اما التدمريون فأجادوا في تصويرهم وكانوا ينقشون على القبور صور أخرى من دفن فيها من الرجال والنساء مثل اهل جنوة في ايطاليا في العصور الأخيرة ، ومنها صورة جاريتين رآهما اوس بن ثعلبة التيمي في القرن الاول وقال فيهما أبياته المشهورة :

فتاتيْ أهل تدمر خبراني ألمَّا تسأما طول المقام
قياماً على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وفي دار الآثار بدمشق مجموعة تماثيل من قبور تدمر كأنها تنطق ، ومنها صورة فتاة مزينة الرأس يستدل منها على صورة تصفيف الشعور في ذاك العصر وكيف كانت أزياء نساء تدمر و بهرجة رؤوسهن ووضع أقراطهن وعصاباتهن ، وفيما ظهر مؤخراً في مدينة تدمر من تماثيل صاحبتها زينب ووصيفاتها وفي غير ذلك من الشخوص دليل على تبريز التدمريين في هذا الشأن .

اما التصوير عند الروم واليونان في الشام فان منه نموذجات تأخذ بمجامع القلوب قال الثعالبي : لم يبدع التصوير إبداع الروم والرومان احد من الامم ، فقد كان لهم إغراب في خرط التماثيل والإبداع في عمل النقوش والتصوير ، حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئاً الا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت ، وضحك الخجل بين المتبسم والمستغرب ، وبين ضحك السرور وضحك الهازئ ، فيركب صوره في صورة ، وصورة في صورة .

والمصانع الشامية من العهد الروماني هي ذات أشكال معتادة في تلك الاعصر لها نقش ظاهر خاص بها من النقوش النباتية الكبيرة المنقولة عن نباتات البلاد ولاسيما في فلسطين في عصر الملوك والقضاة مثلاً ومنها ما يستعمل فيه صور الطيور . قال دوسو : ان في الكتابات التي وجدت في الصفا صورة فرسان مسلحين برماح طويلة على مثال بدو هذه الايام ، واحياناً تمثلهم وهم يطاردون غزالاً او وعلاً او يصطادون أسداً ، ومنهم الفرسان يحملون الرماح والمشاة مسلحون بالقوس

والنشاب · ولقد غصت فلسطين على عهد الامبراطور قسطنطين بالمصانع التي تذكر بالحوادث الخطيرة التي وردت في الانجيل وقد زينت هذه المصانع بالفصوص التي تمثل هذه المشاهد ·

جاء الاسلام للقضاء على الوثنية وعبادة الاصنام ، فحاذر المسلمون اذا أجازوا الرسم المجسم ان يكون في عملهم مدرجة للعرب الى الرجوع الى عبادة الاصنام ، فجعلوا في التجويز بعض القيود الخفيفة ، ولما ذهبت تلك الخشية اخذت مسألة التصوير تنحل شيئاً فشيئاً ويُعمد الى ما فيه مصلحة منه · فقد رأينا زيد بن خالد الصحابي استعمل الستر الذي فيه صور ولم ينكر الناس عمله · قال صديقنا المحقق السيد محمد رشيد رضا في المنار : ومن الآثار في حكم التصوير وصنع الصور والتماثيل اتخاذ احد أعاظم أئمة التابعين القاسم بن محمد بن ابي بكر (رض) الحجلة التي فيها تصاوير القندس والعنقاء ، وهو ربيب عمته عائشة الصديقة وأعلم الناس بحديثها وفقهها ، ومنها استعمال يسار بن نمير مولى عمر بن الخطاب (رض) وخازنه الصورَ في داره ومنها صنع الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما وَليَ إمارة المدينة وكانا من التابعين قال : وعمل مروان يدل على ان التصوير كان مستعملاً في عصر الصحابة ، فمن عرض مسألة التصوير واتخاذ الصور على هذه القواعد الشرعية علم منها ان دين الفطرة الذي قرن كتابه ووصف بالحكمة ورفع منه الحرج والعسر عن الامة لم يكن ليحرم صناعة نافعة في كثير من العلوم والاعمال ويحتاج اليها في حفظ الامن وفنون القتال ، وانما يحرم ما فيه مفسدة او ما كان ذريعة الى مفسدة اه ·

ويعجبني ما كتبه استاذنا الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في وصف رحلته الى صقلية عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) في مجلة المنار وقد ذكر تنافس الغربيين في حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج فقال : « اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوين والمبالغة في تحريره خصوصاً شعر الجاهلية ، وماعُني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، امكنك ان تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المطبوعات من الرسوم والتماثيل ، فان الرسم ضرب من الشعر يُرى ولا يُسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى · ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت

من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به ان تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الانسان او الحيوان في حال الفرح والرضى ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً ، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفزع والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان في المعنى ولم أجمعها هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لانها مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينها وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك ان تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال او تلك . اما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك .

قال : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية ، اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية وأوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام او جائز او مكروه او مندوب او واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال او الصورة قد محي من الأذهان ، فأما ان تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، واما ان ترفع سؤالاً الى المفتي فهو يجيبك مشافهة فاذا أوردت عليه حديث : ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون او ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله او ممهد للإشراك به ، فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة ، كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات ، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ، ولم يمنعه احد من العلماء مع ان الفائدة في نقش المصحف موضع النزاع ، اما فائدة الصور فما لا نزاع فيه على الوجه

الذي ذكر .... وبالجملة فانه يغلب على ظني ان الشريعة الاسلامية أبعد من ان تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل اه .

لما جاء الفاتحون الى الشام كانت في تصويرها عالة على الروم والفرس وبقيت على ذلك مدة قليلة لان التصوير لم يكن يعرف انه كان في متفرق أقطار جزيرة العرب اللهم الا في اليمن ، برع فيه أهلها براعة أثبتتها الآثار والمصانع ، وكانت الأثواب اليمانية المزركشة المبرقشة المصورة مما يحمل الى الحجاز وسائر بلاد الجزيرة وما اليها منذ عهد الجاهلية ، وأول ما عرف التصوير في الشام على عهد المسلمين كان في زمن الوليد باني الجامع الأموي بدمشق والمسجد الاقصى في القدس وغيرهما ، وما نظن ان جميع من صوروا له ما أراد من الحيوان والنبات والشجر والمدن والأصقاع كانوا من اصول عربية بل كان فيهم الفرس والروم الذين دخلوا في خدمة الدولة العربية ، ومنهم من بعثت به مملكة بيزنطية ليساعدوا الخليفة على عمله النافع ، وقد وجد الاثري موسيل التشكي في قصير عمرة على سبعين كيلو متراً من قصر المشتى في البلقاء كتابات ونقوشاً تشير الى فتح الاندلس في ايام الوليد وفيه من النقوش الزاهية والتصاوير العجيبة ما يأخذ بالأبصار . قال صاحبنا شيخو : وفي هذه القصور من الآثار الهندسية ومن التصاوير ومن تمثيل أحوال البادية كالصيد والغزوات والمآدب والمصانع ما أذهل العلماء لوجوده في البراري . ويقول ريسون : ان العرب قد نهجوا في الفنون الجميلة نهج البيزنطيين ، ولم يخالفوهم الا بعدم تجسيم الحيوان ، ولكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي من تشبك اوراق وأقواس باهرة وفصفصة زاهرة وآكام ومعاهد ساحرة .

وفي التاريخ العام ان الاسلام حظر تمثيل الصور الآدمية ولكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من ان يكون في قصورهم صور وتماثيل ، ومع هذا لم يخلف العرب في النقش ولا في الرسم آثاراً خارقة للعادة ، وما بقي من آثارهم وعادياتهم الحجرية وأنواطهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد باستعدادهم الفني ، فانهم نقلوا عن غيرهم في هذا الشأن اولاً ثم أخذوا يمرنون أنفسهم على حسن الهندسة بالنقل عما عثروا

عليه باديء بدء ولا سيما عن الآثار البيزنطية ، فكانوا يخشون اول امرهم ثم أخذوا يجرأون فيعدلون ما يريدون احتذاءه بل يخترعون ويبدعون ، فظهر لهم علم جديد مستقل على غير مثال ، قال : ولا نعلم هل كان للعرب قبل الاسلام طرز من البناء الخاص بهم ، لانه لم يبق من الزمن السابق للاسلام سوى خرائب مبعثرة ، ومن الهجرة الى القرن العاشر كان عهد الطرز اليوناني العربي ، وعلى مثاله جاء بناء المسجد الأقصى في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الاعظم في قرطبة ، والتأثيرات اليونانية ظاهرة فيها اه ٠

وبعد ان ترجم العرب كتب الفنون والصناعات عن الروم والفرس والقبط والسريان والهند منذ اول النصف الثاني من القرن الاول أخذوا يزينون كتبهم ببعض الصور ، يصورونها لتمثيل المسائل العلمية للابصار ، ولا سيما كتب النبات والبيطرة والحيوان والجراحة والهندسة والفلك والجغرافيا وبعض كتب الادب والمحاضرات والمقامات ، فاستعملوها بحسب الحاجة وأجادوا بالنسبة لعصورهم ، على ما ثبت ذلك بشهادة المحفوظ من مخطوطات العرب في متاحف الشرق والغرب ، واكثر من أثر عنهم التصوير والإجادة فيه وصنع التماثيل ووضعها في قصورهم خلفاء بني أمية في الاندلس ، ومن جاء بعدهم من الملوك ، والصور كما قال ابن أصيبعة : انما جعلت لارتياح القلوب اليها واشتياق النظر الى رؤيتها ، والصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها ، وكذلك نقشت اليهود هياكلها ، وصورت النصارى كنائسها وبيعها ، وزوق المسلمون مساجدهم ٠

ثم زوّق المسلمون مساجدهم ، وكانوا أوائل الاسلام يكتفون بالصلاة في مساجد أشبه بالأرض القفراء ، ويفضلون السجود على الحصاو يعدون فرشها بالبواري بدعة ، وذلك لئلا تشتغل العين بشيء يبعد النفس من الخشوع لبارئها ، ثم أخذوا يتأنقون في مساجدهم ، ويفرشونها بالطنافس والزرابيّ ، ويصورون حيطانها ، وينقشون فيها آيات ثم مشجرات وأماكن جميلة ، ومعظم ما انتهى الينا او بلغنا خبره في العصور العشرة الاخيرة في الشام تصوير المسائل العلمية ، والامصار والاشجار ، والسفن تمخر في البحار ، ثم تصوير الحيوان والانسان ولكن على قلة ٠

لا جرم ان التصوير في هذه الديار كان ضعيفاً بعض الشيء لان مسألته كان فيها نظر عند بعض الفقهاء الذين جمدوا على مافهموه من الشريعة ، والتصوير عارض على الملة غير مغروس في فطرتها ، ولكن المسلمين تطوروا بطور الامصار التي نزلوها . ولم يتوقف ملوكهم وامراؤهم على فتاوى الفقهاء لإقامة المعالم واقتباس الحضارة ، فقد ذكر ابن بطريق ان بطريق الروم في قنسرين طلب الى ابي عبيدة بن الجراح الموادعة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك ، ومن أقام فيها فهو في ذمة وصلح ، فأجابه ابو عبيدة الى ذلك ، فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصوّر الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالساً في ملكه فرضي ابو عبيدة ، ومرّ بالصورة احد العرب ، ووضع زج رمحه في عين تلك الصورة ففقأ عين التمثال عن غير قصد ، فأقبل البطريق وقال لابي عبيدة : غدرتمونا يامعشر المسلمين ونقضتم الصلح وقطعتم الهدنة فقال ابوعبيدة : فمن نقضه فقال البطريق : الذي فقأ عين ملكنا فقال ابوعبيدة : فما تريدون ؟ فقال : لانرضى حتى نفقأ عين ملككم . فقال ابوعبيدة : صوروا بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بي ما أحببتم ومابدا لكم ، فقال : لانرضى الا بصورة ملككم الاكبر فأجابهم ابو عبيدة الى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود وأقبل رجل منهم ففقأ عين الصورة برمحه فقال البطريق قد انصفتمونا .

وذكر المقريزي ان خمارويه بن احمد بن طولون امير مصر والشام المتوفى سنة ٢٨٢ هـ عمل في داره في القاهرة مجلساً برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد ، المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته وصورة حظاياه ، والمغنيات اللاتي يغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الاكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين والكوادن[1] المرصعة باصناف الجواهر ، وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهي مسمّرة في الحيطان

(١) الكدن ويكسر توب للخدر او توب توطيء به المرأة لنفسها في الهودج ومركب النساء .

وأُونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة . فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا .

كانت هذه القاعة المصورة في القرن الثالث وظهر في عصر الايوبيين والمماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على الجدران وعلى الكتب ، ومنها ما كان الى القرن السابع في دير باعنتل على أقل من ميل من قرية جوسية قرب حمص ، كان فيه على رواية ياقوت عجائب منها آزج (بيت مستطيل) أبواب فيها صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وصورة مريم في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت عينها اليك . ومنها ما كان في هيكل دير مران في سفح قاسيون بدمشق من صورة عجيبة دقيقة المعاني . وذكر ابن جبير انه كان في كنيسة مريم بدمشق في القرن السادس من التصاوير امر عجيب ، وكان مثل ذلك في كنيسة القيامة وغيرها من كنائس فلسطين .

ومما ذكروه عن الوزير اليازوري من وزراء الفاطميين في القرن الخامس انه كان يفضل كثيراً على المصورين الشرقيين وكانوا من المسلمين على ما اتصل بنا من أسمائهم مما ذكره المقريزي . وذكر ايضاً ما كان في قصور الفاطميين من صور الدول ورجالهم ، ولقد ذكر المقريزي ايضاً في رسالته النقود الاسلامية ان الرسول عليه السلام اقرّ نقود العرب في الجاهلية التي كانت ترد اليهم من الممالك الاخرى والدنانير قيصرية من قبل الروم مصورة وان عمر ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها ، وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلداً سيفاً ، وكان الذي ضرب الدراهم في عهد عبد الملك رجلاً يهودياً من تيماء نسبت الدراهم اذ ذاك اليه ، وقد جعل الظاهر بيبرس رنكه اي شعاره الأسد وجعل دراهمه على صورته وجعل اقوش الافرم رنكه في غاية الظرف وهو دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر كأنه مسنّ عليه سيف احمر يمر من البياض الفوقاني الى البياض التحتاني وقال فيه نجم الدين هاشم البعلبكي :

سيوف سقاها من دماء عداته وافسم عن ورد الرّدي لا يردها
وأبرزها في ابيض مثل كفه على أخضر مثل المسنّ بحدها

قالوا وقد كان الخواطيء ينقشن رنكه على معاصمهن وفي اماكن مستورة من أجسامهن .

ومن أجمل ما أبقت الايام وان لم يتم لها الى الآن قرنان ، الصورة الباقية في دار اسعد باشا العظم في حماة من ابدع ما حوت من النقوش العجيبة وغيرها ، وهي صورة رسمت على قطعتين من الخشب جعلتا في حائط القاعة الكبرى ونقشت عليها صورة حماة في ذلك العهد بجوامعها ومدارسها ، ونواعيرها وقصورها ، يظهر منها ان حماة كانت اعمر مما هي عليه الآن عرفنا ذلك بفضل التصوير .

اخذت العرب نقوش الفسيفساء عن الروم و بالغت فيها ولا يزال الى اليوم قطع في الدور وغيرها ، واهمها ما لا يزال في كنيسة مادبا في البلقاء من مصوّر بلاد فلسطين ونهر الأردن يشقها من وسطها والأسماك تعوم فيه ، والبلاد التي كانت عامرة لعهد واضعها ، ولا يزال القسم الاعظم منها بحاله لم يصب بأذى الايام . وآثار الفسيفساء كثيرة مبعثرة في دور مادبا لم تزل على بريقها الى اليوم ، وفي دار سليم الصناع في مادبا بركة ماء معمولة بالفسيفساء الملونة ايضاً تحال ما فيها ماءً حقيقياً وعلى جوانبها الثلاثة الباقية رسوم بالفسيفساء تمثل الحيوانات والطيور البرية والداجنة تسرح في جنينة زاهرة والطيور المائية واقفة في وسط الماء على آنية تشبه الزهرية وفي كل زاوية من زواياها صورة انسان تخالف الاخرى وفي هذه البليدة عدة قاعات فرشت ارضها بالفسيفساء يطلق الماء عليها لتغسل كما يُغسل بلاط القاعات وافنية الدور .

قال في مسالك الامصار : والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق ومن هذا النوع المسحور (المسجور) واما الملون فمعجون وقد عمل منه في هذا الزمان (٧٤٠—٧٥٠) شيء كثير برسم الجامع الأموي وحُصل منه عدة صناديق وفسدت في الحريق الواقع سنة اربعين وسبعمائة وعمل منه قِبَلَه للجامع التنكزي ما على جهة المحراب غير انه لا يجيء تماماً مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر والفرق بين الجديد والقديم ان القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد والجديد قطعه مختلفة وبهذا يعرف الجديد والقديم اه .

ووصف ابن فضل الله هذا يمكن ان يستنتج منه ان الفسيفساء كانت تعمل في الشام

وان هذه الصناعة اللطيفة وان اختصت بهـا القسطنطينية باديء بدء فقد نقلت الى الشام وجوّد عملها . فان بعض المؤرخين قالوا ان الوليد بن عبد الملك كان يحمل الفسيفساء على البريد من القسطنطينية الى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة والقدس الشريف .

وكانت الفسيفساء في الجامع الأموي قبل حريقه الاول في القرن الرابع ملونة مذهبة تحوي صور أشجار وأمصار وكتابات ، على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وقلّ شجرة او بلد مذكور الا وقد مثل على تلك الحيطان قاله المقدسي . وقال غيره انه مثلت في صور الجامع صفات البلاد والقرى وما فيها من العجائب وان الكعبة المشرفة صوّرت فوق المحراب كما قال فيه بعض المحدثين :

اذا تفكرت في الفصوص وما فيها تيقنت حذق واضعهـا
أشجارها لا تزال مثمرة لا ترهب الريح في مدافعها
كأنهـا من زمرد غرست في ارض تبر يُغشى بفاقعها
فيها ثمار تخالهـا ينعت وليس يخشى فساد يانعهـا
تقطف باللحظ لا بجارحة الايـ ـدي ولا تجتني لبائعهـا
وتحتهـا من رخامه قطع لا قطع الله كف قاطعها
احكم ترخيمها المرخمُ قد بان عليها إحكام صا ا

قال صديقنا البحاثة احمد تيمور باشا في رسالته التصوير عند العرب بعد كلامه على محاسن الجامع الأموي وما فيـه من التصاوير : « ولا نعلم ان كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه ، او من عمل صناع الروم الذين استعان بهم الوليد بن عبد الملك عند بناء المسجد » وقد علل المقدسي البشـاريّ زخرف الجامع الأموي فقـال : قلت يوماً لعمي : يا عم لمْ يحسن الوليد حيث انفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون ، لكان أصوب وأفضل ، قال : لا تغفل بُنيّ ان الوليـد وفق وكشف له عن امر جليل ، وذلك انه رأى الشـام بلاد نصارى ، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد افتن زخارفهـا وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعـة لدّ والرُّها فاتخذ للمسلمين مسجـداً

شغلهم به عنهن ، وجعله احد عجائب الدنيا ، ألا ترى ان عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة وهيأتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى . ولذلك حرص المسلمون في كل دور على السير على قدم الوليد في الاحتفاظ بنقوش الجامع وتحاسينه وتزايينه وتزاويقه ، ومما أبقته الايام من نقوش الفسيفساء او الفصوص حيطان قبة الملك الظاهر بيبرس في دمشق فانها الاثر الباقي من هذه الصناعة في هذا الصقع ، بعد ان دثرت فسيفساء الجامع بما تعاقب عليه من الحريق في أدوار كثيرة . ومن القصور المصورة الجدران دار الملك رضوان بحلب وفيها يقول الرشيد النابلسي من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ و يذكر ما على جدران الدار من الصور :

دار حكت دارين في طيب ولا عطر بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها قطب على فلك السعود يدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج غض وورد يانع وبهار
نوْر من الاصباغ مبتهج ولا نوْر وأزهار ولا أزهار

ومنها

صور ترى ليث العرين تجاهه فيها ولا يخشى سطاه صوار
وفوارساً شبت لظى حرب وما دُعيت نزالِ ولم يُشَنّ مغار
وموسدين على أسرّة ملكهم سكراً ولا خمر ولا خمار
هذا يعانق عوده طرباً وذا ابداً يقبّل ثغره المزمار

ثم لما تزوّج بضيفة خاتون ابنة عمه الملك العادل واسكنها في هذه الدار وقعت نار عقب العرس فاحترق واحترق جميع ما فيها فجددها وسماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها .

ومن القصور المصورة القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس في مرجة دمشق أوائل النصف الثاني من القرن السابع وعلى أنقاضه بنيت التكية السليمانية ، وكان على واجهته مائة اسد منزّلة صورها بأسود في أبيض ، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض في أسود ، وهذه الصور أجمل من صور الاسود والنمورة وغيرها من الحيوانات التي كانت في قلعة حلب ، ومن الحمامات المصورة حمام سيف الدين

بدمشق عثر حبيبنا احمد تيمور باشا على قصيدة في ديوان عمر بن مسعود الحلبي الشهير بالمحّار المحفوظ في خزانة البلدية بالاسكندرية في وصف هذا الحمام جاء فيها :

وخطّ فيها كل شخص اذا لاحظته تحسبه ينطق
ومثّل الأشجار في لونها ولينها لو انها تورق
اطيارها من فوق أغصانها بودها تنطق او تزعق
وهيئة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحدق
هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق

ومن التصوير على النسيج على ما ذكره البدري من تصوير «الابيض القطني المصوّر لأحياء القصور وأموات القبور» وكان يصنع في دمشق . ومن التصوير في الكتب ما ذكره ابو الفداء في حوادث سنة ٦٤٢ في ترجمة الملك المظفر صاحب حماة وكان يحب أهل الفضائل والعلوم قال : استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية فعمل له كرة من الخشب مدهونة ، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة .

قال القاضي جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها و يسألنا عن مواضع دقيقة منها . وقد اطلع الشيخ الغزي مؤلف كتاب نهر الذهب على مخطوط فيه وصفٌ شجرة الافادة التي كانت في الجامع الأموي بحلب وتعد من الذخائر النفيسة العلمية قال : انها كانت عظيمة الرواء مصنوعة من حجر ونحاس وحديد ذات خطوط وجداول في اصول العلوم الرياضية شبيهة بشجرة ذات جذع وأغصان وأوراق عظيمة في كل ورقة منها اصل من اصول تلك العلوم . وكان الطلبة يقدمون حلب من القاصية للاشتغال بالعلوم الرياضية المرسومة في هذه الشجرة . واسم غارس شجرة الافادة خليل بن احمد غرس الدين على ما في در الحبب .

و يدخل في باب النقش والصنائع الغريبة ما رواه المقدسي في حوادث سنة ٩٩٠ يوم عُمل ختان ابن درويش باشا والي دمشق ، فانهم صنعوا شيئاً يسمى النقل بجامع المصلي و بجامع ايلخان خارج محلة القراونة و بجامع التوبة وهو يشتمل على اربع عشرة

قلعة من الورق المحشو بالبارود واربع عشرة فرساً واربعة عشر عفريتاً كذلك وعلى صور وطيور ووحوش وكلاب وغير ذلك وعلى قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل على صورة أنواع الفواكه والبقول والأزهار والأطيار وغيرها كل ذلك من الشموع المصبغة والتذهيب والتفضيض ، وكان ارتفاعه على علو الجملون الذي بجامع المصلى بحيث لم يتأت نقله منه واخراجه الا بعد فك الجملون المذكور ، وهدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور وهدم مواضع متعددة في طريقه الى دار السعادة ، وهدم الحائط الشرقي من باب دار السعادة ايضاً حتى أدخل وكان لهذا النقل يوم مشهود خرج للفرجة عليه جميع اهل دمشق رجالاً ونساءً لم يتخلف احد . ثم في اليوم الثاني منه نقل النقل الذي صنع بجامع محلة القراونة وبجامع التوبة وهو يشتمل على قصرين عظيمين من الشمع احدهما أطول من القصر المقدم بنحو اربع اذرع والآخر دونه مشتملين على ما تقدم وعلى صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل والجمال والفيلة والسباع والطيور وغيرها ، كل ذلك من السكر المعقود وعلى النقول والملبسات بالسكر ايضاً .

ومن غريب تدقيق العرب في رسم النبات ما ذكره في طبقات الاطباء في ترجمة رشيد الدين بن الصوري قال : كان يستصحب مصوراً ومعه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويُريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم انه سلك في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك انه كان يُري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره ، ثم يريه اياه ايضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه اياه ايضاً في وقت ذواه ويبسه فيصوره ، ومن ذلك نستدل انه كان في البلاد اكثر من مصور في ذاك العصر ، وان ذلك التصوير بالاصباغ كان مألوفاً ، وقد بلغ من حذق المصورين ان يصوروا النبات على انحاء شتى ، اما عنايتهم بالنبات نفسه فمسألة ينظر فيها علماء النبات يستخرجون منها ما يريدون ، وهذا كان في الثلث الاول من القرن السابع للهجرة اي في القرن الثالث عشر للميلاد فأين كانت اوربا وتصويرها اذ ذاك ؟

وذكر شيخ الربوة في نخبة الدهر المائدة العجيبة التي وجدت في القرن السابع بدمشق قال : ولما كان الملك المنصور قلاوون رحمه الله بدمشق سنة اثنتين وثمانين وستمائة أحضر اليه من المدرسة الجوهرية مائدة ذهب وزنها ثمانية ارطال وربع بالدمشقي ، وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان من ذهب وفي منقار كل واحدة لؤلؤة بقدر الحمصة وفي منقار الدجاجة درة بقدر البندقة ، وفي وسط المائدة سكرجة من زمرد ، سعتها مثل كفة الميزان التي للدرهم السوقي لا الكبير ، مملوءة حبات من الدر ، قيل ان الملك الناصر صاحب حلب أودعها لنجم الدين الجوهري فأكنزها بدهليز مدرسته ، فوشى بها الى الملك المنصور جارية من جواري الجوهري ، وكان على جميع المائدة شبكة من ذهب منسوج صغيرة الأعين حاوية لكل ما في المائدة ولها ثمان قوائم .

وقال شيخ الربوة ايضاً : ان مقدم زاوية عكا اهدى الى الملك المنصور طشتاً من ذهب في وسطه بيت مربع له اربعة خروق في أسفله يدخل منها دم الفصاد الى داخل البيت ، وفي البيت بسقفه تمثال انسان متوارٍ في البيت ورأسه وعنقه بارز من سقفه ، وكلما سقط في الطشت من دم الفصاد وزن عشرة دراهم ارتفع ذلك التمثال بصدره وظهرت على صدره كتابة عشرة الدراهم ، ولا يزال كذلك الى مقدار ثلاث اواق دمشقية فيقف التمثال ويسمع من جوفه كلمة يونانية معناها ، حسبك حسبك .

و يعد في باب التصوير ما رواه ابن ابي أُصيبعة في ترجمة سديد الدين بن رقيقة قال : ومما كتبه على كأس في وسطه طائر على قبة مخرمة ، اذا قلب في الكأس ماء دار دوراناً سريعاً وصفر صفيراً قوياً ومن وقف بازاء الطائر حكم عليه بالشرب ، فاذا شربه وترك فيه شيئاً من الشراب صفر الطائر وكذلك لو شربه في مائة مرة فمتى شرب جميع ما فيه ولم يبق فيه درهم واحد فان صفيره ينقطع . وهذه هي الابيات :

انا طائر في هيئة الزرزور ... مستحسن التكوين والتصوير
فاشرب على نغمي سلاف مدامة ... صرفاً تثير حنادس الديجور
صفراء تلمع في الكؤوس كأنها ... نار الكليم بدت بأعلى الطور
واذا تخلف من شرابك درهم ... في الكأس نمّ به عليك صفيري

وذكر احمد تيمور باشا تمثالاً على بركة وأبياتاً للمحار فيه ورجح انه كان باحدى دور الشام لان الناظم كان من المقيمين في هذه الديار فقال : « وفي احد هذه التماثيل يقول عمر بن مسعود الحلبي المعروف بالمحار ، وكان التمثال من نحاس على صورة شخص يخرج الماء من أعضائه ·

وشخص على ساقه قائم ... مشير بساعده الأيمن
له صورة حسنت منظراً ... على بدن صيغ من معدن
يكاد يحدّث جلاسه ... ولكن به خرس الألكن
اذا بث من صدره سرّه ... فتسبقه أدمع الأعين
ولم يبك حزناً على نازح ... ولم يصب ُشوقاً الى موطن
صبور على الحرّ والبرد لم ... ُيسرّ بحال ولم يحزن

ويصح ان يعدّ في باب التماثيل المتحركة والمصوتة بانواع الحيل الساعة التي كانت بباب الساعات في الجامع الأموي وصفها ابن جبير قال : وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من ُصفر من في باز بين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منها · احدهما تحت اول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر الباز بين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة ، بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار ، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول ، ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك ان في القوس المنعطفة على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، مدبّر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت به عم

الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها في الغرفة من يدبر شأنها فيعيد فتح الأبواب و يسرّح الصنج الى موضعه وهي التي تسمى الميقاتة ٠

وشبيه بهذه الساعة كان على احد أبواب كنيسة انطاكية وصفها ابن بطلان سنة نيف واربعين واربعمائة وقال انها فنجان ساعات يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة ، ولا شك ان كل هذه البدائع كانت من صنع صُنع الأيدي من الشاميين ، فمن المصورين على الخزف ومن المصورين على الخشب ومن المصورين على النسيج ومن المصورين على النحاس والحديد ، فمن المصورين على الخزف « الغيبي » قال تيمور باشا : ان له قطعاً بدار الآثار العربية بمصر ، عثروا عليها باطلال الفسطاط وقد كتب عليها اسمه فكتب على بعضها « الغيبي » فقط وعلى بعضها « الغيبي » الشامي وان في دار الآثار العربية ايضاً لوحاً من القاشاني « لمحمد الدمشقي » عليه صورة مكة المكرمة والكعبة المعظمة صورها سنة ١١٣٩ هـ وكتب عليها اسمه ، وبعد في جملة المصورين فاضل بن علي بن عمر الظاهر الزيداني الصفدي ولد كما قال الكمال الغزي سنة اربع وسبعين ومائة والف وتعلم في القسطنطينية وكان حمل مع اخوته وبني عمه اليها فصارت له مهارة كلية في التصوير والنقش وتجسيم البلاد والعباد وله في ذلك العجب العجاب ٠

وبعد فهذا القليل الذي قرأناه واستأنسنا به يدل على ذوق وإبداع ، وان مشاركة الامة في هذا الفن كانت على حصة موفورة ، وفي هذا العصر نبغ في الشام مصورون لا بأس بهم اخذوا عن ايطاليا وفرنسا وغيرهما وكادوا يجارون مصوري الغرب بابداعهم ، ومنهم من يصور بالأصباغ ، ومنهم بدونها اي بالسواد ، ومنهم من يصور التماثيل من المرمر والرخام والصُفر ، ومنهم من ينقش فيبدع على الخشب والنحاس ، ومن المصورين باليد علي رضا معين ، نديم بخاش ، مصطفى الحمصاني ، مصطفى فروخ ، توفيق طارق ، عبد الحميد عبد ربه ، عبد الوهاب ابو السعود ،

بشارة السمرة ، داود القريم ، حبيب سرور ، خليل صلبي ، سليم عورا ، جبران خليل جبران ، خليل الغريب ، نقولا الصائغ .

* * *

القش

ويصح ان يعد في باب التصوير نقش البيوت والتماثيل فان المعروف من ايام الناس انه كان للشام حظ منه ، ولم نر للنقش على الحجر براعة وإبداعاً عند الامم القديمة بقدر ما رأينا عند اليونان والرومان ، فان النقوش التي عثر عليها في شمالي الشام من اصل حثي مثل الأسود التي كانوا يرسمونها على أبواب مصانعهم وجدرانها وابي الهول المجنح برأس انسان او ثور وهو من نقوش الاشوريين ، والنقوش التي عثر عليها في الجنوب من اصل سامي كالكنعانيين والاسرائيليين وما عثر عليه في الساحل من نقوش الفينيقيين وأربابهم وكلها منقولة عن المصريين الفراعنة الا قليلاً — كل هذه النقوش ليست من جمال الوضع وحسن الذوق بحيث يرتاح اليها النظر مثل نقوش الرومان واليونان ، ومثال منها الناووس الذي عثر عليه في صيدا من القرن الرابع للميلاد وجعل في دار الآثار في الاستانة وهو يمثل نساء باكيات تمثيلاً كأنك تراهن .

اين جمال نقوش بعلبك من نقوش جبيل ، اين نقش الناووس البديع المنسوب للاسكندر المقدوني او لاحد قواده ، وهو مما كان عثر عليه في صيدا ايضاً وحفظ في دار الآثار بالاستانة ، من نقوش قبر احيرام الذي عثر عليه في جبيل وجعل في دار الآثار في بيروت او قبر حيرام الذي عثر عليه قرب صور ونقل الى متحف اللوفر في باريز سنة ١٨٦٠ م .

آثار تدمر وتماثيلها تنم عن ذوق وفضل صناعة اكثر من ارباب الفينيقيين والحثيين ، والغالب ان تماثيل الشبه كانت تعمل في قبرس والروم وتحمل الى تدمر لتزين بها رحباتها وساحاتها ، وصناعات جرش ومادبا أجمل من نقوش السهول في حوران والصفا . كأن للاقليم وللعنصر الذي ينزله دخلاً كبيراً في إجادة النقش والتصوير . ومعظم العناصر التي نزلت بالشام منذ عهد التاريخ من العناصر السامية ، والساميون كما قال بعض علماء الافرنج مازالوا ينفرون من الرسم والنقش والتصوير . ولا غضاضة

اذا قلنا ان الآشوريين أفرطوا في الاشتغال بالرسم والنقش إفراطاً شوهدت آثاره في امم اوربا التي خلفتهم ، فكل شيء اذا لم يرسم الآن عندهم لا يفهم ولا يدرك ، فأضعفوا بذلك قوة التخيل وقووا الباصرة ، قال سنيوبوس : يعجب المرء من نقش الصور الاشورية خاصة ، ومن المحقق ان التماثيل نادرة ولا اتقان فيها لان النحاتين كانوا يؤثرون نحت صفائح كبيرة من الرخام ونقوش نائتة تشبه الصور ، و يرسمون مشاهد لا نظام فيها أحياناً وحروباً وصيوداً وحصارات مدن واحتفالات يخرج الملك بها في موكب حفل ، وتشاهد فيها بنات الخدم الموكلين بطعام الملك وزمر العملة يبنون له بلاطه والحدائق والحقول والغدران والاسماك في الماء والطيور ترفرف على وكناتها او تتطاير من شجرة الى أخرى ، وترى صور الكبراء من جوانب وجوههم لان اهل الصناعة ما عرفوا تصويرها من الامام ، ولكنك تقرأ في سحناتهم الحياة والشرف ، وكان الاشوريون يتأملون الطبيعة و يرسمونها أصح رسم ، و بهذا تعرف قيمة صنائعهم ، حتى ان اليونان اقتدوا بمذهبهم في الصنائع بان قلدوا النقوش الاشورية ففاقوا مقلديهم . فليس في الامم حتى ولا اليونان أنفسهم من أحسنوا تصوير الحيوانات كالاشوريين .

ومما يستدل به على ان التماثيل قبل الاسلام كانت تعمل وتنقش في الشام وان العرب نقلوا عنها في جزيرتهم ما رواه ابن الكلبي من انه كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام يقال له الأقيصر كانوا يحجونه و يحلقون رؤسهم عنده . وقال ربيعة بن ضُبُع الفزاري :

وانني والذي نغم الأنام له حول الاقيصر تسبيح وتهليل

قال ووجد عمرو بن لحي أهل البلقاء يعبدون الاصنام فقال : ماهذه فقالوا: نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . ولا شك ان هذه الاصنام تعد من الصناعات الشامية . وقد انكر بعض الباحثين في هذا العصر إدخال عمرو بن لحي هذه الاصنام وعبادتها الى بلاد العرب .

ولم يخل عصر من عصور الاسلام في الشام من نقاشين أبدعوا النقش على الحجر ، والنقش بالاصباغ على الجدران وعلى الخشب يتناقلون ذلك خلفاً عن سلف ، والنقش

بالجبس على الجدران ومنها مقرنصات جميلة ذات تعاريش وكتابات حفظت في مدفن احدالوزراء من القرون الوسطى في صالحية دمشق أمام دار الحديث الاشرفية البرانية وبينها الطريق وتسمى هذه المدرسة التكريتية . وفي بعض الدور القديمة الباقية من القرن العاشر وبعده في حلب ودمشق كثير من القاعات تدل على ذوق . وفي درالحبب ان ابا بكر بن احمد النقاش الجلومي الحلبي خدم أساتذة النقاشين من الأعاجم واستفاد منهم ومهر في نقوش البيوت وكتابات الطرازات على طريقة القاطع والمقطوع ، وفي نقوشه ما كان لكفال حلب وغيرهم من الرماح والسروج بالمذهب واللازود مع معرفة طريقة حله وصنعة التركاش وضعاً ونقشاً وصنعة اللوح الذي يكتب فيه وصنائع أخرى نتم عشرين صنعة . ولا يعقل ان يعمل ذلك مثل هذا المفنن ولا يكون حواليه عشرات من المتعلمين والعاملين .

ومن النقوش الكثيرة التي بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب انطاكية وباب النصر وعلى هذا قطعة من افريز تمثل كرمة معرشة يركض الى جانبها أرنب . ومن أجمل آثار قلعتها المحراب المنقوش على الخشب من عمل نورالدين زنكي والجزء الثاني الذي أنشأه الظاهر غازي يدل على صورة الهندسة المألوفة في عصر الأمويين : مثلث قائم الزوايا تعلوه قبة بين حنايا واسعة .

ومن المنابر العجيبة الصنع ما عمله نور الدين محمود بن زنكي في حلب برسم المسجد الأقصى عمله حميد بن ظافر الحلبي وسليمان بن معالي من خشب مرصع بالعاج والآبنوس وعليه الى اليوم تاريخ سنة ٥٦٤ هـ وقد وضعه صلاح الدين في محله عند فتح القدس وقد عمل في حلب ايضاً محراب الجامع الكبير بحماة صنعه ذاك الفنان الحلبي . ومن أجمل المنابر منبر الحرم في الخليل من صناعة الفاطميين ومنبر جامع الحنابلة بدمشق من الخشب . ومن المحاريب محراب جامع الحلاوية بحلب من الخشب ومحراب الاقصى من الرخام . ومن المحاريب الجميلة محراب جامع الفردوس بحلب الذي أنشأته ضيفة خاتون بنت الملك العادل والدة السلطان الملك العزيز ابن الملك الظاهر وهو من عمل حسان بن عنان . وجامع الظاهر غازي في قلعة حلب الذي بناه سنة ٦١٠ فيه أجمل ضروب الهندسة من النقوش المعروفة في المصانع الجميله . ومن أهم الآثار

العربية تابوت من الخشب وضع على قبر السيدة سكينة بنت الحسين في مقبرة باب الصغير بدمشق عمله احمد بن محمد بن عبد الله سنة ٥٦٠ ﻫ وقد نقش بخطوط كوفية وجعل داخل الحروف نقوش وحروف صغيرة أخرى بالكوفية ايضاً . وتابوت ومحراب ومنبر جامع خالد بن الوليد بحمص من أجمل الآثار العربية . وكذلك تابوت مدفن ابي الفداء صاحب حماة . ومن الآثار العربية مانقش بالحروف الكوفية على تابوت من الحجر دفنت تحته السيدة فاطمة الصغرى بنت الحسين من القرن الرابع . ومن التوابيت المهمة تابوت سيدي صهيب في حي الميدان بدمشق (من القرن السادس) ومنها تابوت بخت خاتون المعروفة عند العوام بالسيدة حفيظة في طريق عين الكرش المؤدي الى حي الاكراد بدمشق .

وذكر القزويني سوق المزوقين في حلب وقال ان فيه آلات عجيبة مزوقة ، وذكر ابن جبير ان اكثر حوانيت حلب خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش . ولا عجب فقد عُرف الحلبيون من القديم بحسن الذوق في هذه الصناعة كما عُرفوا بحسن الذوق في الخطوط العربية المنوعة الاشكال . وكلها نقوش معرشة تأخذ بمجامع الأبصار ، وتعد في باب النقش ، وقد كان عدد الخطاطين الذين أنبغتهم حلب على اختلاف العصور اكثر من غيرها من مدن الشام على ما عُلم .

ذكر الشيخ الغزي ان النقاشين في حلب أصناف منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين وفي المباني القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراعة البنائين الحلبيين في القرون الماضية وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصنعة النقش ، من ذلك صورتا وجهي أسدين في حجرين مرصوفين في جانبي احد أبواب قلعة حلب لا يفرق الناظر اليهما ، في اول وهلة بين ملامحهما فاذا أمعن النظر فيهما تبين له ان وجه احدهما يضحك ووجه الآخر يبكي مما دل على براعة النقاش .

وقال ان من النقاشين من يعاني النقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس ومنهم من ينقشون المنازل و يعرفون بالمدهنين ينقشون صور اشخاص وازهار وطيور وأشجار وان هذه الصنعة انحطت في حلب أواخر القرن الماضي حتى سافر جماعة من

اهلها الى اميركا وتلقوا هذه الحرفة من ار بابها وعادوا فنشروها بين الناس · ومن أشهر النقاشين يوسف سعدالله الحويك ، ومن الحفارين والنقاشين يوسف الزغبي و بشارة عيسى الزغبي وهذا حفر صورة آل رومانوف في قطعة صدف من أنفس التحف ·

واشتهر في دمشق وحلب وبيروت خطاطون كثيرون في العهد الاخير ومنهم امين زهدي · مصطفى السباعي · مراد الشطي · مصطفى القباني · محمد علي الحكيم · نجيب هواويني · حسين البنجاتي · ممدوح الشريف · سليم الحنفي · محمد علي الخطيب · زكي المولوي · حنا علاّم · يوسف علاّم · نسيب مكارم · مشكين قلم · محمد يحيى · صادق الطرزي · موسى الشلبي ·

وكان فن الخط الى عهد بعيد صناعة يتنافس بها ، وكثير من البارعين فيها كانت مدار معاشهم ينسخون الكتب وغيرها فلما جاءت الطباعة ثم الآلات الطابعة بطل التنافس بالخط العربي الجميل الا قليلاً ·

***

البناء } قالوا ان علم المباني فن من الفنون الجميلة بل هو أحسنها ، اذا قارنا بينه وبين الموسيقى نجد ان كليهما مطرب للانسان ، فالأول مكوّن من نغمات غير متنافرة منتظمة الاوقات ، والثاني مكوّن من تراكيب وأوضاع غير متنافرة الاجزاء ، يظهر الاول مذبذبات العدد والأوتار يحملها الهواء الى الآذان فيطرب بها الانسان ، و يظهر الثاني الظلّ والضوء والالوان فتراها العين في أتم ما يكون موضوعة بنسب محفوظة ما بين مزخرف و بسيط تظهر عليها المتانة والراحة فتشتاق اليها النفس ، فكلا الفنين جميل غير ان الأول تذهب محاسنه في الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها ، وتبقى محاسن الثاني ما دام لها ظل ·

مواد البناء الحجر والتراب والخشب والحديد قد توجد كلها في قطر ولا يوجد الا بعضها في آخر ، فمصانع بابل تداعت لان معوّل البانين كان على الآجر لا الحجر ، ومصانع الشام بقيت لان الحجر فيه كثير مبذول ، وان كان أقدم ما عُرف من آثارنا يُرد الى زهاء الفي سنة ، وأقدم ما عُرف في بابل واشور ونينوى من

الآجر المكتوب يرجع الى اربعة آلاف سنة . وما عمل عندنا من الخشب والتراب دثر بعد مدة ليست بطويلة من عهد بانيه .

ولقد ظهر ان الشام في القديم لم يكن له طراز خاص في البناء . وكان بناؤه بحسب روح الدولة التي تحكم فيه والامة التي تتغلب عليه : مصرياً ايام الفراعنة ، اشورياً على عهد الأشوريين ، بابلياً في ايام بابل ، فارسياً في دور الفرس ، رومياً في دولة الروم ، رومانياً في عهد الرومان . ولم يكن للحثيين والاسرائيليين هندسة خاصة بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم ، وليس مما اكتشف منه حتى الآن ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفاً كثيراً ، وما اكتشف من الصور النصفية وغيرها من عهد الحثيين لا ينم عن ذوق وإبداع على الاكثر . ومصانع الحثيين في الجملة مقتبسة من مصانع الاشوريين والبابليين اقتباساً رديئاً لا يخلو من جفاء وسذاجة على ما قال الباحثون . وسار الاسرائيليون في صنع مصانعهم على تقليد الاشوريين والمصريين وقلدوا المصريين في الاكثر لقرب فلسطين من مصر ، ولاستيلاء المصريين زمناً على فلسطين . وكذلك فعل الفينيقيون والكنعانيون . وعلى عهد الاسكندر دخل الشام طرز جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

غصت جبال الشام بالمغاور الطبيعية والصناعية ، ومنها ما كان لسكنى اهلها قبل ان عرف التاريخ ، ومنها ما جعلوه قبوراً لموتاهم في الامم التي عرف بعضها التاريخ ، وقد ثبت بهذه المغاور ان الشاميين استعملوا منذ الزمن الاطول آلات من المعادن لقطع الحجر ونحته . ولا يمكن تحديد العصر الحجري في الشام ، ويمكن ان يردّ العصر المعدني الى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . وفي غربي الأردن آثار كثيرة من ذلك ، وكلها ذات صلة بعبادات الاقدمين ، واحترام الاحجار المقدسة كان قديماً منتشراً في جميع أرجاء الشام . ومن المغاور مغاور عدلون بين صيدا وصور ، ومغاور نهر ابراهيم في لبنان ، ومغاور بيروت وجبيل وانطلياس ، ومن مصانع فلسطين الصهاريج ومعاصر الزيت والخمر . وبناء الفينيقيين من هذا النوع أجمل من بناء العبرانيين .

وقد اقتبس العبرانيون في اصول مبانيهم مباني الفينيقيين ، وهؤلاء اخذوا على ما يظهر من المصريين ، وقد قيل ان بنائين فينيقيين هندسوا معبدي داود وسليمان . و يقول سنيوبوس ان القدس كانت بالنسبة لبابل وثيبة عاصمة بلاد فقيرة ، وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويميلون الى العمران ، بل كانت ديانتهم تحظر عليهم اقامة المعابد ، ولم يكن في القدس الا قصر سليمان وهو اول معبد عبراني .

واخذت الشام اصول الهندسة اليونانية وتناغت بها قبل ان يفتحها الاسكندر . ولم يبق من الآثار اليونانية على كثرتها في الشام بقدر ما بقي من الآثار الرومانية . فان الرومان أنشأوا مدناً برمتها خططوها على اصولهم . وكان من هذه المدن ما بني على نفقة امبراطرة رومية . ومعلوم ان الرومان تفننوا في البناء وخلفوا في كل مكان امتد سلطانهم عليه آثار الهندسة من طرق وقنوات وأسوار ومسارح (مرازح) وملاعب وحمامات مما شهد لهم باتساع الفكر ومعرفة الهندسة والمتانة في العمل وجمال الأسلوب والوضع . لا جرم ان علاقة الشام بايطاليا أقدم من الاسلام ، علاقتها ببلادنا مذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

وقد اخذ النصارى في بناء كنائسهم عن فارس والشرق ، ثم اقتبس منهم الرومان اصولهم في البيع ، وما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية . وأجمل هذه الصناعات على ماقال هوار الجوامع والقصور ، والتقليد محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، لان تأثيرات الاساتذة الأقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث ، كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لايحولان دون التفنن ولطافةالإبداع والإختراع . قال وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدى مراكزها .

وقال جلابرت : ومن المصانع المنوعة في الهندسة الشامية شيئان يلفتان النظر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح . وكان المهندسون الشاميون فيها عالةً على الشرق يسترشدون بآراء مهندسي فارس . وقد أثرت الهندسة الشامية اذ ذاك في هندسة كثير من الامم ولاسيا في بيزنطية ، وأخذت بيزنطية عن الشام او من طريق

مصر عن الشام ، اصول كثير من الابنيـة ، وقال لامنس : ان الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طريق مستقلة عن النموذجات اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة · وأنشأ المهندس الشامي يرفض استعمال الملاط بين الاحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لحمة بين أجزائها ، واستعاض عن الآخر المألوف على عهد الرومان واليونان بالحجر النحيت ، وبنى الكنائس ذات القباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يعجب الأثريون بخرائبها العظيمة اليوم وعنها أخذ بُناة الكنائس الرومانية اه ·

كان أساتذة العرب في البناء لأول أمرهم أناساً من الروم ، فكان بين أبنيتهم الاولى وأبنية النصارى وجه شبه ، فقد بني المسجد الاقصى على مثال كنيسة القبر المقدس ، ونقل استعمال القباب من الشرق الى الغرب ، ولم تكن معروفة الا في هذا الشرق ، وقد أفرط العرب كالروم في استخدام الفسيفساء في الجدران والقباب ، وزادوا في هذه الفصوص ما ابتدعوه من عندهم ، وكان محبباً الى نفوسهم ، جميلاً في عيونهم · ويقول بعض العارفين ان الشام لا يحوي كثيراً من المصانع الخارقة للعادة من صنع العرب لانهم اكتفوا بما وجدوه في البلاد من المباني القديمة فاستعملوها على ما يشاؤن ، ولطالما بنوا بمواد أخذوها من أبنية قديمة ·

اما هندسة الصليبيين فأكثرها حصون وقلاع ، ولا يعرف اذا كانت في الاصل من بناء العرب او الافرنج ، لكن المرجح ان هؤلاء طبعوها بطابعهم ، وقال آخر : لم يخترع العرب أبنيـة خاصة بهم بل تجلي في هندستهم حبهم للزخرف واللطف ، واخترعوا القوس المقنطر ورمم البيكارين ، وكان تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار ، مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة على إيغالهم في حب النقوش والزينة ، كأن أبنيتهم ومصانعهم قماش من أقمشة الشرق تفنن حائكها في رقشها ونقشها ،

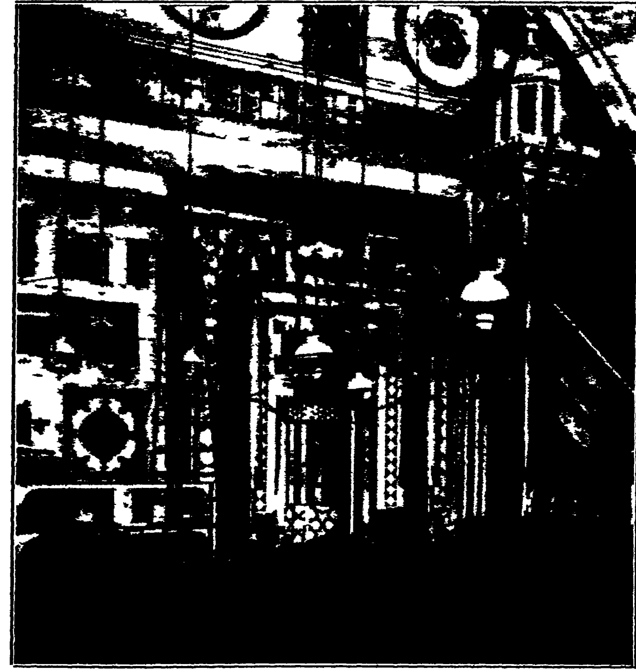
نعم ان العرب لم يخترعوا ولكنهم اقتبسوا باديء بدء ، فان ابن الزبير لما عمر الكعبة دعا اليها بنائين من الفرس والروم ، والوليد لما بنى أمويّ دمشق وأقصى القدس دعا اليهما بنائين من الفرس والروم والهند · ولاجرم فقد برع مهندسو العرب

في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه أحوال أوضاع الابنية وكيفية شق الأنهار ونقنية القني وسد البثوق وتنضيد المساكن . ولو لم يبرعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة الرافعة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والأسوار والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبهرنا اليوم أثره .

ومالت الهندسة الشامية الى السذاجة لأول انتشار النصرانية ، فكانوا يجتنبون كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة ، وجمال الحجم وترتيب الأجسام . ونشأت بين القرن الرابع والسادس للميلاد هندسة متينة تختلف عن الهندسات الأخرى ، منها بعض أمثلة في الشام العليا وحوران . ويقول جلابرت : انه كان لأهالي الشام الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي أشاعه الرومان في الشام وهو بناء قديم يدعى بالطراز الشامي لا أثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة ، لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية نشأ عنه طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . وطرق البناء في حوران تختلف عن الهندسة الشامية فتألف طرز وطني مباين للطرز اليوناني الذي أدخله السلوقيون .

ومن أهم أبنية القرون الوسطى في الشام وهي تدل على ذوق جميل في البناء ، المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدس وغيرها من البلدان ، والقليل الباقي منها الى الآن شاهد على وجه الأيام بما صار للمهندس الشامي من حسن الذوق ، ومنها في دمشق مدخل المدرستين العادلية الكبرى والظاهرية ، والمستشفى القيمري ، وفي حلب مستشفى أرغون شاه ومدرسة الفردوس الى غيرها من الابنية الكثيرة في القرون المتأخرة .

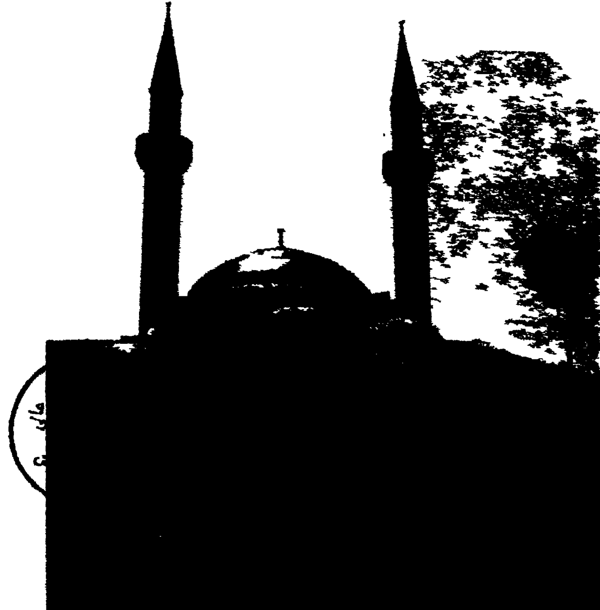
ومن أهم أبنية القرون الاسلامية بدمشق مأذنة الغربية في الجامع الأموي المعروفة بمأذنة قايتباي وهي من أهم المآذن العربية من حيث الهندسة والنقش والاصول المعارية قامت على قصبتين من الأرض (٤٨ متراً مربعاً) بارتفاع ٦٦ متراً هندسها معمار عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة ٨٨٥ ﻫ وبانيها السلطان الملك الأشرف قايتباي كتب اسمه في جهاتها الاربع . وقد جرى ترميمها وارجاعها الى اصلها واكمال



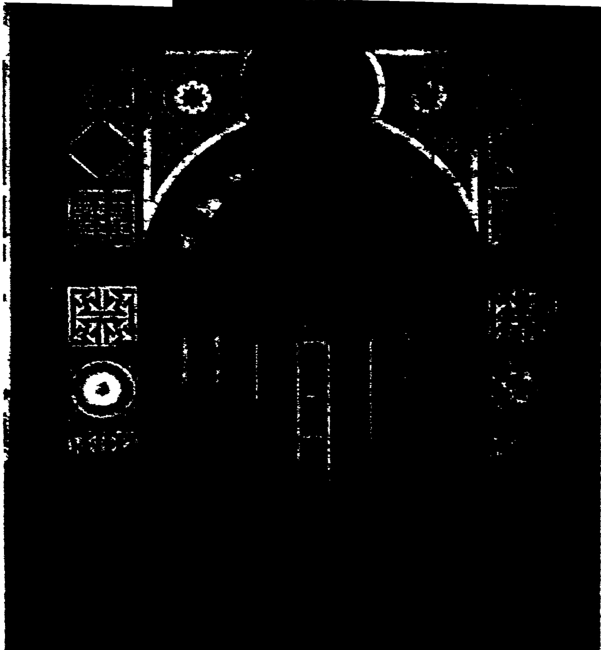
محراب جامع درويش باشا ومنبره في دمشق
أنشئ في سنة ٩٧٦و٩٨٢ هـ



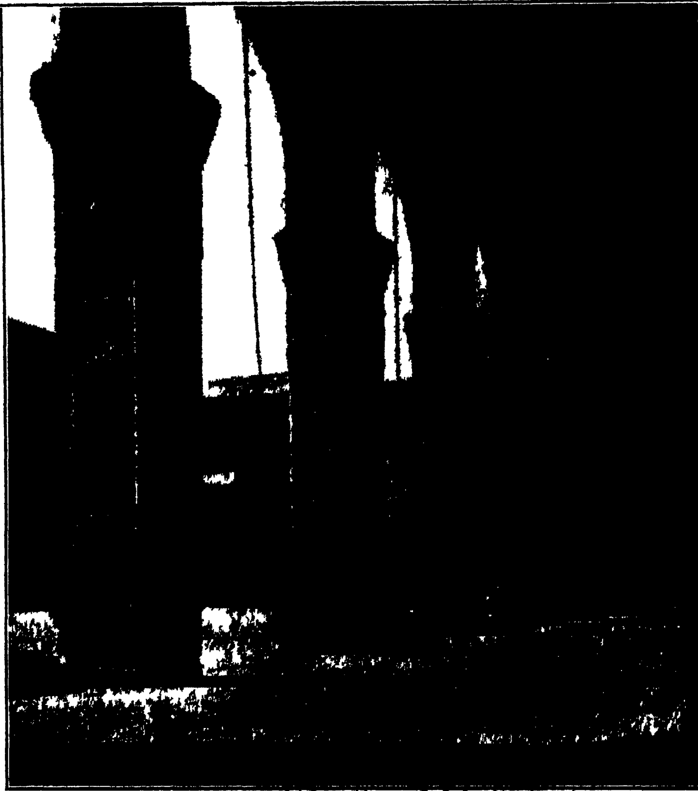
محراب جامع السنانية ومنبره في دمشق
أنشئ في سنة ٩٩٩ هـ



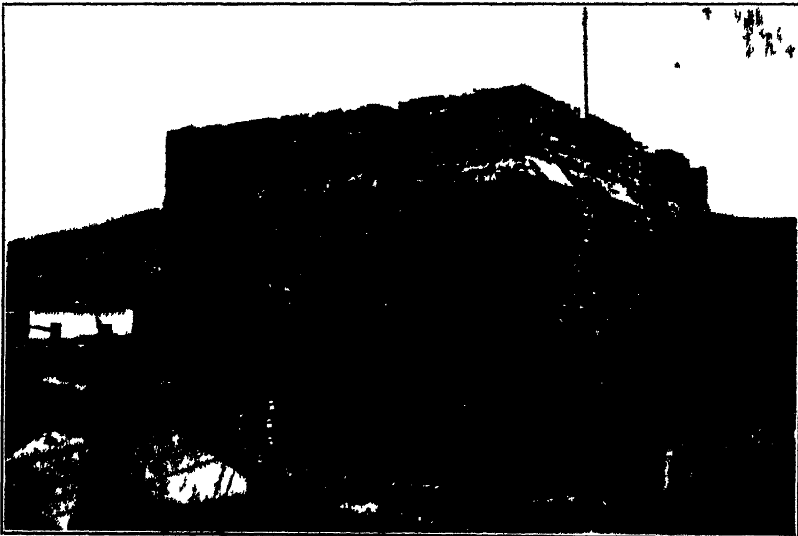
التكية السليمانية بدمشق
أنشئت في سنة ٩٦٢ هـ



محراب جامع السادات في الزينبية بدمشق
أنشئ في سنة ٨١١ هـ



الرواق الشمالي في ساحة الجامع الاموي بدمشق



احدى واجهات قلعة دمشق



منظر دمشق من الصالحية



الجهة الجنوبية من الجامع الاموي

نواقصها المهندس الرسام المعمار السيد توفيق طارق سنة ١٣٤٢ هـ وكان على رفرف شرفتها الاولى آية (انا فتحنا لك فتحاً الآية) وكتبهـا السيد موسى شلبي وبقي قسم من الحروف القديمة ٠

وقد دخلت الى الساحل منذ عهد الحروب الصليبية اصول الهندسة الطليانية في الدور والقصور ، وما برحت ترسخ مع الزمن ، ولا سيا في طرابلس وبيروت ، بحيث ان جميع ما نراه في مدن الساحل من الدور هو مما أُنشئ في القرن الاخير وفي هذا القرن ، هو طلياني الصبغة ، وهندسته عارضة على البلاد ٠ هذا في الساحل ، اما هندسة البيوت في الداخلية فانها قديمة لا يعرف زمن الاصطلاح عليها ، فقد نقل الرومان هندسة بيوت دمشق القديمة الى شمالي افريقية ، ثم نقلها العرب بعد قرون الى الاندلس ، ولا تزال هناك الى اليوم يفاخر بطرازها و يُطرَّس على آثارها ، كأن تكون الدار ذات مدخل او دهليز يؤدي الى فناء واسع فيه حوض ماء وإيوان ، وعلى جوانبه أماكن لتربية بعض الأشجار والزهور ، والدار ذات طبقتين فقط : السفلى للصيف والعليا للشتاء ٠

وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس ان البيوت في طرابلس كانت ذات اربع وخمس وأحياناً ست طبقات ٠ وكثرة الطبقات في الدور لم تعهد الا في الغرب ، وما نظن البلاد زادت طبقات بيوتها على ثلاث في معظم أدوار التاريخ ٠

***

الشعر والفصاحة ظهر كثير من الشعراء والبلغاء في هذه الديار ولاسيما من السريان واللاتين والروم ، اشتهروا في العالم وخلدوا آثار نبوغهم ، ولطالما أخرجت مدرسة نصيبين والرُّها ومدرسة الفقه في بيروت ومدرسة انطاكية خطباء هزوا النفوس وعلوها بخطبهم وأشعارهم ومجادلاتهم ، وقد كثر سواد هذه الفئة في عهد الدول العربية الاسلامية ايضاً ٠ والشعر والخطابة مما امتازت به العرب في الجاهلية والاسلام وغالت في الولوع بها ، ولقد أثر القرآن في هداية العرب ببلاغته وفصاحته ، تأثيره بحكمه وهدايته ٠ ولطالما كان شعراء العرب يصفون هذه البلاد و يتغزلون بها منذ اول يوم عرفوها ، حتى اذا كان الاسلام

وتبسطوا في أرجائها ، أوحت الى قرائحهم من أساليب الشعر ما يتألف من مجموعه أعظم ديوان بل خزانة عظيمة في الأدب تدل على فضل قرائح ، ونبوغ في فنون القول ، وتوسع في مجال الخيال ، وما هم الا مبدعون وضعوا ما وضعوه من بنات افكارهم على غير مثال .

لا جرم ان الشام كانت اول البلاد التي اخذت الفصاحة عن العرب في جزيرتهم ، وبقيت فيها على اختلاف العصور وتعاقب الدول محفوظة في الجملة فما انقطع منها من ينظمون و يجدون حواليهم من يطرب لنغماتهم و يصفق لنبراتهم ، وان لم يعرفوا صحاحها من زيوفها . كان الشعر مبدأ دخول العرب في الحضارة ، والأدب مقدمة النهوض في العلوم ، ولذلك رأيناهم لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته ودرايته . وأكثر ما يجيد الشعراء في ارض صح اقليمها ، واعتدل نسيمها ، وطابت تربتها واديها ، وصفت امواهها ، وساغ نميرها ، وكثرت ظلالها باشجارها ، وغردت اطيارها في اسحارها ، وفغم اريج نوارها وازهارها . وهذا على حصة موفورة في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب من شمالها . وقد انعم عليه الخالق بكل البدائع والروائع ، فكان شعراء عرب الشام وما يقاربها اشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام كما قال الثعالبي . وما زالت بعض قصائد شعراء ذاك الدور مضرب الأمثال في البلاغة ومابرح عرب المدن يتغنون بشعرهم ويعجبون به و يترنمون و يتوفرون على حل ما استعجم عليهم من الفاظه ومعانيه . قال والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما اهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة اهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم ، ولما جمع شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وامراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب السيف والقلم ، وما منهم الا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الإجادة ، فقادوا محاسن الكلام ، بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاؤا . وكان ابو بكر الخوارزمي قد دوّخ بلاد الشام في

صباه ولطالما قال وهو احد افراد الدهر واصراء النظم والنثر : ما فتق قلبي ، وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حدّ لساني ، وبلغ هذا المبلغ بي الا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية ، التي علقت بحفظي ، وامتزجت بأجزاء نفسي .

حكى المازني المتوفى سنة ٢٤٩ قال : دخلت دير بصرى فرأيت في رهبانه فصاحة وهم متنصرة من بني الصادر وهم أفصح من رأيت فقلت : ما لي لا أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم ؟ فقالوا والله ما فينا أحد ينطق بالشعر الا أمة لنا كبيرة السن فقلت جيئوني بها فجاءت فاستنشدتها فأنشدتني لنفسها :

ايا رفقةً من دير بُصرى تحملت تؤُم الحمى لُقيت من رفقة رشدا
اذا ما بلغتم سالمين فبلغوا تحية من قد ظن ان لا يرى نجدا
وقولوا تركنا الصادريّ مكبلاً بكل هوى من حبكم مضمراً وجدا
فياليت شعري هل ارى جانب الحمى وقد أنبتت أجراعه بقلاً جعدا
وهل اردن الدهر يوماً وقيعةً كأن الصبا يسدي على متنه بردا

وما برحت الديارات في الشام تقدر الفصاحة كما تقام فيها للموسيقى أسواق .
قال معاوية بن قرمل : كنت مع خالد بن الوليد حين غزا الشام فخرجنا فرفع لنا دير فأتيناه فقلنا : السلام عليكم فخرج الينا قس فقال : من أصحاب هذه الكلمة الطيبة ؟ .

وظهر الضعف في الشعر خلال القرون الاخيرة ، ونسلت عليه القرون الى ان خلع في أوائل هذا القرن الثوب البالي القديم ولبس ثوباً جديداً فيه من جلال الحديث وعز القديم ما جمع فيه الجسم والروح . بدأ هذا من لبنان وبيروت ثم تناول عامة مدن الشام . اما القرى والبوادي فقد اكتفت بالأزجال ، والزجل نوع من الشعر محدث يصفون فيه ايامهم ومفاخرهم وهو أشبه بالرجز الذي كانت العرب تترنم به في عملها وسوقها وتحدو به في بواديها . وكان للزجالين في القرن الماضي وفي هذا القرن منزلة عند اهل الزرع والضرع ، يدعون الزجال الى الأفراح ليحمل البهجة اليها ، والى الأتراح ليسري عن النفوس ما نزل بها ، ولهم ضروب من المواليا يسمونها العتابي والابراهيمي يطربون بها ولا تخلو من معانٍ شعرية . قال صديقنا الشيخ ابراهيم

الحوراني وكان شاعراً مجيداً بالفصحى والعامية : والنصارى واليهود يعتقدون ان بعض الشعر إلهام آلهي ووحي حق كشعر أيوب وداود وسليمان واشعيا وعدة من كتبة الأسفار الآلهية والشعر بقسميه الفصيح والعامي المعروف عند العامة بالمعنّى يعمل على ثلاثة أبحر الرجز والوافر والسريع اما أغانيهم التي يسمونها بالقراديات وهو اسم خشن سميت مؤخراً بالعديّات و بالقويلات كما يقولون لمن يعانيها (القوّال) فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف ووزن بعضها المتدارك مع تغييرات ايضاً . وجاءت أغانيهم المعروفة بالموالات البغدادية والمصرية والزلاغيط على بحر البسيط اه .

ولا يزال الى اليوم لكل قبيلة في الشام شاعرها ينشدهم من حفظه او نظمه من شعر شعراء البادية على نغمات الرباب قصائد يسليهم بها ، ولشعر البادية عندهم اوزان خاصة واذا قيس على علات لفظه على أبحر الشعر يرى بعضه موزوناً وفي بعضه عيوب بسيطة ومن أشعر شعراء البادية نمر بن عدوان في عبر الأردن كانت له امرأة اسمها وضحاء تتيم بها كما تتيم قيس بليلاه فرثاها بعد موتها بعشرات من القصائد ومنها ما فيه معانٍ جميلة — قاله السيد أديب وهبة .

واذا انتشرت المدارس في المدن والقرى على حد سوى ، وجعل التعليم في كل درجاته باللغة الفصحى يتأصل الغرام في الناس اكثر مما نراه بالفصاحة والشعر فلا تلبث الشام ان تحسدها جاراتها كما كانت في القديم على اختصاصها بذلك ، وكما تحسد هي مصر اليوم على تفنن شعرائها وخطبائها وسريان الفصاحة الى ألسن من ليسوا من الأدب العربي في العير ولا في النفير .

* * *

الرقص ربما ينفر بعضهم من سماع هذا اللفظ ونحن لم نتعرض له هنا الا مجاراة للفرنج في إدماجهم له في الفنون الجميلة . عدّ « طاشكبري » الرقص من أنواع العلوم فقال : انه علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهده ، وهذا من

العلوم التي يرغب فيها اصحاب الترفه والاغنياء والامراء ومن يجري مجرى هؤلاء من اصحاب الملاهي اه ٠

وذكروا ان الرقص قديم كِقدم العالم وان اقدم شعوب الارض كان لها رقص على اوزان معلومة ٠ فالرقص مرتبط بالموسيقى والايقاع وكثيراً ما كانوا يتبعون الرقص بالتصدية والضرب بالايدي ثم عرفوا الشبابة حتى جاءت المزاهر والمعازف وكان الرقص على نوعين رقص مقدس من توابع الحفلات الدينية ورقص عالمي لتسلية العامة اي ان الرقص رقصان رقص ديني او رقص المآتم ورقص الحبور والابتهاج ٠ وفي التوراة ان الرقص كان شائعاً عند العبرانيين ، وقد رقص داود أمام تابوت العهد ولما خرج بنو اسرائيل من مصر كان لهم نوعان من الرقص ، الرقص المقدس المنظم ورقص سري له اتصال بالتعبد على نحو ما كانوا يرقصون في التيه حول عجل الذهب ٠ وكان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف يرقصه العذارى في الحفلات العامة احتفاء بذكرى حوادث سعيدة من مثل انتصار على عدو او تكريم مجد ابطال الوطن ٠ وهكذا كان الرقص شائعاً عند المصريين ثم شاع عند اليونان وهم المشهورون بتفننهم فبلغ عندهم أقصى درجات رقيه وانتقل الى الرومان ، واذ كانوا شعباً قاسياً غليظاً فقد عندهم بهاءه ورواءه ، ومايقصدمنه ٠ ولكل شعب رقصه الخاص به ، عليه صبغة اخلاقه القومية الثابتة ٠ ولجميع شعوب الغرب والشرق رقصهم الخاص او رقصات عرفت بهم وأثرت عنهم ٠ والانكليز اكثر الأمم انحطاطاً في الرقص لم يبرزوا فيه تبريزهم في معظم مظاهر الحياة القومية القوية ٠

وكان الرقص عند العرب كالغناء من الفنون الطبيعية استعملوه في كل دور عرف من أدوارهم ٠ والرقص او الزفن كان عند العرب على ما يظهر على الطراز الذي هو عليه اليوم عند العرب سكان القرى والعرب الرحالة ومنه مايعرف بالدبكة ، فان وفد الحبشة لما قدم الى الحجاز جعلوا يزفنون اي يرقصون ٠ وفي حديث فاطمة انها كانت تزفن للحسن اي ترقص له وفي رواية تُرقصه ٠ ومن غريب تفنن العرب في مسائل الظرف والذوق انهم عرفوا علماً سموه « علم الغنج » عده صاحب الموضوعات من فروع علم الموسيقى وقال : هو علم باحث عن كيفية صدور الافعال التي تصدر

عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال والمتصفات بالظرف والكمال الى آخر ما نقله صاحب كشف الظنون ·

والغالب ان رقص الشام اقتبس مع الزمن من أوضاع كثيرة ، والأمم تقتبس عن غيرها ما يتلاءم مع مزاجها · وكذلك تقبس غيرها بعض ما ألفته في هذا الشأن · من ذلك ان الرقص الاسباني الى اليوم لم يبرح بعد خمسة قرون من مغادرة العرب ارض الاندلس على الطراز العربي وكذلك موسيقاهم الا قليلاً · وقد اصبح الرقص في الغرب علماً بذاته ولكن العرب لم يقصروا فيه ، ولا سيما في عصور البذخ والرفاهية · وبعض المحققين من علماء المشرقيات من الاسبان والبرتقال (مجلة الزهراء) يبرهنون الآن على ان موسيقى الاوربيين وشعرهم انتقلا من فارس الى اوربا بواسطة العرب ، ومنهم من ينشر منذ سنين قطعاً قديمة و يبين ما فيها من آثار الروح الشرقية · وكان لنا في الشام نوع من الرقص يسمونه بالسماح (ولعله السماع) يرقصه عدة اشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار و ترديد جميل من الموشحات فقط ، وهو أشبه بالاوبرا والاوبريت (Opéra, Opérette) عند الافرنج اي القصائد الملحنة التي تمثل على نغمات الموسيقى فقط ، و يزيد رقص السماح على الاوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بانغام مألوفة ·

وفي كتاب مفرح النفس : واعلم ان من الرياضيات البدنية التي تختص بالنفس اختصاصاً كثيراً الى الغاية الرقص ، وهو عبارة عن حركة متناسبة من اليدين والرجلين بضرب من الضروب المعروفة في الموسيقى بارادة النفس وشوقاً الى محل طلبها الاصلي وقال : ان الرقص مندوب اليه في ترويح الأرواح ونفي كدورة النفس وحصول الاشراق لها ، و يجب ان يكون مع سكون وتجمع من الذهن والعقل فتحصل اللذة والبهجة ، فالرقص له في إحداث راحة النفس وسرورها قوة عظيمة يعجز اللسان عن وصفها والذهن والعقل عن تصورها اه ·

ويدخل في باب الرقص او في باب الموسيقى (فن التمثيل) وهو وان كان مشهوراً في الشام على عهد الرومان واليونان ، بدليل ما نراه من الملاعب الخاصة به وبعرض الحيوانات والصراع في البتراء وعمان وبعلبك وأفامية ولدّ وقيسارية وغيرها من المدن القديمة · الا انه لم يعهد على الصورة المعروفة حديثاً ، اللهم الا على الندرة عند عرب

الاندلس ، وهذا في بعض الروايات • ولقد قالوا ان انطاكية ايام عزها ارتقى فن التمثيل فيها حتى كانت تجلب الممثلين من صور وبيروت والمغنين من بعلبك • وقال بعضهم : ان السبب في عدم العناية بالتمثيل في الاسلام حجاب النساء • والتمثيل لا يتم بدون مشاركة الجنس اللطيف • ولما لم يعهد التمثيل عند الجنس السامي لم تخرج العرب عن هدي جنسها والتمثيل ما عرف الا عند الجنس الآري فقط • ومن ذلك الفرس وهم آريون خلفوا للعرب كتاب الف ليلة وليلة وهو اختراع آري فيه شيء من التمثيل •

وكان العرب في الجاهلية والاسلام يرون من سقوط المروءة ان يمثل مجلس الامير او الوزير وان كان لا يخلو تمثيله من حكمة ، فكيف بمجلس صبابة ومعظم التمثيل يدور عليها • لا جرم انهم قصروا في التمثيل ، وتقاعسوا عن اقتباسه عن الامم الآرية ، وان عرف من حالهم انهم لم يأخذوا عن الامم الأخرى الا ما اشتدت حاجتهم اليه من أنواع العلوم ، أدمجوه في حضارتهم ومزجوه باجزاء نفوسهم • واذ كان التمثيل لا ينطبق مع عادات العرب ولا عُرف به مجتمعهم أعرضوا عنه ، وجاء الاسلام موافقاً لمصطلحهم وعاداتهم واخلاقهم في كثير من الاحوال البشرية •

بيد ان العصر الاخير لم يضنّ على الشام بتجلي الآداب الرفيعة فيه ، فقام فيها سنة ١٢٨٢ ﻫ وفي دمشق ايضاً رجل من ابنائها هو السيد احمد ابو خليل القباني من المبرزين في الموسيقى المشهود لهم بالاجادة فأنشأ داراً للتمثيل ، وبدأ يضع روايات تمثيلية وطنية ، من تأليفه ونظمه وتلحينه ، ويمثلها فتجيء دهشة الاسماع والابصار ، لا تقل في الإجادة من حيث موضوعها وأزياؤها ونغماتها ومناظرها عن التمثيل الجميل في الغرب • واعتاض لاول مرة عن النساء بالمرد ، ولما انتقل الى مصر لنشر فن التمثيل العربي هناك ، عاد الى الطبيعة واستخدم في كل دور من يصلح له من الجنسين ، ووجه الفخر في ابي خليل انه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية ، ولم يذهب الى الغرب لغرض اقتباسه ، بل قيل له ان في الغرب فناً هذه صورته فقلده ، وقيل انه شهد رواية واحدة مثلت أمامه ، ولما كانت عنده أهم ادوات التمثيل وهو الشعر والموسيقي والغناء ورأى انه لا ينقصه الا المظاهر والقوالب ، أوجدها وأجاد في إيجادها ،

ولذلك كان ابو خليل مؤسس التمثيل العربي ، ونابغة العرب في الموسيقى والتمثيل ، ورواياته التي ألفها مازالت منذ زهاء خمسين سنة والى يوم الناس هذا ، موضع إعجاب الامة ، تمثل في دور التمثيل وتلذ الجمهور مثل رواية انيس الجليس وغيرها ٠

هذا وان سبق للسيد مارون النقاش في بيروت فعرب في سنة ١٨٤٨ من احدى اللغات الاوربية بعض الروايات التمثيلية ومثلها بالفعل ٠ والإبداع في التأليف والوضع ، لا في النقل والاحتذاء وان كان الناقل يعد صاحب فضل ايضاً ٠

ولما كان التمثيل كما قلنا عارضاً على مدنيتنا رجع القهقرى بعد ابي خليل ٠ وظل الى يومنا هذا يمشي مشياً ضعيفاً بالنسبة لسائر مشخصاتنا ، فلم تقم الى الآن جوقة تمثيل وطنية تبث في الامة روح الفضائل والآداب ، وتأخذ من الناس بعض أوقاتهم تصرفه فيما يفيدهم فيابون بما يجلب السرور الى قلوبهم ،والنور الى عقولهم ، من حيث يشعرون او لا يشعرون ، وتهذب في مدرسة التمثيل اليومية عقول الكبار ، كما تهذب في الكتاتيب عقول الصغار ٠ فقد قال فولتير : ان المرء يتعلم بالتمثيل أحسن مما يعلمه اياه كتاب ضخم ٠

ولعل ابناء الشام اذا قويت فيهم أساليب الثقافة الحديثة ، ترتقي فيهم سائر الفنون التي انحطت ولا تزال منحطة ، فتكون من العوامل في نهوضها الى المستوي اللائق بها في سلم الحضارة والهناء ٠ والتمثيل الراقي أنفع لمجتمعنا من ذاك التمثيل الساذج الذي ما زال في أكثر مدن الشام مألوفاً للعامة ، ونعني به خيال الظل او الخيال الراقص المعروف اهله بالخايلية وعرف هذا الضرب من التمثيل عند الترك ، وان لم يكن من اختراعهم باسم (قره كوز) ٠ والتمثيل اجدى على أبنائنا وبناتنا من القصاصين اي الحكوية (الحكواتية) او (الادباتية) على لغة مصر الذين يلهون العامة بغرائب الوقائع في المقاهي و يبثون فيهم سخائف وخرافات ٠

ومن غريب شأن هذه الامة اننا رأينا كثيراً من نجباء ابنائها برعوا في التمثيل ، ومنهم من يعرف الأدب وما ينبغي له ، قد زهدوا في فنهم ، وأسبلوا ذيل الستر على نبوغهم فيه ، شأن كثير من ارباب الصوت الرخيم والغرام بالموسيقى ، والضرب

على آلات الطرب المتعارفة ، يخافون ان يعرفوا بها ويعمدون الى التقية كأن من العار التلبس بهذه الفنون الجميلة ٠

وممن عرفنا منهم نور الدين حقي ٠ حكمة المرادي ٠ صالح الحيلاني ٠ احمد عبيد ٠ سليم عطاء الله ٠ امين عطاء الله المعروف بكش كش بك ٠ واشتهر ايضاً حمزة الاصيل ٠ صالح شهبندر ٠ حسن الساعاتي ٠ ابراهيم المنجد ٠ ابراهيم نفش ٠ راغب السمسمية ٠ جرجي نفش ٠ درويش البنجاقي ٠ ابوالخير الغلاييني ٠ يوسف مردم بك ٠ خالد السمسمية ٠

* * *

متى ترتقي الفنون الجميلة

لا جرم ان ارتقاء الشام في هذه الفنون على اختلاف فروعها ، موقوف على ظهور نوابغ من ابنائنا يرحلون الى بلاد الغرب لنقلها والتشبع بآدابها ، ثم يعودون فيلوبون على احياء ما اندثر او كاد من هذه الصناعات النفيسة في القطر ، وينشرونها على النظام الغربي الحديث على صورة مقبولة ، واذا نشأت بعد ذلك مدرسة واحدة راقية في كل فن من هذه الفنون لا يقوم جيل ثانٍ بعد جيلنا هذا حتى يكون عند اهل البلاد العدد الذي يحتاجون اليه من الأعيان الذين لا غنية للمجتمع الشامي عنهم في إنهاضه ٠ و يشترط في من يريدون الاخصاء في هذه الفنون ان يكونوا ممن يحبون ان يُعرفوا بما اختصوا به ، او يسعوا طاقتهم لنشره ، ومن لا يحب صنعته ولا يفاخر بها لا يبرز فيها ، وعندئذ نعدُّ شيئاً مذكوراً بين أمم الحضارة في باب هذه الفنون كما كان اجدادنا ٠

فقد قال الجاحظ : ان الضحك في موضعه كالبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وانما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدّوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزوا ، وكدوا ليستريحوا ، وقد قسم الله الخير على المعدلة ، وأجرى جميع الامور الى غاية المصلحة ، وقسط اجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الاعلان والتقية ، فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة ، وجوز المعاريض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوغ المباح ، كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جِماماً للقلوب ، وراحة للابدان ، وعوناً على معاودة الاعمال اهـ ٠

الزراعة الشامية



العامر والعامر { حياة الشام بزراعته ثم بصناعته وتجارته ، والقرى والبوادي أوسع بقعة وأوفر سكاناً من المدن والحواضر ،
ولا نعلم مقدار سكان الشام في القرون التي سبقت الاسلام ولا في القرون التالية ، وقال بعضهم ان سكان الشام عند دخول العرب كانوا ستة ملايين على وجه التخمين ، ولكن الظاهر من مصانع أهلها وطرقهم القديمة التي كانت تربط البلاد كالشبكة وآثار عمرانهم مثل حنايا بعض الجسور الكبرى ، وخرائب القصور الفخمة ، والدمن التي تشاهد الآن في أواسط الفلوات الخالية ، والعاديّات والآثار الجمة ، يدل على ارتقاء زراعتهم وكثرة ثروتهم ونفوسهم . فقد كانت حوران انبار الشام على عهد الرومان لوفرة حبوبها ولا تزال هي والبلقاء على كثرة ما تعاقب عليهما من الأيدي الظالمة الغاشمة في الاكثر ، معروفة بهذه الصفة وجودة حنطتهما التي لا مثيل لها ، وما يقال عنها يقال عن جميع الأصقاع الشامية . ولا سيما ما كان بقرب المياه والاودية فانه عامر بطبيعته لا يحتاج الا لامن ونظام حتى يفيض لبناً وعسلاً .

ومغل حوران كسيل دافق يأتم من ارجاء جلق موجلا

ومما أقامه الرومان لحفظ زراعة البلقاء وحوران وما كان على سيف البادية من مرج الغوطة وأداني جبل قلمون وتدمر لحلب فما وراءها مخافر مجهزة أحسن جهاز لمنع البادية من التسلل الى ارجاء البلاد ، لان داء الغارات على الزروع والعيش في

العامر من الأدواء القديمة جداً . واعتداء الرحالة من أهل الظعن ، على المقيمين من اهل الدساكر والمزارع ، النازلين في الدور والمساكن ، داء قديم عُقام على ما يظهر . وما اتخذ الروم من الغسانيين في الجنوب ، والتنوخيين في الشمال عمالاً لهم الا ليقيموا نانفاذ هذا الغرض و يأمنوا بسلطانهم عيث البادية على بلاد الشام الجميلة .

وليست البادية التي تحد اكثر هذا القطر من الشرق كما قال الدكتور پوست بادية حقيقية لانه يقع فيها بعض المطر في فصل الشتاء ، وينبت فيها عشب ترعاه المواشي ، وتسكنها قبائل شتى من العرب ، وتندرج هذه البادية الى جهة شمالي الشام في السهل المتسع الممتد من نواحي حلب الى ما بين النهرين ، وكان هذا السهل مسكوناً في قديم الزمان ولم تزل فيه آثار عظيمة تدل على كثرة الذين سكنوه ووفرة ثروتهم ، الا انه امسى الآن قليل السكان تجول فيه العرب والاكراد . وقد اكد الدكتور موسيل ان البلاد الواقعة في شرقي الأردن كانت قبل مئة وعشرين سنة عامرة بالسكان وهي اليوم تكاد تكون خالية لعيث البادية .

واهل الوبر الذين يشتون منذ القديم بمواشيهم فيما وراء بادية الشام من الفلوات ، تشتد حاجتهم في الربيع الى ان يدخلوا المعمور ، فاذا حصدت الزروع يضطرون الى رعي انعامهم واغنامهم في ارض الحصيد . ومراعي دير الزور والجولان طلباً للماء والتماساً لبيع حاصلاتهم واستبضاع ما يلزمهم . واذ كانت ارض السقي اكثر من ارض العذي بالشام ، ومعظم الانهار لا يستفاد من سقياها اليوم كما كانت الحال عند الأقدمين ، زاد اعتداء البادية على مهاجمة البلدان الخصبة .

***

قلة العناية بالانهار نقول هذا وأهم أنهارنا الفرات وهو نهر يتاخمنا من الشرق ، ولا نستفيد منه الاستفادة المطلوبة لانه منحط عن مستوى ارضنا ، ولم يكن كذلك في الدهر السالف بما كان يتعهده به من السدود والسكور التي كانت سبب غنى العراق ، و بالطبع غنى الأقاليم المتاخمة له من ارض الشام . ولا يستفاد من الانهار التي تشق قلب البلاد الفائدة المطلوبة في الري . فالأردن مثلاً يشق بلاد فلسطين الا قليلاً ، والعاصي الذي يجرى

من سفوح لبنان ماراً بحمص فحماة فانطاكية حتى السويدية لا ينتفع بها على ما كان الحال قديماً . فقد انتهى الينا من عمل القدماء سد قدَس بالقرب من قرية قطينة بجوار ارض حمص ، وكان اعلى مما هو الآن بحيث يتأتى ان يسقي العاصي بواسطته وما اخترع له من النواعير ، جميع الارض العالية في وادي نهر المقلوب كما كانت العرب تسمي العاصي . ولا تزال الى الآن آثار السدود والقني في غور العارعة بادية للعيان ، تدل على ان القدماء كانوا ينتفعون من مياه نهر الأردن اكثر منا اليوم . ويقول صديقنا العلامة الامير شكيب أرسلان : ان الأراضي التي لها حظ من الشرب في هذه الغيران (جمع غور) انما تبقى من أودية جارية من الجبال مثل سيل الزرقاء ، والسائل من جهة عجلون الى الغرب ، ومثل مياه بيسان المنحدرة من صوب مرج بني عامر الى الشرق ، ومثل ماء العارعة النازل من الغرب الى الشرق ، ومثل عين السلطان التي تسقي جنان اريحا ، ومثل غور نمرين المنحدر من وادي شعيب أسفل الصلت الى الغرب ، وماء حسبان وغيرها من المياه ، وهذه الجداول كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الأردن الذي أصبح عاطلاً من كل عمل اه .

وحالة الإرواء في اكثر الأنحاء البعيدة ما زالت على الفطرة القديمة فالقريب من الماء يروي ارضه او بستانه بالغرب او المدار كأهل الزور وجزيرة ابن عمر في أقصى الشام فان هذه الانحاء في وسط المياه كالفرات والخابور وغيرهما من كبار الأنهار وقلما تستفيد منه ، وقد خربت السدود القديمة ولم يعمل غيرها ، ذلك لان مجرى الأنهار الكبيرة ولا سيما الفرات قد يتحول عن مجراه في معظم السنين لانه خالٍ من الجوانب المتينة المحددة ، وهو يسير في ارض رخوة خبار فاذا فاض طغى على الارض اللينة .

وكان نهر بردى ونهر الأعوج يستفاد منهما اكثر من جميع الأنهار التي تعطش الاراضي التي تحفافيها ، وهي من مجراه على قيد أشبار ، او يترك للبحر يصب فيه على هينته وهواه ، كنهر عفرين والأسود وقاديشا والأولي والازرق والعوجا وابراهيم والمقطع والقاسمية وغيرها . وكم في البلاد من آثار القنوات العجيبة مثل قناة بسيمة في سنير وربما كان ماء عين الفيجة يسيل منها الى بلد بعيد كما هو المأثور ومثل قناة

دمنين التي جرها المأمون الى معسكره في اعلى قاسيون بدمشق . وكم من قناه طمت يتهاون الفلاح فهلك معارضه عطشاً ، لان الحكومات قلما التفتت في الادوار الاخيرة الى العناية بامرها ، والاعمال المشتركة قلما تجد لها نصيراً في هذه الارض ، ولو كانت مياه الشفة فكيف بمياه الري ري الارض .

***

خراب الزراعة والمزارع } ويمكن ان يقال ان البلاد خربت بنزول الفاتحين والمخربين والعاهات الطبيعية ، ثم من فساد النظام في الدولتين الجركسية والتركية في القرون الوسطى الى هذا العهد ، وقد كانت قروناً مسرح ظلم ، وميدان حروب وغارات ، يهلك الفلاح فيها كما يهلك النمل تحت الاقدام ، قبل ان يهلك ابن المدن الذي له من اجتماعه باخيه ، واعتصامه وراء حصنه وسوره بعض الوقاية ، وكانت القرى التي على جوانب الطرق تخرب قبل غيرها ، وعلى نسبة قرب القرية من المدينة او من الطرق الموصلة بين البلاد او طرق الغزاة والفاتحين ، كان الخراب اليها أسرع من الماء الى الحدور . وكان من دلائل القوة في تلك الأعصر ان تخرب القرى وتلقى النار فيها اذا غضب الملك او الامير او المقدم او صاحب الاقطاع على ذاك الاقليم او تلك القرية . وكان قطع الأشجار من أبلغ أنواع النكاية في الخصم ولذلك أمثلة كثيرة في القديم والحديث الى زمن كتابة هذا الفصل . وما أصيبت به الأشجار في غوطة دمشق خلال الثورة الشامية الاخيرة مثال مما تعمله الحكومات حتى باسم الحضارة . فكأن طبائع الحكومات واحدة يوم تغضب من شعب او تريد ان تكره الثناء على النزول على إرادتها .

وأهم ما أثر في حالة الفلاح نظام الحكومات ، لان اصول الإدارة لم تؤسس في هذه البلاد على ما يجب ، وكانت المظالم الأرضية والمفاسد البشرية أشد تأثيراً في اهل الفلح والكرث والقائمين على تربية الماشية والضرع ، من الآفات السماوية ، كالزلازل والاوبئة والقحط من قلة أمطار او فيضان او انتشار جراد او ديدان وجرذ وفيران .

هذه العوامل هي جماع الخراب الذي أصاب العامر فدمر القرى والاقاليم ، ومنها ما لا تزال دمنه ومياهه شاهدة على ماضيه الزاهر ، فقد ذكر خليل الظاهري من اهل المئة التاسعة للهجرة انه كان على عهده نيف والف قرية ومدن صغار في حوران ، وانه كان في اقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية وبه مدن صغار وبلدان تشابه المدن ، وانه كان في وادي التيم وما اليه ثلاثمائة وستون قرية · واذا أحصيت قرى هذه الأقاليم الثلاثة اليوم لا تجدها في حوران تزيد على اربعمائة قرية ومنها الخرب وفي الغوطة على خمسين وفي وادي التيم على ثلاثين الى اربعين · وهكذا سائر بلاد الشام · فان حلب كان فيها قبل العثمانيين ٣٢٠٠ قرية فأصبحت ٤٠٠ في القرن الحادي عشر ، ومنها ما ظل خراباً الى النصف الاخير من القرن الماضي لان معظم عهد العثمانيين انقضى في مظالم ومغارم ، وكان من جندها ولا سيما الانكشارية في آخر عهدهم أدوات تخريب لم يشهدالناس أفظع منها ، لذلك خربت حتى الضواحي والأرباض من المدن الحافلة أمثال حلب ودمشق وحماة وحمص وما شاكلها · وكانت رجل الانكشاري بل الجندي التركي على الإطلاق حيث دبت يدب الدمار والبوار ·

ولذلك لا نكاد نرى عمراناً الا على طول الطرق العامة الكبرى وما اليها من اليمين والشمال ، ونشاهد المدينتين العظيمتين حلب ودمشق مثلاً ينقطع في الحال او على ساعات قليلة عمرانها الذي كان وارف الظلال الى القاصية · وكل هذا بفعل البادية وفعل الجيوش المدمرة ·

* * *

عوامل الخراب

ولولا ذلك الظلم المتسلسل قروناً في أعقاب الفلاحين المساكين ، وأسواط النقمة التي انهالت على رقابهم الجيل بعد الجيل ، لما تيسر اليوم لاحد ان يملك المزرعة والمزرعتين بل ربما العشر والعشرين قرية ، بل ان بعض الأسر الحديثة تملك الخمسين والثمانين ، والانسان قد تكفيه المئة دونم او جريب اذا أحسن تعهدها ، فكيف له ان يعمر الوفاً من الأفدنة و يتسع وقته وماله لحمايتها وترقيتها ؟

نقول حمايتها لان كثيراً من القرى تنازل عنها مُلاكها لارباب النفوذ يحموهم من ظلم الحكام والمرابين ، وأخذوا ثمنها بضع عباآت وغلايين ، أو قفة من البن او رطلاً من الدخان او اقة من الحلواء المعروفة بالبقلاوة ، ومن الاراضي ما توسل اهلها الى ارباب المكانة في البلاد ان يسجلوها في دائرة التمليك باسمائهم لما شرعت الدولة العثمانية ١٨٨٢ م بتسجيل الاملاك على أصحابها ، وذلك فراراً من ظلم عمال تلك الحكومة ومن وضع الرسم المعتاد ، ومنهم من تخلوا للأعيان عن اراضٍ عانوا مع آبائهم زراعتها زمناً طويلاً تخلصاً من تسجيل نفوسهم لما حررت النفوس ، ومن اهل القرى من خرجوا عن ملك اراضيهم لانه وجد فيها قتيل ، وكانت العادة ولا تزال الى اليوم ان يلزم اهل الارض بدية من يقتل فيها او تفرض غرامة ثقيلة عليهم ، فمنهم من تركوا ارضهم مخافة ان يُلزموا بمال لا قِبَل لهم بأدائه . ومن القرى ماخرج عن ملك اهله كما وقع لأهل مرج ابن عامر في القرن الماضي لما عجزوا عن دفع الأموال الأميرية فباعته الحكومة التركية بالثمن البخس صفقة واحدة لرجل واحد مقابل رشوة قبضها الوالي .

ومن المرابين من أخذوا قرى كثيرة في الديار الشامية لانهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم عليه باخذ الربا الفاحش . وما زلنا في كل دور نرى الفلاح في اكثر أقاليم الشام يقترض المئة بمئة وثلاثين وأحياناً بمئة وخمسين من الخريف الى البيدر فاذا أُضيف الى ذلك ظلم الأعشار(١) وتعدد الضرائب على الفلاح حتى كاد يهلك بسببها لا نستعظم اذا رأينا خراباً ، بل نقول لماذا نرى هذه الوشاشة من العمران قرب المدن والثغور وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات .

ولقد كانت الأوقاف من جملة ماأخر الزراعة ذلك لان الاراضي الموقوفة تجمد على حالة واحدة في أشجارها وغلاتها ومجاريها وسكورها وزرائبها وكل جسم لا ينمو يصيبه

(١) جربت الحكومة في الشام في سنة (١٩٢٥ م) طريقة التربيع فجمعت مقدار اعشار سنتين قبل الحرب وسنتين بعدها وأخذت ربعها وأنشأت تتقاضى مالاً مقطوعاً . والغت بذلك الاعشار فألغت بالغائه نظاماً سيئاً من نُظم القرون الوسطى .

الفناء · وعلى كثرة ما وقف المسلمون على أعمال البر وغيرها لا يمضي القرن والقرنان حتى يعود الوقف ملكاً صرفاً ، ولولا ذلك لكثر الخراب اكثر مما هو الآن في القرى والحدائق ·

لو دام حكم ابراهيم باشا المصري في القرن الماضي الى اليوم لأصبحت بلادنا عامرة كمصر لانه نشط الزراعة وامر بنشر دود الحرير ودود القرمز وعلم الاهالي كيفية قطف الزيتون بالايدي حتى صار شجره يعطي ثمراً في كل سنة فاستعادت بعمله اكثر القرى عمرانها القديم ·

كتب قنصل بريطانيا في دمشق سنة ١٨٥٩ م بمناسبة زيادة الضرائب على الاهلين وتوكيل الجنود بجبايتها بالعنف : ان الحكومة تأخذ مال الشعب ظلماً وعنفاً ولا تحميهم من البدو الذين يزدادون جرأة واعتداء ، وعملها قائم بابتزاز أموال الفلاحين التعساء لما فيه مصلحتها ، على حين لا تأتي بدليل على إدراكها وجوب حماية الذين يجب عليهم ان يدفعوا الاموال اللازمة لتحسين حال الولاية ، وسد حاجات الحكومة المركزية ، وانما تهمل الاحتياط للامر · وقال ايضاً : « ان جو الشام صاف وهواءها جيد وارضها خصبة حسنة الري ففي مكنتها ان تصبر على هذه الحالة اكثر من غيرها من الولايات الاقل خصباً ولكن لا بد في آخر الامر من ان تفرغ هذه الموارد » ·

* * *

آفة الهجرة على الزراعة

ومما أصيبت به الزراعة من الآفات آفة دونها الآفات كلها ، بدأت تدب في جسمها اواخر القرن الماضي بركوب الفلاحين غوارب الاغتراب عن الوطن في التماس ذرائع الرزق وطرق الغنى · وذلك منذ دهش الناس لأرباح المهاجرة الأول من الشاميين الى اميركا · ارباح لم يكن لابن هذه الارض عهد بها وكان ثلاثة وعشرون قيراطاً من اربعة وعشرين قيراطاً منهم يعيش ، ولا سيما في الارض القاحلة ، عيش القلة الشديدة · فلم يلبث الناس في الجبال ان حذوا حذو اولئك المهاجرين ، فأخذ الناس ينزحون الى اميركا

الجنوبية والشمالية والى اوستراليا وجنوبي افريقية وغيرها من البلاد المفتحة حديثاً . حيث يسهل جني المال وتزيد اجرة العامل على نفقته كثيراً .

وهاجر الوف ايضاً الى مصر والسودان عقبى الاحتلال الانكليزي سنة ١٨٨٢م فخرجت الشام في اربعين سنة نحو سبعمائة الف يد عاملة ، كان ثلثهم يستوطن في البلاد التي نزلها تمسك بتلابيبه لكثرة علائقه وطيب العيش في البلاد التي نزلها ، والثلث الثاني يهلك ، والثلث الثالث يرجع . ولم تلبث الهجرة ان عمت جميع السكان ، واقتصرت على ابناء الجبال اولاً ثم تناولت بعد ذلك ابن السهول ، وانتقل الغرام بها من ابن القرية الى ابن المدينة . ومن جملة ما زاد في عدد المهاجرين سهولة السفر وتأليف شركات للتسفير تسلف المهاجر اجرة طريقه ونفقاته الاولى ريثما يجد عملاً حيث ينزل .

وهذه الهجرة من اعظم ما اخر حال الزراعة في هذا القطر ، فأصيبت بضربة مهمة اهمها ارتفاع اجور العملة فيها لان من عاد منهم يحمل مالاً ولو قليلاً استنكف عن العمل في الزراعة كما كان هو وابوه ، ومنهم من بنوا القصور الغناء والدور القوراء في مزارعهم ، واخذوا ينعمون بطيب العيش ، ويبحثون في سمرهم في امور ما كانت لهم ولا كانوا لها ، ويلهون ويلعبون على الطرق التي اقتبسوها في مهاجرهم . وقد كانت جبال لبنان وعامل والعلويين وقلمون والخليل والسامرة من اشد الاصقاع التي تأذت بالهجرة فتأخرت زراعتها فوق تأخرها . ولقلة اليد العاملة رأينا بعضهم في البقاع يقرن الى ثوره امرأته تعمل مع فدانه ، ورأينا الحوارنة يستكثرون من الازواج يتخذونهن اجيرات في اعمال الحقل وعلف الدواب واستخراج الدر وعمل السمن والجبن . ولئن دخلت البلاد اموال طائلة بسبب الهجرة فثروة امة لا تعد بكثرة نقدها بل بكثرة ما يعمل ابناؤها في اساليب الرزق المختلفة وقل ان انفق مال يذكر على تحسين الزراعة واقامة الشركات النافعة . ونحن لم نبرح ننشد مع حافظ ابراهيم

ايشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على ارض من الذهب

***

خصب الاراضي ومما اجتها | وما برحت الشام يضرب المثل بزكاء منابتها ،
وما يزرع فيها | واعتدال أهويتها ، وجودة مناخها ،

وكثرة مياهها ، على كثرة حزونها وجبالها ، وان بلاداً تعطي حبتها في بعض الجهات مئة حبة ، كأرض الرحبة بالقرب من جبال الصفا ، لتعد من أخصب بقاع الارض ، وذلك لان أرضها مستريحة منذ العصور المتطاولة . فاذا كان بنو اسرائيل قد جعلوا عادة لهم ان يريحوا أرضهم مرة كل سبع سنين ، فاننا قد أرحناها منذ قرون ، ولذلك لا تضن علينا بافلاذ كبدها وخيرات سطحها كلما حرثناها وزرعناها .

وما زالت زراعتها كما عرفها الأجداد بل كما عرفها الانسان منذ آلاف من السنين ، ليس فيها شيء من العلم الا التجارب ، ولا من التغيير الا ماتضطر اليه الاحوال وتهدي اليه الفطرة ، ولذلك يعوزها كثير مما يجود في غيرها من النباتات والأشجار قال الرحالة فولني في كلامه على مناخ الشام : ان الارز يجود زرعه على شواطئ بحيرة الحولة ، والنيلة تنبت بلا عمل على ضفاف نهر الأردن في بيسان وهي لا تحتاج الا الى قليل من العناية حتى تستوفي الشروط المطلوبة . وبعد ان أفاض القول على مدن الشام قال : ان دمشق تفاخر وحق لها الفخر بان فيها كل الثمار التي تحصل في ولايات فرنسا . ثم ذكر ان البن الذي يزرع في تهامة اليمن تلائم زراعته ارض الشام ، ومناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت النخل كما ينبت الصنوبر والسرو .

وقال «هوار» : لئن كان القطن زرع في اوربا فان ضواحي هاتين المدينتين (دمشق وحلب) كانت خاصة بزراعة شجرة القطن ، وهذه الحقول البديعة توجب حيرة السياح ، والقطن الصغير الطول ينبت في ضواحي دمشق وكانت عكا واللاذقية وقبرس تعطي صنفاً ثالثاً من القطن ، وكانت بلاد نابلس الى عهد قريب تصدر من القطن ما قيمته مئات الالوف من الدنانير .

وقال الدكتور بوست : تقسم فلسطين باعتبار الفلاحة الى اربعة أقسام : السواحل كساحل غزة ويافا وشارون وهي صالحة لنمو مزروعات المنطقة تحت الحارة ووادي الأردن (العربة) وهي تناسب مزروعات المنطقة الحارة والجبال وفيها أودية كثيرة مخصبة كمرج ابن عامر «يزرعيل» والاودية المجاورة كالناصرة ونابلس

والخليل «حبرون» وهي تناسب مزروعات المنطقة المعتدلة ، والسهول الداخلية وهي تناسب في الاكثر الحنطة والشعير والسمسم . قال : ولا شك بان هذه البلاد كانت ذات أشجار برية و بستانية اكثر مما هي الآن . وكان التراب على جوانب الجبال اكثر مما هو اليوم ، وكذلك العيون فانها كانت اكثر عدداً وماء فضلاً عن ان مياه الشتاء كانت تجمع في مساقي وصهاريج . قال ورن : ان فلسطين « شرقي الأردن وغربيه » كافية لسكنى خمسة عشر مليوناً من الجنس البشري اذا اعتني بها الاعتناء الواجب . فلنا اذا كانت الشام على هذه الصفة من الخصب والسعة فكيف لا تسع العشرين مليوناً من الناس وكل اقليم من اقاليمها كالبلقاء اوالجولان مثلاً يعد الصالح من تربته اكثر من مملكة من الممالك الصغرى في اوربا ، ولكن السر بالسكان لا بالمكان .

* * *

تقسيم السهول والجبال } قسم صاحب كتاب الزراعة العملية الحديثة أقاليم الشام الزراعية الى خمسة أقاليم يتركب كل منها من عدة مناطق تكاد تكون واحدة في درجة الارتفاع عن سطح البحر وهي : (١) أقليم الغور اي شواطئ الأردن وهو يمتد من بحيرة الحولة شمالاً الى بحيرة لوط جنوباً اي اراضي جنوب بحيرة الحولة واراضي البطيحة والغوير وسمخ والقسم الشرقي من بحيرة طبرية واراضي جسر المجامع و بَيسان وجنوب بَيسان وغور الصلت ومنطقة اريحا وشواطئ بحيرة لوط ومن جملة نباتات هذا الاقليم البردي والأسل والقصب الفارسي والاكاسيا الشوكي والسوسن وزنبق الماء على شواطئ بحيرة الحولة والسدر الكثير في الاراضي المجاورة لبحيرة طبرية كأراضي الغوير والمجدل والبطيحة وغيرها والدار والطرفاء والقصب وأنواع النخيل وسفط السيال والرتم والبان والصلة والغرقد والعوسج والعشر وغيرها على شواطئ الأردن في منطقة بَيسان وشرق الشريعة والصلت واريحا .

(٢) اقليم السواحل التي تمتد من شبه جزيرة العقبة الى خليج الاسكندرونة ويشتمل على السهول الساحلية من غزة و يافا وحيفا وعكا وصور وبيروت وطرابلس

واللاذقيـة والاسكندرونة ويدخل فيه مرج ابن عامر واراضي جنين وشمال بحيرة الحولة ويجود فيه الليمون والبرتقال والموز والرمان • ومن جملة نباتات هذا الاقليم الطبيعية البلان والصنوبر البحري والقندول والوزال والطرفاء وأنواع البرسيم والشقائق والدفلى والأقحوان والقصب الفارسي وانواع مختلفة من البلوط •

(٣) أقليم السهول وتدخل في هذا الاقليم سهول الكرك والبلقاء وحوران ووادي العجم والبقاع والجولان والغوطة والسهول المرتفعة في فلسطين وحمص وحماة وحلب وما شاكلها من السهول المتقاربة في اقليمها وتجود في هذا الاقليم الاشجار المثمرة والخضر والتوت واللوز في الاراضي البعلية والحور والصفصاف والدلب في شواطئ الانهار •

(٤) اقليم الجبال ويدخل فيه جبال الكرك والصلت وعجلون وقلمون وجبل الشيخ ولبنان ولبنـان الشرقي والنصيرية والأقرع ويجود فيه الزيتون والكرم والتين واللوز والصنوبر والسرو والفستق البري والميس والحبوب وكثير من الاشجـار المثمرة وفيه من النباتات الطبيعية البطم والقيقب والجنستا والخرنوب والزعرور والمليق والشنداب والدردار والزيتون والسنديان والدلب والصنوبر والديشار والآس والدبرخس وفي أقسام الجبال المرتفعة بعض أنواع البلوط ثم الارز والدفران •

(٥) أقليم الصحراء ونتناول ما نسميه بادية الشام اي الاراضي الواقعة شرق المعمور من الشام تنبت فيه بعض النباتات والاعشاب منها ما يزول في الربيع ومنها ما يبقى في الصيف • وليس في هذا الاقليم سكان الا البدو الضاربون في ارجائه •

* * *

من الذين أدخلوا الطرق الجديدة } ادخل ثلاثة اصناف من الناس في الشام روحاً جديداً في زراعتهـا ، ومنهم مهاجرو قافقاسيا وغيرهم ممن سكنوا قرى كثيرة في عمل حلب ودمشق وعمان ، فان هؤلاء ادخلوا اصول الزراعة على طريقتهم في بلادهم وهي ارقى من طريقة البلاد التي نزلوها في حمص والبلقاء والجولان مثلاً • ثم ان الالمان الذين أقاموا لهم مستعمرات في حيفا ويافا منذ ١٨٦٨ م قد كانوا مثال الفلاح النشيط ، وكان على فلاحنا المجاور لهم ان

يتعلم منهم ويعتبر بما يأخذه الفلاح الجرماني من وافر الغلات ويطرّس على آثاره في تنظيم داره واصطبله وحديقته ومزرعته وتعليم اولاده وغير ذلك مما يعود عليه بالنفع والراحة . وأهم من أدخلوا التجدد في الزراعة في ربوع الشام الصهيونيون من مهاجرة رومانيا وروسيا وبولونيا وغيرهم فانهم والحق يقال قد أنشأوا باموال روتشلد و بركم وفيرو وفيتيفيوري وغيرهم من أغنياء الاسرائيليين الذين ابتاعوا الاراضي في فلسطين لابنــاء نحلتهم وأمدوهم بالمال ليتوفروا على استثمارها ، مزارع حرية بان تكون نموذجات الحقول ، وقد قامت الجمعيات الصهيونية مثل الجمعيات الصهيونيــة اليهودية وجمعيات ايكا وفاعوليم والاليانس وغيرها باعمال مهمة لانشال ابناء دينهم من سقطتهم وانشأوا لهم قرى كسارونا وزمارين والحضيرة وملبس والجاعونة والشجرة وغيرها هي كالقرى الاوربية باتقان أعمالها الزراعية . وتبلغ مستعمرات الصهيونيين اربعين مستعمرة منتشرة في فلسطين وبعض عمل الشام . وممن ساعد على إنجاح الزراعة بعض مهاجري اللبنانيين الشرقي والغربي فان منهم من وضع مما اقتصد من المال أمواله في الزراعة وأدخل طريقة الاميركان في أرضه .

***

درس الزراعة

وكان من اثر مدرسة الزراعة العملية في نيتر قرب يافا التي أسست منذ نحو ثلاثين سنة وكان يتخرج فيها في السنة على الاقل عشرون تلميذاً يستطيع تطبيق علمه الزراعي على العمل — ان نشرت اصول الزراعة الحديثة بين ابنــاء اسرائيل ، وغدا فيهم الكفاة للقيــام على الحرث والتسميد والبذر والغرس والتعهــد والتقليم والتطعيم ، واصبحت مستعمراتهم تخرج اصنافاً جيدة من الخمور واللوز وغيرها لا تخرجها القرى المجاورة لها .

ومن مدارس الزراعة التي نفعت بعض أبناء سورية وفلسطين مدرسة اللاطرون بين يافا والقدس التي أنشأها الآباء البيض . ومدرسة تعنايل بين بيروت ودمشق التي أنشأها الآباء اليسوعيون . وقد انشأت الحكومة السابقة مدرسة زراعية في سلمية لكنها ضعيفة في تلقين العمليات والنظريات ، او يرجى اصلاحها ونقلها الى بيئة أنسب من بيئتها الحاضرة تكون أشد ملاءمة للزراعة بجوها وتربتها .

ومن الغريب ان الزراعة وهي تكاد تكون في هذا القطر المحبوب مورد عيشه الاول لم يدرسها الى اليوم سوى أفراد قلائل ، ولا أذكر سوى بضعة شبان ممن يملك آباؤهم مزارع واسعة تعلموا فن الزراعة على الاصول في مدارس فرنسا وانكلترا وتونس ومصر والاستانة ، وجاؤا فعنوا بتطبيق ما تعلموه وكان الواجب ان يكون لكل مدرسة صغرى مهندس زراعي ، يعلمها من علمه ويمدها بتجاربه و يدير شؤونها كما يدير اهل البصر في الغرب مزارعهم ٠

* * *

نقص كبير { الى اليوم لم تدخل على ما يجب أرضنا الأدوات الزراعية الحديثة التي تقلل عمل الأيدي وتزيد النماء كآلة الحرث والبذر والدرس والتذرية دع غيرها ، وما ابقاه لنا بعض علماء العرب من الكتب الزراعية التي طبع بعضها بلغتنا في اوربا دليل كبير على ترقي هذا الفن ايام لم يكن في الارض من يحسنه ٠ سبق العرب الغرب في كل شيء وسبقهم هو اليوم و يا للاسف في كل شيء ، والدهر دول يوم لك و يوم عليك ٠

سبق الأجدادُ في كل شيء وتأخر الأحفاد في كل شيء ، والفلاحة التي هي أشرف الأعمال وضيعة في نظر كثيرين حتى ان بعضهم قال ، وقد رأى السكة في دار ما دخلت هذه السكة دار قوم الا ذلوا ولو قال ما خلت هذه السكة من دار قوم الا ذلوا لكان أقرب الى الصواب ٠ شعار الغرب اليوم « الارض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » واذا كانت الفلاحة عندنا ينظر اليها نظر احتقار فمن باب اولى ان ينظر الى الفلاح كذلك وهو خادم الوطن الحقيقي ٠ واذا كان الفلاح كالسلطان في مزرعته عند الامم الممدنة ، فهو هنا عبد رقّ لصاحب الارض وللحكومة وللمرابي ٠

وبينا ترى ارباب المزارع في البلاد الراقية ومصر منها يعنون براحة فلاحيهم وتعليم ابنائهم وبناتهم ، وتوفير قسطهم من الصحة والهناء ، و يجعل لهم حتى في قراهم مدارس ومعابد ودور تمثيل وصور متحركة للتسلية ، نجد اكثر المزارعين هنا يجدّون في ان يبقوا فلاحيهم جهلاء أغبياء حتى يخضعوا لهم بزعمهم أبد الدهر خضوعاً اعمى ،

وقلّ ان سمعت بان مزارعاً أنشأ لفلاحيه عندنا مدرسة بسيطة اومسجداً واتاهم بخطيب يعلمهم او بطبيب يطبهم ، ولذلك تجد القرى التي يملكها أفراد صفراً من هذه الوجهة لان صاحب القرية لا يهتم الا لتكثير الدخل السنوي وارهاق فلاحه ، وابن البادية والقائمون على الزرع والضرع أقل الامة و يا للأسف حظاً من التفكر بسعادتهم ، كأنهم ليسوا مادة ثروة البلاد ، اذا اختل نظامهم تطرق الخلل الى سائر مذاهب المعاش ، ومقومات الحضارة ومظاهر الرخاء والهناء ٠

ولا يزال يدور على الألسن في وصف الفلاحين انهم « غبر الوجوه اذا لم يُظلموا ظلموا » ولكن تثقيف أودهم بالتربية قلما يخطر ببال ، وقطع الجرثومة من أساسها لا نراه دواءً عاجلاً ٠

***

التحسين الاخير

على ان من الواجب ان يقال ايضاً انه استفادت كثير من قرى الغوطة والمرجين ووادي العجم والبقاع وبعلبك والحولة وجبال عامل وعكار والحصن ونابلس وعكا والخليل وغزة وسهول حمص وحماة وحلب وانطاكية واسكندرونة عمراناً منذستين سنة بفضل بعض طبقة الاعيان ، لانهم استطاعوا ان يحموها من عيث البادية وعبث الظلمة من العمال ، وان يمدوها بالمال وقت العسرة ٠ فغرّموا على تحسينها أموالاً ، وصرفوا قواهم الى الانتفاع بها ما امكن ٠ وكان العربان يداهمون حتى القرى القريبة جداً من الحواضر ، و يطلبون منها « الخوة اوالخاوة » وهي مبلغ من المال يتقاضونه من الفلاحين البائسين يؤدونه لصعاليك البدو صاغرين ، واذا استنكفوا عن أداء ما يطلب منهم محتجين بضيق ذات اليد او رداءة الموسم — نهبوا دورهم وحرقوا عروضهم وغلاتهم واعتدوا على أرواحهم ٠ وقد كانت معظم الأرياف مأوى الاشقياء وعصابات قطاع الطرق ، فما كان الفلاح يجسر ان ينتقل من قرية الى أخرى او يحمل محاصيله الى المدن ولا ان يعمل في حقله البعيد قليلاً عن القرية او المزرعة ٠

فلما طبق قانون الولايات سنة ١٢٨١ ه ثم أنشئت المحاكم النظامية كان من اثر ذلك القضاء على عصابات كثيرة من ارباب الدعارة ، وقلّت الشقاوة في البلاد

فانصرف الفلاحون كلهم الي العمل ، لان الاسعار بدت بالارتفاع ، فبعد ان كان الحوراني ينقل غلاته على الجمال الى بيروت او عكا فلا يتحصل منها غير اجرة النقل ، أصبح الفلاح يحمل غلاته الي المواني البحرية ولا سيما غزة ويافا وعكا وبيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة فتأتيه بارباح طائلة ، لان الحبوب كالثمار أصبحت تسافر في البحار و يدفع في ثمنها النضار ٠

وانتبه الفلاح لحاله بكثرة اختلاطه بابن المدن فعرف بؤسه فلم يكن على ما كان منذ خمسين سنة مملوكاً لجهله الطبيعي ولظالميه من المرابين وغيرهم من ادوات التخريب ٠ فان تأسيس المصارف الزراعية وان كانت قليلة رؤوس الاموال و يجب ان يكون فيها التسهيل كثيراً ، قد انزلت معدل الربا الى ثمانية في المئة وخفف من غلواء المرابين والصيارفة ٠ ولو زيد في ترقية المصارف الزراعية وأنشئت مصارف عقارية تقرض ارباب العقارات ايضاً بفائض معتدل لزادت الفائدة المطلوبة للزراعة ٠

ولقد صادف ان قلت آفات الزراعة في العهد الأخير ، فأصبحت الاوبئة في البشر والبقر لا تفعل فعلها الشديد كما كانت في الأدوار السالفة ، وردمت بعض المستنقعات الصغيرة التي كانت بجوار بعض القرى ، فتحسنت الصحة بعض الشيء ، وأصبح الفلاح يدرك فائدة التطبب ، وان اعوزه الطبيب على الاغلب ، فجادت الصحة بعض الشيء ، وزادت النفوس زيادة محسوسة وربما زادت عما كانت عليه منذ خمسين سنة خمسة أضعاف ٠ وهذه الزيادة أفادت الزراعة ايضاً ٠ ولم تصب بعض الاصقاع الزراعية بالضعف الا مدة الحرب الاخيرة وقد كلب عمال الترك فاستلبوا من الفلاح ابنه وبقره وغنمه وخيله وحميره وبذاره وحطبه وقطنه وصوفه وقشره ، ولو طالت الحرب سنة أخرى لحصد الوباء البقري الأبقار من اكثر انحاء الشام لان ما بقي سالماً منها كانت الحكومة تأخذه للنقل او للذبح فتعطل بعضهم عن الحرث ، ولكن من نجوا من هذه الغوائل ولو قليلاً استفادوا من ارتفاع الاسعار ارباحاً طائلة فوفوا ديونهم وخرجوا وقد أغنتهم الحرب ولم تفقرهم ٠

وما زلت اعتقد ان أصحاب الحوانيت مقصرون جداً في تعليم الفلاح وتحسين حالته المعاشية والمنزلية والصحية ، حتى كاد يصبح بطول الزمن شقيق البهائم لا يفرق

عنها الا انه ناطق ، وهذا النقص يحمل عليهم وعلى الحكومة · فقد تجتاز الى اليوم القرية والقريتين في البلاد البعيدة ولا تجد رجلين او ثلاثة من اهلها يقرؤون ويكتبون على ما يجب فكيف لهم ان يعرفوا مالهم وما عليهم من الحقوق والواجبات · ولا يستقيم للزراعة حال فيما أرى الا اذا علمت كل أسرة يأتيها رزقها من الزراعة احد أبنائها هذا الفن الجليل ، فانه يداوي هذه العلة بل العلل ، ولا تمضي بضع سنين حتى تدخل الشام في طور الأقطار الزراعية الراقية ، وعندها تتضاعف الثروة مرتين او ثلاثاً ، و ينقطع دابر الهجرة و يعمر الغامر كما يزيد عمران العامر· و يعتقد الناس ان العز والغنى معقود بالارض ، وان الشرف يستمده من عمله الحر الحلال ·

***

عناية الاقدمين بالزراعة

ان ما انتهى الينا من الكلام القليل على الزراعة الشامية لا يشفي غلة الباحثين اليوم ، لانه مجمل يحتاج الى تفصيل كثير · واذا عرضنا له هنا فللاستئناس به في تاريخ الزراعة في الجملة · فقد علمنا ان الاسرائيليين كانوا يريحون الارض سبع سنين ثم يزرعونها فتأتي غلاتهم مخصبة نامية · وعلمنا ان النبطيين وهم العرب الرحل في أرجاء البتراء في الجنوب كان من المحظور عليهم ان يزرعوا الحنطة و يغرسوا الاشجار المثمرة و يبنوا البيوت اذ كانوا يعتبرون ان الاحتفاظ بهذه الخيرات يحتاج الى ان يفادي المرء بحريته · وعرفنا ان الفينيقيين كانوا لا يُعنون بالزراعة عنايتهم بالتجارة فكانوا يجلبون من داخل البلاد ومن السواحل القريبة منهم ما يلزمهم في غذائهم · حتى اذا جاء العرب وأبدوا ما أبدوا من حب التحضر كان قانونهم من أحيا أرضاً مواتاً فهي له وأطرد ذلك منذ الفتح · واغتبط العرب بما وجدوه من الخصب في هذه الربوع بعد محولة الحجاز وبواديه المحرقة حتى قال زياد بن حنظلة في فتح عمر مدينة ايليا من قصيدة :

وألقت اليه الشام أفلاذ بطنها   وعيشاً خصيباً ما تعد مآكله

حتى اذا تربعت أمية في دست الخلافة وأخذ آلهم ورجالهم يقتنون المزارع ، ويبالغون في اتخاذ الغروس والزروع المثمرة المغلة ، جعلوا القرى مستغلات لهم ونزلوها

وعُنوا بعمرانها ، وتنافسوا في ذلك . فقد ذكر المنبجي ان هشام بن عبد الملك اتخذ المستغلات الكبيرة في اكثر المدن التي في سلطانه ، والخانات والحوانيت والتجر والضياع والمزارع ، وهو اول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب واشتق أنهاراً كثيرة غزيرة وهو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة وغرس غرساً كثيراً بالجزيرة والشامات فبلغت غلته اكثر من خراج مملكته .

ولطالما عُني الخلفاء بان لا تبقى ارض شاغرة لا تستغل ، فقد أنزل معاوية قوماً من الفرس في طرابلس ، وكان الرشيد لما انتشر ذاك الطاعون الجارف في فلسطين على عهده وكان ربما اتى على جميع اهل البيت فتخرب ارضوهم وتعطل — قد وكل بهذه الارضين من عمرها فكان يتألف الأكرة والمزارعين اليها فصارت ضياعاً للخلافة .

وما زالت العناية بتعهد الارض متوفرة حتى اغتني العرب الذين استغلوا هذه الديار بذكائهم وبعد نظرهم . قال احد علماء الافرنج : العرب عمال زراعة ورجال براعة ، برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النواعير العجيبة بل ووطنوا النباتات والاشجار الافريقية والآسياوية في اوربا كالنخل والبرتقال والتوت والقطن وقصب السكر والذرة والارز والحنطة السوداء والزعفران والهندباء والخرشوف والسبانخ والباذنجان والطرخون والبصل والياسمين الخ وينسب اليهم اختراع طواحين الهواء ونواعير الماء . وقال ميشو : ما من دار في اوربا الا وتعرف اليوم البصل (Echalote) الذي جاء اسمه واصله من عسقلان . ومعلوم ان الاندلس ابنة الشام فتحها الشاميون ونقلوا اليها مدنيتهم . وهذه الصنوف من الزراعة التي انتشرت في الاندلس ثم في سائر اوربا تكاد تكون خاصة بارض الشام في تلك القرون .

لا جرم ان الحضارة التي أوجدها العرب كان من اول دعائمها الزراعة فاحتاجت الدولة والامة الى الاستكثار من الغروس واستجادة الزروع من وراء الغاية . قيل لاسحق بن يحيى الختلي من ولاة دمشق (٢٣٥) لِمَ سكنت دمشق وفلحت ارضها وأكثرت فيها من الغروس من أصناف الفاكهة وأجريت المياه الى الضياع وغيرها فقال : لا يطيق نزولها الا الملوك قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : ما ظنكم ببلدة

يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار ! • ولطالما دهش العرب بغوطة دمشق لانها كانت اول مايقع عليه نظرهم من عمران الشام فيعجبون للاشجار والزروع المنوعة التي لا تعرف أكثرها في شبه جزيرة العرب ، ويدهشون للخصب والمياه الدافقة من كل جهة •

***

أصناف الزروع والاشجار } ذكر المهلبي انه تجلب من كور حلب وضياعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة فان بلدة معرة مصرين وجبل السماق بلد التين والزيتون والزبيب والفستق والسماق والحبة الخضراء • وقال ابن شداد : وفي بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفاً من الغلات • وقال ياقوت : و يزرع في أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذياً لا يسقى الا بماء المطر ويجيء مع ذلك رخصاً غضاً روياً يفوق ما يسقى بالمياه والسيح ، وقال ان أكثر مستغل ضياع الغور السكر ومنها يحمل الى الآفاق ، وفي عسقلان نخل كثير وصنوف من التمور والرمان يحمل الى كل بلد بحسبه وانها معدن الجميز كثيرة المحارس والفواكه • واشتهرت نواز في جبل السماق بتفاحها الكبير المليح • وتل اعرن في حلب بعنبها الأحمر المدور • وقال ابن جبير : في بلاد المعرة وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين • وقال ابن حوقل : وما حول معرة نسرين من القرى اعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين وكذلك اكثر ما بجميع جند قنسرين اعذاء ومياههم من السماء • وقالوا اشتهرت الفرزل في البقاع بزبيبها الجوزاني وكان يعمل به الملبن المسمى بجلد الفرس وهو من خصائصها وان بعلبك معدن الاعناب والحولة معدن الأقطان والأزهار واشتهرت بيسان بالنخيل الكثير كما اشتهرت بيروت وآبل بقصب السكر يطبخ بها السكر الفائق وعراق الامير بسفرجلها والناعمة بخرنوبها الفائق وقال المقدسي ان عسقلان معدن الجميز وأريحا معدن النيل والنخيل كثيرة الموز والأرطاب والريحان • ومعان معدن الحبوب والانعام • ويبني معدن التين الفائق الدمشقي • وان أشجار جبال فلسطين زيتون

وتين وجميز وسائر الفواكه أقل من ذلك . وقال خير العسل ما رعى السعتر بايليا وجبل عاملة وأجود المري ماعمل باريحا . وان عنب القدس خطير وليس لعنقتها نظير .

وذكر ابن حوقل ان اهل زُغر يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخل بالطلع الذكر وكما يلقح أهل المغرب تينهم باذكارهم . وقالوا ان لبنان كثير الأشجار والثمار المباحة يتعبد فيه أقوام قد بنوا لانفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات و يرتفقون بما يحملون منها الى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك .

وقال شيخ الربوة والجبل لبنان ولا سيما بقضيبه وأذياله نحو من تسعين عقاراً ونباتاً نافعاً مباحاً بلا ثمن وله قيمة جيدة وثمن يكتفي به الجابي الجامع طول سنته وله ولاهله ومن ذلك الكثيراء والريباس والبرباريس والقاوينا وهو عود الصليب والقيسه والبقس والقيقب الذي يعملون منه المرامل والملاعق والآلات المموهة بالذهب والفضة و يحمل الى سائر البلاد والأقاليم وليس عملاً الطف منه ولا أحسن ، ومن النباتات ايضاً شجر المحمودة والاشتوان والزراوند والحماما التي لا توجد الا في اقليم دمشق وهو معلق في شقيف تالٍ ما يقدرون على جنيه الا ان يدلوا جانيه بحبال من رأس جبل عالٍ ، كما يدلى الدلو في البئر وهي لاجل الترياق الفاروق والراوندان واللوز المر والحلو والابهل والقراصيا والزيزفون واما الفواكه فكثيرة جداً بلبنان اه .

وذكر الثعالبي ان التفاح اللبناني موصوف بحسن اللون وطيب الرائحة ولذاذة الطعم يحمل منه في القرابات الى الآفاق وكان يحمل الى الخلفاء في بغداد منه من خراج أجناد الشام ثلاثون الف تفاحة . وقال المقدسي في الرملة انه ليس أطيب من حوارى الرملة ولا ألذ من فواكهها . أطعمة نظيفة وادمات كثيرة وانها جمعت التين والنخل وأنبتت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل . وقال ان ماء فلسطين من الامطار والطل وأشجارها اعذاء وزروعها كذلك لا تسقى الا نابلس فان فيها مياهاً جارية . وقال ياقوت : ان ياسوف من قرى نابلس توصف بكثرة الرمان .

وقال ابو الفدا : ان جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وخرنوب وسائر الفواكه اقل من ذلك . وذكر المقدسي ان على نحو نصف مرحلة من كل جانب من حبرون

قرى وكروم وأعناب وتفاح يسمى جبل نضرة لا يرى مثله ولا أحسن من فواكهه عامتها تحمل الى مصر وتنشر . وقال ابن حوقل في زغر : ان بها بسراً يقال له الانقلاء لم ير بالعراق ولا بمكان أغرب ولا أحسن منظراً منه لونه كالزعفران ولم يغادر منه شيئاً ويكون في اربع منه رطل وبها النيل الكثير المقصر عن صباغ نيل كابل وفيه لهم تجارة كبيرة واسعة ومقصد كبير . وقال الظاهري : ان غزة كثيرة الفواكه . وقال ابن بطلان في انطاكية : ان أرضها تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون . وقال ياقوت : وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل الى جميع ما حولها من البلاد من مصر الى حرّان وما يقارب ذلك فتعم الكل . ولقد ذكروا في باب خصب أريحا ان الجفنة التي عمرها ٤٢ سنة تكون استدارتها على سطح الارض مترين وثلاثين سنتيمتراً وتحمل في السنة ١٥٠٠ كيلو من العنب وانه يضرب المثل بورودها وأزاهيرها ويخرج منها الزقوم والسدر وهو أشبه بالزيتون الكبير يستخرجون منه زيتاً للجروح . وكذلك النبق وهو بمقام الصبار والزيزفون في بلاد أخرى يستعمل حيطاناً للحوائط .

وذكر الثعالبي ان زيت الشام يضرب به المثل في الجودة والنظافة وانما قيل له الزيت الركابي لانه كان يحمل على الابل من الشام وهي اكثر بلاد الله زيتوناً وفيه ما فيه من البركة والمنفعة . وقال شيخ الربوة في نابلس : وقد خصها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون ويحمل زيتها الى الديار المصرية والشامية والى الحجاز والبراري مع العربان ويحمل الى جامع بني أمية منه في كل سنة الف قنطار بالدمشقي ويعمل منه الصابون الرقي يحمل الى سائر البلاد التي ذكرناها والى جزائر البحر الرومي وبها البطيخ الاصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الارض . والظاهر ان هذه الشجرة المباركة شجرة الزيتون آخذة بالاضمحلال قياساً مع حالها في القديم فقد قلّ عدده في فلسطين بعد الحرب العامة واستعيض عن بعضه بما بذلته الحكومة هنا من الجهد لغرس الزيتون والكرمة اما في أرباض دمشق فهو آخذ بالقلة منذ اشتهرت الفواكه وهي هينة العمل سريعة الغلة وكان في حمص على ما تبين من الحفريات التي أجريت زيتون كثير بدليل ما وجد من معاصره التي لم يبق لها زيتون تعصر منه

ولا تجد الزيتون اليوم في ارجاء حمص الا في بقعة او بقعتين . واشتهر في القديم زيتون الطفيلة والشوبك اشتهارهما بمشمشها وكمثراهما ورمانها . سألنا احد شيوخ الصلت عن السبب في إحجام القوم هناك عن غرس شجر الزيتون مع انه يجود كل الجودة فقال : لا تذكرنا بغباوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين احد متصرفي البلقاء على ان نغرس في هذه الاودية التي تراها مئة الف زيتونة فوقع في أنفسنا ان في الامر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل أراضينا على صورة لا نعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالامر بالظاهر وغرسنا ألوفاً من شجر الزيتون ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد ؟ كان احدنا يجيء الى الغرسة فيحركها حتى لا يطلع جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون الا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ما هو . قلنا وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالامس كانوا يحملون الناس على زرع الاشجار ويزينون لهم اقتناء الاراضي للزراعة ، واليوم يطالب الاهلون في هذا العمل وفي غيره الاراضي الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم ! هكذا رأينا أهل الشراة والطفيلة ومعان على حين يقضي قانون الاراضي بان كل من يحيي أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والدساكر مقدار ما يسمع الصوت فيها من اقصى العامر فهي له . ولقد رأينا كثيراً من أهل القرى استأصلت أشجار التين والكرمة وغيرها لان العشارين كانوا يتقاضون منهم عشرها فاحشاً أثمرت ام لم تثمر فعدمت بعض الاشجار شجرها المثمر بهذا الظلم ! .

وما قيل في كثرة الزيتون يقال في كثرة الأعناب واشتهرت بلدان كثيرة بذلك ، وقد أكثر شعراء العرب من ذكر خمر بيت رأس ولبنان وغزة وجدر وصرخد وأذرعات والأندرين وبنات مَشْيع وبَيسان ولدّ ومآب والخمر المقدّيّة وخمر الاحصّ وقاصرين (في أرجاء حمص وحلب) وكان يقال لجبل بيت المقدس جبل الخمر لكثرة كرومه . واشتهرت حلبون في جبل سنير بخمرها وكثرة كرومها . ويظهر ان الزعفران كان كثيراً ما يجود في الشام لانه كان يدخل في الأطعمة والأشربة كثيراً ، ومزارع الزعفران التي كان يطلّ عليها من دير مرّان في السفح الغربي من قاسيون جبل دمشق مشهورة والغالب انها كانت في ارض النيرب ، وكان الزعفران

يجود في جادية في قرى البلقاء والجادي هو الزعفران · ولم تكن عنايتهم بالنخيل أقل من عنايتهم بالزيتون والكرم مثلاً ولا سيما في جنوب الشام وشرقه ·

ولا أثر اليوم لبعض الثمار مثل القراصيا (الفرصاد) والكستانة والبندق والبيسيم (المشمولة) وكانت كثيرة مبذولة هي والكراز في القرن الحادي عشر وكان القطن يجود في ضواحي دمشق وحماة وحلب ·

ذكر القلقشندي في زروع الشام وفواكهه ورياحينه فقال ان غالب زروعه على المطر قال في مسالك الابصار ومنها ما هو على سقي الانهار وهو قليل وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البُرّ · الشعير · الذُّرة · الارز · الباقلاء · البسلّة · الجلبان · اللوبياء · الحلبة · السمسم · القرطم · ولا يوجد فيه الكتان والبرسيم · وبه من أنواع البطيخ والقثاء ما يستطاب ويستحسن · وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس · الملوخيا · الباذنجان · اللفت · الجزر · الهليون · القُنَّبيط · الرِّجلة · البقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة ، وقصب السكر في أغواره الا انه لم يبلغ في الكثرة حد مصر ·

واما فواكهه ففيه من كل مايوجد في مصر كالتين · العنب · الرمان · القراصيا · البرقوق · المشمش · الخوخ — وهو المسمى بالدراقن — والتوت والفرصاد ، ويكثر بها التفاح والكمثرى والسفرجل مع كونها اكثر أنواعاً وأبهج منظراً ، و يزيد عليه فواكه أخر لا توجد بمصر ، وربما وجد بعضها في مصر على الندور الذي لا يعتدّ به كالجوز · البندق · الاجّاص · العُنّاب · الزعرور ، والزيتون فيه الغاية في الكثرة ، ومنه يعتصر الزيت و ينقل الى اكثر البلدان وغير ذلك · و باغوارها أنواع المحمضات كالأترج · اللّيمون · الكباد · النارنج · ولكنه لا يبلغ في ذلك حد مصر · وكذلك الموز ولا يوجد البلح والرُّطب فيه اصلاً · قال في مسالك الابصار وفيه فواكه تأتي في الخريف وتبقى الى الربيع كالسفرجل والتفاح والعنب ·

واما رياحينه ففيه كل مافي مصر من الآس والورد والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرين ، وتزيد على مصر في ذلك خصوصاً الورد حتى انه يستقطر منه ماء الورد

و ينقل منه الى سائر البلدان . قال في مسالك الأبصار : وقد نسي به ما كان يذكر من ماء ورد جُور ونصيبين اه .

وبعد فقد دخلت الشام في العهد الحديث عدة ضروب من الزروع والغراس لم تكن له فيه من قبل مثل الشوح . الاوكالبتس . الاكاسيا . المشمش الهندي . البندورة (الطماطم او القوطة) والبطاطا فكان منها فائدة جلي واصبحت البندورة والبطاطا من أهم انواع التغذية وسرعان ما انتشر الغرام بهما وعمت القاصية والدانية زراعتهما .

* * *

الاشجار غير المثمرة

كانت الشام مشهورة بسروها وصنوبرها وأرزها ، ويقول الشجارون انه كان في غوطة دمشق الوف من أشجار السرو انقرضت ، وأدرك الغزي في حلب من شجر السرو الهرمي والصيواني أشجاراً قليلة ثم فقد عن آخره ، وكان يوجد منها بكثرة ، وأحسن الجبال في الشام التي احتفظت بغاباتها بعض الشيء جبل لبنان فان الصنوبر والأرز فيه كثير . وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في ايام زر بابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم ، وقالوا ان الاشوريين والبابليين والفرس والمصريين استعملوه في قصورهم وبناء هياكلهم واستعمله الاسكندر المقدوني في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ من مدينة صور وكذلك السلاقسة أدخلوه في بناء دورهم . وكانت أخشابه تحمل الى طرابلس وصيدا وصور وبيروت وتعمل منها السفن وفيها عمل معاوية الاول أساطيله لغزو الروم . وما برح كثير من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة الى قارة ومن مملكة الى أخرى . وهو عطر الرائحة اذا وضع في النار ويحسن في المشم اذا مسسته بيدك ، ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبث به الأرضة ولا يفعل فيه السوس . والغالب ان الحكومات السالفة في لبنان كانت تحتكر اربعة اشكال من الشجر تستثمرها

لخزينتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسمح باحتكار غيره ، وبدأ النقص في هذه الاشجار منذ خمسة قرون وقد احتاج اللبنانيون الى الاحتطاب للدفء والعمارة وكانوا يسمون رزق الرجل أشجاره واذا غضب الحاكم على احدهم يقطع شجره فيقولون في أمثالهم الدارجة (الله يقطع رزقه) اي شجره كما يقولون (الله يخرب رزقه) اي بيته وربما اسرع اللبنانيون في احتطاب شجر الارز وغيره لئلا تصدعهم الدولة العثمانية كما ان كثيراً من القرى في البلاد النائية كانت ايام الاعشار تقطع التين والكرم وغيره من مثمر الشجر لتخلص من ظلم العشارين الذين يتقاضون العشر من الشجر أثمر ام لم يثمر .

ولم يبرح شجر الأرز موجوداً في عدة اماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الأبهل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو ، ومنها المحدث غرسه ، لكثرة الامطار والثلوج والعواصف في تلك الارجاء ، وثالثة فوق قرية عين زحلتا ، وكان أحرق اكثرها لاستخراج القطران منه ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبيل من جبل كسروان وخامسة بين قرية تنورين و بشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز و يبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع طولها خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة . وفي تسريح الأبصار انه لا أثر اليوم في الشام لشجر الأرز الا في أعالي سير ببلاد الضنية في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر . وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند اهله تنوب (Sapin) على ان في جبال قره مورط احدى شعاب جبل اللكام من عمل انطاكية غابات من الأرز وغيره من فصيلته . ولو توفرت العناية بامثال هذه الاشجار وقضت الحكومة على كل فلاح ان يغرس و يتعهد عشر شجرات منها اذاً لما مضى خمسون سنة حتى تصبح الشام كسويسرا باشجارها الغضة الملتفة تحسن المناظر والمناخ

ويكون منها عموم النفع كلما وقع القطع منهـا في ثلاثين سنة كما تجري فرنسا في غابة فونتينبلو وغيرها من غاباتها البديعة المشهورة ٠ ولاتكون في جمالها أقل من شجر الارز الذي يكسو نجاد جبال طوروس (الدروب) ووهادها فترى فيهـا تلعة مستطيلة الى جانبها تلعة هرمية وأخرى ذات شكل بيضوي وغيرها المحدودب والمربع اوقائم الزوايا ومنفرجها وكلها مزينة بالاشجار ٠

و يقول كاتب جلبي من أهل القرن الحادي عشر ان غابات الشام كثيرة اشهرها غابة عسقلان وهو حرج كبير يمتد الى نواحي الرملة ٠ ومن الغـابات غابة أرسوف بالقرب من نهر العوجا يمتد الى عكا وكان يقال له غاب قلنسوة وهـذا الحرج يمتد من قاقون الى عيون التجار، ومن الحراج حرج القنيطرة ، وفي أطراف حلب عدة غابات وخصوصاً الغاب الكبير ويقال له الزور واكثر شجره التوت اه ٠ ولقد ثبت ان الغابات كانت في بلادنا في القرون السالفة اكثر من اليوم وان معظم جبالنا التي نراها اليوم جرداء كانت خضراء غضراء وان التجريد من الغابات وقع في أدوار مختلفة فقد ذكر ابن حوقل ان جبل قلمون وجبل المانع وجبل الشيخ المحيطـة بدمشق كانت منذ القرن الرابع مجردة من اشجارها قال انك اذا كنت في دمشق تري بعينك على فرسخ وأقل جبالاً قرعاء من النبات والشجر وامكنة خالية من العمارة ٠

وتجريد الشام من غاباته دعا الى زيادة مساحة عدد البطائح والمستنقعات وتأليف صحار من الرمال فقد قالوا ان الظلال كانت تمتد شرقي قيسارية على ستة او ثمانيـة كيلو مترات فأصبحت اليوم عبارة عن كثبان من الرمل ٠ وهكذا سواحل فلسطين بل معظم سواحل الشام طمت عليها مياه البحر فأبقت فيهـا الرمال وألّفت منها بطائح ومغايض وأفسدت الاراضي العـامرة ٠ ولهذا النظر قلّ ولا شك مساحة المزروع من اراضي الشام سنة عن سنة والمستنقعات معروف ضررها بحياة الفلاح وان كانت أقلّ من الكثبان والحراء ٠ وضرر المستنقعات يتناول الانفس لما ينبعث عنهـا من الحميات التي كثيراً ما رأيناها تقفر قرى برمتها من سكانها ٠ وقد قال الزراعي ارنزون : ان اهم الآفات التي ابتليت بها الغابات ثلاث : الرعي المتبادل وحق المرعى في الاراضي : والحيوانات الصغيرة ولا سيما الماعز وفأس الحطابين ٠ ونسب

خراب الغابات في فلسطين — وسائر الشام تنصرف عليها — الى إصدار الخشب والتبن والسماد الى خارج البلاد ، وقال ان الربح من إصدارها لا يوازي خراب الغابات وقلة غذاء الحيوانات وبوار الاراضي بقلة السماد والسباخ .

***

الاشجار المثمرة وغيرها } وكانوا يتفننون بتسمية الفواكه والبقول والورود . قال البدري والعنب في دمشق فقط أصناف : البلدي . خناصري . عاصمي . زيني . بيتوني . قنادبلي . افرنجي . مكاحلي . بيض الحمام . حلواني . بوارشي . جبلي . قصيف . ابزاز الكابسة . قشلميش . كوتاني . عبيدي . شحاني . جوزاني . درافني . نخ العصفور . عرايشي . رومي . شبيهي . ينطاني . عصيري . رناطي . ورق الطير . سماقي . حرصي . مجزع . شعراوي . دربلي قاري . علوي . عيوني . مورق . مشعر . مسمط . مرصص . مخضر . مقوس . حمادي . تفاحي . رهباني . زردي . مبرد . مخصل . مغاربي . شحمة القرط . وقسم المشمش الى احد وعشرين صنفاً وهي : حموي . سندياني . اويسي . عربيلي . خراساني . كافوري . بعلبكي . لقيس . لوزي . دغمشي . وزيري . كلابي . سلطاني . حازمي . ايدمري . سنيني . بردي . ملوح . قرط البخاتي . جلاجل القلوع . الخ . ووصف العماد الكاتب المشمش الدمشقي فقال : طلعت في أبراج الأطباق كأنها كرات من التبر مصوغة ، وبالورس مصبوغة ، صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية ، حلا منظراً وذوقاً ، ولو نظم جوهره لكان طوقاً ، كأنما خرط من الصندل ، وخلط بالمندل ، وجمد من الثلج والعسل ، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس ، والتناجي بما في النفوس .

وقال البدري ومن خصوصيات دمشق « الطرخون » من بقول المائدة وكان يخرج فيها السذاب والرشاد وبقلة الحمقاء والماش والهندباء والكراويا والتوت الاسود والشامي . وكان يكثر فيها الكراز والوشنة وهو فيها سبعة أنواع . وذكر ان الورد جنس تحته ستة أنواع بدمشق ومنه الجوري والنسريني . والنرجس جنس تحته

أنواع منها اليعفوري والبري ، والمضعف وذكر منثورها وزنبقها وآذريونها وآسها وحبه وريحانها ونيلوفرها وبانها وحيلانها وزترنختها وتمر حنائها وقراصياها وكمثراها (ثلاثة وعشرون صنفاً) وتفاحها ودراقها (ستة عشر صنفاً) وخوخها (ثلاثة عشر صنفاً) الى غير ذلك مما كان في القرن التاسع ·

* * *

الصناعات الزراعية القديمة } وكانت الزهور والورود من أهم فروع الزراعة ، وللطيوب والعطور ومستقطرات الزهور شأن واي شأن منذ الازمان المتطاولة · وكان للأقدمين على مايظهر غرام شديد بالملاب العطر المائع والكباد اليابس ، ويستعملون المسك والعنبر والزعفران كثيراً ، و يولعون بالعَرف والاريجة ، وكان لهم طيب يقال له الغالية وهي مسك وعنبر يعجنان بالبان قال ابن سيده و يقال ان الذي سماها غالية معاوية بن ابي سفيان وذلك انه شمها من عبد الله بن جعفر بن ابي طالب فاستطابها فسأله عنها فوصفها له فقال هذه غالية · وقد حفظ لنا شيخ الربوة من اهل القرن الثامن شيئاً من الإشارة الى كثرة الورد والزهر في دمشق فقال ان العطر وغيره كان يخرج في المزة من ضواحي دمشق من زهورها وورودها ، حتى ان حراقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير و يكون الذّ من المسك الى مدة انقضاء الورد · وذكر صفة اخراجه في الكركات والأنابيق ورسم صورها — والقرع والأنبيق آلتان لصنع ماء الورد السفلى هي القرع والعليا على هيئة المحبسة هي الأنبيق — قال وغير هذه الكركة كركة أخرى يستخرج منها الماورد وغيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب وذلك بعد حشو القرع بالورد وبلسان الثور و بزهر النوفر او البان او زهر النارنج والتقيق والهندباء او بورق القَرنفل المزروع بدمشق ·

الى ان قال و يحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك وكذلك يحمل زهر الورد المزي الى الهند والى بلاد السند والى الصين والى ما وراء ذلك و يسمى حماض الزهر · ومما أرخوه انه كان لقاضي القضاة الحنفية ولأخيه الحريري قطعة بارض تسمى تنورالزهر طولها مائة وعشر خطوات وعرضها

خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم وذلك سنة خمس وستين وستمائة وهذا لم يسمع بمثله اه ·

وكانت حلب في القديم مختصة بماء الورد النصيبي الذي يستخرج بالباب من اعمالها قال ابن الشحنة انه لا يقاربه شيء مما يجلب الى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه مع ان المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه اطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامي · و ينبت في ارض حلب زهر القرنفل وكان يستقطر ماؤه · واشتهرت في القديم زهور لبنان وما اليه من الجبال كجبل الشيخ فانها كثيرة مبذولة في الربيع شأنها في مراعي الجولان والعمق والبقاع والبقيعة كما اشتهرت طيوب البلقاء وصموغه وكانت تحمل الى مصر · وقلّ اليوم من يلتفت الى هذه الصناعات الزراعية ·

ومن صناعاتهم الزراعية في القديم السكر وكان يعمل في القديم على ضفاف الأردن ولا تزال معامله في جنوبي الغور تدعى الى اليوم مطاحن السكر ، وكان السكر اكثر مستغل تلك البلاد يحمل الى الشرق والغرب · وكان يصنع السكر في انطاكية وطرابلس وعكا و يافا و يحمل منها الى الآفاق · قال القلقشندي من اهل القرن التاسع: في الشام يعمل السكر الوسط والمكرر · وكانت زيوت الشام كخمورها تصدر الى القاصية · و يعصر السليط اي دهن السمسم في دياف من حوران و به اشتهرت · وكان الصابون الحلبي والنابلسي وغيره مما يفيض عن حاجة البلاد يباع منه في الأقطار الاخرى · وكان الجبن الكركي مشهوراً يصدر الى مصر ·

وقد قامت الحكومة العثمانية إبان الحرب العامة بعمل بعض المحفوظات والمربيات في دمشق فتعمل الحساء ذروراً ثم يذاب في ماء حار وقت الاستعمال فيأتي كأنه طبخ الساعة واستخرجوا من العظام مرقاً معقماً · وأخذوا يعملون من الثمار والبقول مجففات ومحضرات على طريقة لا تنقص من تغذيتها وتكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثة عهدٍ بالقطف من الشجرة او المسكبة · و بلغ عدد البقول المربية عشرة أنواع كان يتناولها الجندي في كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق والمباقل والمقاثي · واستخرجوا في معامل الفيلق بدمشق أشربة كثيرة من ماء الزهر وماء

الورد وشراب قشر الليمون وقشر البرتقال تجعل أرواحها في زجاجات وتكفي القطرة منها كأس ماء لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل في اشربة الجيش ولا سيما في مستشفيات البادية . و بالجملة فقد كان لتعقيم السوائل واستخراج الأشربة وتجفيف الثمار والبقول وخبز الاخباز بالآلات الكهربائية الصحية شأن لم يعهد في الشام ثم تنوسي بعدهم .

ومن صناعاتهم العسل وكانوا يغالون بأكله كثيراً واشتهر عسل سنير وجبل الثلج كما اشتهر دبس بعلبك وجبنها وزيتها ولبنها قال ياقوت : ليس في الدنيا مثلها يضرب بها المثل . وكانت بيسان توصف بكثرة النخل ، والنخيل مما يجود في الأغوار وكان كثيراً في القديم والشاميون يعنون بتعهده من وراء العاية .

و يظهر ان العسل والزعفران والدبس والقنود والتمور كانت مما يعول عليه في الاطعمة والحلواء اكثر من اليوم . ولدينا وثيقة في بعض المأكولات لابي القاسم الواساني من شعراء اليتيمة الدمشقيين نظمها منذ نحو الف سنة في وصف جماعة من أصحابه زاروه في قرية جمرايا على مقربة من الهامة في غربي دمشق وذكر فيها ما لقي منهم على طريقة غريبة في التنكيت والتبكيت ومما جاء فيها ما أكلوه من الاطعمة وفيه إشارة الى كثرة أنواع التمر :

أكلوا لي من الجرادق الفيـ ن بمن ّ[1] تشتاقه العارضان[2]
اكلوا لي اضعافها غير مشطو ر[3] ومالوا الى سميذ[4] الفران
اكلوا لي من الجداء ثلاثيـ ن قريصاً بالخل والزعفران
اكلوا لي ضعفها شواءً وضعفيـ ها طبيخاً من سائر الألوان
اكلوا لي تبالة[5] تبلت عقـ لي بعشر من الدجاج السمان
اكلوا لي مضيرة[6] ضاعفت ضـ ري بروس الجداء والعقبان

(١) البن ضرب من الكوامخ وهي المخللات تستعمل لتشهي الطعام (٢) العارضان شقا الفم (٣) المشطور الخبز المطلي بالكامخ (٤) السميذ باعجام الدال وإهمالها هو الحوّارى اي الدقيق الابيض (٥) التبالة ضرب من أطعمتهم والتابل ج التوابل ابزار الطعام . وتبلت عقلي أسقمته (٦) المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير اي الحامض وهي أشبه باللبنية او لبن امه او الشاكرية اليوم .

اكلوا لي كشكية [1] قرحت قلبي ودباجت لفقدها أشجاني
اكلوا لي سبعين حوتاً من النهر طرياً من أعظم الحيتان
اكلوا لي عدلاً من المالح المشوي ملقى في الخل والانجدان [2]
اكلوا لي من القريشاء [3] والبرني والمعقلي والصرفان [4]
الف عدل سوى المصقر [5] والبردي واللؤلؤي والصيحاني
اكلوا لي من الكوامخ [6] والجوز معاً والخلاط [7] والاجبان
ومن البيض والمخلل ما تعجز عن جمعه قرى حوران

ومن صناعاتهم الزراعية صناعة الصابون وكانت من أنجح الصناعات القديمة ومصابنه في حلب وكلز وادلب وانطاكية ودمشق ونابلس وطرابلس واللاذقية وحيفا ورام الله وبعض قرى لبنان . وخير الصابون وأشهره اليوم الصابون النابلسي فيه على ما يظهر خاصية ليست بغيره او ان السر في جودته اتقانه بدون غش . ومنذ افلتت الصناعات من رؤساء لها تشرف على أعمال اهلها انحطت في دمشق صناعة الصابون فقد كانت له أماكن خاصة لتجفيفه وكانوا لا يبيعونه الا بعد ثلاث سنين من صنعه ويصدر الى أقطار العالم وثمنه يزيد خمسين في المئة على سائر أنواع الصابون وكنت

---

(١) الكشكية طعام يعمل من الكشك (بفتح الكاف) والعامة تكسر كافه يعمل من جريش الحنطة واللبن الحليب ويترك اياماً حتى يختمر فيكون منه ذرور يعمل كالحساء ويطبخ باللحم او بالزيت وقالوا فيه :

الكشك شيء خبيث محرك للسواكن
الاصل دَرٌّ وبرٌّ نعم الجدود ولكن

(٢) الانجدان (باعجام الدال واهمالها) ورق شجرة الحلتيت (٣) الجبن القريش كاميراي اليابس الشديد كما في التاج والذي نعرفه ان القريشاء والقريش يعمل من الدر ويختمر ويبقى طرياً كالزبد والقشدة (٤) البرني والمعقلي والصرفان واللؤلؤي والبردي والصيحاني ضروب من التمر (٥) المصقر المداس (٦) الكوامخ المخللات (٧) الخلاط ضرب من المشهيات والمخلوطة طعام من أنواع شتى .

اذا غسلت به الثياب تجد من رائحتها ما ينعش قلبك من الروائح الذكية والآن يبيعون الصابون الدمشقي أخضر بدون تجفيف و يزاحمه في عقر داره الصابون الغربي لرخصه وهو مركب من زيوت صناعية على الغالب ليس من الزيت الخالص وعسى ان يرسل صناع الصابون في نابلس وطرابلس ودمشق وحلب وعكا وحيفا الى اوربا من يدرسون المادة التي تدخل الصابون الغربي فتزيد رغوته أخضر كان او يابساً فبذلك يعيدون الى الصابون البلدي رونقه السالف و يخلصون من النكهة الخبيثة في الصابون الغريب ·

* * *

معادن الشام وحماتها — وخليق بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ما حوى سطح الارض من الخيرات الطبيعية الى هذا الحد ، ان لا نغفل الكلام على ما حوى بطنها من المعادن والأمواه النافعة · فقد اجمع المتقدمون انه كان فيها معادن حديد في لبنان كان قدماء المصريين يحملونها الى بلادهم ، وأجمع المحدثون الذين بحثوا في بلادنا عن طبقات الارض وتركيبها على ان الشام خالية من الفحم الحجري الا قليلاً ، وفي لبنان طبقات القضّة (Grès) فيها فحم خشبي متحجر (لنيت) يمكن استثمارها وفي قرطبا وميروبا والمنيطرة مناجم من هذا الحجر الخشبي وأشهر طبقاتها الفحم الخشبي المتحجر في قرنايل ، وقد صار الاعتناء باستخراجه من سنة ١٨٣٥ م الى ١٨٣٨ ، ومن مناجم هذا الحجر منجم مارشينا وفالوغا و بزبدين وجزين وزحلتا وعين التفرا وحيطورة ، وصاحب امتياز هذا المنجم المركيز دي فريج · و يجوز استخدام هذه المناجم للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيتية للوقود ·

والفحم الحجري ونظنه من نوع الفحم الخشبي في جبل البشر وابي فياض شرقي حلب وذكر ياقوت ان في جبل البشر ويمتد الى الفرات من ارض الشام من جهة البادية اربعة معادن القار والمغرة والطين الذي يعمل منه بوائق لسبك الحديد والرمل الذي يعمل منه في حلب الزجاج وهو رمل أبيض كالاسفيداج ·

وللحمر مناجم في عينبل وحُريقة في جبل عامل وفي أرجاء مرجعيون ، واشهرها منجم حاصبيا ، كان يستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل واحد منها ١٠٠

كيلو وكان السلطان عبد الحميد الثاني يستثمره لنفسه ، وبعد انحلال دولته أهملته الحكومة لقلة اليد العاملة واضطرت ان تهمل معدن سحمر في البقاع وغيره من المعادن في الشام . فأضر اهمال الحمر بارباب الكروم فتصاعدت اثمانه وهو يستعمل كل سنة عند تأبيرها فلحقته الدودة من أجل ذلك وقلت مداخيله . وفي الناس بين حمص وتدمر معدن للحمر يكاد يوازي معدن حاصبيا بصفائه . وفي المقارن بين درعا وسمخ مناجم كلس ممزوج بحمر ، وكذلك في ارباض تدمر وفي الصلت ووادي اليرموك . قال المقدسي : ان في الشام جبال حمر يسمى ترابها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمي الحوارة فيه ادنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح . ومعدن الحديد كثير في قضض لبنان واتربته ، وعلى سطح الجبال وبطون الاودية ، لاسيما في أرجاء البترون وكسروان والمتن وفي قرية دومة وبيت شباب وفي عكار والمشغرة والفرزل ومجاري الأنهار مثل نهر الكلب ونهر ابراهيم . ومن هنا كانت تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد التي كانت في تلك الارجاء ، والمانع من استثمارها اليوم قلة الوقود اي الفحم الحجري ، والحطب لا يفي بهذا الغرض على نحو ما كان الحال الى عهد قريب .

وأهم مناجم الحديد في برمانا وبحمدون ووادي النهر الكبير حجرالصفار (الكروم) وفي جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة وفيها رصاص ممزوج بالفضة وخشب فحمي ونيكل وكان في القديم فيناحيتي باير وبوجاق معدن حجرالصفار يستخرج منه في السنة ٢٥٠٠ طن ولم يبق له أثر ، ويوجد حجرالصفار على شواطيء بحيرة طبرية ومن نوع البيريت والليمونيت في برتي وكفرسلوان ومرجبا من لبنان وفي راشيا وسفح جبل الشيخ الغربي وجنوبي حاصبيا وفي عين اللبوة وعين عطا وشوايا وعين قني والروج والكفير .

والنحاس في قرية اهمج في كسروان وفي الجنوب الغربي من حلب وكان منه في عين جر فاكدى لكثرة ما استخرج منه وكان النحاس الاحمر يحمل من جبل جوشن على قيد غلوة من مدينة حلب . وذكر كاتب چلبي ان في بيت حبرون معدن زجاج يستخرج منه فيحمل الى الأطراف فيباع ويحمل الى السودان والحبشة من أسورته ويقايض عليها بالتبر .

واستثمر معدن الفحم الحجري في مرجيليا في لبنان اثناء الحرب الكبرى لوقود السكك الحديدية واستخرج منه ١٩١٦ ما يقارب ١٣٠٠ طن · وذكروا ان الطبقات الفحمية في لبنان وجدت في نيحا ، المراح ، كركبا ، زحلتا ، عبيه ، عرمون ، جمهور ، عين تراز ، بحمدون ، القرية ، رأس الحرف ، مرجيليا ، بتبيات ، مارحنا ، الكنيسة ، عين موفق ، قرنايل ، جورة ارصون ، يزبدين ، رأس المتن ، ترشيش ، جوار الجوز ، حيطورا ، عين تدجورا ، عين زحلتا ، صدنايا ، قيتولة ، بكاسين ، جزين ، حمصية ، مشغرة ، قرطبا ، حدث الجبة ، مزرعة بيت ابن صعب ، الديمان ، القنيات · ومنه الرديء الذي لا بال له ·

وفي جهات ابو فياض على ٨٠ كيلو متراً من حلب فحم حجري رديء من الليئت كما ان منه في جهات حوران وفي قرية عرنة من أقليم البلان معدن الفحم الحجري قيل انه لم ينضج نال امتيازه احد اهالي دمشق وفي حضر من اقليم البلان معادن أخرى براقة · وفي جبال الكرك كثير من أنواع المعادن قصدها مؤخراً كثير من معدني الانكليز لتحليلها ومعرفة أنواعها · والبترول (زيت الكاز) حول البحر الميت وتباشر شركة اميركانية استخراجه قرب قرية خرنوب · وفي أرسوس على عشرين كيلو متراً من الاسكندرونة وفي وادي صقلاب من أعمال الكورة في شرقي الأردن وفي المزيريب من عمل حوران وفي أرجاء الاسكندرونة معدن غاز سائل جرى تعدينه فلم يأت بفائدة · وفي أرجاء طرابلس معدن المغرة ونوع من الصبغ الاصفر (Ocre jaune) ·

ويوجد الكبريت بكثرة في جهات الباروك في لبنان وفي قرية عنجرة من جبل عجلون وفي أرجاء البحر الميت وبالقرب من حمة عفرة في الطفيلة معادن الكبريت والقصدير والبترول والنحاس وفي رأس العين من عمل الزور وفي أماكن جبلية عديدة ولا يصلح للاستعمال لامتزاجه بمواد غريبة فحمية وحديدية · ويوجد الزاج في حارم · والنيكل ومنه الفاخر في جبل الاقرع · والفوسفات في شمالي الصلت في جبال السرو بينها وبين عمان نال امتيازه في آخر العهد العثماني المهندس نظيف الخالدي على ان ينشئ فرعاً يتصل بالسكة الحديدية الحجازية من الصلت الى عمان ويشيد مرفأ في

حيفا فحسبت نفقات استثماره فرأوا انها لا تفي بها وارداته فترك وشأنه · والفوسفات موجود في شمالي يبرود من جبل قلمون وبعض جهات فلسطين · والبوتاس حول البحر الميت والاسفلت في جبل الاكراد على ثلاثين كيلومتراً من اللاذقية (في قرى كفرية وقصاب وخربة السولاس) نالت امتيازه سنة ١٣٤٤ هـ شركة مصرية و يقال انه اغنى منجم عُرف من نوعه · وكان في مقاطعة جرش في ارض تسمى تلول الذهب معدن ذهب جاء في الكتاب المقدس ان سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب منها · وفي الجنوب الشرقي من تدمر وفي ارجاء انطاكية معادن ذهب ولكنها شحيحة · وتكثر الفضة في جبال اللاذقية وشمالي بعلبك ومصياف في بلاد العلويين وعلى ضفاف العاصي فيما يلي انطاكية معدن ذهب ومعدن رصاص فضي ومعدن انتيمون وحجر الكحل ومعدن فحم حجري ومعدن الطفال المعروف بالبيلون في ارجاء كلز وانطاكية · وفي جبال قره موط احدى نواحي انطاكية عدة معادن تستعمل للصبغ وفي جبل بارسال من اعمال كلز معدن مرمر اصفر (قاله في نهر الذهب) ·

وكان في قرية يعفور من عمل دمشق معدن فضة قاله شيخ الربوة · قال و بارض حدث من جبل لبنان جوسية فوق كرك نوح عليه السلام يلتقط حجارة زلطية تكسر مرقشيثا وكل معدن مائل باللونية الى لون ما هو قسمه ، وعد الخوارزمي المار قشيشا من عقاقيرهم فقال : ومنها مربع ومدور وقطع كبيرة غير محدودة الشكل وهي ضروب فمنها أصفر يسمى الذهبي وابيض يسمى الفضي وآخر يسمى النحاسي ·

و يوجد الملح في مواضع كثيرة من بلاد الشام ولا سيما في جهات تدمر وجيرود وحماة والخليل وحوالى البحر الميت وسبخة الجبول جنوبي شرقي حلب · وملح جيرود فيه مرارة وأجوده ملح الجبول · وفي حلب عدة ملاحات وأعظمها ما كان في جوار قرية جبول على شكل مخروطي عظيم لا تطاف أطرافها في أقل من ثماني عشرة ساعة يجمد ماؤها في شهر أيار الى تشرين الثاني فيكون في هذه الفترة ملحاً ، ويسمى هذا النهر نهر الذهب يجري من ناحية باب بزاعا الى ان ينتهي الى سبخة الجبول في مساكب يعملها اهل الجبول والقرى المجاورة لها ، وكانوا يقولون ان هذا النهر سمي نهر الذهب لان

اوله بالقبان وآخره بالكيل ، اي انه يزرع على اوله الحبوب كالحبة السوداء والانيسون والكراويا وأنواع الفواكه مما يباع بالرطل ، وآخره الملح الذي يباع بالكيل ·

ويوجد الزئبق في ارض انطاكية وغيرها ، قال شيخ الربوة ان معدن الملح الاندراني كان يستخرج من ارض سدوم عند بحيرة لوط وكيف ما تكسرت حجارته ما تكسرت الا فصوصاً مربعات الزوايا · ويوجد النحاس في ناحية الصور على نهر الخابور ومعدن السوديوم في البصيرة والصور والشدادي والقصبي ويعرف باسم بارود القصبي · والرصاص في انطاكية والمغرة في جهات حلب وعمان والجبص (الجبسين) في جهات جيرود وصافيتا وعكار وطرابلس · والرخام الاصفر في جبل الجرمق من عمل صفد وعلى ساعتين من مادبا في البلقاء جبلان اصفر واحمر والحجارة الكلسية على كثرة في جميع الارجاء ، واهم انواع الحجارة الكلسية الرملية الحواري والرخام السماقي والجنس المدعو « شحم بلحم » وأجمل المقالع ما كان في جوار حلب وفي جبل باريشا من عمل حارم وهو رخام اصفر ومن أجملها الحجر المزي وهو يضرب الى الصفرة يستخرج من مقلع المزة قرب دمشق والحجر المعرباني وهو احمر يستخرج من مقلع معربا في قلون وتكثر مقالع الحجر الرملي في منحدرات لبنان السفلي وعلى الشواطئ البحرية ولونه اصفر· وجميع البنيان من صور الى طرابلس مبنية بحجره وهو سريع التفتت سهل النحت لدى خروجه من المقلع ويتصلب في الهواء ويصلح للبلاط اكثر من الحجارة الكلسية الجميلة · والحجارة الكلسية ذات تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها ابيض كامد تتحول بمرور الزمان بفعل أشعة الشمس الى شيء من الصفرة الذهبية · ولذلك كانت أبنية حلب وبيروت بهذا الحجر الجميل من أجمل أبنية الشام ، واشتهرت الداروم في تقديم برخامها قال الرحالة ناصر خسرو : « والرخام كثير جداً في الرملة وجدران معظم الابنية والدور مغشاة بصفائح من الرخام مرصعة باتقان ومغشاة بنقوش ورسوم ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له وبرمل تلك البلاد ، وبالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواري والعمد كما تقطع الدفوف من شجرة · ولقد رأيت في الرملة رخاماً من كل جنس ومنه المجزع (المبقع) والأخضر والأحمر والأسود والأبيض

و بالجملة من مختلف الألوان اه ». و بالقرب من زرقا معين على ساعتين من مادبا جبال ملونة فيها جبل اصفر وآخر احمر .

هذا اهم ما في بطن الشام من المعادن ومهما كانت حالها فهي وافية بحاجة اهلها ولكنها لا تمون أمماً غيرنا كالمعادن المشهورة في العالم بذهبها وفحمها وغير ذلك ، ومعادننا تكفينا اذا استثمرناها ولكنها لا تسد المطامع الكبيرة .

***

الحمّات الشامية { الحمة (بفتح الحاء وتشديد الميم) العين الحارة يستشفي بها الاعلاء والمرضى ، وفي الحديث العالم كالحمة يأتيها البعداء و يتركها القرباء ، فبينما هي كذلك اذ غار ماؤها ، وقد انتفع بهـا قوم وبقي اقوام يتفكّنون اي يتندمون . فالحمة هي ما يعرف اليوم بالحمامات المعدنية تكثر في ارض الشام البعيدة عن الساحل ، واهمها حمامات طبرية على شاطئ البحيرة ، تنفع النساء في الأمراض التناسلية وتشفي الأوجاع الحـادة المزمنة وامراض الرثية والنقرس والبول السكري وامراض اعضاء التناسل والمرة السوداء والتهـاب قصبة الرئة المزمن وبعض الامراض الجلدية وغيرها .

قال ابو القاسم في وصف حمة طبرية وفيها عيون ملحة حارة وقد بنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج الى الوقود تجري ليلاً ونهاراً حارة وبقربها حمة يغتمس فيهـا الجُرُب اه . ويجري الماء الى الحمامات من اربع عيون حارة واهمها مابناه ابراهيم باشا المصري وهو في الشمال و يعرف باسمه وهو عبارة عن حوض كبير تحيط به عمد قديمة من الرخام وعليه قبة عظمى، وهي مثقوبة بثقوب اسطوانية يخرج منها البخار ودرجة حرارة الماء ٦٢ بالميزان المئوي وهو صاف براق في الجملة ملح الطعم مرّ مهوّع وتنبعث منه رائحة شديدة من حامض الكبريت اورائحة بيض فاسد، وهذه الحمامات ملك الحكومة تؤجرها ولكن شروط الصحة في الحمات الجديدة مفقودة منها وموسم الاستحمام فيهـا من اول كانون الثاني الى آخر حزيران .

ومنها « الحمة » حمة جدر في وادي اليرموك على الخط الحديدي عند الكيلومتر ٩٣ و٩٥ تنفع في امراض الجلد وغيرها وهي مياه معدنية حارة تنبجس غزيرة وتجري

الى نهر الشريعة وهي ثلاث حمات يبعد بعضها عن بعض بضع دقائق يدعى احدها « المقلي » او « حمام سليم » درجة حرارته ١١٩ ، والآخران « حمام الجرب » وحرارته ١٠٨ ، او « حمام الريح » وحرارته ٨٢ بميزان فارنهيت وعندها آثار الحمامات الرومانية وبقربها ملعب عظيم وهو ملعب جدر المشهورة في الجاهلية والاسلام قال احد واصفيها : « ولا أبالغ اذا قلت ان معدل قاصديها في شهر نيسان لا يقل عن عشرين الفاً يقيمون اياماً تحت حر الشمس وهبوب الريح لا بيت يؤويهم ولا نزل يكنهم ، فان كان قاصدوها يبلغون هذا العدد وهي قفراء خربة في شهر واحد فكم يكون عددهم لو تهيأت لهم حمامات منتظمة وأبنية وفنادق ومابه تستتب لهم الراحة فيه أأبالغ اذا قلت انهم يزيدون عن المائتي الف ؟ » .

وحمة ابي رباح من عمل ناحية القريتين في حمص تنفع في الأمراض العصبية وتصلب الأعضاء والتشنج خاصة . وحمة ضمير في جبل قلمون كبريتية . وحمة ارك في جهات تدمر . وحمة انطاكية وهي كبريتية وفيها مغنيزيا ايضاً . وحمة اسكندرونة بين حلب واسكندرونة على الطريق . وحمة جسر الشغر وحمة زرقا معين في الكرك وهي ثلاثة حمامات يستحم المستحمون ببخارها ويقصدها السياح من الفرنج كما يقصدون حمة عفرة من بحيرة لوط . وحمام النبي داود في وادي الحسا . وذكر ابن الشحنة ان في السخنة من أعمال قنسرين خمسة حمامات ينتفعون بها من البلغم والريح والجرب . وبناحية العمق حمة أخرى . وبكورة الجومة من اعمال قنسرين عيون كبريتية تجري الى الحمة والحمة قرية يقال لها جندراس يأتيها الناس من الآفاق فيسبحون بها للعلل التي تصيبهم . قال الغزي : ان في أطراف حمام العمق عدة عيون كبريتية حارة لو جمعت الى حوض لكانت حماماً عظيماً وفي سنة ١٣٠٠ بنت بلدية حلب على بعض هذه العيون خلوة وصارت تؤجرها .

وذكر شيخ الربوة ان بين حمص وسلمية كهفاً في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم فاذا دخل الانسان ذلك الكهف خُيل اليه انه في الحمام لشدة الوهج وكثرة قطر الماء من البخار المتصاعد من البئر الذي في وسط الكهف ويسمع غليان الماء بقعر البئر ولا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البئر ومن نظر فيه يشيط

من الحرارة . ولعله يقصد بذلك حمام ابي رباح . وظهر مؤخراً على كيلو مترين من قرقخان من عمل اسكندرونة نبع ماء معدني درجة حرارته ٤٣ فتهافت الناس على الاستحمام به .

هذه أهم حمّات او حمامات الشام المعدنية واكثرها كما رأيت لا ينتفع بها الانتفاع المطلوب ، وحالتها كما عرفت منذ القديم لا نظام فيها ولا أبنية للمستحمين حواليها . وقد عرف من تاريخ الرومان انهم كانوا يُعنون من وراء الغاية بالحمامات المعدنية ، فكانوا يبنون عليها أبنية بحسب مصطلحهم ، ولكن لم نر ان العرب في هذه الديار عنوا بشيء من هذا القبيل اللهم الا اذا كان ضاع عنا خبره لقلة التدوين . ولو انها وقعت العناية اليوم بحماتنا على النحو الذي تنتفع به بعض البلاد التي تنبجس فيها مياه معدنية من إقامة المستحمات والمنازل لنزول طلاب الاستحمام وتدبيرها تدبيراً جديداً مرفهاً صحياً لكان منها منافع كثيرة لابناء البلاد ومورد أرباح لها تأتي من الوف من الغرباء والقرباء يقصدونها للانتفاع بها و يصرفون في جوارها اياماً وشهوراً يحملون عليها مقاصير للتغميز والتمسيد ، وأخرى للتعريق ، وغيرها للتبريد ، وفنادق فيها شروط المدنية الحديثة ، وحدائق وغابات تغرس بالقرب منها تحسن المناخ وتجمل المناظر الطبيعية .



﴿ نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة (١) ﴾

أقاليم الشام اولا — لا نقل حرارة غور الأردن عن مثلها في بعض البلاد العربية الحارة كالعراق ومصر . ففي احدى السنين كان معدل الحرارة السنوي في طبرية ٧٠/٢١ درجة وهو لا ينقص عن ٥/٢١ درجة وقد يبلغ اكثر من ٣٢ درجة لا سيما في مناطق الغور الجنوبية . ولما كانوا يحسبون معدل الحرارة السنوي في القاهرة ٥/٣١ درجة وفي بغداد ٨/٢٢ درجة كانت

(١) كتب هذا الفصل التالي صديقي الاستاذ الزراعي البحاثة الامير مصطفى الشهابي المخزومي .

حرارة الغور كافية لنمو كثير من الزروع والأشجار التي أغنت مصر وستغني العراق واعظمها شأناً القطن . و يفضل اقليم الغور اقاليم مصر والعراق في ان امطاره قلما ينقص ارتفاعها في السنة عن ٣٠٠ ميليمتر ولهذا يمكن زرع الحبوب الشتوية فيه عذياً ، على حين لا يستطاع ذلك في مصر وفي معظم العراق لقلة الامطار فيهما .

ثانياً — ليست سواحل الشام أنقص شأناً من الغور من الوجهة المذكورة فمعدل الحرارة في حيفا و يافا وبيروت قلما يقل عن ٢٠٫٥٠ درجة ولهذا يجود في الساحل كثير من النباتات التي تتطلب حرارة عظيمة كالقطن مثلاً لكنه لا بد من إسقائه في كلا الاقليمين .

اما السهول فني بعضها من الحرارة ما يكفي لنجاح القطن وهي التي لا تعلو كثيراً عن سطح البحر مثل مرج ابن عامر وسهل الغاب شمالي حماة وسهل العمق وادلب ، و يجب الري الا في ادلب والعمق . اما في السهول المرتفعة كالغوطة وحوران والبقاع فالقطن ينتج محصولاً متوسطاً الا انه لا يجد من الحرارة ما يكفي لتفتح كل ثماره . ولهذا قد لا يأتي زرعه فيها بفائدة من الوجهة الاقتصادية . ومن رأيي انه يجب ان لا يحل القطن مكان القنب في الغوطة مطلقاً . هذا ومن العبث البحث في زرع الأقطان في اقليم الجبال كسهل الزبداني وسفوح سنير وغيرها لان نصف ثماره لا يتفتح هنالك لقلة الحرارة . ومن العبث ايضاً البحث في تعميم زرعه في سهول البلقاء وحوران ووادي العجم وحمص وحماة وحلب الشرقية في البعل من الارض ، لقلة الأمطار السنوية واختلاف مجموعها بين سنة وأخرى ، وان نجحت زراعته بلاري في بعض قرى حوران كقرية الحراك في وادي الزيدي ، ضربت مثلاً بهما لانها مجتمع مياه أرضية وحالة كهذه لا تصلح للقياس .

ثالثاً — ليست مقادير الأمطار واحدة في مختلف مناطق الشام . فأغزرها في السواحل دائماً . فقد دلتنا قوائم رصد الجو في مرصد الجامعة الاميركية في بيروت على ان ارتفاع الأمطار السنوية فيها لا يقل عن ٧٠٠ ميليمتر في اكثر السنين وانه يبلغ ٩٠٠ ميليمتر احياناً وهو رقم كبير . وتثبت الإحصاآت التي لديّ ان ارتفاع الأمطار في حيفا و يافا يزيد على ٥٥٠ ميليمتراً في اكثر السنين . وهكذا في باقي

سواحل الشام ، وفي المناطق القريبة من الساحل · اما السهول الداخلية وهي أعظم المناطق شأناً وأغناها تربة وأوسعها مساحة ، فارتفاع أمطارها يختلف بين ٢٠٠ و٥٠٠ ميليمتر في السنين العادية · ولما كان ارتفاع المطر الضروري لتكوين محصول متوسط من الحبوب الشتوية لا يقل عن ٢٥٠ ميليمتراً اتضح ان منتوجات الحبوب في تلك السهول تختلف اختلافاً كبيراً من سنة الى أخرى ، تبعاً لمقادير المطر المنهمر ولتواريخ هطله في خلال السنة · وامطار غوطة دمشق قليلة ، فقد قستها بنفسي خلال عشر سنين متتابعة فرأيت انها لا يبلغ ارتفاعها ٢٥٠ ميليمتراً في اكثر هذه السنين ، وكان ارتفاعها دون مائتي ميليمتر في ثلاث سنين · فالغوطة إذن كالواحة كانت تكون صحراء لا تصلح للزرع ، لولا بردى والأعوج ومشتقاتهما التي قلبتها جنة ناضرة ·

رابعاً — لا يسقط الثلج في اقليم الغور ولا تهبط الحرارة الى الصفر · و يندر هبوطها الى الصفر في السواحل · اما في السهول الداخلية فلا تهبط لأوطأ من عشر درجات تحت الصفر في السنين الاعتيادية و يندر هبوطها الى هذا الحد · لكن لكل قاعدة شواذ ففي شتاء سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ وكانت سنة قرٍّ شديد هبطت الحرارة الى ١٥ درجة تحت الصفر في دمشق و٢٠ درجة تحت الصفر في سلمية · ودام الصقيع عدة ايام فأتلف الاسباناخ والملفوف والسلق والمقدونس والبقلة والحلبة والفول وغيرها من البقول كما أتلف براعم التين والرمان وأغصان الليمون والبرتقال وبعض ورق الزيتون · وباد كثير من الزهور والرياحين وأشجار التزيين كالمنثور والكافور والسنط والفلفل الكاذب والخروع والكزور ينا وغيرها · اما الحنطة والشعير والمشمش والتفاح والكمثرى والدراق والخوخ والصنوبر والسرو والازدارخت والصفصاف والزيزفون والورد فقد قاومت فلم يمسها الصقيع باذاه ·

وأضر مما ذكر هبوط درجة الحرارة الى ما تحت الصفر بضعة ايام في اوائل نيسان من سنة ١٩٢٥ فتلف اكثر من نصف محصول المشمش في الغوطة ، واسودت افنان الجوز ، و بادت نباتات الخيار والكوسى والبنادورى البكيرة ، فعاد الزراع الى بذر بذورها ثانيةً · ولقد ذكرتُ هذه الأحداث لان الطاعنين في السن من أرباب الفلاحة لم يروا شبيهاً لها منذ ثلاثين سنة ونيف ·

خامساً — وهي أهم ملحوظة بحثت عنها في (كتاب الاشجار والانجم المثمرة) فقلت انه ليس لبناء التربة في الشام كبير تأثير في إمكان غرس الشجر او عدمه في احدى المناطق ، بل العامل الاقوى هو الاقليم . وذلك ان الامطار تهطل في الشام خلال شهور معلومة ثم يعقب المطر يبوسة تدوم بضعة شهور . وتكون الرياح شديدة ، والحرارة زائدة ، في شهور اليبوسة ، ومهما كان ارتفاع المطر السنوي كبيراً حتى في سواحل الشام فكثير من أشجار الفاكهة لا يعيش بهناء عذياً ، بل لا بد من إسقائه كالبرتقال والليمون والتفاح والكمثرى والمشمش والخوخ . وليس السبب في ذلك قلة مجموع الامطار السنوية بل انحباسها منذ أواخر الربيع وطول فصل الصيف وأوائل الخريف . فأمطار باريز مثلاً لا تزيد في السنة على أمطار بيروت اوامطار طرابلس لكن المطر في باريز يهطل في كل شهورالسنة تقريباً فتنمو الأشجار المذكورة دون ري على العكس من حالتها في الشام .

ومن الشجر ما يعيش بلا اسقاء في جميع مناطق الشام الغربية كالزيتون والكرمة واللوز والتين والرمان والفستق والآس والزعرور والعناب . اما مناطقها الشرقية فمنها مايصلح دون ري للكرمة واللوز والزيتون كشرقي العاصي الى جبال الشومرية وكالجولان وحوران وجبل حوران وعجلون والبلقاء . ومنها ما أمطاره من القلة بحيث ان الاشجار عموماً لا تنجب فيه بلا ري ، كالغوطة والمرج وشرقي سنير (منطقة القريتين) وبادية الشام . وينمو الكرم واللوز بلا ري بعد ان يكبر في القرى الشرقية من منطقة سلمية والحمراء . اي ان المطر في تلك المنطقة وحالة المياه الأرضية هما بحيث لو سقي الكرم سنتين او ثلاثاً حتى تضرب جذوره في التراب ، لأمكن بعدها ان يعيش بلا ري .

واختلاف الأقاليم في الشام يجعل هذا القطر صالحاً لزرع زروع متنوعة، وغرس أشجار شتى ، فالغور والساحل للقطن والنخل والموز والقشطة والبرتقال والليمون والزيتون . والسهول للحبوب والزيتون واللوز والمشمش والخوخ والكرمة . والجبال للتفاح والكمثرى والكرز . وتقل البلاد التي تحوي كالشام أقاليم عديدة في مساحات ضيقة . وليس في العالم بلاد غيرها يستطيع فيها الانسان ان يصعد الى ارتفاع ٢٨٠٠

متر فوق سطح البحر بعد ان يكون في أعمق من مائتي متر من هذه السوية وذلك بقطع مسافة لا تزيد على ٦٥ كيلو متراً هذا شأن الذي يكون في البطيحة او التابعة على شواطيء بحيرة طبرية مثلاً و يريد الصعود الى قمة جبل الشيخ فهو يعتلي ثلاثة آلاف متر بقطع تلك المسافة الصغيرة ·

* * *

أتربة الشام

كثيراً ما نسمع ان الشام محض بلاد زراعية وان تربتها من أخصب الأتربة ، فما معنى ذلك وما هو مبلغه من الصحة ؟ اما كون الشام محض بلادزراعية فلأنها لا كبير منتوج فيها سوى منتوجات الارض فهي اذا لم تقس بغيرها تعدُّ بلاداً زراعيــة ذات شأن كبير · اما اذا قسناها ببعض البلاد الاوربية حيث الارض خضراء دائماً ، والحاصيل كبيرة بسبب كثرة الأمطار في كل فصول السنة ، او لو قايسنا بينها وبين بعض الأقطار التي فيها أنهار عظيمة تسقي بمياههــا ملايين من الهكتارات كمصر اليوم وعراق الغد ، إذن لوجدنا ان الشام ليس لها شأن عظيم حتى من وجهة الزراعة لانها ما برحت ولن تبرح بلاد حبوب شتوية كالحنطة والشعير تنتج بالقليل من المطر الذي يهطل فيهــا · اما الأشجار المثمرة والأقطان والخضر فمقامها في الدرجة الثانية لما تتطلبه من الري على حين لا تروي أنهار الشام مساحات واسعة على ما سيجيء ذكره · ونقول لمن جعلوا ديدنهم التنويه بان الشام من أعظم البلاد التي تنتج أقطاناً انهم مدفوعون الى دعايتهم هذه بعوامل سياسية ، لان القطن في الشام لا يمكن ان يكون له المقام الاول بين الزروع ما دامت معظم سهول هذا القطر لا تروى الا بما تجود به السماء من المطر القليل الذي يكاد لا يكفي لحياة الحنطة والشعير · و يجب ان لا يتخذ القطن الادلبي مثلاً لان صنفه من أردإ الاصناف ، ولأن منطقة ادلب وأشباهها ليست سوى جزء صغير من سهول الشام الواسعة الارجاء · وقولي هذا لا ينفي كون زرع القطن مفيداً اقتصادياً في كل مكان يستطيع ان ينجب فيه · فما تعنينا معرفته ان الأمكنة التي يستطيع ان ينجب فيها صغيرة اذا قيست بمجموع اراضي الشام الزراعية ·

ولئن لم تجعل الطبيعة للشام حظاً كبيراً من المطر والأنهار التي تستطيع ان

تروي مساحات واسعة ، فلقد جادت عليه بتربة من أجود الأتربة . اتضح لي ذلك بعد ان حللت بيدي عندما كنت تلميذاً وبعد ان بعثت للتحليل عندما كنت مديراً للزراعة في دمشق عشرات من نماذج الأتربة أخذت من مختلف مناطق الشام . وقد دونت نتائج التحليل في كتابي (الزراعة العملية الحديثة) و (الأشجار والأنجم المثمرة) وهاك خلاصة ما تجب معرفته :

اولاً — تراب أهم سهول الشام طيني كلسي (اكثر قرى حوران والغوطة وسهول سلمية وحمص وحماة و بساتين حارم الخ ...) وتراب بعضها طيني رملي (بعض قرى الغور والبقاع الخ) . وتراب بعض آخر رملي طيني (بعض قرى الساحل والسهول الشرقية القريبة من البادية) . ومن المعلوم ان بناء هذه الأنواع الثلاثة يعد جيداً لا سيما الاول منها .

اما من حيث غنى أتربة الشام بالعناصر الغذائية . فقد كشف لنا التحليل عن ان معظمها غني بالحامض الفصفوريك والبوطاس . اما الآزوت (نيتروجين) فمقداره كبير في بعض المناطق كالغور مثلاً ، وكاف في اكثرها ، وقليل في بعض المناطق التي أنهكها الزرع المتتابع دون مد الأرض بالسماد .

ويفيد ان أذكر للقراء بهذه العجالة كلمتين في الطبقات والأدوار الجيولوجية التي تنتسب اليها أهم المناطق الزراعية فأقول :

الارض البركانية : ان أتربة حوران وجبل حوران واللجاة والجولان والبطيحة وجبل المانع والصفا وغربي العاصي بين حمص وحماة الخ . هي ارض بركانية (بزالتية) متكونة من اندفاعات البراكين .

الارض الطباشيرية : هي أوسع الارضين في الشام واليها تنتسب معظم جبال لبنان وسنير وحرمون وعجلون والكرك والصلت وسهول البلقاء وجبل نابلس وتدمر الخ .

الاراضي المنسوبة للدور الثلاثي : منها معظم جبل العلا الواقع بين حماة وسلمية ، ومنها جنوب البقاع بدءاً من مجدل عنجر وسهل متسم حوالى حلب وسواحل فلسطين وقمة جبل قاسيون في دمشق مع امتداده نحو قرية القطيفة ، وقسم كبير

من قلون وقسم من الجبل الأبيض بالقرب من تدمر ، ومساحة واسعة حول شاطئ الفرات بعد الراسبات الرباعية الخ ٠

الاراضي المنسونة للدور الرباعي : في الشام كثير من الطبقات الاساسية سترت براسبات من الدور الرباعي واكثر ما تكون الرواسب في السهول كالبقاع والغوطة والمرج ومرج ابن عامر وسهل الرملة ولد وسهل عكار وعلى طول الفرات الخ ٠

* * *

حراج الشام } اذا رجع المرء الى كتب الاقدمين يرى انه كان للحراج في الشام شأن واي شأن ٠ وقد ذكر الاستاذ صاحب الخطط صفحات قيمة فيما انتاب غابات هذه البلاد من العبث والتخريب فلم يبق علي سوى البحث بايجاز اولاً في أهم أشجار هذه الحراج وثانياً في مواقع هذه الحراج على عهدنا هذا ، ومساحتها على وجه التقريب فأقول :

أشجار الحراج : اعظمها شأناً أشجار البلوط وهي على قسمين قسم يظل مكتسياً اوراقه في الشتاء وآخر تسقط اوراقه فيه ٠ فمن الاول (السنديان) (Quercus coccifera) والبلوط الأخضر (Quercus ilex) وهي اشجار صعبة المراس جبارة تعيش في الساحل وتعلو مع مختلف المناطق الى الف متر عن سطح البحر ٠ ومن الثاني الملول (Quercus lusitanica) والبلوط المسمى عفصاً (Quercus œgilops) ٠

ولأشجار الصنوبر شأن لا يفوقه سوى شأن البلوط ٠ وأهمها الصنوبر المثمر (Pinus pinea) وهو يشاهد في الساحل وفي المناطق التي لا يزيد علوها على الف متر عن سطح البحر ٠ ويغرس في لبنان (حمانا ، برمانا ، بيت مري ، بكفيا الخ) لان خشبه وثماره مرغوب فيها ٠ ويليه الصنوبر الحلبي (Pinus Halepensis) وهو الأكثر شيوعاً يعيش في كل الاقاليم الزراعية حتى في ارتفاع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر ٠ ومنه حراج ملتفة في عكار والضنية وقزل طاغ ويستخرج منه القطران ويستعمل في الدباغة ٠

ومن أشجار الفصيلة الصنوبرية التي تشاهد في غابات الشام السرو والتنوب

او الشوح (Abies cilicica) وهو يكثر في الجبال الشامخة حيث يختلط بالأرز ثم العرعر (Juniperus oxicedrus) والدفران (Juniperus drupacea) والأرز (Cedrus libani) وجميعها تعيش في الجبال العالية ·

وكثيراً ما يعثر المرء في غابات الشام على أشجار مثمرة برية مثل الكمثرى والزعرور والخوخ والسدر والزيتون والخروب وغيرها · كما يشاهد اشجاراً مختلفة كالبطم (Pistacia terebinthus) في البلعاس والدلب على شواطئ الأنهار واللبنة او الأبهر (Styrax officinalis) في لبنان ووادي التيم والعجرم (Rhamnus punctata) وهو مبذول والغار (Laurus nobilis) في غور الأردن الخ ·

مواقع الحراج : اذا سرنا اليوم من شمال الشام الى جنوبها نرى الغابات الآتية :

(ا) حراج السفح الممتد بين سلسلتي جبال اللكام مساحتها نحو ١٠٠٠٠ هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر مربع) وأهم أشجارها البلوط والصنوبر الحلبي ويليها الأبهر والأشجار المثمرة البرية · وفي منحدرات الجبال مثل هذه المساحة تقريباً مكسوة بالشجر لكن حالة شجرها سيئة ·

(ب) حراج كرد طاغ وتمتد من راجو الى الحمام ، ومساحة الشجر الملتف فيها الف هكتار تقريباً وأشجارها السنديان والصنوبر الحلبي · ويلحظ ان فأس المحتطبين لا تكف عن العمل بها · وان اضعاف هذه المساحة كانت فيما مضى حراجا جميلة ·

(ج) حراج رأس الخنزير (قزل طاغ) · أهم شجرها الصنوبر الحلبي وانواع البلوط · تبلغ مساحة ما تلتف أشجاره منها نحو ١٥٠٠٠ هكتار الا ان ضعفي هذه المساحة كانت غابات ملتفة فاذا هي اليوم جرداء او فيها أشجار حقيرة متفرقة · ويصنع القطران من صنوبر هذه الحراج في ارسوس وانطاكية ·

(د) حراج الاردو والبساير والبسيط : مساحة القسم المكتسي بالشجر اليوم ١٠٠٠٠ هكتار تقريباً · وأهم شجرها الصنوبر الحلبي وانواع البلوط ويليها الدلب فيما انخفض من الارض · ويجب الاحتفاظ بهذه الغابات من عيث الماشية · لان بعض اشجارها بدأت تتلف ·

(ه) حراج العمرانية : شجرها السنديان والملول وقليل من الصنوبر الحلبي ومساحتها ٢٠٠٠٠ هكتار تقريباً ، ويلاحظ ان اكثر أشجارها الباسقة قطعت الا في المواقع الكبيرة الانحدار التي يشق الوصول اليها ، فان أشجارها لاتزال باسقة . ومن المؤسف ان القطع لا يزال متواصلاً في هذه الحراج لنقل الحطب او لصنع الفحم ونقله الى حماة وحمص .

(و) حراج عكار والضنية : هي أجمل الغابات شمالي لبنان واهم شجرها السنديان والملول ويليها الصنوبر الحلبي والسرو والعرعر والأرز . ومساحتها ١٠٠٠٠ هكتار على وجه التقريب .

(ز) حراج الهرمل واهدن وتنورين : تبلغ مساحتها عموماً نحو ٥٠٠٠ هكتار .

(ح) حراج الصنوبر في لبنان : زرع اللبنانيون كثيراً من بزور الصنوبر المثمر (Pinus pinea) وغرسوا كثيراً من غراسه فتكوّن منها حراج جميلة تشاهد في كثير من قرى لبنان . اما حراج الأرز القديمة فقد اتت عليها ايدي الجهل وبعض بقاياها في الباروك .

(ط) حراج البلعاس : يقع جبل البلعاس على نحو خمسين كيلو متراً شرقي سلمية وفيه اشجار قديمة من البطم . تجولتُ في بعض مواقعه الغربية فوجدت كثيراً من أشجاره قد لعبت بها أيدي البدو والمحتطبين الذين يأتون بمركباتهم كل يوم من سلمية الى البلعاس فيقطعون الشجر ويبيعون الحطب في سلمية وحمص وحماة على بعد المسافة . وقد اكد لي بعض المواطنين من بدو وحضر وبعض الضباط الذين اخترقوا البلعاس مراراً ان مساحته تبلغ ٣٠٠٠٠ هكتار تقريباً ، وان الشجر متفرق في اكثر أقسامه لكنه يلتف في بعض المواقع .

(ي) حراج عجلون : هي من أوسع حراج الشام وأجملها . أشجارها السنديان والملول والصنوبر الحلبي وغيرها . وفيها مواضع أشجارها ملتفة وأخرى انهكها القطع .

هذه هي أهم غابات الشام وثمة غابات ومحتطبات لا كبير شأن لها اليوم لما لحقها من الأذى بسبب انكباب الانسان على قطعها او عيث الماشية بها ، مثل غابات بعلبك وسنير وجبل الشيخ والقنيطرة وصفد والناصرة والكرمل والصلت وغزة وغيرها .

ويجب ان نذكران الحكومة التركية كانت خلال الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) تأمر بقطع الشجر بلا روية لاستعماله بدلاً من الفحم الحجري الذي كان يعوزها حتى ان هذه الحكومة أتلفت خلال هذه السنين الاربع ما لم يُقدم جهال الشعب على اتلافه في بضعة قرون ٠

***

الري في الشام { يروى اليوم في الشام (عدا فلسطين وشرقي الأردن) مساحة تقدر بنحو ٧٧٠٠٠ هكتار على وجه التقريب وأهم المناطق التي تروى هي الغوطة والمرج اللذان يسقيان من بردى والفيجة والأعوج ومشتقاتهما ثم ومن قني موضعية ٠ وتقدر المساحة التي تروى من هذا السهل الواسع بنحو ٢٥٠٠٠ هكتار ويسقى في وادي العجم من نهر الأعوج نحو ٥٠٠٠ هكتار ٠ ويسقى في حمص بمياه القناة التي تشتق من بحيرة حمص بساتين واسعة ٠ وفي الزبداني سهل يبلغ ١٢٠٠ هكتار يروى من أنهار صغيرة وينابيع ٠ ويسقى في القنيطرة والزوية نحو ٢٠٠٠ هكتار لا سيا في البطيحة وشمالي بحيرة الحولة الى الشرق ٠ وفي حماة نواعير شهيرة لا يقل عددها اليوم عن ثمانين ناعورة تبدأ بين حمص وحماة وتمتد شمالاً الى العشارنة ونسقي نحو ١٥٠٠ هكتار ٠ وفي سلمية والقرى التي في تلك المنطقة قنوات عديدة قديمة داثرة أخذ الاكارون منذ بضع سنوات يكرونها ويعيدونها الى سالف عهدها ٠ وشجعتهم على هذا العمل عندما كنت مديراً للزراعة فمنحتهم بضعة آلاف من الليرات حتى صار يُسقى اليوم بمائها ما لا يقل عن الف هكتار ٠ وفي جيرود والنبك ويبرود وديرعطية والقرى المجاورة لها قنوات وينابيع تسقي ٢٥٠٠ هكتار تقريباً ٠

وفي جزء الشام الذي يسمونه اليوم لبنان الكبير نحو عشرة آلاف هكتار من الارض التي تروى أهمها ١٢٠٠ هكتار تقريباً فيها من شجر الليمون والبرتقال في طرابلس الشام ٠ ويتلوها بساتين واسعة حول بيروت وصيدا وصور ورأس العين والهرمل وبعلبك وبعض قرى البقاع الخ ٠

ومما يسقى شمالي الشام سهل عكار والبقيعة وحول اللاذقية وبعض اراضي العمق وأرباض انطاكية ومدينة حلب والاسكندرونة ٠

اما في جنوب الشام (فلسطين) فأعظم الأرض شأناً مايسقى شمالي بحيرة الحولة حيث النهر الحاصباني والبانيامي واللدان اي اصل الأردن ٠ ثم الغوير ومجدل طبرية ثم بيسان وما حولها مما يسقى من نهر الجالوت ثم سهل عكا ثم ضواحي مدينة يافا حيث يسقى نحو ٢٠٠٠ هكتار من شجر البرتقال والليمون بواسطة آبار ترفع مياهها بالمحركات ٠

هذه صورة صغيرة لأهم ما يسقى من الارض في الشام في ايامنا هذه ٠ ويجب ان لا ننهي هذا البحث قبل ذكر كلمتين فيما يستطاع اسقاؤه من الارض في المستقبل اذا وجد رأس المال الكافي للقيام باعمال عظيمة للري ٠ انني على اعتقاد بانه يمكن في المستقبل اسقاء ضعفي المساحة التي تسقي اليوم الى ثلاثة أضعافها ٠ والمناطق القابلة للري هي من الشمال الى الجنوب حول النهر الأسود عند مصبه وحول نهر عفرين وسهل العمق (نحو ٢٠٠٠٠٠ هكتار) وسهل الغاب الممتد شمالي قلعة شيزر (سيجر) (نحو ٦٠٠٠٠ هكتار) والسهل الواقع شرقي جسر الشغر ، والسهل الممتد بين صيدا وصور وحول بحيرة الحولة وارض واسعة في الغور بين بحيرة طبرية و بحيرة لوط الخ ٠

* * *

زروع الشام وأشجارها نذكر هنا بايجاز أهم ما يزرع في الشام من الحبوب والبقول والنباتات الصناعية ومايغرس من الشجر المثمر ، ثم ما ينبت لنفسه من النباتات الطبيعية المفيدة ٠

الحبوب : أهمها الحنطة فالشعير فالذرة الصفراء فالبيضاء فالأرز فذرة المكانس ٠

الحنطة : أعظم زروع الشام شأناً وأغزرها محصولاً وأعمها انتشاراً ٠ يقدر مانتج منها في سنة ٩٢٢ بـ ٣٤٥٫٨٠٠ طن (الطن اربعة قناطير) في الشام عدا فلسطين وشرقي الاردن وأشهر أصنافها الحورانية والبياضية والبيرودية والبقاعية والحمارية والنورسية وحنطة عين غرة والدوشانية والسلمونية والهيتية ٠ فالحورانية تعرف بساق متوسطة الطول وسنبلة غليظة كثيفة مربعة ذات سفا لونها الى سمرة وحب

سمين قاس الى حمرة . وهي أجود الأصناف وأعمها . تزرع في حوران ووادي العجم وفلسطين والبلقاء وحلب ، و بالإختصار في كل انحاء الشام على درجات متفاوتة . اما موطنها الأصلي فحوران . وللحنطة البياضية سنبلة بيضاء طويلة وبرة نصف فرقة ذات سفا ، وحب ابيض سمين مكسره نصف دقيقي . وهذا الصنف يزرع في الغوطة والمرج ودومة ووادي العجم خاصة .

وللقمح البيرودي ساق طويلة صلبة ثخينة نصف فارغة ، وسنبلة مستطيلة كثيفة ذات سفا ، وحبات ضاربة الى بياض مكسرها قرني . وهذا الصنف يزرع في دومة وقلمون .

وللحنطة البقاعية سنبلة دكناء الى سواد ، وحب الى سمرة وهي تزرع في البقاع . اما القمح الحماري فهو يزرع في حمص وحماة وما جاورهما . واما النورسي فيزرع في فلسطين وهو يعرف بسنبلة مستطيلة ذات سفا ، وحبات مستطيلة حنطية الى حمرة .

وقمح عين غزة اشهر الأنواع في الغوطة ، وله ساق طويلة فارغة ، وسنبلة سمراء متوسطة الكثافة ذات سفا الى سواد ، وحب سمين طحيني اللون . اما الدوشاني فله سنبلة فرقة طويلة لا سفا لها ، وحب ابيض ثخين ، وهو يزرع في البقاع وبعلبك وفي الغوطة على الندور . و يزرع السلموني في الأمكنة الجبلية و يعرف بسنبلة مستطيلة فرقة ذات سفا ، وحب مستطيل ذي مكسر دقيقي . والقمح الميتي من الأصناف التي تزرع في الكرك والبلقاء ، وسنبلته ذات سفا ، وحبه حنطي الى حمرة .

الشعير : هو في الشام اشهر الزروع بعد الحنطة واكثرها منتوجا ، وقد قدرت غلاته في سنة ١٩٢٢ بنحو ١٨٢٥٠٠ طن في الشام عدا فلسطين وعبر الأردن . وهو على صنفين العربي والرومي . فالعربي ساقه قصيرة فارغة وسنبلته على صفين وهي مستطيلة ذات سفا طويل . وحباته أقل غلظة من حبات الشعير الرومي . ينضج هذا الصنف قبل الصنف الرومي وهو أشهر منه ولا يتطلب مثله ارضاً غنية .

اما الشعير الرومي فسوقه غليظة فارغة يتخللها عقد ملآنة وسنبلته على ستة صفوف ، وهي متوسطة الطول كثيفة ذات سفا . يكثر هذا الصنف في الغوطة والمرج وهو يتطلب ارضاً غنية مسمدة .

وتزرع الذرة الصفراء في انحاء الشام في الأرض التي تسقي · اما الذرة البيضاء فتزرع عذياً في انحاء فلسطين وفي عجلون لا سيما في مرج ابن عامر · واما الأرز فيزرع في الحولة وهو قليل الشأن ·

ومن حبوب الفصيلة القرنية الشائعة في الشام ما تُعلفه الماشية كالبيقة والجلبان والكرسنة والحلبة · ومن الكلاء الفصفصة وهي ذائعة في الاماكن التي تسقى ·

البقول : لا تعيش اكثر الخضر والاباز ير بلا ري في أقاليم الشام كافةً · ولهذا يستدل من وجودها في ارض على كونها مما يمكن استاؤه · وأنواع الخضر التي تزرع كثيرة جداً وكلها تستهلك في البلاد ·

الزروع الصناعية : أشهرها القنب والقطن والسمسم · اما البواقي مثل الكتان والنيلة والحناء والخشخاش والخروع الخ فليست ذات بال في الشام · فالقنب يزرع في الغوطة وفي حلب ، لكنه في الغوطة أعظم شأناً ، اذ تقدر فيها مساحة الارض التي تزرع قنباً بنحو الف هكتار في كل سنة ، اما في حلب فقلما تزيد على مائتي هكتار · وزراعة القنب رابحة لاسباب شتى أهمها كون هذا النبات لا يتطلب عنايات غير التعطين بعد قلعه ، وكونه في مأمن من الأمراض والحشرات حتى ان الماشية لا تأكل ورقه · وقد أَلِف اقليم الغوطة الوسطى وصار من زروعها الاساسية التي لا يرجح عليها سوى اشجار الفواكه · ومن الغلط الفاحش ان يقوم بعضهم فيبحث في استبدال القطن به ، لان للقطن اقاليم غير اقليم الغوطة ، ولانه تصيبه عاهات لا تصيب القنب · هذا عدا العنايات التي تستلزمها زراعة القطن مما لا لزوم له في زرع القنب · والبحث في هذا الموضوع يملأ عدة صفحات فنكتفي بما ذكر ·

القطن : يمكن زرع القطن بلا ري في شمال الشام كمنطقة ادلب ودانة وريحا حيث قدر ما ينتج منه سنة ١٩٢٣ بنحو ١٣٠٠٠ بالة · وقد علمت انه نتج هنالك وفي باقي المناطق التي يزرع القطن فيها نحو ١٥٠٠٠ بالة في سنة ١٩٢٥ · ولكن للقطن الذي ينتج في البعل من ارض منطقة ادلب شعر غليظ مجعد وهو لا يصلح الا للمنسوجات الغليظة ، ولهذا لا يباع الا بنحو نصف ثمن القطن المصري عادة · اما الأقطان المصرية فلا تنجب الا في الأرض التي تسقي ·

ولقد ذكرت في بدء هذا المقال مافيه كفاية عن القطن ، ومن أراد استيعاب هذا الموضوع اي معرفة مايمكن ان يكون مبلغ الأقطان من المكانة في الشام فعليه بمراجعة مقالاتي في هذا الصدد في المجلدين ٦٤و٦٥ من مجلة المقتطف ·

السمسم : زرع السمسم شائع في فلسطين وعجلون ولا سيما في مرج ابن عامر حيث ينجب في الأرض البعل كالذرة البيضاء · و يزرع منه قليل في الغوطة ووادي العجم وهنالك يكون زرعاً مسقياً · والغاية من زرعه استخراج زيت الشيرج المعروف من بزوره وتتكوّن اثناء عصر هذه البزور مادة الطحينة المعلومة ·

المنتوجات الطبيعية : تنبت الطبيعة في بعض انحاء الشام نباتات طبيعية ذات مكانة اقتصادية مثل السوس والكمأة · فالسوس ينبت في سهل العمق وجسرالشغر حيث أجود عروقه ، ثم في انطاكية والباب ومنبج ودير الزور والسويدية وكلها في شمال الشام · وينبت ايضاً في الغوطة والمرج · ويقدر ما يقتلع من عروق السوس شمالي الشام بنحو عشرة آلاف طن في كل سنة ، وكلها تنقل الى اسكندرونة حيث تسحق وتشحن الى اميركا خاصة · اما في الغوطة والمرج فيقتلع نحو الف طن سنوياً وهي تشحن عن طريق حيفا · وفي شمال الشام شركة اميركية شهيرة لقلع عروق السوس وشحنها تسمى شركة (فور بس) · وفوائد عرق السوس عظيمة وهو يضاف الى عدد كبير من الأدوية · و يصنعون منه في دمشق شراباً سكرياً لذيذاً يزيد الادرار ·

وليس للكمأة مكانة السوس وهي لا تكثر الا في السنين الغزيرة الامطار · وتنبت في قلمون وجيرود وكثير من القرى الشرقية القريبة من البادية · و يختلف مقدار ما يرد منها الى المدن باختلاف السنين ·

* * *

الاشجار المثمرة { أسماها مكانةً الزيتون فالكرم فالبرتقال فالليمون والمشمش فالتين فالفستق فالجوز · اما باقي الاشجار فمقامها بعد مقام ماذكر وانواعها كثيرة مثل التفاح والكمثرى والخوخ واللوز والرمان والدراق والسفرجل والموز والنخل والآس والصبار والتوت والعناب والخروب الخ ·

الزيتون : أفضل الشجر وأعمه في مختلف مناطق الشام . وهو يكثر في جزين والمختارة والشويفات في لبنان الجنوبي ، وزغرتة والكورة في لبنان الشمالي ، وفي الغوطة والمرج ، وضواحي طرابلس وفي طرطوس وصافيتا وجبلة واللاذقية والباير وفي ارباض انطاكية ، وفي السويدية والقصير وكردطاغ ، ويقل حول حلب والباب وسلقين وادلب . وقد اشتهر في جنوب الشام زيت الرامة من قرى عكا كما اشتهر زيتون جبال نابلس والقدس وسهول لد والرملة . وينجب الزيتون في البعل من الارض ولا يسقى الا في الغوطة والمرج وفي القرى القريبة من البادية . واصنافه كثار أشهرها في دمشق الدان والأخضر (او المصعبي) والجلط والتفاحي . وأشهرها في لبنان الصوري والشامي والمصري والشتوي والعيروني وبيض الحمام والبلدي . وأعمها في اللاذقية الخضيري والطمراني وقلب الطير . وفي الاسكندرونة القرماني والخلخالي والرماني والتفاحي الخ .

فالدان أنفع الأصناف بدمشق وأغناها زيتاً (١٨ — ٢٠ في المئة) يستخرج الزيت منه وقلما يؤكل أخضر او مكبوساً . يبلغ طول ثمرته ٢٠ ميليمتراً وعرضها ١٣ ميليمتراً وهي تسود بعد ان تنضج . وشجرة الزيتون الأخضر او المصعبي كبيرة احد طرفيها حاد يبلغ طولها ٣٢ ميليمتراً وعرضها ٢٤ ميليمتراً ، وهي تقطف خضراء وتكبس ولا تعصر للحصول على زيتها . وثمرة الجلط كبيرة مستطيلة سوداء تشبه ثمرة البلح شكلاً طولها ٣٥ ميليمتراً وعرضها ٢٥ ميليمتراً وهذا الصنف اغلى الأصناف وأجودها مكبوساً وبندر عصره لاستخراج زيته منه .

الكرم : الكرم شائع في كل انحاء الشام ، وتقدر مساحته بنحو ستين الف هكتار (عدا فلسطين وشرقي الأردن) . وأوسع الكروم اليوم في الصلت ودومة وداريا بالقرب من دمشق وفي زحلة وبحمدون وحمص وتلبيسة بالقرب من حمص وفي حلب الخ . ولا تخلو قرية من قرى لبنان ووادي التيم وجبال النصيرية وقلمون من قليل من الكروم . وقد حملت زراع أملاك الدولة على غرسها في القرى الواقعة شرقي العاصي على مقربة من البادية مثل قرى الفحيلة والمنزول والسنكري وعقارب وجدوعة الخ . والكرمة تعيش في البعل من الارض ولم أر كروماً تسقى سوى التي

في الغوطة والمروج وفي منطقة سلمية · وتؤكل الأعناب اوتصنع زبيباً اودبساً اوخلاً اوعرقاً اونبيذاً · وللكرم في الشام أصناف عديدة ، أشهرها الزيني والبلدي والأحمر والأحمر الداراني والدربلي والحلواني والأسود في دمشق والغوطة ، والفضي والقاصوفي والشقبي والقمحاني والمريمي والخانقي وبيض الحمام والزحلاوي في وادي التيم والبقاع ، والجحافي والبياضي في سلمية · وعنب الشيخ واصبع الست في الاسكندرونة الخ ·

فالزيني قضبانه طوال سلامياتها متوسطة وعناقيده ضخمة نصف كثيفة وورقه كبار مشرحة بشقوق عميقة حافاتها مسننة وثمرته مستطيلة قشرتها بيضاء غليظة ولبها مائع · تؤكل ثمار هذا الصنف ولا يصنع منها زبيب او خمر وهي من أجود الاعناب ·

وعناقيد البلدي رَهلة وثمرته اسطوانية طويلة بيضاء الى خضرة ، ذات قشرة ملتصقة باللب ، اما اللب فهو لحمي قاسٍ لذيذ · وثمار هذا الصنف كالسابق تؤكل ولا يصنع منها شيء · وليس العنب الأحمر من الأعناب اللذيذة وبصنع منه زبيب ودبس وخمر وعرق · اما الأحمر الداراني فثمرته قليلة الحمرة مستديرة مع شيء من الاستطالة لبها نصف لحمي لذيذ وهي تؤكل و يصنع منها زبيب ومسكرات و يعادل ثمن هذا الصنف ثمن العنب الزيني ·

والفضي من أجود أعناب وادي التيم ثمرته مستديرة متوسطة الجرم قشرتها رقيقة صفراء ولبها يكاد يكون مائياً و بزورها متوسطة · اما القاصوفي فثمرته اسطوانية منتفخة قليلاً في وسطها نصف لحمية بيضاء الي خضرة وهي أصغر قليلاً من ثمرة العنب الزيني ·

البرتقال والليمون الحامض : ذكر علماء النبات ان بلاد هاتين الشجرتين الاصلية في شرق آسيا ، وان الفضل يعود على العرب في نقلها الى سواحل بحر الروم · وهما ينجبان في الغور وسواحل الشام ولا بد من إسقائهما · اما في مناطق السهول المرتفعة والجبال كالغوطة وحوران وحلب والزبداني مثلاً فان هبوط الحرارة في الشتاء الى بضع درجات تحت الصفر يودي بحياتهما ، ولهذا لا يزرعان في تلك المناطق الا في حدائق البيوت حيث يكونان بين جدران تقيهما تأثير الرياح الباردة فيهما ·

وأوسع بساتين البرتقال والليمون اليوم في يافا (نحو ٢٠٠٠ هكتار) ثم في

طرابلس (نحو ١٢٠٠ هكتار) و يليها منطقة الاسكندرونة (درت يول وبياس) وبيروت وصيدا وصور وعكا الخ ·

وأجود أصناف البرتقال اليافاوي (شموطي) ثمرته ضخمة بيضية ذات قشرة غليظة ولب قاس لذيذ ، لكنه قليل العصارة لاسيا بعد تمام نضجه · وهو ينقل بسهولة الى بلاد بعيدة مثل انكلترا حيث يرجح على كثير من الأصناف · ومما يستملح فيه سهولة تقشيره دون تلويث اليدين ·

ومن اكثر الأصناف انتشاراً البرتقال البلدي وهو ذو ثمرة كروية أصغر من ثمرة اليافاوي قشرتها رقيقة ولبها كثير العصارة · وهذا الصنف لا يصلح للاسفار مثل اليافاوي · ومن أصناف البرتقال الماوردي وهو يعرف بقشرة رقيقة حمراء ملتصقة باللب ولب احمر كثير العصارة · وهذا الصنف لا يألف الاسفار الطويلة وتقشيره صعب ·

كان يقدر محصول البرتقال في يافا في سنة ١٩١٤ اي في بدء الحرب الكبرى بنحو ١،٨٥٠،٠٠٠ صندوق ، اما بعد الحرب فقد هبط المحصول الى ١،٤٠٠،٠٠٠ صندوق تقريباً · وكان محصول طرابلس قبل الحرب ٨٠٠،٠٠٠ صندوق من البرتقال و ٢٤٠،٠٠٠ صندوق من الليمون الحامض على وجه التقريب (يحتوي الصندوق على ١٥٠ برتقالة او ٣٠٠ ليمونة) · اما بعد الحرب فهبطت هذه المقادير الى نصفها · ويشحن معظم محصول يافا الى انكلترا ومصر ، اما محصول طرابلس فالى اوديسا وبلغاريا والقسطنطينية ومصر · وكذا محاصيل صيدا والاسكندرونة ·

المشمش : يمكن غرس المشمش في جميع اقاليم الشام الزراعية وليس فيها ما لا يصلح له سوى منطقة الجبال العالية حيث يخشى على أزهاره وفراخه من تأثير الصقيع فيها في الربيع · وهو لا ينجب في غير الارض التي يمكن إسقاؤها · واعظم مغروساته واقعة في الغوطة والمرج ووادي العجم ووادي بردى وحول صيدا وبيروت وبعلبك وانطاكية وارسوس · ومنه قليل في كثير من البلدان التي يمكن فيها اسقاؤه · وأشهر أصنافه اليوم الحموي والبلدي والسندباني والوزري والعجمي والكلابي في دمشق ثم اللوزي في الساحل ·

فالحموي له ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبيــة لامعــة تذوب ـفي الفم وتهضم بسهولة وداخلهـا بزرة حلوة . وهي اجمل ثمار المشمش منظراً وألذها طعماً وأعطرها رائحة وأغلاها ثمناً تؤكل رخصة ولا يصنع منها قمر الدين . اما ثمار المشمش البلدي فكبيرة ضاربة الى حمرة ضمنها بزور حلوة وتجيء ـفي اللذة بعد الحموي ، تؤكل رخصة ويصنع منها الذ المفلقات (النقوع) . وتبلغ أشجار هذا الصنف عشرين ـفي المئة من مجموع شجر المشمش في الغوطة والمرج . اما الحموي فلا يزيد على خمسة ـفي المئة . والمشمش السندياني يشبه الحموي بشكل ثماره لكنه شتان بين الثمرتين في اللذة لان السندياني هو (تقليد الحموي) كما يقول الدمشقيون . ونسبة البلدي الى الوزري من هذه الوجهــة كنسبة السندياني الى الحموي . اما المشمش العجمي فثماره كبيرة جميلة المنظر صفراء الى خضرة لبها قاسٍ وطعمها سكري لكنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصي بل هو يشبه طعم الدراق ، ولهذا لا نستملح هذا الصنف وهو غير شائع . وثمار المشمش الكلابي أصغر الثمار حجماً وأردأها طعماً وهي صفراء الى حمرة محتوية على بزور مرة ، وهذا الصنف أشهر الأصناف ـفي الغوطتين اذ تبلغ نسبته نحو ٧٠ ـفي المئة من مجموع شجر المشمش ، ومنه يصنع قمر الدين المشهور . وهو يولد من بزوره ولا يطعم ، فهو إذن أقرب الأصناف الى المشمش البري . وثمرة المشمش اللوزي في الساحل شبيهة بثمرة الحموي بدمشق ولعلهما صنف واحد .

دمشق مركز تجارة المشمش وما يصنع منه ، ومنها يصدر قمرالدين والنقوع وبزر المشمش الى مصر والاناضول وحتى الى اميركة الشمالية ويقدر اليوم متوسط حاصلات المشمش ـفي بساتين الغوطة والمرج بنحو اثني عشر مليوناً من الكيلو غرامات سنوياً منها نحو ٨٠ في المئــة من المشمش الكلابي الذي يصنع منه قمرالدين ، ويظهر ان مستغلاته قبل الحرب الكبرى كانت أعظم منها اليوم .

الفستق : ان غابات البطم التي شاهدتها في البلعاس وبقية أشجار الفستق الهرمة التي زرتها في قرية عين التينة في جبل قلمون تجعلني ابت في ان الشــام هو من البلاد التي تعد بلاد الفستق الأصلية . وتكاد زراعة الفستق لا تتجـاوز اليوم حلب حيث تأتي أجود ثماره وألذها وأغلاها . ومن أصنافه في تلك المدينــة الابيض المراوحي

والعاشوري والعليمي والباتوري وناب الجمل والعينتابي ، ويقدر ما ينتج من ثماره حوالى حلب بنيف ومائة الف كيلو في السنة .

* * *

الحيوانات الدواجن في الشام | سنأتي في هذا البحث على ذكر خيل الشام وحُمُرها وبغالها وبقرها وضأنها ومعزها وابلها بايجاز تام وفقاً للخطة التي أخذنا على انفسنا العمل بها .

الخيل — خيل الشام على ثلاثة أصناف العراب او الاصيلة ، والبراذين او ما تعرف اليوم بالكدش ، والمولدة وهي التي تولد من أم عربية واب أعجمي او على العكس من ذلك . ففي الحالة الاولى يسمى المولّد هجيناً ، وفي الثانية مقرفاً .

تجلب الكدش من الاناضول خاصةً وهي بشعة المنظر اذا قيست بالخيل العراب ، ولذا فهي لا تركب بل تصلح لحمل الاثقال او جرها او درس الحصائد وعددها عظيم يبلغ نحو سبعين في المئة من مجموع خيل الشام . اما الخيل المولّدة فأجمل من البراذين وأقوى وهي تركب لكنها اكثر ما تستعمل في جر المركبات في المدن ونسبتها للمجموع نحو ٢٠ في المئة .

وأجمل الخيل في العالم هي العراب وتحليتها علمياً كما يلي : خيل مستقيمة الرأس (Rectilignes) متوسطة الجثة (Eumétriques) طول اعضائها متوسط (Médiolignes) لها رأس مربع وجبهة مسطحة ومقدم مستقيم ووجه متوسط الطول ، وفكان مبعدتان ومنخران جامدان ومرنان معاً ، وأذنان حساستان وعينان كبيرتان تنمان عن ذكاء ، وعنق رشيق شديد العضل ، وظهر مستقيم وردف أفقي مكتنز ، وعجزان مستديران وصدر واسع وبطن صغير ، وقوائم رشيقة قوية العضل عمودية لا عيب فيها ، وأوتار جلية ومفاصل عريضة ، وجلد رقيق مرن وشعر لامع قصير وعرف وسيب طويلان ناعمان متموجان . ومجموع الجواد العربي آية في انتظام تكوينه فهو جميل قوي شهم ، ولا ريب انه اكمل جواد على وجه الارض .

ويختلف لون الخيل العراب واستفاضت شهرة الشُّهْبِ والشُّقْرِ والكُمْتِ .

وأجملها بنظري الشهب المدنرة [1] اي التي يخالط الشهبة فيها نكتٌ سودٌ (ابيض مبقج او أزرق مبقج) ·

ولقد وزنت بضعة جياد عراب فكانت وزنها بين ٤٠٠ و ٤٥٠ كيلو غراماً وقست ارتفاعها فبلغ ١٫٤٢ الى ١٫٥٥ متر ودورة صدرها ١٫٧٢ الى ١٫٧٨ متر · ولا يجهل احد ان الخيل العربية تصلح للركب والسباق خاصةً وان من إسفاد ذكورها على إناث انكليزية غير كريمة منذ بضعة قرون تولدت الجياد الانكليزية الصافية السبّاقة الشهيرة التي يقصر اليوم عن إدراكها كل جواد في حلبة السباق ·

وأجمل الخيل العراب هو ما كان في دمشق وحمص وحماة ولدى بعض الأُسر والعشائر القديمة كالدنادشة في تل كلخ والموالي في شمال الشام · ولا تزيد نسبتها على عشرة في المائة من مجموع عدد الخيل لدى اهل الحضر من الشاميين ·

الحمير — في الشام ثلاثة عروق من الحمير الأسيوي والمصري والقبرسي او الاوربي · فالصنف الأسيوي هو الاشهر (تبلغ نسبته ٩٥ في المئة من مجموع حمر الشام) لونه الى سواد وارتفاعه متر الى متر وربع ، وهو حيوان الفقراء ، يصلح للركب والحمل ولا يوازيه حيوان بصبره وقناعته وفوائده الجمة اذا قيست بالعلف القليل الذي يُعلفه · اما الحمر المصرية فبيضاء اللون ارتفاعها اكبر من ارتفاع الحمر الأسيوية ولا تستخدم الا للركب وهي جميلة المنظر سباقة في نوعها وثمن الجيد منها غالٍ لا سيما في المدن · اما الحمر القبرسية فتعرف من كبر قدها اذ يبلغ ارتفاعها ١٫٣٠ الى ١٫٤٠ متر وهي تستعمل في سفاد إناث الخيل للحصول على بغالٍ عظيمة القد قوية البنية ·

البغال — تحصل من إسفاد الحمر القبرسية على البراذين (كدش) وهي ذات قدٍّ يقرب من قد البراذين فهي إذن صغيرة القد وفائدتها بقناعتها وقوتها وتحملها الاتعاب وقيامها باعمال تشق على كل حيوان غيرها · فهي تستخدم مثلاً في الحرث

(١) أنظر مقالاً في ألوان الخيل وشياتها نشرته في المجلد الخامس من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ·

بمحاريث حديثة لان بقر الشام صغير الجثة لايقوى على إثارة الارض بها . وتحمل اثقالاً في المناطق الجبلية الوعرة المسالك كوادي التيم والقرى الجبلية من اقليم البلان . وتجر المركبات الضخمة المحملة بضاعات ومؤناً على الطرقات المعبدة في لبنان وحتى بين دمشق وبيروت . ومن منا لم ير في لبنان وبيروت المركبات الشهيرة التي تسمى (كارات) يجرها اربعة بغال مصفوفة بعضها أمام بعض على سطر واحد . ولقد ترك الجيش الانكليزي في الشام عقب الحرب الكبرى عدداً عظيماً من البغال الكبيرة القد لا تبرح بقاياها في دمشق الى يومنا هذا . وهي تتطلب عنايات كثيرة وعلفاً زائداً ولا تحمل المشاق بقدر البغال الشامية .

البقر — بقر الشام من العرق الآسيوي القصير الرأس ذي الجبهة المستقيمة العريضة وهو على ثلاثة أصناف البلدي والعكش والجولاني (او الخميسي) فالبقر البلدي شائع في غوطة دمشق وفي ارجاء العاصي ويسميه الحمصيون البقر الحلبي والحمويون البقر الشامي وهو كبير طويل القامة (متر وربع الى متر ونصف) صلب العود قصير الرأس والقرون ناعم الجلد تغلب الشقرة على لونه وقد يكون كميتاً او الى سواد أحياناً . ووزنه ٣٠٠ — ٥٠٠ كيلو غرام وهو بالنظر الى كبر قده أقرب الاصناف الى البقر الاوربية ولذا يصلح للحرث حرثاً عميقاً عدا ان أنثاه اذا عُلفت علفاً غزيراً تحلب في الغوطة طول السنة تقريباً . ويُحسب انها تدر عندئذ ١٢ — ١٥ كيلو غراماً في اليوم خلال ستة أشهر عقب الوضع و ٨ — ١٠ كيلو غرامات في اليوم في الثلاثة الاشهر التي تليها ثم ٤ — ٥ كيلو غرامات في اليوم خلال شهرين آخرين . فيكون الوزن المتوسط لما تدره من اللبن في السنة ٢٥٠٠ — ٢٧٠٠ كيلو غرام .

ولا يألف البقر البلدي كل اقاليم الشام بل يتطلب اقليماً معتدلاً ورطباً ، ولهذا يندر ان تراه في غير البساتين وهو لا يقاوم الحر في سهول الشام التي لا ماء للري فيها كحوران والبلقاء وسهول حمص وحماة وغيرها . وعدده ليس عظيماً ولا يزيد على ١٠ او ١٢ في المائة من مجموع بقر الشام .

ويسمى البقر الجولاني باسماء مختلفة فيقال له الخميسي في النبك والزبداني والبزري

في حماة · و يغلب على الظن انه حصل من إسفاد الثور البلدي على البقرة العكش ولذا جاء قده ووزنه وتكوينه وطباعه بين بين · فان له رأساً قصيراً وجبهة عريضة وقرنين متجهين الى الأمام وثوباً أسود في الغالب وقد يكون أشقر أحياناً · اما طوله فنحو ١٫١٥ الى ١٫٣٠ متر واما وزنه فنحو ٢٥٠ كيلوغراماً · وهو يعد في العوامل وتعطي أنثاه قليلاً من اللبن · وليس له رقة البقر البلدي وهو اكثر منه تحملاً للحر والقُر والجوع والتعب · ونسبته للمجموع ١٥ في المئة تقريباً ·

وأشهر البقر اليوم هو الذي يدعى (البقر العكش) في اكثر انحاء الشام · و يسميه الحمويون (القليطي) والحمصيون (الاناضولي) · ولا تختلف تحليته من حيث تكوينه عما ذكر · وهو له جرم صغير حتى ان ارتفاعه لا يزيد على متر وعشرة سنتيمترات الى متر وربع ووزنه نحو ٢٠٠ كيلو غرام وقد يكون أقل من ذلك فهو إذن لا يصلح للحرث بمحاريث حديثة تغور في التراب كثيراً · ويغلب عليه اللون الاسود وقليلاً ما يكون أبرش او أشقر · ويحتمل هذا الصنف من البقر الجوع والتعب والحر واليبوسة ولهذا تبلغ نسبته نحو ٧٥ في المئة من مجموع بقر الشام · ودَرُّ أنثاه قليل و يسهل علفه وتسمينه بالغذاء ·

الضأن — ينتسب الضأن في الشام الى العرق الشامي او الآسيوي وهاك تحليته فنياً : رأسه طويل قليلاً وجبهته تكاد تكون مستقيمة ، وقرناه معقوفان متجهان الى الوراء ، وقد يتفرعان ، ووجهه مستطيل ، وعظام منخره طويلة ، ومنظر رأسه ووجهه ينمُّ عن احديداب قليل ، وذنبه عظيم فيه مقدار كبير من الدهن · ووزنه المتوسط نحو ٤٠ كيلوغراماً وطوله ٦٥ — ٧٥ سنتيمتراً · وهو يسمن بسهولة · اما مقدار الدَرّ في النعاج فمتوسط ·

وفي الشام أصناف للضأن أشهرها المسمى (عَوَاس) او ضأن الموصل وهو شائع في حمص وحماة والبقاع ودمشق ولبنان وغيرها من انحاء الشام · صوفه أبيض يبلغ كيلو غراماً ونصفاً الى كيلو غرامين وقد يزيد على ذلك · وينقص نحو نصفه اذا غسل · و يبلغ وزن إليته ٥ الى ٦ كيلو غرامات وطول الشعرة من صوفه ١٥ — ١٨ سنتيمتراً ·

وجميع ما ذكرته من الارقام هو الحد الأوسط وربّ كبش سمن في لبنان بورق التوت والكرمة فبلغ وزنه ضعفي ما ذكر ، وبلغ طول الشعرة من صوفه ٣٠ سنتيمتراً وزاد وزن إليته على ثمانية كيلو غرامات ، ورقّ صوفه ومرن ٠

ويرد الى الشام أصناف أخرى للضأن كالحمراء والبرازية والشقراء والنجدية ، ثم ضأن أرزنجان او المور في حلب وهو ذو صوف أحمر او الى سواد ٠ وتدر النعجة لبنها ٤ — ٥ اشهر فتعطي في اليوم نحو ٥٠٠ غرام ٠ لكنها اذا علفت كما في حمص والبقاع فقد تعطي ٧٥٠ غراماً الى كيلو غرام من الحليب في كل يوم ٠ واعلم ان جز الصوف يبدأ في آذار وينتهي في أيار في المناطق الباردة ، واكثر ما يكون في نيسان ٠ ويستعملون للجز مقصاً طويلاً معروفاً ٠

ويزيد عدد الضأن في الشام على مليوني رأس ، وتربيته شائعة لدى العشائر البدوية الضاربة شرقي الشام ومنها الجزيرة ٠ وقد اشتهرت عشيرة الحديديين بحسن تربية وانتخاب الكباش والنعاج الصالحة للسفاد ٠ واشتهر السمن الحديدي نسبة الى تلك العشيرة التي تقطن منطقة الحمراء ومعرة النعمان في الصيف ٠ وينقل في كل سنة قطعان عظيمة من الغنم من الروم والعراق الى الشام حيث يستهلك بعضها ويرسل الآخر الى مصر وجزر يونان وغيرها ٠

المعز — معز الشام من العرق الافريقي وتحت العرق النوبي (نسبة الى النوبة) وهي تعرف برأس طويل ووجه قصير على شكل مثلث قاعدته ضيقة ، وجبهته محدبة كثيراً ٠ وهي على صنفين البلدية والجبلية ، فالمعز البلدية يبلغ ارتفاعها ٧٠ — ٧٥ سنتيمتراً ووزنها ٣٠ — ٣٥ كيلو غراماً ، ولها ثوب احمر او احمر ملمع ببياض ٠ وقد تكون شهباء او سوداء احياناً وقد تجمع ثلاثة ألوان متفرقة بياض وحمرة وسواد ٠ واذا كان لونها أحمر وجبهتها بيضاء سميت صبحاء بدمشق ، اما اذا جمعت البياض والحمرة فتسمى عجمية ، وهي جمّاء في الغالب ٠ واذا نجمت لها قرون تظل صغيرة وكثيراً ما تقطع ، وتنمو لكل منها زنمتان طويلتان فتسمى الشاة قرطاء وهي شية حسنة تزيد ثمنها ، وأذناها طويلتان متدليتان وكثيراً ما ينيف طول واحدتهما على شبر ويقطعها الاكارون اذا أفرطتا في الطول ٠ والبلدية من أجود المعزى

الحلوبة فهي اذا صادفت عناية تدر في اليوم ليترين الى ثلاثة من الحليب مدة ستة أشهر وتدر نصف هذا المقدار تقريباً خلال شهرين آخرين • وهي ترعى في الغوطة العشب النامي حول القني ومجاري الماء وترعى ايضاً الفصفصة والبيقة الخضراء ، وكثيراً ما تعلف نحو كيلوغرام من حب الجلبان صباح كل يوم قبل تسريحها وهذا خاص بالحلوبة منها •

والماعز الجبلية تشبه البلدية بصفاتها الفنية لكنها أقصر منها ، ولها ثوب اكثر مايكون أسود ، وهي ليست دروراً بقدر البلدية • والمعزى الجبلية متعممة في كل انحاء الشام فلا تخلو منها قرية على العكس من البلدية التي تكاد لاتخرج عن المدن والمناطق التي يكثر فيها الكلأ في كل فصول السنة •

الإبل — إبل الشام من ذوات السنام الواحد • اما ذوات السنامين فتوجد في جبال فارس والاناضول وبلاد الكرد وتنقل اليها من آسيا الوسطى • ولما كانت تحتمل البرد والسير في المسالك الوعرة فقد فكر الشاميون في إسفاد فحولها على النوق الشامية فحصلوا على هجن لها سنام واحد كأمهاتها وذات جَلَد على السير في الجبال والاوعار كآبائها • وهذه الهجن شائعة في الجزيرة ولبنان وعجلون وغيرها وهي تعرف بقصر القامة وصغر الرأس •

والركائب من إبل الشام أصناف وأشهرها اليوم إبل الحرة لدى عشيرتي بني صخر والشرارات وغيرهما في البلقاء • وينتقي الجيش ركائبه من هذه الابل غالباً • ومنها الابل العُمانيات أصلها من عُمان وهي ذات رأس نحيف وقدّ أهيف ومزاج عصبي • وجيش الهند يبتاع منها ما يلزمه من الابل ، ومنها الابل التيهية أصلها من السودان وترد الى فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية من مصر • وقد كانت ابل الجيش الانكليزي من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى •

ويطلق الاوربيون كلمة (Méhari) على الابل السباقة عموماً او على عرق معلوم منها • وأظن ان هذا الاسم مشتق من الابل المَهْرِيّة المنسوبة الى مَهْرَة ابن حَيْدانَ وهي مشهورة بالسبق •

والبعير صديق البدوي الحميم ولولاه لزالت البداوة ، فهو يحمل الخيام والماء في المراحل الخالية من الماء ومؤناً تكفي لستة أشهر يقضيها البدوي مع عشيرته في صحراء

الشام . و يحمل البدوي نفسه وعيانه وسلاحه . وتحلب الناقة بعد الوضع في كل يوم خمسة ليترات الى عشرة في مدة سنة او اكثر ، وحليب النوق لذيذ ملين ، وليس لحم الجمل أردأ من لحم البقر الذي يأكله الاوربيون جميعاً ، ووبر الجمل ألين من صوف الضأن ومنه تصنع عباآت الوبر العراقية الشهيرة ، وتصنع من جلده قرب عظام منها ما يسع ٢٠٠ ليتر من الماء و يصنع ايضاً نعال قوية لا تفني من جلد ركبتيه وغيرهما من أعضائه التي تحتك بالارض بينما يكون الجمل جالساً .

***

الصناعات الزراعية في الشام } ليس في الشام اليوم معامل عظيمة للمصنوعات الزراعية كما في اوربا ، لكن لبعض هذه المصنوعات (وان كانت تصنع على الطرائق القديمة) شأناً كبيراً في حياة البلاد الاقتصادية . وأهم هذه المصنوعات قمرالدين والنقوع والزبيب والدبس والصابون والزيت والسمن والعرق والخمر والجبن والطحين والنشاء .

قمرالدين — يصنع أشهر قمرالدين في الغوطة والمرج وقليلاً في وادي العجم والزبداني وبعلبك وفي كل مكان فيه مقدار من شجر المشمش . و يلزم اربعة ارطال الى اربعة ونصف من المشمش للحصول على رطل من قمرالدين ، وهو يصنع من المشمش الكلابي و يندر صنعه من المشمش البلدي ، واشتهر منه بدمشق ما يرد من قريتي زملكا وعربيل من قرى الغوطة ، وليس صنعه امراً عسراً فالمشمش يسحق بالايدي في غربال موضوع فوق بناء يسمى تيغاراً مفروشة ارضه بالشمنتو ثم يغترف العصير بكيلة من خشب و يفرش بمهارة على لوح من خشب بعد ان يطلى اللوح بقليل من الزيت ، وبعدها يوضع اللوح في الشمس يوماً ونصف يوم فيجف العصير و يصير شرائح وزن كل منها رطل تقريباً وهي « لفات » قمرالدين المعلومة .

أعظم تجارة قمرالدين هي في خان الباشا بدمشق ، ومعظم قمر الدين الذي يصنع حوالى دمشق يشحن اليوم الى مصر وشمال الشام ، و يقدر ما يصنع منه سنوياً بنحو ٤٠٠٠٠ قنطار دمشقي وهو المقدار المتوسط ، (يساوي القنطار الدمشقي ٢٥٦ كيلوغراماً) .

النقوع — هي ثمار المشمش المجففة وتسمى بالعربية المُنْفأق ، تصنع من المشمش البلدي وذلك بان يوضع المشمش في الشمس على مسطاح من القش مدة اربعة ايام ، ثم تكبس الثمار بين الكفين وتترك يومين آخرين ، ثم ترقق أطرافها بالاصابع ثم تترك يومين او اكثر فتجف ، و يلزم خمسة أرطال من المشمش للحصول على رطل من النقوع ، تجارة النقوع شهيرة في خان الباشا ، و يدل إحصاء المكس في بيروت على انه صدر منها وحدها سنة ١٩١١ ميلادية ٦٨٠،٠٠٠ كيلوغرام من النقوع ومليون ونيف كيلوغرام من بزور المشمش وهي تصلح لاستخراج زيت منها .

الزبيب والدبس — أجود زبيب عرفناه في الشام ما يحصل من تزبيب العنب الدربلي في جيرود والرحيبة والريحان ودومة ، ويليه زبيب الصلت . ويصنع الزبيب في كل القرى التي فيها أعناب ، وليس في صنعه صعوبة ، فالعنب يغطس بماء فيه شيءٌ من القلي والزيت ثم يفرش على مسطاح مدة ثمانية ايام فيجف . ويحسب ان كل اربعة ارطال من العنب ينتج منها رطل من الزبيب . وللثمار المجففة في الشام شأن كبير في المستقبل اذا صحت العزيمة على الاعتناء بصفها وبقطها وشحنها الى البلاد الأجنبية كما يفعل الزراع حول مدينة ازمير بزبيبهم وتينهم المجفف .

ويصنع الدبس اما من الزبيب او العنب ، ففي الحالة الاولى يدرس الزبيب في المعصرة بمدرس من حجر حتى يصير كتلة لزجة ، ثم يوضع في قدور كبيرة ويغمر بالماء مدة ٢٤ ساعة ، ثم يؤخذ ماء الزبيب (جلاب او صليبة) و يوضع في مرجل وتضرم النار تحته حتى يتحصل الدبس . و يلزم مائة رطل من الزبيب للحصول على ٦٠ الى ٨٠ رطلاً من الدبس . واشتهر دباسو قرى معربا ودومة وعربيل بصنع دبس لذيذ يعطرونه بعطر الورد أحيانا .

الصابون — أشهر مصابن الشام في طرابلس ونابلس ودمشق وحلب وكلز ، و يبلغ المقدار المتوسط للصابون الذي يصنع سنوياً في الشام بنحو ١٣٠٠٠ طن . وصناعته على الاصول القديمة .

الزيت — أشهر الزيوت ما يصنع في معاصر لبنان وفلسطين وأشهرها جميعاً زيت الرامة وهي قرية قريبة من عكا ، اما في دمشق فقد اعتاد أرباب الزيتون

ان يتركوه مدة طويلة في المعصرة ، فيختمر و يتعفن و يحصل له طعم كريه ، حتى انه ليشق تصريفه خارج الشام • والداعي الى ذلك قلة المعاصر بدمشق وخصوصاً اعتقاد الزراع بانه بقدر ما تطول المدة بين قطف الزيتون وعصره تزداد نسبة الزيت المتحصل بالعصر • واعتقادهم هذا صحيح الا ان زيادة نسبة الزيت لا توازي هبوط سعره المنبعث عن رداءة طعمه •

ويتوقف استخراج الزيت على الأعمال الآتية : (اولاً) سحق الزيتون و يكون بواسطة اسطوانة من حجر يديرها بغل داخل وعاء مستدير من حجر • (ثانياً) كبس الزيتون المسحوق لتفريق الزيت عن التفل و يكون بمكبس عادي او مكبس مائي • (ثالثاً) تفريق الزيت عن الماء والعناصر الاجنبيـة المختلطة به وذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافي لانه يطفو على وجه العصير • اما التفل فهو يسحق و يكبس فيخرج منه زيت أسود يسميه الدمشقيون (زيت الجفت) يستعمل في صنع الصابون •

وفي الشام اليوم أكثر من ٤٠٠ مكبس منها نحو ٢٠٠ مكبس مائي ، و يستدل من عدد المكابس على عدد المعاصر ، واذا استثنينا فلسطين وشرقي الأردن فان متوسط مايستخرج من الزيت في باقي انحاء الشام يقدر بنحو ١٠٥٠٠ طن نصفها اليوم في لبنان •

السمن — هو المادة التي يطبخ بها الشاميون اكثر أغذيتهم على العكس من الفرنج فهم يطبخونها بالزبدة ولا يعرفون السمن ، و يصنع السمن بمخض اللبن في مماخض من جلد الغنم ، تعلق بحبلين يُشدان الى دعائم ، و يدوم المخض نحو ساعتين ونصف فيلتصق السمن بداخل المخضة و يقشط بعد تفريغ اللبن • و يقدر انه يحصل اربعـة أرطال من السمن من مائة رطل من اللبن • والسمن من صناعات البدو المختصة بهم ، وأجود السمون تلك التي تصنعها عشيرة الحديديين شمالي الشام بلبن الضأن •

العرق والخمر — العرق ألذّ المسكرات وأرجحها لدى الشاميين ، و يصنع منه ما لا يقل عن ١٥٠٠٠ هيكتوليتر في كل سنة في دمشق والنبك وحمص وزحلة وكثير من قرى فلسطين ولبنـان ووادي التيم • يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى اذا اختمر يضاف اليه الأنيسون بحيث يكون حظ كل مائة كيلوغرام من العصير ثلاثمائة غرام من الأنيسون ، وبعدها يقطر العرق بالانبيق فيكون مقداره ربع

العصير تقريباً ، واذا أريد الحصول على عرق نسبة الكحول فيه اكبر (عرق مثلث) يعمد الى العرق الاول فيضاف اليه مقدار من الأنيسون و يقطر منه عرق ثقيل ·

وليس شرب الخمر شائعاً في الشام شيوعه في اوربا حيث يقوم مقام الماء اثناء الطعام · واكبر المعامل لصنع الخمرة هو معمل ريشون في عيون قارة في فلسطين وهو معدود من اكبر معامل العالم ويشحن نبيذه الى مصر والعراق وحتى الى اوربا ولا يستهلك من نبيذه في الشام الا مقدار قليل ، و يليه معمل كسارة ومعمل شتورة في البقاع ·

النشاء — يصنع في الشام لاسيما في دمشق وحلب مقدار من النشاء لاستهلاكه في البلاد ، وقاعات النشاء في دمشق معروفة ، وهو يستخرج فيها من الحنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها · تنقع الحنطة في الماء نحو عشرة ايام ثم تسحق بحجر الرحى وتمرس بالماء بضع مرات حتى يخالط النشاء الماء وبعدها يترك المائع فيرسب النشاء في قعر الوعاء ، ويحسب ان القنطار من الحنطة يعطي ٦٥ — ٧٠ رطلاً من النشاء بهذه الطريقة ، اما الثفل فتعلفه الجمال ·

المطاحن — كانت كل مطاحن الشام الى عهد قريب عبارة عن احجار رحى يديرها الماء بقوة انحداره ، اما اليوم فيشاهد المرء عشرات من المطاحن البخارية في الاماكن التي لا ماء فيها عدا بضع مطاحن على آخر طراز من الفن اي ان ارحيتها اسطوانات تدار بالكهرباء وهي في دمشق وحيفا و يافا ·

الجبن والقشطة — تعزل القشطة عن الحليب فتؤكل وحدها وتضاف الى بعض الحلواء ، وتصنع جبنة لا لذة لها بالحليب الذي فرزت قشطته ، واشهر انواع الجبن المصنوع في الشام الأبيض والحالوم الحلبي ، وقد أخذ الشاميون يصنعون جبن البلقان المسمى قشقوان ولم يتوصلوا الى تخميره كما في بلاده الاصلية ، وجميع انواع الجبن المذكورة بعيدة عن ان تساوي أنواع الجبن الاوربية بلذتها وتعدد انواعها ·

* * *

زراعة الشام من الوجهتين المالية والاقتصادية } نذكر في هذا البحث أقسام الارض والضرائب الزراعية وطرائق استثمار الارض وإقراض الزراع ·

أقسام الارض — تقسم الارض في الشام من الوجهة القانونية الى خمسة اقسام وهي الارض المملوكة والاميرية والموقوفة والمتروكة والموات ، ولكل قسم من هذه الاقسام نظام خاص في دفع الضرائب الزراعية كما سيجيء ذكره .

فالارض المملوكة هي التي يملكها صاحبها ملكاً صحيحاً تاماً بحيث يستطيع وقفها وعدم زرعها مدة طويلة ، ومثالها الحدائق المتصلة بالبيوت وما يسمى الارض العشرية والخراجية (بعض بساتين محيطة بمدينة دمشق الخ) . والارض الاميرية هي التي يعود تملكها (رقبتها) لبيت المال ، وهو يخول الاهلين استثمارها اي حق التصرف بها بصك يسمى « سند التصرف » . ومعظم الارض في الشام من هذا القسم . وليس من فرق كبير في الامور الجوهرية بين المتصرف بالارض الأميرية وبين مالك الارض المملوكة ، لان الاول وان كان لا يملك الارض قانونياً فان له سلطة كافية في استثمارها وفراغها على حسب ارادته ، وهي تنتقل لورثته بعد وفاته ، لكنه لا يستطيع وقفها الا باذن وهو ان لم يستثمرها ثلاث سنين بلا عذر مقبول يضطر الى دفع قيمتها على شكل معلوم ، حتى اذا استنكف من الدفع عدت الارض محلولة ووجب بيعها بالمزاد العلني . وثمة فرق بين الارض المملوكة والارض الاميرية ، وهو ان للورثاء من الدرجة الواحدة حصصاً يتساوى فيها الذكر والانثى في الارض الاميرية ، اما في الارض المملوكة فللذكر مثل حظ الانثيين . ولا يسمح للمتصرف بالارض الاميرية ان يوصي بها بعد مماته وعلى العكس في رب الارض المملوكة . والارض الموقوفة هي التي حبست في سبيل البر وليس من شأننا البحث فيها . والارض المتروكة هي التي تركت للنفع العام كالطرقات والساحات والبيادر والمحتطبات ومراعي القرى . وهي لا يملكها احد بل تظل رقبتها لبيت المال والتصرف بها للمجموع . والارض الموات هي الارض البعيدة عن العمران التي لا يتصرف بها احد . والحكومة تعطي رخصاً باحياء الارض الموات فبالتصرف بها على شروط موضحة في قانون الارض .

* * *

الضرائب الزراعية } على الارض الاميرية في يومنا هذا نوعان من الضرائب ، ضريبة تابعة لقانون ٧ رمضان

سنة ١٢٧٤ هـ وقدرها ٤ في الالف من ثمن الارض ، وضريبة أعظم شأناً وأكبر تأثيراً في زراعة البلاد وهي العشر اي استيفاء عشرة في المائة من محاصيل الارض غير الصافية يضاف اليها اثنان ونصف باسم المعارف والمصرف الزراعي . اما الارض المملوكة (وهي كما قلنا قليلة في الشام الا في لبنان الصغير حيث كل الارض تعد مملوكة) فصاحبها لا يدفع العشر من غلاتها بل يدفع عشرة في الالف من ثمنها في كل سنة .

والعشر من مصائب هذه البلاد المزمنة لان ١٢٫٥٠ في المئة من المنتوجات غير الصافية هي نسبة كبيرة في ذاتها ، ولانه يصعب جداً تخمين الغلات على وجه الضبط لاخذ هذا المقدار منها . فقد حارت حكومات الشام في طريقة استيفاء العشر اوثمنه ولا تزال حائرة ، لانها اذا خمنت الغلات تخميناً فقد يضلّ المخمنون او يتعمدون الخطأ أحياناً فيُظلم الفلاحُ اذا جاء التخمين زائداً عن الحقيقة ، والا فيخسر بيت المال . واذا باعت العشر بالمزاودة العلنية من ملتزمين فهم لا يُقدمون على سوى قرى الفلاحين فيظلمونهم بطرق شتى دون ان يجسروا على المزاودة في عشر قرى الوجهاء ، فيكون الضرر مزدوجاً على الفلاح وعلى بيت المال معاً . وقد رأت الحكومة اخيراً ان تعمد الى معدل عُشر اربع سنين ماضية فتقره وتستوفي ضريبة محدودة مساوية له سواء زرع الفلاحون الارض او لم يزرعوها . وهذه الطريقة في استيفاء العشر وان كانت أصلح من الطريقتين السالفتين الا انها ليست عادلة اذا قلّ المطر في احدى المناطق بعض السنين هذا عدا ان أساسها فاسد ، لان متوسط عُشر سنين اربع في قرى الفلاحين يكون قريباً من العشر الحقيقي غالباً . اما في قرى الوجهاء فيكون أنقص لان الاعيان لا يدعون الحكومة تصل الى حقها كما بينا .

والخلاصة ان مسألة العشر في الشام من أعقد المسائل وكثيراً ما اقترح ارباب الفلاحة على الحكومة ان تمسح الارض كما في بلاد الفرنج (كاداسترو) وتضع على الارض وما تنتجه ضريبة واحدة لا تتبدل تخلصاً من العشر كما عليه العمل في ارض مصر . واري ان هذا الاقتراح في غير محله او هو مما يتعذر اتباعه في كل انحاء الشام على السواء . لان الامطار في الشام متفاوتة التهطال . فقد يهطل في سنة ثلاثة أضعاف ما يهطل في السنة التالية ، لا سيما في سهول الشام الشرقية ، ولهذا

يختلف محصول الارض اختلافاً عظيماً كل سنة. وقد تمحل منطقة واسعة في احدى السنين ولذلك لا يجوز ان يستوفى منها في تلك السنة ضريبة كالتي تستوفى في سني الخصب . اما اذا كانت الارض تسقى بماء نهر او قناة فعندها يمكن وضع ضريبة ثابتة عليها كما في الغوطة مثلاً .

***

طرائق استثمار الارض — اذا قلنا ان اكثر من ستين في المائة من سكان الشام يعملون في الفلاحة رأساً او بالواسطة فلا نكون مغالين في قولنا لان سكان المدن الكبيرة والمتوسطة وان كان عددهم يقرب من نصف مجموع السكان في الشام فكثير منهم لا عمل له غير الفلاحة . و يتصرف الشاميون اليوم بالارض على نسبة غير عادلة ، ومعنى هذا ان ارباب الوجاهة والثروة على قلتهم يتصرفون بمساحات واسعة جداً في كثير من المناطق ، بينا الفلاح يعمل في الارض دون ان يكون له في تملكها نصيب . ففي أطراف حماة مثلاً ١٢٤ قرية منها ثمانون في المائة لأرباب الوجاهة من عيال لا تتجاوز عدد الاصابع ، والباقي وهو عشرون في المائة يتصرف به الفلاحون ورجال الطبقة المتوسطة من الشعب . وفي أطراف حمص ١٧٦ قرية منها ثمانون في المائة للوجهاء دون غيرهم وعشرون في المائة مشاع بين هؤلاء الوجهاء والفلاحين الا بضع قرى لم تمتد اليها أيدي المتغلبين فلبثت للفلاحين وحدهم . وهكذا قل عن كثير من مناطق الشام كقرى معرة النعمان وغيرها في حلب . وليست الحالة كذلك في حوران حيث ترى ٩٥ في المائة من الارض موزعة بين سكانه على نسبة عادلة ، وكلهم أرباب فلاحة وكذا في جبل حوران وعجلون والبلقاء والكرك ووادي التيم واقليم البلان ، وما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة الا ويملك مساحات واسعة في الغوطة بل نصف الارض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الاخير يخص أرباب الوجاهة بدمشق .

و يفيد في هذا المقام ان اذكر كلمة عن الاملاك الواسعة التي تخص اليوم بيت المال والتي أدير شؤونها باسم حكومة الشام فأقول : كان السلطان عبد الحميد العثماني من أقدر السلاطين على تملك الأرضين وجمع الثروة ، فقد تملك لشخصه شرقيّ حمص

وسلمية نحو مليون هكتار من الارض تشتمل على جبل البلعاس والشومرية وتمتد الى مقربة من تدمر ، وعمّر فيها نحو مائة وعشرين قرية ومزرعة تستثمر نحو مائة الف هكتار . وتملك في انحاء حلب نحو ٥٠٠،٠٠٠ هكتار فيها اليوم ٥٦٧ قرية ومزرعة عامرة حوالى منبج والباب وعلى الشاطئ الغربي من الفرات من مصب الساجور الى مسكنة ويشمل معظم جبل الحاص ومساحات واسعة جنوبي حلب عند مصب نهر قويق . واقتنى ايضاً سبع قرى في حوران منها قرية المسمية كما اقتنى بيسان وبضع قرى بالقرب منها . وكان يوطد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة و يعفي الزراع المستأجرين من الجندية و يحميهم من تعدي أرباب الوجاهة و يسلفهم المال بلا ربا حتى عمرت تلك الانحاء بعد ان كانت منازل للعربان يعيثون فيها فساداً . ولما حصل الانقلاب الشهير في طرز الحكم العثماني سنة ١٩٠٨ اضطر السلطان المشار اليه الى التنازل عن هذه المعمورات الى بيت المال ، فأصبحت ملكاً له واصبح فلاحوها مستأجرين لدى المالك الجديد ، وهو بيت المال او الحكومة . و يدفع الفلاحون الى الحكومة عشرين في المائة من المستغلات في بعض الاماكن و ٢٢،٥٠ في المائة في أماكن أخرى (عشر واجرة ارض معاً) . وهم وان كانوا مستأجرين لايملكون الارض رسمياً فهم يتوارثونها كما لو كانوا مالكين لها والحكومة لا تُخرج فلاحاً من قريته الا اذا أتى عملاً منكراً من إحداث فتنة او التمادي على الإضرار بالناس . ولما كانت الحكومة تسلف هؤلاء الفلاحين اموالاً بلا ربا وكانت تستوفي من غلات الارض نسبة أقل منها في قرى الوجهاء ، رجحت حالة الفلاح في املاك الدولة من كل وجه على حالة الفلاح المسكين الذي يستعبده المتغلبون في قراهم . ومع هذا فقد اقترحتُ على الحكومة منذ نحو سنتين ان تبيع هذه الأملاك من الفلاحين نفسهم دون سواهم على ان يدفعوا الثمن أقساطاً خلال خمس عشرة سنة ، وعلى ان يضمن عدم مد المتغلبة أيديهم لهذه الارضين . وقد أقرت الحكومة البيع مبدئياً فاذا استطعتُ السير فيه بنجاح حسبتُ نفسي سعيداً لأني أعدُّ هذه المسألة من أفيد المسائل العمرانية والاقتصادية لبلاد الشام . فقد أثبتت لنا الايام انه لا يستطيع ان يزيد في غلات الارض سوى الذين يملكون فيها مساحات متوسطة او صغيرة .

ولنرجع الى طرق استثمار الارض المتبعة اليوم في الشام فنقول : اذا استثنينا الغوطة والمرج وبعض ارضين تسقى وما حوالى المدن من المزارع ، حيث يستغل بعض أرباب الزراعة ارضهم مباشرةً ويدفعون الى الفلاحين المشتغلين بها اجوراً مقطوعة سنوية او شهرية ، فان الارض في سائر انحاء الشام تستغل على طريق المزارعة بشرائط مختلفة (بالقسم) . ففي حمص وحماة يأخذ صاحب الارض ربع المحصول فيدفع منه العشر وتبقى الثلاثة الأرباع للفلاح . وفي هذه الحال يُلزم الفلاح بجميع النفقات والاعمال ، ولكن صاحب الارض قد يقرضه البذار بربا في الغالب على ان يستوفيها من البيدر . ويأخذ اصحاب الارض ربع المحاصيل في بعض قرى حوران ويدفعون منه العشر وضريبة الارض ويكون الباقي للفلاح لقاء النفقات والأتعاب . لكن الطريقة الشائعة في حوران هي ايجار الارض بمقدار معلوم من الحب كأن تؤجر (الربعة) بنحو ٥٠ — ٦٠ مداً من الحنطة ، ولما كان يزرع في الربعة ارض تستوعب ٥٠—٦٠ مداً من البذار ، فاذا أغل المد اربعة أمثاله او خمسة أمثاله تكون الاجرة التي استوفاها صاحب الارض معادلة لربع المحصول او خمسه .

وكلما كانت القرية في منطقة سكانها كثار وأرضها ضيقة ، يزداد المقدار الذي يستوفيه صاحب الارض من المحصول والعكس بالعكس . ففي البقاع مثلاً يأخذ صاحب الارض نصف المحصول ويؤدي العشر منه الى الحكومة . وفي الحولة حيث الارض تروي تكون حصة صاحب الارض ثلث المحصول ويكون عشر المحصول عليه . اما في الغوطة والمرج فحصة صاحب الارض الثلث لكنه لا يدفع الى الحكومة سوى عشر هذا الثلث ، وعلى الفلاح ان يدفع العشر عن ثلثيه .

هذه بعض طرائق استثمار الارض وتعود فيها جميع النفقات والأتعاب على الفلاح . اما اذا أحب صاحب الارض ان يكون رأس مال الاستثمار منه فالفلاح الذي يشتغل في ارضه يسمى (مرابعاً) وهو مطالب باعمال فدان من البقر (زرع نحو ثمانية هكتارات حبوباً وتجهيز مثلها للسنة القادمة) . ويأخذ ربع المحصول او خمسه بعد رفع العشر من المجموع في الغالب .

***

إقراض الزراع { يعوز الفلاحين في الشام النقود الكافية لاستثمار أرضهم على مقتضى قواعد الفن . وهم كثيراً

ما يستدينون المال من المرابين بفوائد فاحشة لا يبعد ان تبلغ ١٠٠ في المئة أحياناً . ولهذا ترى ان غلة أرضهم تكاد لاتكفيهم للانفاق على حاجياتهم الضرورية وقلما ترى فلاحًا في سعة . وكلهم يكدح طول السنة لتحصيل بُلغة من القوت . وسبب ذلك ضيق ذات يد الفلاح . فهو لا يستطيع ان يحرث الارض حرثاً عميقًا بابقاره الصغيرة المهزولة التي لا تُعلف غير التبن . ولا يستطيع ان يبتاع آلات زراعية حديثة او اسمدة معدنية . ويستحيل عليه ان يخزن محصوله بقصد بيعه عندما يغلو ثمنه ، لانه في حاجة دائمة الى المال . والسعيد من الفلاحين من لم يثقل الدين كاهله ومن كان مفلتاً من براثن المتغلبين والمرابين .

اتضح للحكومة العثمانية ان الأكارين وأصحاب الارض هم في حاجة كبيرة الى مصرف زراعي يقرضهم المال بفائدة محدودة الى مدة طويلة فأسست المصرف الزراعي وجمعت له رأس مال صغير بان أضافت الى العشر الذي تستوفيه من حاصلات الارض ٠،٥٠ في المئة من الريع باسم هذا المصرف ، وأوجدت له فروعًا في الأطراف وسنت له قانوناً محكماً بعد درس واختبار فأقبل الفلاحون عليه أيما إقبال . ولما كان رأس ماله قليلاً فقد لبثت فائدته محدودة ، فعسى ان تهتم الحكومة الحاضرة بتزييد رأس ماله وهو من أنفع أعمالها ولعلها لا تسمح لبراثن الأجنبي ان يناله أذاها .

***

الخلاصة { مهما كتب الكتاب ونقل المحدثون عن المعادن في الشام وغناها فقد دلني الإختبار على أثر تجولي في انحاء هذه البلاد

ودلتني أحاديثي مع بعض كبار المهندسين الجيولوجيين الذين لم يتركوا مكاناً يمكن ان يكون فيه معدن الا رحلوا اليه ، ان الشام فقير جداً بالمعادن المفيدة من الوجهة الاقتصادية . ومعناه ان عدد هذه المعادن وان كان عظيماً وكذا أنواعها فهي لا كبير فائدة منها أللهم إلا معدن الحمر في حاصبيا .

والبلاد التي ليس فيها معادن ذات شأن (لاسيما الفحم الحجري الخالص لا اللينيت)

لا يمكن ان يكون فيها صناعات كبيرة . ولهذا لا نرى في الشام الا صناعات يدوية كنسج الملبوسات الأهلية في دمشق وحمص وحماة وكالمصنوعات الخشبية والنحاسية وغيرها . فالشام إذن لا يمكن ان يكون له عظيم شأن في المعادن والصناعة ، وليس له اليوم شأن يذكر في التجارة لكن له مستقبل حسن في قضية الاتجار بالسيارات مع العراق وبلاد العجم عن طريق بادية الشام . وتستنتج من بحثنا عن الفلاحة ان لها في الشام شأناً غير شأن الصناعة والتجارة . فاذا أحصينا بالمكس مثلاً أنواع الاشياء الأهلية التي تصدر من الشام الى البلدان الأجنبية نجد ان أكثر من ٩٠ في المئة من هذه الصادرات هي غلات او مصنوعات زراعية نباتية او حيوانية . ثم اذا أمعنا النظر في أنواع واردات الحكومة في الشام نرى ان نحو ٥٠ في المئة منها هي واردات زراعية مثل عشر المستغلات والضريبة على الارض والماشية وواردات أملاك الدولة وواردات الخراج وغيرها . فزراعة القطر الشامي إذن وإن كانت لا تساوي زراعة البلاد الغزيرة الامطار او التي منحتها الطبيعة أنهاراً كبيرة فهي الركن الأعظم في حياة هذا القطر الاقتصادية . انتهى ما كتبه الصديق الامير مصطفى الشهابي .



الصناعات الشامية



مواد الصناعات } تتوقف الصناعات في بلد على وجود المواد الاولية فيه ، وكان ذلك في القديم أقوى عامل في قيام امر الصناعات ، والمواد الأولية في الشام على حصة موفورة لا ينقصها اليوم الا الفحم الحجري وبعض الأصباغ . وكانت الشام منذ عرف تاريخها مشهورة بصناعاتها لتوفر موادها المستخرجة من سطح أرضها وبطنها . وتسلسلت الثقافة بها تسلسلاً عجيباً في البيوت الصناعية ، وكانت الامة الخالفة تأخذ عن الامة السالفة هذه الثقافة والدربة على نحو ما يعلم الصناع ابناءهم . والصنائع كما قال ابن خلدون لا بدَّ فيها من العلم ، وانك لتجدها في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط ، فاذا تزايدت حضارتها ودعت امور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل ، وعلى رسوخ الحضارة وطول أمدها تكون جودة الصنائع في الامصار .

ان بلاداً هي معدن الحرير والصوف والوبر والمِرعِزّى والقطن والكتان والقنب يفيض عن حاجياتها وكمالياتها . وفيها الحديد والنحاس والقصدير وغيرها من المعادن ، وتجود في سهولها وجبالها الأخشاب على أنواعها ، وتكثر في ارجائها الحيوانات الداجنة والمفترسة ، وفيها المياه الدافقة والشلالات البديعة . ان بلاداً تحوي هذه الخيرات لا تحتاج الا الى أيدٍ صَناع لصنعها ، وعيون عُوِّدت النظر الى الجميل واقتباس

النافع منه ، ونفوس طبعت على حب التقليد والاحتذاء ، حتى تخرج ما به نفاخر ، وتعيش من عملها عيشاً غضاً نضراً ·

***

الغزل والحياكة والنساجة

كانت النساجة والحياكة والغزل راقية في معظم ما عرف من أدوار الارتقاء ، وقلما أخرجت الشام رُذالة المتاع ورديئه ، بل جيده ونفيسه ، وكان اهلها ولا يزالون يحسنون غسلها ونفشها ومشطها وحلجها وفتلها ومشقها وحياكتها ونسجها · واشتهر القطر منذ القديم ببزه وقماشه وديباجه وخزه وبروده · وكان للدباجين صناع الديباج والاكسية والمسوح صناعة رابحة ، والى اليوم لم يبرح حلاجو القطن ، ومنهم من يستعمل لها الآلات الافرنجية الحديثة ، ومنهم من اقتصر على القوس والنداف على الطريقة القديمة في الحلج والغزل في مغازل اولية تدار بالأيدي يخرجون بها كل ما يقوم بحاجة البلاد الا قليلاً ·

اخذت معظم المدن والبلدان حظها من هذه الصناعات ، فاشتهرت في غابر الدهر مدينة أعناك في حوران بأكسيتها الجيدة اشتهارها ببسطها ، وعرفت بعلبك بثيابها المنسوبة اليها من الاحرام والمشدّات وثوبها المعروف بالبعلبكي · وتأفقت شهرة الثياب البلعسية نسبة الى كورة البلعاس من عمل حمص على الأرجح · وعرفت منبج بالاكسية التي كانت تعمل فيها وتنسب اليها فيقال « الانبجاني » والانبجاني كساء صوف له خمل ولا عَلم له وهي من أدون الثياب · ومن ثيابهم الخميصة الشامية وهي بَرْنكانٌ أسودُ مُعلَّم من المرعزّى والصوف ونحوه او كساء أسود مربع له علمان ، وقد تكرر في الحديث الشريف ذكر الانبجاني والخميصة · والخميصة قد تكون من الحرير والبَرَنكان والبرّكان والبَرَنكاني الكساء الاسود وجمعه برانك ·

وكان يعمل في صفد من الثياب ما يقال له الصفدية · وتعمل الثياب الحفية نسبة لكورة الحفة غربي حلب · وكان لاهل رصافة هشام بن عبدالملك في غربي الرقة حذق في عمل الاكسية وكل رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف والنساء ينسجن · وكانت تعمل في الشام الاكسية المرنبانية قال ابن سيده : يقال كساء مرنباني ومؤرنب

فالمرنباني لانه لون الأرنب والمؤرنب ما قد خلط في غزله وبر الأرانب ، ويقال بل هو كالمرنباني . وكانت تصنع فيها القطيفة المخملة اي ذات الخمل وهي المخمل .

واشتهرت حمص بمصنوعاتها من أقمشة وفوط وغيرها وقيل ان حمص تتلو اسكندرية مصر فيما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع ، وحسن الأوضاع ، لولا قلة مائه ، وتحولة جسمه ، مع انه يبلغ الغاية في الثمن ، وان لم تلحق بالاسكندرية فانها تفوق صنعاء اليمن . وقال الادريسي في صور : انه يعمل فيها من الثياب البيض المحمولة الى الآفاق ، كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ، ثمين القيمة ، وقليلاً ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها . وكذلك حماة وطرابلس وحلب . ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة تبرع فيها ، وأهم ما كان منها في مدينة دمشق .

فقد ذكر الادريسي انها كانت في عصره جامعة لصنوف من المحاسن « وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمن العجيب الصنعة ، والعديم المثال ، الذي يحمل منها الى كل بلد ، ويتجهز به منها الى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها ، والمتباعدة عنها . ومصانعها في كل ذلك عجيبة ، تضاهي ديباجتها بديع ديباجة الروم ، وتقارب ثياب دستوا ، وتنافس أعمال اصبهان ، وتشف على اعمال طرز نيسابور ، من جليل ثياب الحرير المصمتة ، وبدائع ثياب تنيس ، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ، ومحاسن جمة ، فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال اه » .

وقيل ان اسم «الدمقس» مشتق من اسم مدينة دمشق . ونقل الشاميون الى الاندلس صنعة الأقمشة المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان من دمشق فنسبت اليها عندهم وقالوا في فعلها (Damasser) اي عمل ثياباً على النمط الدمشقي . قال البدري : ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش ، وهو النسج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ، ومنها عمل القماش الأطلس بكل جنسه وأنواعه ، ومنها عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه ، ومنها عمل القماش الهرمزي علي اختلاف أشكاله ، وتباين أوصاله ، ومنها عمل القماش الأبيض القطني .

وكان من أنواع الثياب في القديم ماأنسيناه وأنسينا أسماءه ومنها المنيّر والمعيّن والمسيّر والمفوف والمسهم والمعمد والمعرّج والمهلهل والمكعب والمطيّر والمخيّل · ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفائقة بوشيها وحسن طرازها ، عرفت هذه الصناعات باسم المدينة فيقال لها « الداماسكو » والداماسكو قماش غليظ برسوم جعلت في جسم القماش ويتفننون في ذلك تفنناً غريباً ويعملون كل ما يجمع الى المتانة الإبداع في الصناعة · قال ابن عربشاه : ان الحريريين في دمشق نسجوا لتيمور لنك قباء بالحرير والذهب ليس له درز فاذا هو شيء عجيب ·

ولما قام قائم الصنائع الافرنجية — وكانت صناعة الحرائر والطرائف تروج زمناً ثم تمحق وتكسد — واخترع احد صناع الانكليز نسيج التيت (اليمني) كاد يقضي على صناعاتنا هذه ، لولا رحل دمشقي اسمه عبد المجيد الأصفر من اهل هذه الصناعة ، فاخترع القماش المعروف بالديما فحال دون النساجة والبوار دفعة واحدة · ثم ان رجلاً اسمه الروماني من اهل دمشق ايضاً ، تفنن في المنسوجات الحريرية تفنناً عجيباً ، فلما مات كادت هذه الصناعة تموت معه ، وتغلبت المنسوجات الاوربية على منسوجات حلب وطرابلس وحماة وحمص ودمشق لرخص ثمنها ، وكثرة تفننهم في تلوينها ، وتغيير أشكالها وطرازها ، وان كان البلى يسرع اليها ، وعلى الرغم مما تقدم لم تنفك هذه الصناعة متماسكة أحوالها ، على ماأصاب البلاد من الأزمات الاقتصادية · و يزعمون ان ما يتعلق بها من الصنائع حتى تصلح وتصير أثواباً ، يقرب من سبعين صنعة · تصرف مصنوعاتها في الشام ومصر والجزيرة ، وكانت قبل الحرب العامة تصرف منها كميات وافرة في آسيا الصغرى والروم ايلي فلما وضعت في العهد الأخير الحواجز الجمركية في وجهها في تركيا عادت الى الكساد ·

ومع هذا لا يزال بعض اهل هذه الصناعة يصنعون الديما وأنواع الحرير والحبر والشال البديع والاعبئة الحريرية للنساء ، مايتفاخر سياح الافرنج باقتنائه في بيوتهم ، والناس أسرهم منه في السهريات وأوقات السمر ، على حين كان الناس هنا ولا سيما في المدن يزهدون فيها على متانتها وجمالها ، لانهم بلوا بداء التقليد يقبلونه على علاته ولو كان فيه بوارهم · وأهم معامل الحرير والقطن اليوم في المجدل من عمل غزة

وبيروت وبكفيا وزوق مكايل ودير القمر وبيت شباب والكفير وحمص وحماة وحلب وانطاكية ودمشق ، تعمل فيها الاعبئة والكوفيات والزنانير والملاآت والشراشف والديما والالاجة والنمارق والارائك والسجوف والشفوف واللحف والبرانس والطيالسة والميازر والبراقع والازر والجلابيب والقطائف (المخمل) ٠

ومن الصناعات[1] التي كانت الشام وما برحت تفتخر بها صناعة الشقق الحريرية والقطنية ، وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع٠ ولصناعه تفنن في نقشه وصبغه ، يدل على رسوخ قدم في الصناعة ، وذوق جميل فيها ، واشتهرت مدن الشام باتقان تلك الصناعة ، ومنها دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس ، وأشهرها المسماة بالمصرية والحامدية والحموية والحمصية والحلبية٠ وتفصيل تلك الشقق على الطراز العربي وهي قطنيها وحريريها على غاية من المتانة والجمال ٠ وكانت قديماً لباساً عاماً لاهالي البلاد فقيرهم وغنيهم رجالهم ونسائهم وقل المنفق منها الآن لاعتياد الناس اللباس الافرنجي ، ولا تزال مع هذا لباس اكثرية اهالي البلاد يعملون منها القفاطين (القنابيز) وتدر تلك الصناعة على اهالي البلاد أرباحاً وفيرة ، وتصدر الى الاناضول ومصر والحجاز والعراق ، ويعد تجار تلك الصناعة من الاغنياء غالباً ٠ ومن الصناعات الدقيقة الصنع ايضاً الشال القطني والحريري والزنانير والشملات ، وأتقنها ما عمل في طرابلس وبيروت وحلب ودمشق ، ومن صناعات الشام الكوفيات الحريرية على اختلاف ألوانها ووشيها بالقصب المفضي بنقوش ورسوم غاية في الإبداع بالصناعة وسلامة الذوق والمتانة ، وما فتئت هذه الصناعات الى الآن زاهرة رغم مزاحمة الاوربيين بكل ما عندهم من قوة تجارية وصناعية وتفنن عصري ٠

ومن الصناعات التي كانت من متممات اللباس لكنها ضعفت للغاية صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهي تنسج بالصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الحصور ،

---

(١) استرشدت في بعض الصناعات الحديثة برأي صديقي السيدين الفاضلين حسني العمري ومحمد شخاشيرو ٠

ولا تزال لباس الوطنيين الذين لم يتأوربوا اي لم يتشبهوا بالاوربيين فضعفت صناعتها. وقد أحدث السادة كسم وقباني معملاً لحياكة الحرير في دمشق ضاهيا به ما يصنع من نوعه في فرنسا ، وكذلك أحدث السادة توفيق وكامل وسعيد الكحالة معملاً لصنع قماش الكتان والشراشف ينافس مصنوعات اوربا ، وأحدث السيد انطون مزنر في دمشق معملاً لصنع الشال الحرير غاية الغايات انقاناً وجمالاً . وفي دمشق ثلاثون آلة لغسل الحرير على الطرز الحديث . ومما تمتاز به حماة عن سائر المدن الصناعية نسج المآزر للنساء مما يستعملنه في الحمام وتسمى المناشف ، وما تغطى به الفرش و يسمى الشراشف و ينسج بالكتان و يوشى بالحرير من كل الألوان وهو غاية الغايات في دقة الصنعة والمتانة يصدر الى كثير من جهات العالم . وتصنع حلب من هذه المآزر أنواعاً كانت تضاهي بها المآزر التي ترد من العجم الى ان بزتها وقامت مقامها .

ومن المنسوجات الرائجة ايضاً صناعة الاعبئة فهي من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها ومنها الخشنة التي يلبسها الفلاحون ، وحياكتها غاية في المتانة ولها الوف من الأنوال في دمشق وحمص وحلب وقرى القلمون ، وذلك لتوفر مادتها الاولية في البلاد ولانها لباس عامة الفلاحين ، و يوجد ايضاً الوف الأنوال في دمشق وقرية جرمانا وحمص وهي تصنع أعبئة من الصوف النحيف والوبر برسم الامراء والكبراء و يصدر منها الى خارج البلاد ولاسيما الى فارس و يبتاع الحجاج ايام الموسم من دمشق خاصة من تلك الاعبئة الوفاً وهي مشهورة بحسن صناعتها وعلى غاية المتانة ، مع انها من القماش النحيف الناعم ، ومما يدل على ذوق صناعها تفننهم في ألوانها على اختلاف ضروبها ، وفي دمشق وبيروت ولبنان وحمص وحلب من الأنوال لعمل الاعبئة من الحرير وهي على غاية الرواء والجمال والمتانة وفي النهاية من سلامة الذوق بوشيها وألوانها . وتصدر الى اوربا واميركا ومصر وايران . ومما يؤسف له الآن دخول الحرير النباتي الى البلاد الشامية وصنع العباءة منه مؤثرين له لرخص ثمنه مما يكون منه بعد بضع سنوات القضاء على صناعة العباءة الحريرية في بلاد الشام ان لم تتدارك بما يحفظ رواءها

واشتهرت حلب بالمناديل الحريرية والمقصبة المعروفة بالبوشية وفيها ٥٣ معملاً كما فيها ١٢٤ للخام و٢٤٧ لمنسوجات الغزل و١٥٩ للحرير و١١٧ للاغباني اوتقليد الزنار الهندي ، وصناعة الاغباني في دمشق رائجة كل الرواج وهي عبارة عن قطعة قماش مربعة طولها ذراعان في مثلها ، تعمل من الحرير الدقيق ، لونها أبيض واد كن ، و تطرز بألوان الحرير الجميلة ، وبأنواع الرسوم التي قد تعجز عنها ريشة المتفننين من المصورين ، وكانت تلك الصنعة مختصة اولاً بالهند تصدر منها الى أطراف العالم ، وكان قليل منها يطرز في حلب ويستعمل للعمائم فقط على قماش قطني وبعض الحرير . واما الآن فقد تناولتها أيدي جميع الشاميين الاذكياء واكثر من يصنعها النساء يطرزن منها أثواباً طول الثوب تسعة أذرع وعرضه ذراع واحد ، وتعمل منها القماطين ، وهي الألبسة الوطنية في الشام ، وفيه اليوم الوف من الآلات تصنع هذا النوع من القماش ، وتسمى القطعة منه اي ما طوله ذراعان وعرضه كذلك «سلك أغباني» وهو يستعمل في الشام غطاء للرأس اي كوفية ، وزناراً ، وملفاً للاولاد الرضع ، وعمامة ، و يصدر منه الى الخارج كميات وافرة ، وله تجار كثار إخصائيون في دمشق وحلب وبيروت وحماة وحمص وطرابلس وفلسطين وجميع المدن الصغيرة و يصدر الى الهند وفارس وتركيا والحجاز والعراق ومصر والسودان وبلاد الصين .

واشتهرت الشهباء بصناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب وأقمشة الجوخ المعمولة بالسيم والثياب المقصصة بالجوهر والزبرج اي الزينة من وشي وذهب و يقال لهذه الصناعة صنعة القصبجية والألتونية فهي ممتازة بعمل المقصي ومشورة بالزركشة والتطريز ، وعرفت زوق مكايل بصناعة الوشي وزركشة القصب والنسيج ايضاً ، واهتدى صناعها منذ سبعين سنة الى رسم الاشكال التي يريدونها على المنوال بالحوالك ، واصطنعوا من الاثاث والاكسية والطنافس مايأخذ بمجامع القلوب اتقاناً ، وعملوا نسائج هذا القز فأبدعوا فيه واظهروا الصور الشمسية على النسيج فجاءت كأنها لم تمس بيد ، صنعوا بها صور العظماء والملوك والامراء مجسمة ، فكانت من أنفس أعلاق القصور . وصناعة زركشة القصب هذه كانت راقية جداً في دمشق ، وصفها احد سياح القرن الحادي عشر بقوله : وبباب جيرون على يسار الخارج منه

حارة الذهبيين ، وهي اماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظاً اولاً ، ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقاً بعد خرق ، وكل ثان اضيق من قبله ، حتى تنتهي الى الرقة ، الى ان تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة ، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم للفضة اه . وسمى هذه الصناعة البدري « صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع » وكان القوم يغالون في لبس الاردية والاكسية والمعاطف والسراويلات التي تعمل من هذا القصب على الجوخ و يلبسه المترفون والعُرُس وارباب النعيم ، وبقاياها اليوم يلبسها الآذنون عند قناصل الدول والرؤساء الروحيين .

***

الدباغة وصناعات الجلود كان للدباغة شأن مهم في هذا القطر تعمل من الجلود الاحذية والسروج والمطارح والمقاعد والقرب والروايا والمحافظ والمطاهر والركوات والإداوات وما أشبهها ، وكانت اهم معامله في حلب وفيها اليوم ٤٠ مدبغة على الطريقة القديمة وفي حماة ودمشق وزحلة ومشغرة والخليل . وتدبغ جلود الثعلب وبنات آوى التي تصلح للفراء في جوار طرابلس وبيروت . و يقدرون عدد ما يدبغ من الجلود في الشام بمليون ومائتي الف جلد منها مليون من المعزى والغنم . وقد أنشأ في دمشق السيدان حسني وحسام الدين العمري معملاً لدبغ الجلود وعمل الشراك والشسوع للاحذية ، لجاءت مصنوعاتها كمصنوعات اوربا من كل وجه وزادت عليها رخص أثمانها ، فأصبحت تباع حتى في بلاد الغرب ، ومعظم معدات هذا المعمل الكبير من صنع صاحبيه في دمشق ولم يجلبا غير ادوات قليلة ، والصناع كلهم من ارباب هذه الصناعة القدماء ، وفي دمشق نحو ٣٠ دباغة على الطراز القديم ودباغات الخليل مشهورة واشهر منها صناعة القرب في تلك المدينة ، تعمل من جلد الماعز ، وهي صناعة خاصة بها منذ القرون الوسطى . وفي عكا معمل جيد للدباغة .

وصناعة الأحذية والسروج والكنابيش والبرادع والرباطات والرشمات من اهم

صناعات دمشق وحلب . وصناعة السروج من الصنائع المشتركة في الشام، ومما يعد في جملتها لوازم الحيوانات كالعذر والهمايين «الخراج» والبرادع «المراشح» ويعمل كل ذلك على غاية من الإتقان . ومن السروج مايصنع وجهه من الجوخ ، ويطرز أحسن تطريز بالحرير والقصب . والجلد الذي تعمل منه السروج هو غالباً من دباغة الشام .

ومن صناعة السروجيين ايضاً أحزمة الجلد ويسمونه « قشاطاً » وجعاب رصاص البنادق ويسمونها «جنـاداً» ، وارساناً للخيل ، وصناديق للسفر من الجلد وغير ذلك من الحاجيات المحلية ، و يصدر ذلك الى داخليـة البلاد فقط وهو يضاهي أعمال الاوربيين أنفسهم من ذلك النوع .

وتعمل الاحذية في جميع المدن والبلاد ومنهـا ما تستخدم فيه الجلود الافرنجية المعروفة بلمعانها ومتانتها وحذاؤو الشام مشهورون منذ القدم ، وأهل الرفاهية والبذخ اليوم يأتون باحذيتهم من الغرب جاهزة و خصوصاً النساء يرينها الطف شكلاً وأدق صنعة و يقبلن عليها وان كانت أغلى قيمة وأقل متانة مما يعمل هنا . ويلحق بصناعة الدباغة او القرظيــة صناعة عمل الأوتار من المصير والمري وهي نافقة يبعثون بها بعد تحضير قليل الى معامل الغرب فتعمل منها أوتار الأعواد والقيثارات وغيرها .

***

تربية دود الحرير

ومن أهم الصناعات تربية دود الحرير (الفيـالج او الشرانق) وهو عمل خاص باللبنـانيين كلهم و بسكان أرجاء انطاكية . وكانت مساحة الاراضي التي تغرس التوت الصالح لتربية دود الحرير واسعة اكثر من الآن في ارجائنا . فقد ثبت ان عمالتي وادي التيم والبقاع كانتا كلتاهما مغروستين بشجر التوت فقطع بايدي المخربين في حكومات القرن الماضي والذي قبله . واقتبس أصحاب تربية الدود في العهد الأخير طريقـة باستور في تربية دود القز فزادوه إتقاناً . وتصدر منه كميات وافرة الى معامل ليون في فرنسا وهناك يصلح الاصلاح المطلوب حتى يكون منه الحرير المعهود في نسج الثياب والطرائف . ومن تربية دود الحرير يعيش عشرات الالوف من الناس في هذه الديار . والغالب ان مناخ لبنان وانطاكية وما اليها وبعض الارجاء المعتدلة القريبة

من الساحل تصلح فقط لتربيته ومنذ القديم لم يحظ الحظ سائر الارجاء ان تشترك في صنعه . وقد أسس في الزبداني في العهد الأخير معمل لحل الحرير على الطرز الحديث وتصدر مصنوعاته الى ايطاليا وفرنسا .

***

النجارة

لم يكتف الصناع في منجوراتهم باخشاب الشام على كثرتها ، بل أخذوا يجلبونها من قلقية ورومانيا وغيرها ، ومنهم من يجلبونه من اميركا وهو الجوز الاميركاني . يعتمدون عليه وعلى خشب الحور والجوز والزيتون والشربين والتنوب والميس والعرعر والدردار ، وكان اعتمادهم يكثر في القديم على الصندل والصنوبر والسرو . وخشب السرو والصنوبر كما قال قسطا بن لوقا من أشرف الاشجار التي تستعمل أخشابها في البناء يتخذ منها مصاريع الأبواب والدعائم والسفن و يستعان بها في كثير من الامور .

ينشرون الخشب اليوم بمناشير ميكانيكية تدار بالبخار او بالكهرباء او بالطرق القديمة فيعمدون الى ايدي العملة في إحضارها ، يصنعون منها مناضد وأصونة للثياب واطارات ومقاعد وكرامي ومغاسل وصناديق وتوابيت ورحالاً والواحاً لدرس الغلة واعواد الطرب . وهذه الصناعة صناعة الأعواد قديمة جداً في دمشق ودخلت حلب منذ نحو خمسين سنة . وقد اشتهرت دمشق بصناديقها التي كانت تعمل من خشب الجوز وتبقى القرون لا تتشقق ولا يسرع اليها البلى ولا تتأكل ، وعليها من النقوش ما يدل على ذوق جميل . كما اشتهرت الى اليوم بمصنوعاتها الخشبية . وفي حلب معملان مهمان للنجارة بانواعها ، وكذلك مدينة بيروت فان معامل هاته المدن الثلاث كادت تستأثر بتجهيز الدور والقصور والفنادق ومنها ما لا تقل جودته عن أدق ما يعمل من نوعه في الغرب مع الرخص والجودة والمتانة .

وان ما يسمى بالحلقات في القصور والقاعات القديمة دليل كاف على رقي فن النجارة . فان القصر او القاعة يبلغ طوله على الاعتدال ستة امتار في مثلها عرضاً وارتفاعه ايضاً يتسامى الى الستة امتار ، فجهاتها الاربع وسقفها مما يشهد للمتقدمين من النجارين بسلامة الذوق واتقان الصنع ، و يباع منجور بعض هذه القصور اذا كانت

سليمة من الاوربيين باثمان باهظة ، وهو عبارة عن اخشاب فقط · وصناعة الدهان المدهون به ذلك الخشب هو من أبرع الصناعات يشهد بذلك من له اقل إلمام اوذوق من الناظرين في المحلات الخصوصية عدا ما كان من نوعه في المساجد وغيرها من المحال العامة وكله يشهد للمتقدمين من النجارين الشاميين بالبراعة والحذق وسلامة الذوق · والنجارون في الشام اليوم من أشهر نجاري العالم باعتنائهم بصنعتهم ، والنجار بطبيعته ينبغي له ان يكون ذكياً جداً ، لما يقتضي لصنعته من الإلمام بالهندسة والمساحة وضبط المقاييس والحساب وان يكون على جانب من سلامة الذوق في الوضع والصنع · فالنجار الذي يخلو من هذه الصفات لا يحق له ان يصير نجاراً · ان هذا النجار الشامي الموصوف آنفاً يعمل بيده وتدل عليه آثاره في البناء الخشبي في دور دمشق وحلب وغيرهما وما يسمونه الصلب وغيره من أبواب ونوافذ غاية في الاتقان · ومن صنع النجارين ايضاً قديماً الصناديق الخشبية ومنها ما هو مغشى بالصدف ومنه ما يسمونه بالحفر ، وهو على غاية الاتقان · ومنذ نحو عشرين سنة دخلت بيروت ودمشق آلات النجارة الحديثة التي تدار بالكهرباء فغدا مديرو المعامل يستطيعون ان يقاولوا على بنايات كبيرة لصنع ابوابها ونوافذها بغاية السرعة ·

وظهرت في البلاد صناعة جديدة على الطراز العربي تسمى صناعة (الموبيليا) اي فرش الدور وتنضيدها ويتناول اسم الموبيليا جميع انواع الخزائن والمعاسل والمقاعد الخشبية المغلفة بالقماش الحريري ولوازم غرف النوم وغرف الطعام وغرف الاستقبال ، وكل ذلك يصنع اليوم في الشام في جميع مدنها الكبرى كدمشق وحلب وطرابلس وبيروت ، وهي تضاهي المصنوعات الاوربية من هذا النوع جمالاً واتقاناً ومتانةً ، وتعد هذه المعامل بالمئات ، ومما يدل على الذكاء في الصناعة ان تلميذات المدارس الصغيرات يشتغلن اليوم من جملة الاشغال اليدوية على اختلاف انواعها واوضاعها ما تقر به العيون ويبشر بمستقبل مجيد · وقلما تجد واحدة من النساء الا وتجيد اكثر من صنعة يدوية ، وذلك مما يذهب بالأمية تدريجاً ، لان من لوازم الصناعة ان يشعر أبناء هذا الجيل بلزوم القراءة والكتابة لابنائهم وبناتهم ، فتتوارى الأمية في غيابة العدم ، وتظهر الشام بالمظهر المجيد اللائق بها ·

ومن الصناعات التي تمتاز بها دمشق خاصة ، صناعة خشبية تسمى اليوم بالمصري ، وهي بواقي خشب الجوز اليابس تفصل بحسب المطلوب وتصقل صقلاً تاماً ، ويرسم عليها بالقلم عروق غاية في الإبداع ، ويحفر على حسب رسم القلم ، وينزل به الغراء وفوقه الصدف . وتقسم قسمين فما كان دقيق الرسم يسمى بالمصري ، وما كان رسم عرقه ظاهراً كل الظهور يسمى في عرف الصناع اليوم بالعِرق . ويصنعون منه أنواعاً ، فمنها اليوم ما يسمى « بالجاردينيه » وهي أثاثة يوضع فيها تحف زهور صناعية ، بعرض مترين او ثلاثة أذرع ، ويجعل فوقها إطار من تلك الصناعة النفيسة طوله متران وعرضه متر . وفي داخل ذلك الإطار مرآة وبجانبه من الطرفين جناحان لطيفان لها رفوف توضع عليها التحف المنوعة ، وفوقها تاج على علو متر ايضاً . وكل ذلك محلىً بتلك الصناعة الصدفية يتخلله صباغ اسود قليل يزيد في لمعان الصدف .

ويصنع من تلك الصناعة أشكال وأنواع متعددة منها الأصونة خزائن الثياب ومنها ما يسمى بالعرف اليوم بالبيرو (مكتب) وهو عبارة عن اربعة دروج كبيرة فوقها درجان صغيران ويصنع منه إطار للمرآة ، وإطارات للصور ومناضد ، وجميع ما يصنع من الخشب البسيط . ومنذ ثلاثين او اربعين سنة كثر طلب هذا الصنف الى اوربا . ولكن الحكومة والبلدية لم تأخذا تلك الصناعة تحت رعايتهما فكثر الغش فيها ، وصارت الى البوار وانقطع عنها الطلب الى الخارج بتاتاً ، وهي لا تروج الآن الا في دمشق وضواحيها تقريباً ، ولو عُنيت البلدية بمراقبة صناعها ، وجعلت لهم رئيساً مسؤولاً لدرت تلك الصناعة على دمشق أرباحاً هائلة ولأصبحت اجرة الصانع يومياً نصف دينار وراجت في أقطار العالم أجمع لجمالها ودقة صنعها .

ومن أهم معامل النجارة والفرش معامل السيد الياس جرجي السيوفي في بيروت زرتها سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) ومما قلته فيها : (المقتبس م ٧ ص ٥٧) رأيت صورة مصغرة من صورة الغرب في بلاد الشرق ، وتمثل لي فضل الذكاء العربي ، وانه وان لم يفق الغربي فليس دونه ، وان يد أبنائنا صناع في الاعمال لا يفوقها ابن فرنسا وايطاليا وانكلترا والمانيا وسويسرا وبلجيكا الا بأن الافرنج يرجعون الى اساليب في العمل تنقصنا ، او تكاد في اكثر البلاد لا تجد لها أثراً

بيننا ، وهي ترجع الى اسباب رئيسة مهمة ، اولها الصبر على العمل ، وثانيها تجويد العمل ، وثالثها القدر اللازم للعمل من المال والمعرفة ، ورابعها الاقتصاد في الوقت والأيدي العاملة ، وخامسها تنشيط الاهلين والحكومات للمصنوعات الوطنية وحماية التجارة الداخلية بقوانين تنفذ على الصادر والوارد ، وسادسها وجود المواد الاولية التي يمكن بها الاستغناء عن البلاد الخارجية في الجملة .

دلت معامل السيوفي على ان الشرقي بمفرده أمة ، وان الامة بمجموعها ضعيفة ، بمعنى ان الشرقي يعمل مفرداً أحسن من عمله مجتمعاً ، وذلك لفقد التربية المشتركة بين المشارقة يرجعون اليها وتضم عراهم . فلو كان معمل الغزل في دمشق لفرد واحد منذ انشائه له خيره وعليه شره ، لما اضمحل هذا الاضمحلال الذي نراه عليه اليوم ، ولو كانت معامل السيوفي في بيروت لشركة لما رأينا فيها هذا النظام والنجاح ، وبذلك صح لنا اثبات ما قدمناه من ان الشرقي أمة بمفرده والأمة ضعيفة بمجموعها ، وان لا سبيل الى قيام الأعمال الكبرى في بلادنا وان نقدر لها النجاح المطلوب الا اذا اتحدت مناحينا وتعلمنا تعليماً وطنياً اقتصادياً واحداً .

على هضبة من هضاب بيروت الجميلة في حي الأشرفية ، في مكان بعيد عن مركز حركة هذا الثغر ، يطل على سفوح لبنان وبيروت وعلى البحر الرومي من أخرى ، قامت هذه المعامل البديعة في بقعة فسيحة من الارض تدخلها فتخال نفسك في احدى معامل الغرب الكبرى ، واول ما يبدأك بعد الدخول من الرتاج ساعتان عن اليمين والشمال بجانبهما صندوقان معلقان مقسومان الى بيوت صغيرة ، وفي كل بيت مقواة كتب عليها اسم احد العملة وطبعت عليها ساعات الغدو والغداء والرواح ، فمتى وصل العامل بعد الفجر وقبل الإشراق في الشتاء مثلاً يضع مقواته في بيتها ، فلا تلبث ان تكتب عليها ساعة مجيئه والدقيقة التي جاء فيها بحروف عربية ، وفي آخر اليوم او الاسبوع يرجع اليها مدير المعمل ، ويحسب المتأخر من المتقدم ، ويعدون ذلك بموجب نظام خاص لهم جروا فيه على مثال نظام العمال في سويسرا والبلجيك والنمسا والمانيا . ومن قوانين العملة في هذه الممالك اختار مؤسس المعمل احسن ما يلائم هذه البلاد وينفع في نجاح عملته ويعود عليه وعليهم بالربح واقتصاد الوقت .

وهذه الساعة من أنفع ما يجب استخدامه في معاملنا ومطابعنا ودواوين أعمالنا وبيوتنا التجارية والمالية ودوائرنا العسكرية والملكية ليتعلم قومنا مراعاة الوقت والتدقيق في حسابه حتى يبارك لهم بساعات العمل وايام الحياة ، ويتعلموا ان التدقيق في المواعيد احد دعائم التنظيم في فروع الاعمال ، ومن اهم اساليب النجاح الذي غفل عنه معظم سكان هذه الديار وعدوا من ينظم اوقاته و يدقق في وعوده واستقبال خاصته ومن لهم علاقة به في ساعات محدودة متكبراً او مهوساً .

يباكر العملة في معامل السيوفي في الصيف والشتاء والخريف والربيع على السواء و ينقطعون ساعة وقت الظهر ثم يعاودون العمل الى قبيل الغروب او الى بعده بقليل بحيث لا يتجاوز معدل ساعات العمل في اليوم تسعاً بخلاف عملة اوربا فانهم يعملون في بعض البلاد كبلجيكا مثلاً زهاء اثنتي عشرة ساعة لكن للمحيط وكثرة الأيدي العاملة والعادة والاقليم دخلاً كبيراً في هذا الاصطلاح . وفي معامل السيوفي اليوم ٢٨٠ عاملاً مع ان الادوات التي اقتناها صاحبها تشغل ضعفي هذا العدد فيستفيدون و يفيدون .

اكثر ما يعمل في هذه المعامل مخرورات الدور الخشبية وأنواع الفرش وأثاث البيوت ففيها تعمل كما تعمل في الغرب فتتأنق الأيدي والعيون في تجويدها وتساعدها الادوات التي تدار بالفحم الحجري وتبلغ نحو الستين آلة ومنها لقطع الخشب وصقله وحفره وثقوبه ونقشه وتنشيفه فترى خشب الجوز والزان من واردات الروم (الاناضول) والاكاجو من كوبا وشوح النمسا وسنديان اميركا والخشب البباسي من فلقية تعمل في تلك الأدوات وتحركها تلك المحركات والآلات كأنها العجين في يد خبازه او الملاط بيد البناء الحاذق .

قال لنا صاحب المعمل ان الآلة الكبرى المحركة في معمله هي بقوة مئة حصان تنفق في النهار ١٣ فرنكاً من الفحم وكانت الآلات التي هي أصغر منها تصرف من قبل اكثر من ذلك ، و بهذا يستدل ايضاً ان نفقات المعامل الكبيرة ادنى الى الاقتصاد واعمالها اقرب الى الجودة من مصنوعات المعامل الصغيرة لا سيما والمعامل الكبرى تتجلى فيها قاعدة تقسيم الاعمال فتجد العملة في معامل السيوفي مقسومين الى عدة أقسام

قسم الأدوات وقسم النجارة وقسم الحفر وقسم البرداخ ، وللمحل رسام خاص وكلهم من أبناء العرب ليس بينهم أفرنجي . وتختلف اجرة العامل في اليوم من ستين بارة الى ستين قرشاً ويحاسب عن اجرته كل يوم سبت من كل اسبوعين في الشتاء ويحاسب في الصيف كل سبت قبل الظهر ليتيسر له الخروج ان أحب الى الجبل يصرف ليل الاحد وليل الاثنين فيه للنزهة ، ويقضي على كل عامل ان يعمل ستة اشهر تحت التجربة اولاً ثم تحسم من مياومته اجرة اسبوعين تجعل في صندوق المحل حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من العمل كل يوم او كل اسبوع كما يفعل بعض العملة في المعامل ويتركون أصحابها معطلين . ومن جملة ما شهدته من النظام داخل المعمل قاعة كبرى وموائد يتناول عليها العملة طعام الظهر وآلة تضغط النشارة عندما توضع فيها وهي من اختراع احد العمال هنا وتاتي بها الى مكان بعيد خارج بناية المعمل ومن هناك يبتاعها ارباب القامين . ومما رأيته خارج المعمل من النظام رصف الطريق الموصلة اليه على نفقة صاحب المعمل وغرس بعض الأشجار على جانبيها و يبلغ طولها نحو كيلو مترين .

هذا ما رأيته في معامل السيوفي من النظام الذي لا أبالغ باني قلما رأيته في معمل يرأسه شرقي ، ولذلك يصفق لصاحبه لانه بدأ به صغيراً سنة ١٨٨٨ في مدينة بيروت وكبره في سنة ١٩٠٨ في حي الأشرفية على الصورة التي رأيناها اليوم ونفقة عمارته وأرضه وأدواته تساوي خمسة وعشرين الف ليرة ، ولكن لا يتيسر لمن معه مئة الف ليرة ان يقيم مثله بادواته ونظامه اذا لم تسبق له معرفة كمعرفة السيوفي ولم يقض سنين مثله في النجارة و يحيط بما جل وقلّ من أساليب العمل وتجويده . فليت كل أعمالنا تجري على هذا المثال من النظام البليغ والنجاح الاكيد اه .

ومما يصح ان يلحق بالنجارة صناعة تنزيل الخشب وتنزيل الصدف او خشب الليمون فيه ، وهذه الصناعة كانت رائجة جداً ثم عدمت وجدد شبابها صناع دمشق منذ نحو خمسين سنة حتى أصبح مايعمل منها مما يتنافس في اقتنائه . ونسبت هذه الصناعة لدمشق فيقال لها بالافرنجية (داماسكينه) .

***

القيانة والحدادة والنحاسة

كانت العرب تطرق المعادن في دمشق باتقان اكثر من اتقان الغرب على ماقال ميشو ، واشتهرت كثير من مدن الشام بهذه الصناعة منذ عرف تاريخ القيانة او القردحة اي صناعة عمل السلاح . وذلك لان الحديد كان يكثر في الجبال ولا سيما في لبنان وحلب . وقد اشتهرت في الجاهلية سيوف مشارف الشام في أقصى تخوم الجنوب ، وكانت تطبع بها السيوف وتنسب اليها فيقال السيوف المشرفية ، وكانت حاضرة المشارف مدينة مؤتة قال كثير :

اذا الناس ساموكم من الامر خطة　　لها خطة فيها السهام الممثل

ابى الله للشم الأنوف كأنهم　　صوارم يجلوها بمؤتة صيقل

والصيقل هو الذي يجلو السيوف . ونسبت السيوف الى دياف والى بصرى وكلتاهما في ارض حوران فيقولون السيوف البُصرية قال الحصين بن الحمام المرّي :

صفائح بُصرى أخلصتها قيونها　　ومطرداً من نسج داود محكما

والقيون جمع قين صانع السلاح . وسيوف دمشق لا تزال يفاخر بها لتفنن الصياقلة في صنعها ، وقد عرفت بصفاء مائها ، واخضرار لونها ، وإرهاف حدها ، ولطف فرندها ، وكانت تكتب عليها آيات وأشعار بماء الذهب ، وكذلك على الخناجر والرماح ، عرفها الصليبيون في القرون الوسطى ونسبوها الى دمشق وغدوا يفاخرون بتقلدها ولا مفاخرة العرب بالسيوف اليمانية والرماح السمهرية . وصناعة تنزيل الذهب على السيوف والخناجر والمدى والبنادق كانت من أهم الصناعات الدمشقية ويحسب أربابها من اهل اليسار ويعدون اليوم على الأصابع ولا يسع المنصف الا ان ينحني إعجاباً أمام جمال هذه الصناعة .

وقد نقل الفاتحون من العرب الى الاندلس صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت الى دمشق حتى اليوم فقيل لها بالافرنجيه (Damasquinage) او (Damasquinerie) اي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم (damasquiner) .

وكانت تعمل السيوف في زحلة والشوير ودومة من عمل لبنان وتعمل النبال الفائقة في عمتا من بلاد الغور . وكانت الدروع تسرّد بيد الدارعين والخوذ

والسابرية تصنع في دمشق خاصة . و يعمل من الحديد كل ما يلزم ذاك المجتمع من الطبر والحاجر والمرادن والمغازل والصنارات والأسياخ والعقافات والقيود والزرد والمباضع والمبازغ والمشارط والآنية ، يطرق كل ذلك في كيرة الحدادين وسنادانا تهم و يضرب بمطارقهم ، وكانت وافية بالغرض .

ومن اهم اعمال صناعة النحاس في دمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية اليوم في حي الخضيرية وكذلك الحلقتان اللتان على بابي المستشفى النوري وهو مدرسة الاناث اليوم . والاولى من القرن الثامن والحلقتان الاخريان من القرن السادس وهي آية الإبداع والمتانة وفي هذا البيمارستان أبواب من خشب من عصر صلاح الدين عليها مرايا المفاتيح على طرز الغرب اذ ذاك . وفي مستودع الجامع الأموي بقايا النحاس الذي كان على باب جيرون من أبواب الجامع تصور للمرء نموذجاً من إتقان النحاسين والحدادين اصاعتهم في القديم . وفي بعض مدارس حلب حلقات قديمة من هذا القبيل تدل على مبلغ صناعها من الحذق وفيها أبواب من الحديد صنعت لبعض البيوت والمدارس القديمة آية الجمال الصناعي . ومن صناعة الحديد امثلة كثيرة مثل ابواب بعض خانات دمشق كخان الحرير وخان اسعد باشا وخان الزيت وابواب التكية السليمانية وشبابيكها . وشبابيك المدارس والديارات والجوامع والكنائس القديمة وأبوابها ودرفاتها في دمشق وحلب والقدس والناصرة وبيت لحم ولبنان وغيرها وكلها تدل على ترقي الحدادة والنحاسة دلالة عظيمة . مثل ابواب القلاع كقلعة عكا وحصن الاكراد وغيرها . ولكثرة الحديد في ارباض حلب عمل كثير من ابواب حلب القديمة من الحديد .

وكذلك قل عن سائر صناعات الحديد والنحاس وكانت تعمل منها السرج والمصابيح والمواقد والشمعدانات والشبابك والكؤوس والصحاف والزهريات والمباخر والقماقم واوعية القهوة (الدلات) والالبان والطسوت والموائد والصواني والصحون والمصافي والمغارف والملاعق والقدور ، والقدر الشامية كانت مشهورة بكونها لا تنش والسطول والمساخن والهواوين والمدقات والمواسير والجرار والحقاق والأجراس والنعال والمسامير والمعاول والمساحي والمناجل والمطارق والاقفال والمفاتيح والمغالق والمناصب

والملاقط والسكاكين والمدى والمقال والمواسي والمبارد والقيود والجواشن والدروع والصنجات والجُرُز (العمد) والحسك والدرابزون والمناجيق والدبابات .

ومن الصناعات النفيسة صنعة الأجراس أجراس الكنائس فانها تصنع في بيت شباب ، واستأثر بهذه الصنعة لبنان من دون اقطار الشرق الأقرب ، وقد دخلت بلادنا مع الصليبيين على الاكثر ، وكانت البيع قبل ذلك تستعمل أجراساً من الخشب ، وما زالت هذه الصناعة محصورة ككثير من الصناعات في أسرة واحدة . ولما جاء حديد الغرب الرخيص السهل على التطريق كثرت أدوات الحديد وتفنن صناعه في صنعه ومنهم من عمد الى اتخاذ الادوات الحديثة كمعامل بيروت ، ومنهم من اعتمد على الطرق القديمة في تطريقه ، وكثير من الأدوات الزراعية كالفؤوس والقُدُم (جمع قدوم) والسكك الزراعية والمقاريض وادوات السيارات تعمل في في حلب ودمشق وبيروت والقدس وسائر المدن الشامية . ولا يزال الحدادون على تفننهم حتى يساووا معمولات الغرب . والحاجة ام الاختراع .

وقد قامت دمشق في الحرب العامة بصنع أعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالقدوم والمنشار والكلاّب واللولب والفأس والرفش والقدر والموكن والمرجل والدلو والبرميل وعجلة النقل والركوب ومحفة الجرحى والمرضى ، كنت اذا رأيتها تظنها لجمالها ومتانتها من صنع معامل الغرب . وقد جلب كثير مما يستعمل في هذه الصناعة من حلب ولبنان وبيروت ، ويستعمل فيها الحديد والنحاس والصفيح (التنك) . وتوفر الجيش التركي في تلك الايام على ملء الخراطيش وصنع القذائف والمدمرات واستجادة أحسنها طرازاً وافعلها في وقت الحاجة وإصلاح البنادق والمدافع ، مادل على ذكاء ابن هذه الديار اذا عُلّم التعليم العملي المنظم بنظام المعامل الغربية . ولقد صنع احد مهرة الصناعة مدة الحرب بندقية من الخشب أخف من الماوزر فنال استحسان اهل هذا الشأن في الدولة .

ويصح ان تلحق صناعة النحاسين والصفارين بالحدادة ، وكانت في القديم ذات شأن مهم ، ولم يبرح في المتاحف والبيوت القديمة في المدن والقرى نموذجات منه صبرت على مر الايام بحالها ، وما عمل منذ ستة او سبعة قرون كثير جداً ، والقديم

أقل منه ، وكان ما يصنع منه في دمشق يقال له الظاهري نسبة للملك الظاهر فيما زعموا ولا ندري اي ظاهر هو لانه كان من المنشطين لصناعته فنسب اليه تحبباً . وما فتئت هذه الصناعة رائجة تعمل من النحاس الثريات والمصابيح والفوانيس والتعاليق والجفان والكؤوس والمباخر والقماقم والصحاف والصواني والطسوت والاباريق والصنجات ، مصنوعة من النحاس الأصفر منقوشة في العهد الحديث حروفاً لا تقرأ لان صناعتها تعاورها أناس أميون على الاكثر ، وكان يطرز و يرقش في القديم بكل معنى جميل . وفي حلب ودمشق وزحلة و بسكنتا وبتغرين ودومة في لبنان مسابك حديد ، يقينون فيها الحديد قيناً جيداً ، والنحاس يعمل في كل بلد للآنية وأمتهانات البيوت ، واجله ما صنعه صنَعو الأيدي في دمشق وحلب . ومن أوسع معامل النحاس الأصفر معمل السادة النعسان في دمشق فقد تفنن بصنع الزهريات والكؤوس والثريات وغيرها والسياح يتنافسون في اقتنائه وكثير من أرباب الثراء في مصر واميركا واوربا يزينون ردهاتهم بقطع منه ولا يقل العاملون والعاملات فيه عن مائتي نفس .

وصناعة النحاس المنقوش من الصناعات القديمة في الشام وكل ما كانت تستعمله قديماً في بيوتها وحوانيتها هو من صنعها ، من صحاف كبيرة وصغيرة وبواطي على غاية من دقة الصنعة وجمال الوضع والقديم منها يباع الآن باثمان باهظة ، وبيع من مدة الى احد تجار الآثار القديمة صحنان من النحاس بسبعين ليرة عثمانية ذهباً و يشتري الاوربيون ذلك تقديراً للفن وخدمة للتاريخ ، وفي الشام معامل كثيرة لصنع النحاس المنقوش وله رواج عظيم وهو أنواع كثيرة منها ثريات للتعليق في قصور الملوك والعظماء تزين برسوم جميلة جداً ، ومنها ما ينار بالكهرباء ، ومنها ما ينار بالشموع وصحاف كبيرة وصغيرة وما يلزم للاستعمال والزينة في البيوت وهو أنواع كثيرة . والمعقول ان تدوم تصديرات هذه الأنواع وتزداد ، لما في نقوشها من الانقان ، ودقة الصنعة والاعتدال في الأثمان .

***

الزجاجة — من اهم الصناعات التي اختصت بها بلاد الشام من القديم الزجاجة صناعة الزجاج ، وعدها التعالبي من خصائص الشام

وقال انه يضرب به المثل في الرقة والصفاء فيقال « أرقُّ من زجاج الشام » وقال بعض الحكماء : ولترفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام ، الى ان تجد الفرصة فاما ان يضرب به الحجر فيفضه ، واما ان تضرب به الحجر فترضه ، وربما كانت تعمل من هذا الزجاج المناظير للعيون ، قال احمد بن محمد الدنيسري القاهري المتوفى سنة ٧٩٤ ٠

انى بعد الصبا شبابي وظهري   رُمي بعد اعتدال باعوجاج
كفى ان كان لي بصر حديد   وقد صارت عيوني من زجاج

وقد اشتهرت صور منذ القديم بزجاجها ، وكان الرمل الذي يعثر عليه في جوارها يزيد الزجاج بهجة ليست له في غيرها من البلاد ٠ وكانت معامل الزجاج في حلب وأرمناز مشهورة تصدر منه الى العراق ويتباهى به في قصور الخلفاء ٠ واشتهرت معامل الزجاج في عكا الى القرن الرابع عشر ، وعرفت دمشق بزجاجها كما اشتهرت الخليل فكانت الزجاجة من صناعاتها منذ القرون الوسطى ومشهورة بعمل المصابيح التي تعمل فيها اشتهارها باساور النساء ٠ وكان الزجاج معروفاً بالدمشقي يتخذ للزخرفة والزينة ومنه الاكواب والآنية على اختلاف ضروبها ، ويفهم مما وصفه به الشعراء مبلغ تفنن الزجاجين بزجاجهم ٠ واشتهرت الرقة بصنع الزجاج ٠ وفي دار التحف بدمشق مجموعة من الزجاج الملون المنقوش المرقوش ، وهي أثمن المجموعات التي عرفت حتى الآن من نوعها ٠ ومن أجمل النموذجات في هذه الطرائف البديعة ، ومنها الاكواب والأباريق والجامات والسكرجات والمضخات والاقداح والقوارير والكيزان والبواطي وكانت معاملها في دمشق وحلب والرصافة والخليل وصور وعكا على ما يظهر ٠ وقد انحطت هذه الصناعة حتى انحصرت في دمشق وارمناز والخليل باناس فقراء يعملون من الزجاج القناني والبواطي العادية فقط ٠ لان صنع الزجاج النفيس الذي تعلمه البنادقة من معاملنا في الحروب الصليبية وتلقنوه عن معامل صور وانتشر صنعه في أرجاء اوربا بعد ان كانوا يستبضعونه من بلادنا قد نافس هذه الصناعة فقضى عليها او كاد ٠ وكانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي في دمشق رآها الرحالة بوجيبوجي سنة ١٣٤٦ م وبعد ان كانت معامل عكا وصور مما يضرب بمصنوعاته المثل فقدت أسرار الجمال في هذه الصناعة ٠ وقبيل الحرب العامة (١٩٠٨)

أنشأ في دمشق السيد مسلم العمري معملاً لصنع الزجاج ، أنفق عليه عشرين الف ليرة عثمانية ذهباً ، وجرّب عمله بواسطة صناع غربيين فجاء كالزجاج الذي يجلب من الغرب ، ووافق الرمل الذي استعمل لكن المعمل لا يزال معطلاً ، وكانت الشركة الوطنية بنته على آخر طرز في شرقي المدينة ، ويظهر ان الشركة المساهمة متشاكسة بينها لان الشرقيين اعتادوا ان يعملوا فُرادى لا مجتمعين ٠

* * *

الدهان

ومن صنائع الشام الدهان ، وكانت مما تمتاز به بعلبك ٠ قال في مسالك الأبصار ، ويعمل في بعلبك الدهان العائق من الماعون وغيره ، ولكن دمشق وحلب وغيرهما من المدن حيث كان للرفاهية أسواق نافقة ، لم تكن دون بعلبك في هذه الصناعة ، فكان يدهن الخشب والحجر و يبقى بحاله القرون الطويلة ٠ ومن يدخل قاعة من قاعات دمشق وحلب مثلاً يرَ الالوان زاهية باهرة كأنها نقشت الآن ، وفي دمشق اليوم قاعات وأبهاء وأواوين مضى عليها زهاء مئتي سنة ولا تزال برونقها تدهشك كما يدهش الداخل الى متاحف الآثار المصرية من نقوش بيبان الملوك وبني حسن وسقارة وكتاباتها ورسومها ، وقد مضى عليها قرابة اربعة آلاف سنة ، على حين تنصل الألوان المستعملة لعهدنا وتكمد في سنين قليلة ٠

والسبب في نصول الدهان الجديد ، ومواده تأتي من الغرب منذ نحو خمسين سنة ، ان الدهانات القديمة كانت من صنع البلاد ترجع الى اصل ثابت و يحافظ عليها من المطر والشمس لان الأقدمين لم يكونوا يعنون بفتح الطيقان والنوافذ وتوسيع الابواب مثل المحدثين ولذلك صبرت الأصباغ على الايام ، زد الى ذلك عنايتهم في تخير الأخشاب واكثرها من الدف الرومي او الجوز او السرو وهذه مما يصعب تطرق التشقق والبلى اليه كالكريش والشوح الذي يجلب من الخارج وفيه مواد قطرانية او غيرها وكانت لهم في دمشق صناعة من الدهان تعمل من الحفر والتنزيل و يقال لها الأبلق وهي ان يرسم الدهان الحجر بما يريد من الأشكال والنقوش و يحفرها النقاش والحفار ثم يدفعها الى الدهان فيدهنها بصب الاصباغ في الشقوق التي يريدها ثم تجلى وتصقل فيجيء صبغها كأنه من اصل الحجر ثابتاً براقاً ، ولا يعمل منه شيء اليوم ٠

وفي دمشق أسرة عرفت بأسرة الدهان ورئيسها اليوم السيد درويش واخوه محمد ونوري وأولادهم اختصت بصناعة الدهان الذي يقال العجمي كما اختصت بصنع هذا الأبلق . وتصنع هذه الأسرة مناضد وخزائن واسكملات بهذا الدهان المعروف بالعجمي من النوع المقرنص تكون آية الإبداع وحسن الذوق تباع في قصور العظماء ويُتنافس في اقتنائها وتبقى السنين الطويلة زاهية زاهرة . وقد دهنت عدة قاعات فجاءت آية الإبداع . وذكر الغزي ان احد شبان حلب تعلم في اميركا صناعة الدهان على الاصول الحديثة فجاء عمله غاية في الرونق والاتقان ، والمنتظر تعميم هذه الصنعة على هذا المنوال مع مراعاة المعرفة القديمة فيها .

هذا في دهان الغرف والابهاء والقاعات . واما صبغ الثياب والحرير والقطن والغزل والعهن ، فكان الاعتماد فيها على أصباغ لهم جميلة يعرفونها ، ربما كان اكثرها من تركيبهم او من معادن البلاد وأجزائها . وكان للصباغ الدمشقي صيت بعيد في الاقطار ، لثبوت ألوانه ولطافة لمعانه ، وكانت أصباغه معدنية ونباتية لا غشّ فيها فلما تغلبت الأصباغ الغربية بطل استعمال القديم منها بل نُسي امره واعتيض عنه بالجديد . وجودة الأصباغ القديمة كانت السر في اشتهار الديباج الدمشقي قديماً حتى أوشكت لطافته ان تجري مجرى المثل . وفي حلب اليوم نحو ٣٠ مصبغة بالنيل و٥٦ مصبغة للغزل والحرير وفي دمشق مثلها ونحوها وكذلك في كل بلد بحسب حجمه وأرباضه .

وكان من أصباغهم الاصفران اي الزعفران والورس ، والبرفير او الفرفير وهو الأرجوان (أحمر وأزرق) وكان ولم يزل للنيل الذي يخرج من الحولة او يؤتى به من الهند ، شأن في صبغ ثياب العملة والفلاحين . وانحطت هذه الصناعة تبعاً لانحطاط اكثر الصناعات ، لما جاءت الاصباغ الالمانية الحديثة حتى ان بعض معامل أقمشة الحرير ترسل اليوم حريرها الى الغرب ليصبغ ويعاد الى البلاد ، فتعمل منه الشقق والثياب وتوشى على ما يشاؤون ، والوشي في الثوب كالرقش في القرطاس والنقش في الحائط ، ويحاولون ان تكون ألوانها ثابتة لا تنصل .

* * *

الفخارة والقيشاني

وصناعة الفخارين اشتهرت بها الشام ايضاً وكان في صور الخزافون المبدعون في الأعصر القديمة ، وكذلك في كفرطاب ، وكانت تعمل فيها قدور الخزف وتجلب الى غيرها ومنها نموذجات لطيفة حفظت في داري الآثار في دمشق وبيروت ، وكان ولا يزال يعمل من الخزف القلل والخوابي والاجانات والدوارق وأصاصي الزهور وغيرها ، يصنع ذلك في حلب ودمشق وطرابلس وبيت شباب وصيدا وبيروت وغزة وعيتا وراشيا (ويقال لهاتين البلدتين عيتا الفخار وراشيا الفخار) وصناعة الفخار على كثرة منافسة الخزف الغربي لها لا تزال متماسكة ، لانه لا يتيسر جلب كل شيء من الخارج . وأجمل الخزف اليوم ما عمل في حلب من الصيني الجميل .

ومن الصناعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر بلاد الشام على ما علمنا ، صناعة القيشاني التي دثرت من هذه البلاد وكانت مورد ربح لها ، وعنوان فخر ومباهاة . ترصف بها الجدران والمحاريب والفساقي والسلسبيلات والباذهنجات والقباب والزهريات والقلل وغير ذلك . وكان يصنع على ما يظهر من الرمل الأبيض والجبس يجبلان معاً و يفرغان في قوالب على الشكل المطلوب ، وتكتب على سطوحها آيات وأحاديث اوأشعار ، اوترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة ، و يذر عليها مسحوق الزجاج ، او تطلى به ممدوداً بسائل غروي ، وتشوى في تنور معدّ لذلك ، فيسيل الزجاج و يكسوها قشرة رقيقة تقيها من الغوائل والمؤثرات زمناً طو يلاً ، وتظهر النقوش والكتابات زاهية بالوانها الطبيعية . وفي سلسبيل جامع الدرويشية بدمشق نموذج منه أرخ بسنة ٩٨٢ ، وقطعة أخرى كانت على قبر لطفي باشا أرخت بسنة ٩٩٨ وهي محفوظة بدار الآثار بدمشق وقد كتبت عليها الآية الكريمة « كل شيء هالك الاوجهه له الحكم واليه ترجعون » بخط تعليق مشرق وفي أعلاها رحمة المولى عليه كل حين . ولا تزال في بعض الجوامع والمدارس من هذا القيشاني العجيب نموذجات تأخذ بالابصار .

ومن أجمل النماذج من القيشاني بدمشق عمودان منه على طول متر في محراب

جامع التبان في المناخلية جوار باب الفرج ، ومنه نموذج كثير و يظن انه حديث في تربة جامع المرادية ، وفي مدخل السويقة في مدرسة اقوش النجيبي كتبت عليه آية الكرسي بالقيشاني البديع . وفي تكيتي السلطان سليمان وسليم وقبر في زقاق القرشي بالميدان كتب عليه هذا قبر الجنينين الطفلين يونس وفرج محفوظ في ادارة الاوقاف ، والقيشاني في جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد وفي مدفن بلال الحبشي الصحابي ١٤٦ قطعة من القيشاني المعمول في كوتاهية .

ولا يعلم تاريخ اندراس هذه الصناعة ، والمشهور انها كانت خاصة باهل بيت يتوارثون صنعها خلفاً عن سلف ، فدثروا ودثرت معهم منذ اكثر من قرنين . اخبرني احد أساطين العلم انه رأى القيشاني في جامع الدرويشية بدمشق مصبوباً على الاحجار طبقة لطيفة وهو في غاية الحسن . و يظهر ان المادة القيشانية كانت تمدّ على الحجر كما تصنع صفائح وألواحاً . وقد قام في العهد الاخير في كثير من المدن أناس لعمل الخزف الملوّن لتبليط البيوت دعوه بالقيشاني وهو لا يشبه القيشاني الا بالاسم فقط .

***

الوراقة فقدت الشام عدة صناعات كانت ممتازة بها ، وتمد في جملة موارد عيشها ، ومنها الوِراقة صناعة عمل الورق . فقد كانت هذه الصناعة من الصناعات التي تعدها من حاجياتها . وكانت العرب تكتب اولاً في اكتاف الإبل والحجارة الرقيقة البيض وعسيب النخل ، بعدما كانت الكتابة في الاديم والرقوق على ما قاله المقريزي . وفي ايام بني أمية عمل الورق من الكتان وسمي بالخراساني . والغالب ان الشام أخذت في صنع الورق في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة ومنبج قبل هذا التاريخ . وعامة المؤرخين من الفرنج على ان الورق من اختراع اهل الصين سنة ١٢٣ ق . م ونقل صنعه أسرى من الصين الى سمرقند في سنة ٧٥١ وفي سنة ٧٩٤ م أسس معمل للورق في بغداد ثم في دمشق و يظهر من بيت طرفة بن العبد البكري في معلقته ان القرطاس ينسب للشام والبيت .

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر   كسبت اليماني قده لم يجرد[1]

ان القرطاس كان يعمل في الشام على عهده او قبله خلافاً لما قاله مؤرخو الفرنج ، وان الورق من صناعات الجاهلية . وكان يرتفع منه الى البلاد الأخرى كميات من دمشق ومن طبرية على ما ذكر ذلك المقدسي . وقد تعلم صنع الورق في دمشق اسيران افرنسيان على عهد الحروب الصليبية فلما عادا الى بلادهما نشرا صناعته في فرنسا ، ومنها انتقل الى جميع اوربا . فلدمشق على فرنسا بل على المدنية باسرها ، الفضل الاول في تعليم هذه الصناعة للغربيين ، وناهيك بانها أهم صناعة نشرت العلم والافكار في العالم . وقد حمل الشاميون الوراقة الى الاندلس في جملة ما حملوه من صناعاتهم ، على نحو ما حملوها الى شمالي افريقية . وكانت شاطبة من مدن الاندلس تصدر منذ سنة ١٠٠٩ م الورق بكثرة ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس .

وكان الورق يصنع اشكالاً في مكابس صغيرة ، ويعمل من الخروق البالية او الحرير واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة ٧٠٦ م رجل اسمه يوسف بن عمرو ، ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة ٢٦٦ هـ على ورق يظن انه من الورق الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته . وقال الرحالة ناصر خسرو ان الكاغد الجيد الذي كان يصنع في طرابلس يشبه ورق سمرقند الا انه أحسن صنعاً . وذكر القلقشندي ان الورق المعروف بورق الطير ، اي الورق الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة حمام الزاجل ، هو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام . وهذا هو الورق الرقيق . والورق القديم أشبه بالبردي او الرقوق

(١) ذكر الزوزني في شرح معلقة طرفة ان مقصود الشاعر بقوله كقرطاس الشآمي كقرطاس الرجل الشامي وكذلك كسبت (دبغ) اليماني اي الرجل اليماني وهذا غير ظاهر وفسره ابو زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي في جمهرة اشعار العرب بقوله انه شبه خدها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام وشبه مشفرها بالجلد المدبوغ بدباغ القرظ للينه .. وهذا أصرح وأوضح .

بمتانته . ولا نعلم في اي زمن انقرضت هذه الصناعة من الشام . وحدثني احد علماء حلب ان الورق كان يصنع في الشهباء وان حياً من احيائها لا يزال اسمه الوراقة حيث كانت معامل الورق . والورق الحلبي الصقيل المتين مشهور الى عهدنا .

وقدقام في أوائل هذا القرن رجل من بيروت من بيت الباحوط ، فأسس معملاً مهماً في انطلياس على ساحل البحر ، وأصدر ورقاً جيداً كورق النمسا وفرنسا ، لكن معامل الورق في الغرب أرخصت صادراتها من الورق الى الشام ، فاضطر هو ان يُنزل ايضاً ثم خفضت السعر ولم تزل تخفضه ، حتى قضت على هذا المعمل النافع في زمن أصبح المجلوب من الورق كل سنة يساوي عشرات الالوف من الدنانير الى الشام وأصبح الورق حاجة من حاجات المدنية .

* * *

المرايا } ومن الصناعات التي كانت تصنع في هذا القطر ولا سيما في صيدا على ما قال بلينوس وتصدر من البلاد صنعة المرايا ، وكانت مرايا الأقدمين من صفائح المعدن وهي المعروفة عند العرب بالوذائل واحدتها وذيلة ، وكانوا يتخذونها باديء بدء من مزيج القصدير والنحاس ثم اتخذوها من الفضة خالصة او ممزوجة بمعدن ادنى ، ومنها مرايا من الذهب ، وقد اطلعنا على مرايا من الشبه والفضة استخرجت من ارض حمص . وهذه الصناعة مما تعلمه البنادقة على مايظهر من الشاميين وانتقل من بلادهم الى الغرب كله ثم تنوسي عمله في بلادنا .

* * *

الصياغة } ومن أهم الصناعات القديمة التي لم تبرح على شيء من العناية الصياغة صياغة الذهب والفضة والتفنن في تصويرها ووضع الاحجار الكريمة عليها ، وكانت تعمل هنا اكلة الجوهر واقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخيل على أشكال ورسوم جميلة . والغالب ان المصنوعات المزيفة من الصياغات الاجنبية نازعت هذه الصناعة وزاد كسادها كون شروط الحياة في هذا العصر اختلفت عما كانت عليه

في الأعصر السالفة ، وصارت رفاهية القرون الخالية مما يتعذر على ابن هذا الجيل الا قليلاً .

فصياغة الحلي كما لا يخفى من الصناعات اليدوية الدقيقة جداً ، وهي تحتاج الى ذكاء ومهارة فائقة لماتقتضي حالتها من تغير أوضاعها وأشكالها بحسب ذوق كل عصر ورغبة اهله ، وهي تقسم كما اكد العارفون الى سبعة أقسام رئيسة . قال ان الاول ما يحلى به الرأس وأعظمها شأناً ورواء ما يسمى بالتاج ، وهو عبارة عن دائرة من الذهب الرقيق ، يختلف شكلها بحسب الزمان مرصعة باحجار الماس المختلفة حجومها ، وهي إجمالاً من أحسن ماصنعته يد الانسان لتزيين رؤوس السيدات ، و يوجد اليوم اسماء كثيرة وانواع عديدة لما يزين به الرأس ، منها ما يسمى بالمشط ، والبرش ، والقمر ، وكثير من أشكال الطيور والحشرات كل ذلك من أبدع الاشكال والصور مرصع بالجواهر الكريمة .

ومما تزدان به الصدور من الحلي أنواع متعددة ايضاً منها ما يدعى اليوم بحسب صوره وأشكاله مثل « قلب ، حبة ، فراشة ، زنبقة ، غزال ، دبوس ، كردان ، ضفدع » كل ذلك جميل في صنع ذهبه وترصيعه ، وتناسب تركيب احجاره ، مما يدل على رسوخ قدم في تلك الصناعة منذ اعصار قديمة ، وغالب ما تزين به النحور عقود اللآلئ ومماتحلى به الزنود أساور الذهب الدقيق الصنع و يرصع غالباً بفص واحد كبير الحجم ورسمه على الاكثر حية او افعى ، ومما تحلى به المعاصم ويسمى اساور ترسم على أشكال متعددة من الذهب ، وترصع باحجار ماس ، ولها بحسب اشكالها اسماء متعددة منها « حية ، برعي ، ماس ، سحب ، عصافير » وغير ذلك . وكلها بما فيها من دقة صنع تدل على سلامة ذوق صانعها .

وحلي الأنامل وهو ما يسمى بالخواتم ، وعامتها من الذهب و يركب عليها غالباً فص كبير الحجم من الماس او الياقوت او الزمرد او الفيروزج او فصوص صغيرة متناسبة الوضع ، بغاية الاتقان ، ولها اسماء متعددة منها « مركيز ، زيتونة ، فريشة ، ذو الثلاثة أحجار . ومن اكثر أنواع الحلي الأقراط حلي الآذان وهو أشكال متعددة ايضاً منه ما يسمي الآن قرط كف ماس قفل ، طارة ،

خروسة ، عصافير ، تركي ، بغدادي ، حرية ،وقرط الطويل ، وهو عبارة عن قطعة واحدة من ماس كبيرة الحجم ، معلقة بسلسلة من الذهب ، غاية في الدقة بطول ثلاثة سانتيمات تقريباً ، لها خفقان على الجيد جميل ·

و بجيد فوقه القرط يلوح شبه نجم خافق خلف القمر

وفي الشام الآن الوف من صناع الحلي وتجار الاحجار الكريمة ، ولا يوجد بلد في القطر الا وفيه عدد كبير من أرباب هذه الصناعة النفيسة · ومن غريب الامر فيها انك لا تجد شكلاً راج في بلد الا وتجده قد راج في الشام من أقصاها الى أقصاها ، خلافاً للباسهم وبقية أزيائهم ·

قال ولمكانة هذه الصناعة لا بد من الاشارة الى سبب ترقيها ذلك ان الشام مدينة للفتح العربي بها ، فان هذا القطر كما يعلم الباحثون ليس فيه مناجم ماس ولا ذهب من اول عصور التاريخ المعلومة ، ولكن الفاتحين من العرب بعد فتحهم اغلب آسيا وافريقية وعاصمتهم دمشق ، هادتهم الملوك في هاتين القارتين ، واغلب هداياهم هي الجواهر الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائنهم ، وكان الخلفاء منهم يهدون منها القواد والامراء والأطباء والشعراء والعلماء والفقهاء فكثرت في أيديهم وزادت بطبيعة الحال في أيدي الصاغة ، وتنافسوا في إتقان تلك الصناعة حتى صارت كما ترى اليوم في اعلى درجات الارتقاء ·

ويمكن ان يعد في جملة الصِّياغة طبع الدراهم وضرب الدنانير من النقرة المذابة من الذهب والفضة ، فان الشام كانت من اول الأقطار التي طبعت فيها السكة الاسلامية ، وكانت الدنانير تضرب في الجاهلية بأيلة على البحر الأحمر ، وفي متاحف دمشق واوربا نقود ضربت في دمشق وحمص وايليا وانطاكية وبعلبك وطبرية ايام عمر سنة ١٧ وعليها كلها رسم ملوك الروم ثم اسم المدينة بالعربية واليونانية ·

وكان لهم مهارة في معرفة البهرج والزيوف من النقود الصحيحة ، وكان بعضهم يذهبون الى ان الإكسير اذا أضيف مثقال منه على الف قنطار من الحديد يستحيل ذهباً خالصاً ، ولم يثبت ذلك من طريق الكيمياء · ومابرح الأحمران الذهب والفضة معدنين خاصين ، ويمكن ان يعد في جملة هذه الصناعة صناعة لصق المينا بالمعدن

ومنها نموذج في دار الآثار بدمشق . وفي التاريخ العام ان معامل الشام كانت تصنع الخرز والآنية الذهبية ذات الميناء ، اما صناعة الجواهر والصياغة فان ما بقي منها يدل دلالة كافية على رقي العرب في صنعها . وكانت العرب تحسن قطع الاحجار الدقيقة ونقشها بالرسوم وزبرها بالصور .

* * *

صناعة الصدف والرخام } واشتهرت بيت لحم والقدس بصناعة الصدف يعملون منه الصناديق الصغيرة لوضع أدوات الزينـة ، والمسابح والصلبان والدبابيس والدوي والمقاطع ورسوماً وطيوراً وحيوانات من الفيل والأرنب ، ويصنعون من خشب الزيتون هذه الصناعة نفسها مما يدل على رسوخ قدم قديم في الصناعة ، وتباع في الغرب كميات كثيرة منها ، لما فيها من دقة الصنعة وجمال الاسلوب والتفنن في الوضع والشكل ، و يتنافس الغربيون في اقتناء هذه المصنوعات ويحببها اليهم كونها من الارض المقدسة .

واهل بيت لحم يعنون منذ قرون بصنع أدوات التقوى كالسبح والصلبان ، وبعض مشاهد التوراة ، يصنعونها من عرق اللؤلؤ كما يعملون المرجان وحجر الخنزيز او الحجر المنتن ، وهو مؤلف من الطباشير والحمر المستخرج من بحيرة لوط .

وكانت عكا في الدهر السالف تعمل صنوفاً من حاجيات الكنائس . ولبعض صناع الرخام صنائع دقيقة في دمشق فمنهم من يعمل أحواض الماء من قطع صغيرة ، فيها أنواع الرخام الملون ، وقد عمل احدهم خزانة للكتب من انواع الرخام الملون لا تتجاوز القطعة الواحدة السنتمتر الواحد فكانت طرفة من الطرائف التي آثروا بها القصر السلطاني في فروق . وهذه الصناعات من الكماليات قلما يرغب فيها حتى الاغنياء ارباب القصور ، ولذلك رغب عن صنعها اربابها فكادت تدثر . ولبعض الصناع مهارة في تقليد العاديات القديمة وغيرها من الأعلاق ، لا تكاد تختلف عما صنع من نوعها منذ قرون ، يقتنيها بعض السياح على انها من القديم . وتقليد العاديات مما عمت به البلوى في الغرب اليوم وهي مورد من موارد ربح الفقراء من الاغنياء وهي تحتاج الى معرفة زائدة ومهارة غريبة .

السجاد والحصير

ومن أهم الصناعات صناعة نسج البسط ، يقلدون فيه السجاد العجمي والتركي . ولكنه أحط من العجمي لان هذا السجاد الشيرازي والاصفهاني يصعب ان يدانيه سجاد في العالم لا يكاد يفنى حتى بعد استعماله قروناً ، كالاعبئة الشامية تلبس عشرين سنة وهي برونقها ومتانتها الا قليلاً . وبحق ما يقولون ان السجادات والاعبئة أجراء دائمون بلا أجرة . وكانت البسط الشوبكية وبسط أعناك في البلقاء وحوران وسجاد دمشق ، ومنها المصور بأشخاص ورسوم ، مما اشتهر امره وذاع .

وفي دمشق وحوران وجبل قلمون ولا سيما جيرود وحمص وحلب الوف من الأنوال ، تحيك البسط من الصوف الخالص وكانت تصبغ بالاصباغ النباتية الثابتة من استحضار البلاد نفسها ، فتحتفظ بالوانها بعد عشرات من السنين ، وتصبغ الآن باصباغ اوربية قليلة الثبات وهي على غاية من دقة الصنعة وتناسب النقوش ومتانة الحياكة بحيث تضاهي أحسن ما يعمل من نوعها في الاقطار الاخرى . ويأتي بعدها صناعة السجاد والطنافس ، وتعمل في قرى حمص وحماة وهي المسماة بالحزوري والعدموني ، نسبة لقرية حزور وعدمون ، وهي على غاية الجودة والمتانة يعمل من الصوف الخالص ومما يعاب عليه انه لم يزل يعمل من لون واحد وهو الأحمر القاني ، ونقوشه متشابهة لا تفنن فيها . ودخلت صناعة الطنافس على طريقة أحدث من الطريقة القديمة في حلب وبيروت ودمشق وذلك بدخول جاليات من آسيا الصغرى في السنين العشر الأخيرة ، يحسنون صنعه جداً الاحسان ، لكن النفوس لا تزال ترغب في سجاد فارس ، فانه لا يعادله شيء بمتانته وثبات ألوانه وتصويره ورقشه . وفي بعض قرى قلمون يصنعون من الوبر بسطاً غليظة متينة تستعمل في الضياع والبوادي ، وتوضع على الأدراج في المدن . ويعملون الجُوالق (الشوالات) والعدول على شيء من الجودة والمتانة وكذلك البلاس والمسوح .

وكان نسج الحصير والباري من أفضل الصناعات تقوم باحتياج البلاد منه . واشتهر انه كان « الى جانب طبرية غابة حلفاء ورفقهم منها ، اكثرهم ينسجون الحصر و يفتلون الحبال » وقد رأى ناصر خسرو في القرن الخامس حصراً من هذه الحصر

الطبرانية تستعمل للصلاة وتساوي الواحدة منهـا خمسة دنانير مغربية · وقد ضعفت هذه الصناعة بانهيال البسط الافرنجية والحصر اليابانيـة الرخيصة ، ولكن القرى وكثيراً من المدن ما زالت تعتمد على المصنوع منها في ارض الوطن ، والحصر البيروتية مشهورة بحسن نسجها ولطافة ألوانها ومتانتها التي تفوق البسط الافرنجية كثيراً ·

***

الصناعات المحدثة

ومن أهم الصناعات المحدثة صناعة القرميد وهو صنو الآجر القديم نقرمد به السطوح ، وفي لبنان واللاذقية و يافا معامل كثيرة منه وفي سنة ١٩١٨ أسس رجل افرنسي في اللاذقية معملاً لعمل القرميد ، والقرميد الآجرة العظيمة · ويعمل في هذا المعمل الفخار الصيني وبلاط الملاط لجودة التراب الخزفي في تلك الأرجاء · وفي القدس معمل للقيشاني اوالبلاط الملون · ومن الصناعات الجديدة صنعة لفائف التبغ تصنع منها كميات مهمة في حمانا وبكفيـا وزحلة وبعض قرى بيروت الساحلية وتعمل منهـا كميات عظيمة في فلسطين ودمشق وحلب · وقد استفادت فلسطين في الايام من الأخيرة الإكثار من زرع الدخان استفادة عظيمة وأخذت تصنع من اللفائف ما يقوم بحاجتها وتبيع منه الى الخـارج · ومنها صناعة الطباعة وصنع الصور والحفر على النحاس والزنك وفي بيروت احسن مصانعها ودمشق تقلدها بعض الشيء · ومن الصناعات المحدثة صنع الجليد وأهم معـامله في بيروت وحلب وطرابلس وصيدا واللاذقيـة ودمشق وحيفا و يافا والقدس وهو يقوم مقام الثلج الطبيعي في التبريد · وكان الثلج السماوي يدخر الى آخر أشهر الصيف بحاله وكان هذا ينقل في القرون الوسطى على البغال من صيدا وطرابلس الى قلعة الجبل بالقاهرة في ثلاثة ايام لتبريد المياه في قصر الملك وعظماء الدولة هناك · وفي حيفا معمل للشمنتو يستخرج من حجر الجبل المتاخم لها ومعمل للبنزين والسبيرتو · وفي كل من عكا و يافا معمل للثقاب (الكبريت) ·

هذه أهم الصنائع الشامية وغالب الصنائع « تتبدل عليها ايدي الصناع من الواحد بعد الواحد الى ان ينيف على عشرة صناع حتى يتم » وقد أفاض صاحب قاموس الصناعات الشامية بتعداد هذه الصنائع والحرف في دمشق خاصة على اختلاف اسمائها

وضروبها فبلغت نحو ٣٤٠ حرفة وصناعة . ولابن الصائغ الدمشقي منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصنائع قال ابن جماعة : واعلم ان هذه الصنائع استخرجها الحكماء بحكمتها ثم تعلم الناس منهم بعضها وصارت وراثة من الحكماء للعلماء ، ومن العلماء للمتعلمين ، ومن الاستاذين للتلامذة ، ومن التلامذة للصناع . وكان ولا يزال لكل حرفة زعيم او نقيب او شيخ او عريف ويسمى شيخ الحرف كلها بسلطان الحرافيش ثم كني عنه احتشاماً بشيخ مشايخ الحرف والصنائع . وكان لارباب الصنائع ترتيبات اشبه بالنقابات الصناعية في الغرب ولذلك دام رواجها طويلاً .

***

تأثير الصناعات في الماديات والاخلاق

قلت من خطاب في الصناعات يوم الاحتفال بافتتاح الدباغة الوطنية الفنية (٥ كانون الاول ١٩٢٤ — ١٣٤٣) لقد فقدت معظم الصناعات ويا للأسف ، وآخر ما سيفقد منها صناعة النسيج الضرورية النافعة ، فقد كانت صادراته من حلب وحماة وحمص وطرابلس ودمشق تسد جانباً عظيماً من موازنة البلاد بما تأتي به من الأموال الطائلة كل سنة ، فأصبحت الآن الى انحطاط ونازعتها الأقمشة الافرنجية البراقة الدقيقة . قيل انه كان في دمشق وحدها ثلاثون الف نول للنسج قبل الحرب فأصبح عددها اليوم نحو ثلاثة آلاف ، ولا تلبث اذا دامت الحال على هذا المنوال ان تضمحل كما اضمحل غيرها من الصناعات ، ويفتقر أربابها ويهاجرون او يهلكون . وفي كل ذلك خسارة واي خسارة على الوطن الذي يفجع بابنائه ، واي فجيعة اعظم من الفجيعة بالمال او الرجال او فقدهما معاً .

ومما تجنيه البلاد من اجتماع الناس على مثل هذه الأعمال الصناعية الشريفة تربية الروح القومية فيهم واصلاح ما أمكن من شؤونهم الاجتماعية . واليكم مثالاً جرى في هذا المعمل يتخذ منه العاقل عبرة . ذكر لي مدير مدبغتنا هذه منذ مدة ان مستشار الامور الاقتصادية في المفوضية العليا زار المعمل وسر بنجاحه كل السرور ونشطه بالقول والفعل ، الا انه بدت منه حركة أستغربها ، وذلك انه سأل كثيراً من العملة عن مذهبهم ، وبالطبع فيهم من اهل الأديان السماوية الثلاثة ومن غير

الشاميين ايضاً . فاستغربت مع صاحبي هذا السؤال منه ولم أهتد لتعليله . ولم يلبث المستشار ان زارني من الغد وذكر لي في جملة حديثه سروره بالمدبغة الجديدة ، وقال : انكم معاشر الدمشقيين قد حللتم مسألة من أعضل المسائل في بلدكم لم نتمكن نحن في بيروت من حلها . وذلك اننا أردنا مرة ان نقوم بمشروع صناعي فيها فجاءنا اهل كل مذهب يريدون ان يستأثروا باكثر المنافع لأبناء طائفتهم . ونحن كنا بالطبع نريد ان ينتفع به من يعمل و يعرف . وهكذا ضاع الوقت في المجادلة على غير طائل ولم نتقدم شبراً واحداً في الموضوع الاصلي ، وسقط المشروع وهو جنين لان الناس هناك يريدون ان يقوم بذاك الروح . ولقد سررت ان رأيت في معملكم المسلم والمسيحي والاسرائيلي على اختلاف مذاهبهم . وكل فرد يعيش مع اخيه متساندا متعاطفاً . قلت له : ولذلك استغرب بعض عملة المدبغة سؤالكم اول امس عن دين من رأيتموه فيه . فقال : ليس في العالم عمل اقتصادي قام على اساس الدين ولبنان الكبير غريب في حالته هذه فقلت له : هذه قاعدة قديمة سارت عليها دمشق منذ الفتح الاسلامي فكل من يحسن عملاً يوسد اليه مهما كانت نحلته . فسرّ لقولي وسررت لتوفيقنا .

بقيت هناك مسألة لابد من الاشارة اليها وأعني بها تأثير الصناعات في الاخلاق . فقد ثبت ان البلاد التى تكثر فيها الأعمال الصناعية والزراعية أحسن أخلاقاً من غيرها ، و يقل فيها المتشردون والثرثارون ، لان من طبع العاملين الأخذ بالنافع وترك الفضول على الجملة . ولذلك يضعف الشغب في ارباب الصنائع ، وتقل الموبقات المهلكات ، لانها لا تبقي للعامل الا الوقت الكافي لراحته ونومه ، وهو على ثقة من انه اذا لم يحصر ذهنه في عمله يخرجه صاحب المعمل او الحقل من خدمته . فالحكومة التي تحب ان يقل الشغب بين من وسد اليها امرهم يجب عليها ان تفكر ليلها ونهارها في ايجاد اعمال رابحة لهم . وبذلك يقل المتشائمون والمشاغبون والمرجفون والناقمون . وليس أحسن ولا أنجع من هذه السياسة .

لا جرم ان اشتراك اهل البلد الواحد بل القطر الواحد والمملكة الواحدة في عمل اقتصادي ما يرفع مستوى القومية ايضاً و يلقن الناس معاني التضامن الوطني . فقد

رأينا في الدهر السالف سكان الجنوب وسكان الشمال من فرنسا يقتتلون و يتحاربون ولم تنقطع شأفة الفتن من بينهم الا عندما اشترك الجنوبي مع الشمالي في الاعمال الاقتصادية ، فأصبحت مصلحتها واحدة وارتفع النزاع من بينهما وأحسا انهما أبناء امة واحدة · ولذلك نرى الى اليوم من بقايا تلك الأخلاق ان ابن الشمال يهزأ بابن الجنوب على حين كلهم سواء في مناحيهم ومنازعهم ، بل ان اهل شمالي فرنسا لا يعنون بغير صناعاتهم وتجاراتهم على الاكثر و يقل فيهم السياسيون والشعراء الأدباء وهم كثار جداً في اهل الجنوب كثرة فاضت عن الحاجة ·

فيا حبذا اليوم الذي يشترك فيه قاصينا ودانينا ، فقيرنا وغنينا ، في إقامة الشركات على أنواعها ، إحياء لصناعاتنا واستبقاء للبقية التي صبرت على الايام من ثروتنا · فالزراعة عشر الثروة العامة في العادة ، والباقي من اسباب السعادة ، والنماء ثمرة الاعمال الصناعية · وما السكك الحديدية والبواخر والسيارات والقصور والمصانع الفخمة وكل ما في المدنية من ضروب الراحة والرفاهية مما يلذ و ينفع ، الا نتيجة عمل العملة في المعامل ، وكل ما نشاهده وندهش به من انواع الصناعات في اميركا واوربا بل وفي يابان والصين هو ثمرة التعاون والعلم العملي · ولذلك ساغ لنا ان نقول ان كل من يدفعنا أمثال السيدين العمريين ولو خطوة واحدة الى الأمام لنقترب بسفينتنا الفقيرة من ساحل السلامة يستحق ثناء الامة جمعاء · ولا رجاء لنا في الحصول على الحاجيات ثم التطلع الى الكماليات ، الا بتأليف شركات صغيرة بادئ بدء تقوم برؤوس أموال وطنية ، وتستعمل من الادوات الجديدة ما لا غنية عنه ، تنمو بنمونا في مظاهر الحياة والانبعاث · فنحن لا نقل عن الغربي ذكاء ونشاطاً وانما ينقصنا التنظيم والتدريب · وفي بلادنا اكثر المواد الاولية اللازمة في الصناعات لا تحتاج الا الى معرفة قليلة للانتفاع بها والله الموفق والملهم ·



التجارة الشامية



موقع الشام من التجارة وتجارة قدماء الامم

كان من وقوع الشام في طرف آسيا وافريقية ، وقربها من الساحل المقابل لبحرها من اوربا ، أعظم مركز تجاري في القديم ، ومن أهم ما حمل أبناءها على الرحيل بتجاراتهم ، منذ عرف التاريخ امتداد سواحلهم ، وكثرة الأخشاب التي تجود في غاباتهم ، تساعدهم على صنع السفن المتينة الكثيرة ، ثم ان مرونة اخلاقهم تدعوهم الى الاختلاط بغيرهم ، وتقليده وتعلم لغته ومماثلته في عاداته ، وبهذا كانت شهرة الفينيقيين الذين استولوا على جزء مهم من تجارة شمالي افريقية ، وبلغوا جزائر بريطانيا ، وأقاموا لهم مكاتب تجارية في كثير من سواحل هذا البحر المتوسط وبحر الظلمات ، وما زال الفينيقيون أعظم أمة تجارية بحرية في الدهر السالف ، ينقلون الى الغرب حاصلات الشرق ، والى الشرق بعض ما كان يعمل في الغرب ، الى ان قامت دولتا الرومان واليونان .

عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الارض . ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين واشوريين ، ولا قبائل الغرب البربرية (الاسبان والغاليون والطليان) ، عهد بركوب البحار وشق العباب . والفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الايام على تجشم البحر ومعاركة العباب . فصح ان يدعوا من اجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء ، يبتاعون من كل شعب

سلعه و يقايضونه على غلات البـلاد الاخرى · تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق براً والغرب بحراً ·

واعتاد الفينيقيون ان يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاثاً · احداها الى بلاد العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر والعطور العربية واللؤلؤ والاباز ير والعاج والآبنوس وريش النعام وقرود الهند · والقافلة الثانية ترحل الى بلاد أشور لتعود منهـا بأنسجة القطن والكتان والخمر والاحجار الكريمة والماء العطر وحرير الصين · وتقصد القافلة الثالثة الى انحاء البحر الأسود لتستجلب منهـا الخيل والرقيق والاواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال قافقاسيا (القوقاز) ·

وكانوا يبتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة ، ويبحثون في البلاد المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل · يصطادون الصدف من شاطئ بلاد اليونان ، ومنه يستخرجون صباغاً أحمر وهو الأرجوان · وكانت الانسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافة ملابس للملوك والامراء ، و يجلبون الفضة التي يستخرجها اهل اسبانيا وسردينيا من مناجمهم · وكان القصدير من ضرور ياتهم يستعملونه في صنع النحاس الاصفر ، وهو مركب من نحاس وقصدير ولا أثر له في بلاد الشرق · ولذا كان الفينيقيون يرحلون في طلبه ، و ينشدونه حتى في شواطئ انكلترا في جزائر القصدير · وحيثما حلوا يتخذون الرقيق ، يبتاعونه تارة كما كان يبتاع النخّاس العبيد في ساحل افريقية · والشعوب القديمة كلها كانت تتجر بالرقيق · و ينزلون طوراً في احدى السواحل فجأةً فيختطفون النساء والاطفال و ينقلبون بهم الى بلادهم و يبيعونهم في القاصية · واذا واتتهم الحال ينقلبون قرصاناً ، ولا يتحامون إطالة أيدي التعدي على غيرهم ·

وقد أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي اتجروا فيها · وهي مراكز للبرد حصينة · واقعة على شاطئ البحر على مرفاٍ طبيعي يخرجون اليها بضائعهم · وهي في العادة أنسجة وفخار وحلي وأصنام ، فيأتي اهل تلك البلاد بغلاتهم يُقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الاوربيين زنوج افريقية · وتقام أمثال هذه الأسواق في قبرس ومصر وجميع بلاد البحر الرومي مثل اقريطش ويونان وصقليـة وافريقية

ومالطة وسردينيا ومالقة وقادس وربما أقاموها في موناكو من بلاد الغول . قاله المؤرخ سنيوبوس .

وكانت الشام في الزمن القديم كثيرة السكان زاهرة على ما يظهر ، واتت وفرة سكانها واستبحار عمرانها ، من مركزها الطبيعي وتجارتها العجيبة وربوعها الخصيبة . وكان في وسع مصر ان تنازع الشام مكانتها التجارية ، بيد ان الحسد المتأصل في الطبقات الدينية والسياسية كان يمزقها ويحول بين المصريين القدماء وبين كل صلة بالشام . فكانت الشام اذاً المستودع الوحيد للعالم المعروف . تأتي حاصلات آسيا وافريقية مع القوافل الى موانئ الشام حيث تحمل على سفن فينيقية . وكثيراً ما كانت تأتي أزمان على الشام تخرب بايدي الفاتحين ، وبسبب الحروب المتواصلة بين الممالك الصغرى التي كانت تنازع هذا القطر . فأضاعت البلاد على التدريج مكانتها ، خصوصاً منذ تخلصت مصر من نفوذ كهنتها وتماديهم ، وغدت منافسة لها بان جعلت من مركزها الواقع على بحرين مستودعاً سهل التجارة بين انحاء العالم .

وكثير من الحروب التي نشبت بين الشاميين والاشوريين والبابليين والمصريين ثم مع ممالك الروم في الغرب ، كان السبب فيها على الاغلب مسائل التجارة ، وارادة الشاميين ان يفتحوا صدر بلادهم لتنفذ اليها تجارات جيرانهم او غيرهم من الشعوب . ومن أهم المدن التي استأثرت بالتجارة في القديم البتراء ثم تدمر ثم حلب ودمشق . وكانت مدن فينيقية لولعها بالتجارة تترك الزراعة حتى انه بلغت الحال باهل صور ان أغفلوا تعهد الارض وكانوا يشترون مؤونتهم من الجليل والسامرة واليهودية ، ولما حاصر الاسكندر صور اضطر ان يستجلب أزودة جيشه من هذه المحال .

وذكر ديودروس ان ثروة الأنباط اصحاب البتراء كانت من الاتجار بالطيوب والمر وغيرهما من العطريات ، يحملونها من اليمن وغيرها الى مصر وشواطئ البحر المتوسط ، ولم تكن تجارة تمر في ايامهم بين الشرق والغرب الا على أيديهم ، وكانوا يحملون الى مصر خاصة القار لاجل التحنيط . ولما استولى الرومان على البلاد انتقلت التجارة الى تدمر وفارس . ووفق الفرس الى تحويل التجارة عن مصارفها القديمة الى أصقاع الفرات والخليج الفارسي . واخذ الرومان يعنون بانشاء الطرق المعبدة في

الشام ، والوصل بين الشام والاقطار الاخرى كالجزيرة والعراق والحجاز ومصر وارض الروم اي آسيا الصغرى ، ولا تزال الى اليوم بعض هذه الطرق ماثلة للعيان في صرخد والشراة والكرك وأيلة وجرش وهذه كانت طرق البتراء الى داخل الشام وكانت انطاكية ترسل الى رومية الاصواف والاقمشة والحنطة ، والشرق يبعث اليها بادوات الزينة والرفاهية كالعطور والاباز ير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والاحجار الكريمة واقمشة الصوف والحرير والعبيد السود والحيوانات النادرة ولا سيما القرود فكانت تجلب الى الاسكندرية من طريق البحر الأحمر او في النيل وتأتي الى انطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام مع القوافل .

فالتدمريون ومن قبلهم النبطيون عُنوا بالتجارة جد العناية ، لانها مورد معاشهم وعلة حياتهم ، لضعف الزراعة في ارجاء كورهم ، فكانت القوافل على عهد ارتقاء تدمر تحمل اليها من جزائر العرب الذهب والجَزْع واليشب واللبان والصمغ والصبر وعود الند ، ومن العراق اللؤلؤ ، ومن الهند انواع المنسوجات والقرنفل والبهار والحرير الصيني والنيل والضجاج والفولاذ والعاج والآبنوس . كل هذا يأتيهم من طريق القوافل في البوادي والقفار فيحملونها الى رومية عاصمة الرومان اما الارفاق التي تأتيهم من البحر فكانت دون ذلك — قاله رنژفال . وقد اكتشف امير رومي في سنة ١٨٨٢ كتابة رسمية كتبت بالتدمرية واليونانية يرتقي عهدها الى سنة ١٣٧ للمسيح فهمت منها أحوال التجارة القديمة ومضمونها تعريف جمركي مطول اصدره مجلس شيوخ تدمر حسماً لفتن وقعت بين التجار وعمال الخزانة ، وفيها بيان مايضرب من المكوس على البضائع والمعاملات التجارية اجمالاً وافراداً وهي باهظة فكان كل حمل جمل او حمار يرد او يصدر تُضرب عليه اولاً ثلاثة دنانير رومانية (وكان الدينار الروماني يساوي نحواً من ٧٢ سنتيماً) ثم فريضة أخرى تختلف باختلاف جنس البضائع . والبضائع التي ورد ذكرها في هذه الجريدة كثيرة فمنها الرقيق والجِرْزَر والارجوانية والزيوت العطرية المجعولة في قماقم من الرخام الابيض او في ظروف من جلد المعز ، ثم زيت الزيتون والشحم والملوحات المنوعة والجلود والثياب والأقمشة والغلال المختلفة والافاويه والاثمار اليابسة كحب الصنوبر والجوز واللوز

والعقاقير والملح الى غير ذلك . وينقسم كل حمل الى ثلاثة أقسام حمل الحمار وحمل الجمل وحمل العجلة ، وكان ثقل الاول نحو مئة كيلو والثاني أثقل منه بثلاثة أضعاف والثالث يبلغ نحو الف كيلو . قال دي فوكيه : وكانت القوافل التي تحمل الى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدواب الإبل والحمير واذا وصل التجار الى حاضرة زينب (تدمر) أنزلوا عن ظهر الدواب الجوالق والاثقال المختلفة وحملوها على العجلات ليوصلوها الى جميع انحاء المملكة على السكك والشوارع الرومانية ، فاذا بحثت عن أسباب تقدم تدمر وبلوغها ذروة العمران وجدت لذلك سببين الاول مرور البضائع بها وإقامتها فيها مدة ودفع المكوس الى خزانة المدينة والثاني شهرة اهالي تدمر دون سواهم بقيادة القوافل في المفاوز والصحاري ، فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني للمسيح أشبه بمرفإ عظيم على بحر البراري ترسو عند ساحلها تجارة الامم فتغني خزائنها كما جرى في القرون الوسطى لمدينة البندقية سلطانة بحر الروم . وقد اكتشف علماء العاديات عمودين نصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلاً ميلاً عليهما اسم زينب واسم ابنها وهبلات . واول هذين العمودين قريب الجبيل والجسر الواقع على وادي العذار . والثاني برج الريحان شمالي الجبيل .

وكانت الشام أهم محال الحرير ولا سيما صور وبيروت ، والشام من أهم ولايات الامبراطورية الرومانية . وذكر بروكوب عند كلامه على انطاكية انها اول مدينة رومانية مهمة في الشرق لغناها واتساعها ونفوسها وجمالها وعادياتها . وتعجب انطونين الشهيد من الترف الذي كان على أتمه في انطاكية ، ومن عظمة أفامية روت وغزة . وقد اضمحل ذلك على عهد يوستنيانوس لانه أراد ان يضع سعر سطاً للحرير فهلك تجاره وصانعوه وخربت معامله . ويرد تاريخ زراعة الحرير الى القرن الاول للحكم اليوناني على الشام ولا سيما في ضواحي بيروت . قال هيد : بعد ان ذكر ذلك وقد حدا حب الربح تجاراً مسيحيين ان يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لعرب اسبانيا وافريقية والشام ، فاتخذ شارلمان والباباز كريا وادريانوس الاول الاسباب لمنع ذلك .

وقد وجدت في بلاد غاليا اي فرنسا اليوم وغيرها من المدن التجارية في الغرب كتابات فيها اسماء الشاميين الذين كانوا يسكنونها للتجارة منذ الزمن الأطول ، ومنها

ما وجد في جناي على مقربة من مدينة تريفو ذكر فيها شامي اسمه تيم من قرية عتيل من اهل مدينة قنوات في جبل حوران كان يتجر مع غاليا بما يحمله اليه مواطنوه الى ارل على سفنهم ومنها الى ليون فما فوقها من مدن فرنسا ٠

ولم يكن تجار الغرب يهتمون بالسفر الى الساحل الشامي لاخذ البضائع اللازمة لهم ، بل يحمل الشاميون انفسهم بنشاطهم المعهود على ما يظهر تلك البضائع ، مع ان حاصلات آسيا مما كان يلفت نظر الغربيين ٠ وكان خمر غزة مشهوراً في فرنسا على عهد الملك كونثران في القرن السادس للميلاد ، وحرير الشرق واحجاره الكريمة تتألف منها زينة العظماء والسادات ٠ قال هيد : ان الشاميين كانوا يرحلون الى فرنسا على عهد حكومة الميروفنجيين ونزلوا في جنوبي فرنسا مثل ناربون وبوردو بل في أواسطها مثل اورليان وتور وكانت تحمل الى فرنسا أكياس الأدم من فلسطين ٠ والظاهر ان الشام كان يفوق غيره باعماله الصناعية والتجارية ٠ وصلات الشاميين محكمة مع الشرق والغرب ٠ وكانت بلادهم على عهد الروم محط رحال قوافل الخليج العربي والخليج الفارسي وأواسط آسيا وهي أهم ولاية تجارية للروم ٠ وفي الحق ان صلاتنا بالغرب زادت لما توطدت أقدام النصرانية في اوربا ، وأصبح زوار بيت المقدس يأتون الى فلسطين افواجاً افواجاً ويحملون معهم شيئاً من تجارة بلادهم ويأخذون ما عندنا مما يروج في أسواقهم ٠

***

تجارة العرب — العرب اهل تجارة لضعف زراعتهم ، فكانوا يوغلون في الشرق والغرب لغرض الربح ، وقد كان لهم أسواق يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها عامة قبائل العرب ممن قرب منهم او بعد ، فكانوا ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام اول يوم من ربيع الاول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكان يعشوهم فيها أكيدر دومة — وهو ملكها — وربما غلب على السوق كلها فيعشوهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر ثم ينتقلون الى سوق هجر — قاله القلقشندي ٠

وما زال يقام في الشام الى اليوم في اماكن مختلفة أسواق لبيع المصنوعات والحاصلات أشبه بمعارض هذه الايام في الغرب . وكانت تقام في دمشق في كانون الاول سوق تعرف بسوق قضيب البان رواه البيروني . وروى القالي ان قريشاً كانت تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، اي تقدّم عليهم الاعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم و يبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده وقال له : ان قومي تجار العرب فان رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمّن تجارتهم ، فيقدّموا عليك بما يُستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب . فجعل كلما مرّ بحيٍ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً . والإيلاف ان يأمنوا عندهم في ارضهم من غير حِلف ، انما هو امان الطريق ، وعلى ان قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حُملانها و يؤدون اليهم رؤوس اموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين اهل الشام ، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركةً ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوّزهم ، يوفيهم إيلافهم الذي اخذه لهم من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها ، فانسعت قريش في التجارة في الجاهلية . وهاشم هذا هو جد الرسول مات بغزة فنسبت اليه فقيل لها غزة هاشم لان الروم كانوا يقيمون لهم سوقاً في غزة في موسم معلوم وكانت قريش في الجاهلية تحضره وتمتار منه .

وكانت لهاشم بن عبد مناف رحلتان رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . قال الثعالبي : وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين ، احداهما ان ذؤبان العرب ، وصعاليك الاعراب ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائل ، كانوا لا يؤمنون على اهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الأخرى ان أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبني طيء وخثعم وقضاعة وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعنى الإيلاف انما هو

شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، و يحمل لهم متاعاً مع متاعه ، و يسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الاسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الاعداء ، فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، اذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً .

وخصبت قريش وأتاها خير الشام واليمن والحبشة ، وحسنت حالها وطاب عيشها ، ولما مات هاشم قام بذلك عبدالمطلب ، فلما مات عبد المطلب قام بذلك عبدشمس ، فلما مات عبد شمس قام به نوفل وكان أصغرهم . وذكر اللغويون من جملة التخريجات في اسم قريش التي كانت سادة العرب جاهلية واسلاماً ، انها سميت بذلك لتجرها وتكسبها وضربها في البلاد تبتغي الرزق ، وقيل لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا اصحاب زرع وضرع من قولهم فلان يتقرش المال اي يجمعه . وكان ساداتهم على حبهم للتجارة اذا تولوا امراً من امور الامة تخلوا عنها . ففي التذكرة الحمدونية انه كان لعمر بن عبد العزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر الى المدينة فيبيعه وهو واليها ، فحدثه محمد بن كعب القرظي عن النبي (ص) « ايما عامل اتجر في رعيته هلكت رعيته » فأمر بما في السفينة فتصدق بها وفكها وتصدق بخشبها على المساكين .

فهاشم بن عبد مناف اذاً هو اول من أخذ الإيلاف لقريش . قال ابن حوقل: وفي غزة استغنى عمر بن الخطاب في الجاهلية لانها كانت متجراً لاهل الحجاز ، بل ما قولك بان الرسول عليه السلام كان قبل النبوة تاجراً جاء مرتين في التجارة الى الشام ووصل الى بصرى بل ان كثيرين من أصحابه كانوا تجاراً قبل الاسلام ومنهم ابو بكر وعمر وعثمان .

وكان الانباط يحملون من الشام الى الحجاز الزيت والدرمك «دقيق الحوّارى» ويعودون الى هذا القطر بحاصلات الحجاز . وفي السنة الثانية للهجرة أقبل ابوسفيان ابن حرب والد يزيد ومعاوية من الشام في قريب من سبعين راكباً من قبائل قريش كلهم كانوا تجاراً بالشام . وكانت تجارة ابي سفيان بيع الزبيب والادم كما كان الصديق وعثمان وطلحة بزازين . وخافت قريش لما أسلموا من انقطاع السفر الى الشام للتجارات لمخالفتهم اهل الشام بالاسلام فقال عليه الصلاة والسلام : « اذا هلك قيصر فلا قيصر ، واذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » معناه لا قيصر ولا كسرى

بعدهما في الشـام والعراق ، ولا ضرر عليكم ، فقويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين وكانوا من قبل يملكون المزارع في الشام ويقيمون وينعمون ·

ولما رفرف علم الاسلام على الشام اتسعت الدنيا على الصحابة حتى ان عبد الرحمن ابن عوف الزهري أحد الثمانيـة الذين سبقوا الخلق الى الاسلام كان تاجراً كثير الأموال بعد ان كان فقيراً ، باع مرة ارضاً له باربعين الف دينار فتصدق بها كلها وتصدق مرة بسبعمائة جمل باحمالها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل بخمسمائة فرس عربيـة ، وكان الزبير بن العوام ابن عمة النبي (صلى الله عليه وسلم) واحد العشرة كثير المتاجر والأموال قيل كان له الف مملوك يؤدون اليه الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه ، وقد خلف أملاكاً أبيعت بنحو اربعين الف الف درهم وهذا لم يسمع بمثله قط — قاله الذهبي ·

وكانت مراكب صور وطرابلس تقلع من هاتين الفرضتين بالتجارة الى سواحل خليج القسطنطينية (بحرايجه) وخليج البنادقة (الادرياتيك) و بحر تيطس (الاسود) وجزائر قبرس ورودس واقريطش (كريت) وكل ما قام به خلفاء المسلمين ووزراؤهم لتسهيل الحج على المسلمين من إنشاء الطرق وانباط المياه على طول الطريق الى ام القرى ، واقامة معالم الامن والراحة فيها للحجاج قد أفاد التجارة اي فائدة ·

وكانوا قسموا ارض الشام الى مراحل و برد وفراسخ وعُنوا بالامن من وراء الغاية حتى يتجر النـاس · وكانت طريق القوافل الى مصر على الكرك او على غزة ورفح · قال ريسون : وكانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر والشـام ، وان العرب رقوا الصناعة البحرية ووضعوا قوانين لحقوق الملاحة واستعاروا بيت الابرة من الصينيين ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر ايّ ضبط وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ووضعوا السفائج المألوفة وردوا التمسك وبعثوا روح الحركة في مصارفنا الحديثة وكنت تراهم حيثما سكنوا مهدوا السبيل وأمنوها ، وعمروا المرافئ والفرض ، وأصلحوا وأنشأوا الفنـادق والرباطات ورتبوا سير القوافل الاقتصادية ولم تكن المدن التجارية غير اوساط تجارية كبرى ·

وكان الفرات بن حيان أهدي الناس بالطرق وأعزمهم بها وكان يخرج مع عيرات قريش الى الشام وله يقول حسان :

اذا هبطت حوران من رمل عالج فقولا لها ليس الطريق هنالك
فان نلق في تطوافنا وانبعاثنا فرات بن حيان يكن وهنَ هالك

ويقول بكولوتي ان اربع موانٍ عكا وبيروت وطرابلس واللاذقية وخمس مدن داخلية الرملة ودمشق وحماة وانطاكية وحلب استفادت من التجارة مع اللاتين ولا سيما مع البيزيين والجنويين والطسقانيين والبنادقة وكلهم ايطاليون ، وهذه الجمهوريات الاربع ، بيزة وجنوة وطسقانه والبندقية ، التي كانت تقتسم ايطاليا هي اول من اتجر مع الشام من أمم الغرب وجاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا وانكلترا ثم عدلوا لبعد بلادهم ٠ وكان لهؤلاء الطليان ولتجار امالفي ومارسيليا مكاتب تجارة في الاسكندرية وفي المدن الساحلية والداخلية في الشام ، يقايضون بواسطتها حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب ، ولما فتح الجنويون ثم البنادقة جزيرة قبرس زادت صلات الشام مع هذه الجزيرة التي هي على ٩٣ كيلو متراً من ساحل الشام في طرف جون الاسكندرونة وتعد من الشام ٠ وجعل ملوك فرنسا لهم تاجراً اسرائيلياً يذهب كل سنة الى الشرق يبتاع منه حاصلات آسيا ٠ وكثيراً ما كان اليهود سفراء في المفاوضات مع امراء آسيا ٠

وذكر ابن خرداذبة ان التجار اليهود الراذانية ، وكانوا يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية (الافرنسية) والاندلسية (الاسبانية او البرتغالية) ، والصقلبية (السلافية) يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً و بحراً ، و يجلبون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف يركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالفَرَما « على ساحل مصر » الى القلزم « البحر الأحمر » وان شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية و يسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية « في حوران » ، واما تجار الروس وهم من جنس الصقالبة فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود ، والسيوف من اقصي صقلبة « بلاد الروس » الى البحر الرومي والخارج منهم

في البر يخرج من الاندلس او من فرنجة ، فيعبر الى السوس الاقصى فيصير الى طنجة ثم الى افريقيــة « تونس » ثم الى مصر ثم الى الرملة ثم الى دمشق ثم الى الكوفة ثم الى بغداد .

وكان يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخروب والملاحم والصابون والفوط والجبن والقطن والنفاح والقريش والمرايا وقدور القناديل والابر والنيل والتمور والحبوب والخرفان والعسل وشقاق المطارح والسُّبَج والكاغد والبز والأرز ومن قدَس « حمص وحماة » الثياب المبيرة والبلعسية والحبال ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات ومن مآب قلوب اللوز ومن دمشق المعصور والبلعيس والديبـاج ودهن البنفسج والصفر يّات والكاغد والجوز والقطين والزبيب ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة ومن بعلبك الملابن . واختصت حلب ايضاً كما قال ابن الشحنة بالصابون الذي يجلب منها الى ممالك الروم والعراق وديار بكر وهو افخر صابون ، ويباع منه بحلب في اليوم الواحد ما لا يباع في غيرها في الاشهر ، ومن خصائصها نفاق ما يجلب اليها من البضائع كالحرير والصوف والبزري والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والفُنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر والبضـائع الهندية ، فاذا حضر اليها مائة حمل حرير فانه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه ، ولو أحضر الى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمالـ لا تباع في شهر وعلى هذا فقس اه . وذكر ابن بُطلان من اهل القرن الرابع من عجائب حلب ان في قَيْسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون الف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة والى الآن اه . وكانت تجارة الشام في هذا القرن والذي يليه زاهرة جداً ، وقد قسم جعفر بن علي الدمشقي (في الاشارة الى محاسن التجارة) التجار الى ثلاثة أصناف وهم الخزان والركاض والمجهز .

***

التجارة في القرون الوسطى

وكانت مراكب باري تسافر الى موانئ الشـام قبل الحرب الصليبية وقدعقد امراء سالرن ونابل وجايت واماليي في سنة ٨٧٥ م معاهدة مع العرب كما عقد صلاح الدين يوسف وجمهورية

بيزا معاهدة مؤرخة في ١٥ صفر سنة ٥٦٩ (١١٧٢) منح بها البيزانيين عدة امتيازات خاصة بالتقاضي والمملكة . وحصل الفلورنتيون (اهل فلورنسه) من قايتباي سلطان مصر والشام على عدة امتيـازات وكانت هاتان المعاهدتان من أوائل ما وضع من الامتيازات الاجنبية للاوربيين في الشرق وكان المقصد منهـا ترويج التجارة الصادرة والواردة .

قال احد كتاب الانكليز ان عكا بقيت بخليجها الجون الطبيعي الوحيد على طول ذلك الساحل ، وكانت مرمى السفن في العصور الوسطى ، ولما كثر اعتماد سكان الشام في طعامهم على الأرز عظم شأن عكا ، لانهـا كانت الميناء الوحيدة لتوريده الى البلاد . وكان الناس يقولون اذا أراد « باشا » عكا تضرب المجاعة أطنابهـا في الشام . ولذلك صارامتلاك عكا ضرورياً لكل فاتح يريد امتلاك البلاد ، فحوصرت اكثر من سائر مدن الشام وكان اتصال اوربا بها اكثر من اتصالها بسواها .

كانت الحروب الصليبية من أعظم العوامل فيها التجارة ، وانتفع بذلك اكثر من جميع امم اوربا الايطاليون اهل جنوة وطسقانة والبندقيـة وبيزا ، وهؤلاء كانت لهم قصور في الشام تدل على غنىً ، وسفن الطليان هي اهم الأساطيل التجارية في القرون الوسطى . وفي كتاب الهدنة بين الملك المنصور وولي عهده الملك الصالح وولده الملك الأشرف صلاح الدين مع دام مرار يت بنت سير هنري بن الابرنس بمند مالكة صور سنة ٦٨٤ . « وليس للفرنج ان يجددوا في غير عكا وعثليت وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سوراً ولا قلعة ولا برجاً ، ولا حصناً قديماً ولا مستجداً ، وعلى ان شواني مولانا السلطان وشواني ولده متى عمرت وخرجت ، لا تتعرض لاذية البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليهـا ، واذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا فلا تدخل الى البلاد التي انعقدت عليها ولا تتزود منها وان لم يكن صاحب تلك الجهـة التي تقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا ، فلها ان تدخل الى بلادها وتتزود منها ، وان انكسر شيء من هذه الشواني والعياذ بالله في ميناء من الموانئ التي انعقدت الهدنة

عليها وسواحلها فان كانت قاصدة الى من له مع مملكة عكا عهد او مع مقدمها ، يلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيرت حفظها ، ويمكن رجالها من الزوادة واصلاح ما انكسر والعود الى البلاد الاسلامية و يبطل حركة ما ينكسر منها او يرميه البحر فان لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت فلها ان تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتتوجه الى الجهة الموسوم بقصدها ويعتمد هذا الفصل من الجهتين »

وفي كتاب الهدنة التي عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وبين دون جاكم الريدراغون صاحب برشلونة من بلادالاندلس واخويه دون فلدريك ودون بيدرو وبين صهريه دون شانجه ملك قشتالة وطليطلة وليون ولنسية واشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان والغرب الكفيل بمملكة ارغون و برتقال ودون الفونس ملك برتقال من تاريخ ٦٩٢ ان الملك دون جاكم واخويه وصهريه يفسح كل منهم لاهل بلاده وغيرهم من الفرنج انهم يجلبون الى الثغور الاسلامية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك وان سائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الديوان المعمور ٠

واعتاد الاوربيون بعد الحروب الصليبية حاصلات الشرق ، فلم يعد لهم طاقة على الاستغناء عنها ، وملك ازمة التجارة في البحر مع الطليان الكاتالانيون والبروفانسيون والقبرسيون والرودسيون ، واصبحت جزيرة رودس بمثابة مالطة وجبل طارق اليوم ، وكانت قبرس تهدد شواطئ الشام ومنافذ النيل ٠ قال صالح بن يحيى : ان مراكب الافرنج أخذت تتردد الى بيروت بعد الحروب الصليبية بالمتاجر قليلاً قليلاً ، وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتين كانتا له الى بيروت نقلةً بعد أخرى ، وكان للقبارسة جماعة من التجار يسكنون فيها اي في بيروت ، ولهم خانات وحمامات وكنائس ثم بطل ذلك ٠

وتكاثر حضور مراكب طوائف الافرنج وكانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ ببيروت ، وهي تبلغ جملة مستكثرة ، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر

ومشارف وشادّ يوليهم نائب دمشق والمتوفر من المرتبات يحمل الى دمشق . وذكر لامنس انه في نحو سنة ١١٣٦ جاءت مراكب فرنسوية عليها تجار فرنسيس من مرسيليا ثم اخذت بعض مرافئ جنوبي فرنسا كمونبلية وارل تبعث سفنها ، وبذلت جنوة جهدها لتبقى لها الأفضلية في التجارة مع الشام ، وكانت عكا المرفأ الاعظم اولاً بين موانئ الشام وقاعدة التجارة ومركز القناصل العامين ، ثم مرافئ صور وطرابلس والسويدية التي كانت تسمى ميناء مار سمعان ثم بيروت . ومنذ القرن الخامس عشر تقدمت بيروت سائر موانئ الشام ، وكان تجار الافرنج يستبضعون من بلادنا الحرير والقطن بكميات وافرة والكتان والخام والانسجة الكتانية والحريرية يتنافس الاوربيون في اقتنائها لجمال صنعتها ، وكانت صور لا تزال تتجر بالارجوان واشتهرت بآنيتها الصينية وزجاجها الفاخر ، و يقبل الاوربيون على حرير انطاكية وزجاجها ، و يبتاعون السكر بالكميات الكبرى من صور وطرابلس وغيرهما من مدن الساحل ، الى غير ذلك من ضروب الثمار والعقاقير والحشائش الطيبة والافاويه العطرية وكان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن والشب والبهار وخيرات الهند والعجم تتدفق اليها . وكان مبدأ اشتداد صلات الشام مع الغرب منذ الحروب الصليبية . وقد اخذ تجار الافرنج انفسهم بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعده يغدون و يروحون في هذه البلاد ، والحرب ناشبة بين الفريقين لا يمس احدهم باذىً ، ولا يعتدى على حقوقه ، حتى اضطر الصليبيون ان يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة في البلاد التي بقيت في أيديهم الى آخر مدة الحرب مثل صور وعكا وانطاكية لا ينال التجار منهم كبير اذى وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وتجار النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم .

ولم تكن جمهوريات ايطاليا في حرب الصليبيين دولاً بحرية من الطراز الاول بل كانت منظمة باحسن النظم الجمهورية ، ومع هذا فكثيراً ما كانت تشب الحرب بينها حتى تستأثر احداها بالتجارة في الشام ، فكان الجنويون اعداء البنادقة ، وكذلك كان الكتلانيون ، واضطر البروفانسيون ان يدخلوا تجارتهم الى هذه الديار بواسطتهم ، وهم يريدون ان يستأثروا بنقل زوار بيت المقدس وان تمر تجار ما وراء

جبال الألب من مثل جوخ الفلاندر في مواني ايطاليا ، وتنقل على سفنهم وتستوفي عنها رسوماً خاصة . ولما احتل الجنويون الماغوسة في قبرس بدأ اللاتين بزيارة دمشق وبقية الشام ، وكانت حال التجارة في الدور الثالث من أدوار القرون الوسطى في دمشق على أحسن ما يكون ، فكان التجار الاوربيون اذا انتهوا اليها رأوا فيها عدة زملاء لهم من بلاد مختلفة مثل البندقية وجنوة وفلورنسة و برشلونة وغيرها ، فيبيعون و يبتاعون ، وكان اجتماعهم في خان برقوق وقد أقام بعض البنادقة في حماة بين حلب ودمشق ، ومن حماة كانوا يبتاعون القطن . وكان للاوربيين قناصل في الشام منذ الزمن الأطول واول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة ١٣٨٤ م واسمه فرنسسكو داندللو وكانت دمشق مستقر القناصل ، الا ان لامنس يقول : ان اول ما ورد اسم القنصل في جملة النزالة الجنوية التي كانت في عكا أواسط القرن الثاني عشر ودعوه اولاً بنائب القمص (Vicomte, Vice - Comg) ثم انتشرت هذه الرتبة في أماكن شتى في النصف الثاني من ذلك القرن وعرف أصحابها بالقناصل وأطلق اولاً على الايطاليين ، وبعد زمن طويل صار للفرنسيس قنصل .

***

التجارة في القرون الحديثة

وكانت حلب في هذا الدور من اول المدن التي اتجرت مع الطليان ، وقد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الاولى وزادت مكانتها منذ اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان البنادقة يتاجرون من مليونين الى ثلاثة ملايين دوكا مع حلب كل سنة ، وقد احتفظت الشهباء بمركزها التجاري المهم فكانت نقطة الاتصال بين الخليج الفارسي والبحر المتوسط . ثم انتشر فيها الفرنسيس ولكنهم اضطروا ان يغادروها للاضطرابات السياسية الى أنطاكية ، كما اضطر تجار الافرنج في دمشق الى مبارحتها الى صيدا وبيروت وعكا . وفي سنة ١٥٠٧ م عقدت الدولة العثمانية مع فرنسا معاهدة تجارية فكانت سفن فرنسا تأتي الى مواني الشام ولا سيما طرابلس وصيدا وتأخذ منها حاصلات وتجلب اليها بضائع .

وكان الافرنج في حلب اكثر مما هم في دمشق ، لانها أقرب منفذ لاتصال الشرق

بالغرب ، فكان تجارهم يأتونها من ثغر السويدية يتجرون مع اهلها ويقايضون محصولاتهم بمحصولاتها ومحصولات الشرق ، ولا سيما الهند وفارس والعراق ، وكانت فرنسا والبندقية اول البلاد الاوربية التي اتجرت مع حلب وعقدت معها الصلات المهمة وأقامت المكاتب التجارية ، ثم جاء الانكليز في القرن السادس عشر وتلاهم الهولانديون ، وقد تناسل بعض الافرنج في حلب وارتاشوا وتأثلوا وعدوا كأنهم من أهلها ، وكان البنادقة يتجرون بالبهار يأخذونه من حلب بمقادير وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب والقطن .

وكان في حلب وكلاء لتجار الهند وبلاد الكرج والفرس والأرمن وغيرهم ، وللبنادقة بين أمم البحر المتوسط موقع ممتاز ، ولئن أفقد حلب فتحُ الطريق البحري الى الهند الشرقية بعضَ مكانتها التجارية ، فقد كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاهرة بتجارتها . وكان في حلب سنة ١٧٧٥ ثمانون وكالة تجارية لبيوت تجارية اوربية ، واكثر اعتماد الاوربيين على سماسرة من اليهود ويتجرون بالصادر والوارد ، وكثر تجار الانكليز فيها منذ عهد ملكهم جاك الاول (١٦١٣ — ١٦٢٥) .

ونما عدد تجار الاوربيين في عكا وصيدا وبيروت ولا سيما في هذا الثغر ، وأصبح على ما روى لامنس في القرن الخامس عشر ولا سيما بعد عهد تيمورلنك ملتقى شعوب البحر المتوسط وكنت تشاهد في بيروت مزيجاً يصعب وصفه من العمائم والطرابيش والكوفيات الحرير وأكسية وبرانس وقفاطين . وفي القرن الثامن عشر اقترح تجار الفرنج ان تعمر ميناء اللاذقية مبينين للحكومة حسن مستقبلها ، فلم يقبل المتصرف هذا الاقتراح وقال ربما أكون غداً في جدة فلما ذا أتخلى عن الموجود وأتطلب مستقبلاً مجهولاً .

وممن كانت لهم اليد الطولى في تنشيط التجارة في هذه الديار الامير فخر الدين المعني الثاني في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة . وكثيراً ما كانت مراكب الافرنج تأتي لمشترى الحنطة الى موانئ عكا وصور والرملة وطنطورة وربما بلغت السفن الصغيرة (البرش) الراسية في عكا نحو ١٥٠ . ولقد توسع فخرالدين في الامتيازات الاجنبية فسمح للفرنسيس ان يبنوا خاناً عظيماً في صيدا ، ولأهل فلورنسة ان يفتحوا قنصلية ،

فأصبحت صيدا ميناؤها أوائل القرن السابع عشر أمّ موانئ الشام . وفي أيامه فتح الشوف للمرسلين الكبوشيين وعمر لهم أدياراً — قاله لامنس .

وفي عصر فخر الدين كان يحمل من دمشق الى الديار المصرية عشرة قاقات كما قال صاحب محاسن الشام : وهي قصب الذهب . قبع . فرضية . قرطاس . قوس . قبقاب . قراصيا . قمرالدين . قريشة . قنبريس . ونقل الغزي عن معجم التجارة العام المطبوع سنة ١٧٢٣ (١١٣٦) ان حلب لا تضاهيها بلد بتجارها الذين يقصدونها من أقطار الدنيا ، فان خاناتها التي لا تقل عن اربعين خاناً لا تزال غاصة بالهنود والفرس والترك والفرنج وغيرهم بحيث لا تقوم بكفايتهم . قال ومن خصائصها التجارية وجود الحمام الذي يأتي تجارها بالأخبار من اسكندرونة بثلاث ساعات بسبب تربيته بحلب وحمله الى اسكندرونة باقفاص ، فاذا طرأ خبر علقت البطاقة في رقبة الطير وسرح ، فيصير الى حلب طالباً لفراخه .

قال صاحب «كتاب الشام على عهد محمد علي» : ما زالت حلب ودمشق المركزين العظيمين للتجارة في الشام ، وما برحت حيفا وبيروت وطرابلس وانطاكية واسكندرونة هي الموانئ التي يكثر اختلاف السفن الاوربية اليها ، وهي المحطات الرئيسة لتجارة الشرق ، فتأتي قوافل بغداد الى دمشق وحلب حاملة من بلاد العجم التنباك والسجاد ، ومن غيرها اللؤلؤ والاحجار الكريمة ، ومن الهند الطيب والعقاقير والافاويه ، وفي عودتها تحمل جوخاً وأقمشة من عمل اوربا ، وألبسة حريرية من صنع دمشق وحلب ، وبضائع منوعة ومصنوعات خشبية وصدفية ونحاسية ، وبسوء السياسة المخالفة لما هو جار في اوربا ، اذ كان ينشط التجار الغرباء دون التجار الوطنيين ، أصبحت معظم التجارة العربية في الشام تجري تحت اسم اوربي . وقبل ان يفتح ابراهيم باشا هذه البلاد كان التجار الوطنيون يدفعون الى الافرنج ثلاثة ونصفاً او اربعة في المئة ليتأتى لهم ان يتجروا باسمائهم ، لان الافرنج لا يدفعون على الاكثر زيادة على اربعة في المئة من كل ما يطلب من المكوس والضرائب ، على حين كانت العرب خاضعة لاداء ١٨ او ٢٠ وربما ٢١ في المئة . وقال ان عمال ابراهيم باشا كانوا يتجرون ويحتكرون أصنافاً من التجارة .

ولما قلّ الامن في البحر على عهد نابوليون الاول و بسوء الادارة العثمانية وبثورات الانكشارية سنة ١٨١٤ و١٨٢٦ و بزلزال سنة ١٨٢٢ و٢٧ و٣٢ ووباء سنة ١٨٣٢ وطاعون سنة ١٨٣٧ خربت تجارة حلب ودمشق ، وكثرت البضائع الانكليزية التي كانت تباع باثمان بخسة تجيء الشام من طريق ليفورنا في ايطاليا . وكانت الحاصلات الغير المعمولة التي تعود الى الشام معمولةً ، سبب خراب هذا القطر ، مثل حرائر ليون التي أخذت تسحق حرائر دمشق ، وحلب ومنافسة حرائر ليون التي تقلد حرائر دمشق أحسن تقليد وتباع بأثمان بخسة ، قضى على صنائع دمشق بعد ان كانت تعمل اكثر من ٤٠٠ الف قطعة قماش من الحرير والأقمشة الحريرية الممزوجة بالقطن . وكانت تجارة الحاصلات التي تبتاع بالسلف والسلم ، خراب الفلاح الشامي البائس ، وكثير من تجار الاوربيين كانوا يستحسنون هذا النوع من التجارة ، ومنهم من كان يمقتها وقد يربح المتجر بها خمسة وعشرين في المئة ، و يعدها صاحب الذمة غبناً ، وكان يصل الى بيروت كل سنة ١٣٤٠ سفينة تحمل ٧٨٤٨ طناً ويخرج ٨٠٥ سفن تحمل ٥٠٠٥ يخرج منها القطن والحرير والتبغ والاسفنج والفوّة والزيت والصابون بكمية وافرة والسمسم والكمون والعفص . وتجارة الواردات تبلغ ٤٤,٣٦٦,٦٧٠ قرشاً منها نحو ١٥ مليوناً من مصر وتجارة الصادرات ٢٦,٨٧٤,٢٧٠ منها نحو ١٣ مليوناً لمصر ، فكانت الشام تخسر مسانهة نحو ١٨ مليون قرش تسدها سبائك ذهب او نقوداً ، وهذا على عهد الحكومة المصرية . وبعض هذه الصادرات قد بطل إصداره اليوم من بلاد الشام .

ولقد تضررت حلب ودمشق بفتح البرتقاليين طريق رأس الرجاء الصالح في جنوبي إفريقية سنة ١٤٩٧م لما فتحه الملاح البرتقالي فاسكودي غاما ، وكان كشفه من البرتقاليين الملاح بارتلي دياز من قبل ، واول من اكتشفه من البيض في الحقيقة الفينيقيون نحو القرن السابع قبل المسيح ، وتأذت تجارة حلب ودمشق بفتح الافرنسيين ترعة السويس سنة ١٨٦٨ ، وكان من نكبة الشام بفتح هذه الترعة ان انتقل كثير من تجار دمشق وحلب الى بيروت والاسكندرية والقاهرة وطنطا وازميروسلانيك والاستانة ومانشستر ومارسيليا وميلانو وغيرها من المدن الاوربية والافريقية

والآسياوية ، وقد تحولت تجارة الصين والهند الى البحر ، وبطل عمل القوافل التي كانت تغدو وتروح بين الشرق الادنى والأقصى ، وقل عدد الذين يرون بدمشق من بلاد الروم وغربي آسيا للذهاب الى الحجاز ، وأصبح معظمهم يركب البحر الى البقاع الطاهرة تخفيفاً من عناء الأسفار في المفاوز والقفار ، واقتصاداً من الدرهم والدينار . وانحصرت التجارة الداخلية في حدود ضيقة ، وأصبحت لا تتعدى حدّ المستهلكات ، وصار لها مواسم قلما تروج في غيرها ، ولما انتظم سير السفن التجارية ، واستقام مجراها ومرساها ، وكثر اختلافها الى موانئ الشام ، وكانت رحلاتها من قبل منقطعة مختلفة المواعيد ، تجرأ الناس على الاتجار وتضاعفت الصلات التجارية بين الشام والأصقاع الافرنجية .

وظهرت ظاهرة مهمة في الشام منذ نحو ستين سنة أثرت فيه تأثيراً كبيراً ، وذلك ان جماعةً من تجار بيت لحم في فلسطين حملوا مصنوعاتهم الخشبية والصدفية الى معرض فلادلفيا سنة ١٨٧٦ م فربحوا كثيراً ولما عادوا كثر المقتفون لآثارهم من التجار وغيرهم من أهل الشام وبدأ الناس بالهجرة طلباً للربح ، وكانت الهجرة مقصورة اولاً على سكان الجبال من لبنان وعامل واللكام ثم تعدت الى سكان السهول ، وكان المستأثر بها سكان القرى فتعدت الى سكان المدن ، وكان التجار على الاغلب مسيحيين فأصبحوا بعدُ من جميع أهل الأديان من الشاميين ، ولم يلبث نطاق الهجرة ان توسع ، وما نراه في اللبنانين الشرقي والغربي ، وما اليهما من الجبال من الدور والقصور عمر أكثره بدراهم اميركا ، ويقدّر اليوم المهاجرون الى اميركا الشمالية والجنوبية واوستراليا وغيرها من البلاد التي ترحب بالأيدي العاملة بزهاء ستمائة الف مهاجر شامي .

وقد ساعد على دوام الهجرة اختلال المجاري الاقتصادية في السلطنة العثمانية ثم استرسال الحكومات العثمانية ثم المنتدبة في اهمال الحركة الاقتصادية وإلقاء الحبل على الغارب . وقد كان عمال العثمانيين يودون لو هاجر جميع المسيحيين من الشام ، لينجوا من دعوى اوربا في حماية الأقلية ولكن بهجرتهم ضعفت التجارة ، وكيف تنجح التجارة في أمة والحكام هم التجار ، وقد رأينا من ذلك أمثلة مهمة خلال الحرب

العامة ، فكان عمال الأتراك لا فرق بين الكبير والصغير منهم يحتكرون معظم الحاجيات دع الكماليات ، فكنت تراهم كلهم تجاراً يؤخرون الأرزاق عن الجند في ساحة الحرب و يقطعون مواد الحياة عن الرعية ، حتى يشحنوا بضائعهم ويغنموا فرصة ارتفاع أسعارها ، فاغتنى بذلك كثير من عمالهم ثم افتقروا بعد حين . « واذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا وان شاركوه في حمل السلاح هلك » .

على ان بعض البلدان استفادت كثيراً من الحرب العامة ومعظم المدن التي استفادت حلب ودمشق وبيروت والقدس . قال الغزي : ان التجارة في حلب آخذة بالتقدم منذ ثلاثين سنة ولذا كثر عدد التجار زيادة عظيمة بحيث بلغ ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل هذه المدة ، وكان معظم هذه الزيادة في ايام الحرب العالمية فان أرباح التجارة التي كانت في غضونها جرّت العدد الكبير من ذوي الصنائع اليدوية من صنائعهم الى الاسترزاق بالتجارة فنجحوا وربحوا ارباحا طائلة ، ونشأ من بينهم أصحاب ثروة تستحق الذكر . الى ان قال : وفي سنة ١٣٤١ بدأ دولاب التجارة يدور ببطء فأخذت الثروة العامة في حلب بالانحطاط لاغلاق الأناضول أبوابه في وجه تجارة البضائع المعدودة من الكماليات وغلاء اجور النقل في السكة الحديدية وتلاعب الصيارفة والمحتكرين بالأوراق النقدية والنقود الذهبية الى غير ذلك من الاسباب .

ومن أعظم الفوائد التي نتجت للشاميين من تعلم اللغات الاجنبية كالافرنسية والانكليزية بواسطة مدارس التبشير والمدارس الطائفية ، ان كان من هؤلاء المتعلمين واكثرهم من غير المسلمين عمال لتجارة الواردات من الغرب على الاكثر . واستأثر المسلمون بتجارة الصادرات فكان منهم تجار شاميون في الاسكندرية وطنطا والقاهرة والسودان والأستانة وازمير ، وكل بلد في الارض مهما بعدت الشقة اليه ترى فيه تجاراً شاميين ، وأنجح تجارهم في مصر والاميركتين واوستراليا . ولنا تجار في العراق والحجاز وفارس والهند ويابان وجنوبي افريقية وأواسطها على نحو ما وصفنا شاعر النيل حافظ ابراهيم :

ورجال الشآم في كرة الارض يباروف في المسير الغماما
ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب في طلب العيـ ـش ويبرون للنضال سهاما

ومن أهم المواسم التي كانت في فصل مخصوص من السنة تدب فيه روح الحركة في التجارة موسم السياح ، فكان سياح الغرب يأتون أوائل الربيع لزيارة الاماكن المقدسة والمصانع التاريخية في فلسطين وبعلبك وتدمر ودمشق وغيرها ويقدرون بخمسة آلاف سائح كل سنة على الاكثر الى المدن الوسطى والشمالية وباكثر من ذلك الى فلسطين فقط ، والموسم الآخر موسم حجاج افريقية وآسيا واوربا وكانوا يقدرون بخمسين الف حاج ، والفضل في ذلك يرجع لسهولة المواصلات في البر ، ولاسيما بعد امتداد السكة الحجازية ، ولرخص اجور البواخر في البحر ، وتنافس شركات الملاحة في تخفيض الاجور . وموسم الحج بطل بالحرب فنزل معدل من يزورون الشام ويتجرون و يبتاعون . اما موسم فلسطين فان كثيراً من تجارها أصبح رزقهم موقوفاً على ما يربحونه في موسم الزوار في القدس وبيت لحم والخليل والناصرة وغيرها ، وبدأ الشرق العربي يربح كثيراً من السياح الذين يختلفون الى ذاك الصقع لزيارة جرش وعمان والبتراء وقصر المشتى وغيرها . ومتى انتشر الأمن في القطر ، وكثرت الخطوط الحديدية في البر ، والسفن التجارية في البحر ، وحمت الحكومة التجارة بقوانينها وأحكامها العادلة ، ومعاهداتها مع الأمم المجاورة ، انتبه التجار الى التجدد في متاجرهم ، لا الجمود على الطرق البالية . ولا نعد تاجراً من يحرق مخزنه او ما فيه ليربح ضمانه من الشركة الضامنة ، او يتلكأ في أداء الذمم التي عليه ، او يضارب في الاسواق فيؤذي الفقير او يعامل صاحب المعمل في الغرب فيتلاعب في الأسعار والصوافي ، فان هذا مما يؤخر الصادر عنا والوارد علينا ، وفي كل ذلك ما يزيد الغبن ويورث الخسارة في العاجلة والآجلة لا محالة .

ولقد ثبت في العهد الأخير ، وخصوصاً لما أخذ المسلمون يجارون اخوانهم المسيحيين في تعلم اللغات الغربية ، ويتقنون اصول التجارة وما اليها من أساليب ممن أمم الحضارة في الكسب ، وأوضاعهم الجديدة في استثمار أموالهم في مصارف خاصة بهم ، ان

الغربيين يتعذر عليهم ان يتوسعوا بعدُ في الاتجار في القطر ، وفتح بيوت تجارية مهمة على المثال الذي كان لهم وحدهم في القرن الماضي ، وقطع أرزاق أبناء البلاد في عقر دارهم . ذلك لان التاجر الوطني أقل من التاجر الغربي في مطامعه ومطالبه ، يكتفي بالربح القليل فيتأثل ويرتاش ، ويصبر في الأزمات ، ويحسن المدخل والمخرج في البياعات ، وهو عزيز في قومه وبين أهل جيله وقبيله ، يعرف بلده وما يصلح له ويروج فيه ، ونفقاته إجمالاً أقل من نفقات الغريب . واذا تساوى الوطني والدخيل من كل وجه ، فالوطني يؤثر معاملة مواطنه لا محالة .

واذ جارى التاجر العربيُّ التاجر الغربيَّ او كاد ، تجلت في ابن الشام أخلاق التجارة ، والنفوذ في قاعدة العرض والطلب ، وبدا في هذا الميدان ذاك الشرف المغيب الذي كان كامناً في نفسه ، وورثه مع الدم المتسلسل فيه من آبائه الأقدمين ، عرباً كانوا اوروماً اوفينيقيين ، وبذلك أصبح الرجاء معقوداً بان يستأثر الشاميون بتجارة بلادهم . فان تعلموا باختلاطهم بالأمم الحية ما ينقصهم من ضبط ونظام ، وساعدهم على هذا الانبعاث قلة من يأتي من الغرب من ارباب الطبقات الاولى في التجارة ، وكان التاجر المتوسط الحال بماله ومعرفته منهم أقل حظاً ممن يماثله من الشاميين في أسواق المتاجرات ، واذ كان من البعيد على النوابغ من كل صنف في الغرب ان يغشوا بلادنا كله كان في ذلك — النفع العظيم لنا في تجارتنا ، ومتى حللنا روح الشامي وما انطوى عليه من مراعاة الشرف والاحتفاظ بالثقة ، والبعد عن التدليس والمؤالسة ، وإرادة النصح في الجملة ، كان التاجر كل التاجر ، الذاهب في الارض بجماع المفاخر ، وباستقامة تاجرنا في معاملته ، يدفع عن البلاد كثيراً من الغوائل الاجتماعية ، ولا يهنأ العيش ويطيب ، الا اذا قلَّ لابتزاز البلاد توافد الغريب من الجنس الذي قال فيه حافظ :

يُقتّلنا بلاد قَوَد ولا دِية ولا رَهَب ويمشي نحو رايته فتحميه من العطب

***

التجارة[1] والاقتصاديات في العهد الحديث

نشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ ولم تكن الشام على استعداد للدخول في غمارها ، ولم تأخذ الأهبة الكافية لمقاومة طوارئها ، وما لبثت الدولة العثمانية والبلاد الشامية التابعة لها ان دخلت في صفوف المحاربين الى جانب الدولة الالمانية وحلفائها ، فحصرت موانئ الشام وبدأت أسعار البضائع ترتفع تدريجياً وذلك في أصناف الملبوسات كأنواع منسوجات القطن والصوف على اختلاف أنواعها او في المأكولات كأنواع السكر والقهوة والأرز او في سائر الحاجيات والكماليات كالبترول (الكاز) والكحول (السبيرتو) وأنواع المواد القرطاسية والزجاجية والأصباغ والمواد الكيمياوية على اختلاف أنواعها ، وشعر الناس بالحاجة الى الاقتصاد والتفكر في استجلاب هذه الأصناف من البلاد المجاورة بقدر الإمكان .

وقد اشتدت الأزمة الاقتصادية بفقدان الأيدي العاملة ايضاً من المدن والقرى ، بسبب النفير العام الى التجنيد في جميع أصقاع الشام ، وكان من تخلصوا من التجنيد الاجباري هم الذين لم يتدربوا على التعليم العسكري فدفعوا بدلات نقدية مرات متعددة خلال أعوام الحرب . ولقد كانت هذه البدلات تكلف مبالغ طائلة في السنين الأخيرة ، وأعلنت الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب (قانون تأجيل الديون) بقواعد مخصوصة أقرتها .

ولم يلبث الضيق ان عمّ والنقد ان قلّ وخصوصاً بعدان وضعت السلطة العسكرية يدها على جميع وسائط النقل في البلاد مثل السكك الحديدية ودواب النقل والمركبات والسيارات فكانت أسعار الحاجيات تختلف اختلافاً بيناً في بلاد الشام القريب بعضها من الآخر وذلك بالنسبة للتشدد او التساهل الذي كانت تبديه الادارة العسكرية في استخدام أسباب نقل البضائع . انقضت السنة الاولى للحرب فأصبحت دمشق مركزاً للجيش الرابع الزاحف على ترعة السويس . وأنشأ يعقد البيوع

---

(١) كتب هذا الفصل في التجارة الحديثة صديقي الاستاذ السيد لطفي الحفار عميد تجار دمشق .

العظيمة والالتزامات الكبيرة سداً لحاجات الجيش المذكور ، فبدأت هذه الأزمة الشديدة بالانفراج ، وأخذت ادارة الجيش تتساهل باستخدام المجندين في ادارات المتعهدين والملتزمين ، ونشطت الحركة التجارية والصناعية في الشام . ولا ينكر ان الجيش الرابع صرف مبالغ طائلة في أسواق التجارة لضمان حاجاته الكثيرة التي لم يتمكن من تأمينها بطرق الإكراه او بواسطة الضرائب الحربية التي رأى انها عقيمة لا تفي بالحاجة ، وبعدئذ فكر بعض التجار باستجلاب بعض الحاجات الضرورية التي غلت أسعارها وعز وجودها من بلاد نجد التي كانت تستورد بضائعها من الهند وفارس على أيسر وجه وطمأنينة ، لان امير نجد عبد العزيز بن السعود كان موالياً لانكلترا لا يجد ضيقاً ولا رهقاً في استجلاب البضائع ومواد الغذاء على اختلاف أنواعها .

ولقد كانت هذه الطريقة من أهم الوسائط لسد حاجات البلاد والجيش، ولايجاد حركة تجارية جيدة كانت تدر ذهباً وهاجاً على المتاجرين والمستوردين ، كما ان كثيراً من التجار اتخذوا وسائط عديدة لاستجلاب كثير من البضائع الالمانية والنمسوية بواسطة رجال الجيش واستخدام وسائطهم لنقل هذه البضائع بالاتفاق معهم ، وبتبادل المنفعة بينهم ، وبذلك انفرجت الأزمة الاقتصادية التي بدأت في السنتين الاوليين من الحرب ، واغتنى كثير من التجار والعاملين والوسطاء من رجال الادارة والجندية باستخدام هذه الوسائط في النقل ونقل أصناف التجارة ، والبلاد محصورة لم يرد اليها شيء قط من طرقها البحرية العديدة . ولقد كثرت النقود الذهبية في التعامل بما انفق من إدارات الجيش ، وما ورد البلاد من طرق البر من البضائع ، وما كانت بريطانيا العظمى تنفقه في انحاء البلاد المجاورة عن سعة من الذهب الوهاج لتأييد الثورة العربية ، حتى أصبحت البلاد في أواخر سني الحرب على أحسن حالات اليسر والرخاء .

فارتفعت اسعار العقارات والمزارع ، وشعر الناس بكثرة النقد الذهب في ايديهم حتى كان المشتري لا يجد من يبيع عقاراً او ارضاً الا بثمن فاحش ، الى ان دخلت الجيوش الانكليزية والعربية هذا القطر تحمل بين يديها الذهب وتنفقه

بلا حساب ، و يقدر ما أنفقه الجيش الانكليزي في سنة ١٩١٩ والأشهر الاولى من سنة ١٩٢٠ في ارض الشام بما يقارب الثلاثة ملايين من الجنيهات المصرية .

* * *

الورق النقدي والعوامل في تدني الاقتصاديات } وحدث خلال الحرب ان اتجر كثير من الماليين باوراق النقد الدولي على اختلاف انواعه ، وأصبح بعضهم يستورده من طريق المانيا والنمسا وسويسرا الى الاستانة ، ومنها توزع في انحاء بلاد العرب مثل الكورون النمساوي والمارك الالماني والشلن الانكليزي والفرنك الفرنساوي والروبل الروسي واوراق النقد التركية والاسهم اليابانية والعقارية المصرية والارجنتية على اختلاف انواعها ، واصبحت تباع بقيم تنحط احياناً عن قيمتها الحقيقية ٢٥ الى ٥٠ في المئة . وتدنى سعر الروبل الروسي الى ١٠ و١٥ في المئة وكذلك المارك والكرون ، فأقبل عدد كبير من التجار وارباب الاملاك حتى والنساء على مقتناها وذلك على أمل ان تعود الى اسعارها الاولى بعد ان تضع الحرب العامة اوزارها . و يُقدر الخبيرون ان الشام ادت قيمة ما ادخرته من اوراق النقد هذه ما يربو على خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، كان القوم يأمل بيعها بما يقارب أسعارها الاولى ، وبذلك يربحون ربحاً عظيماً من أيسر طريق .

ثم أعلنت الهدنة عام ١٩١٨ وبدأ تجار الشام يستوردون البضائع المنوعة التي أعوزتها كل الاعواز من البلاد المصرية اولاً ثم عقدوا المبيعات المختلفة من اوربا باسعار عالية ، اذ اضطر أرباب المصانع والمعامل الى رفع أسعار بضائعهم لعوامل عديدة ، منها قلة الأيدي العاملة بعد الحرب العامة ، وغلاء المواد الاولية للصناعات المنوعة ، وارتفاع اسعار الفحم واجور المواصلات ، وراح الكثيرون بالنظر للحاجة الماسة الى عقد مبيعات عظيمة من أنواع البضائع المنسوجة والمغزولة على كثرة أنواعها ، ومن الأصناف الاخرى كمواد الزجاج والقرطاس والكيمياء وغيرها فأدت الشام اثماناً باهظة وقيماً فاحشة جداً في ابتياع البضائع المستوردة في سنتي ١٩١٩ و١٩٢٠ حتى غصت المخازن والمستودعات بهذه الأصناف ، وضاقت بها الأسواق على اختلاف درجاتها ، وكان لهذا الاندفاع الكلي الذي لا نسبة بينه وبين حاجة البلاد بسبب

الارباح التي كانت تدرّ اولاً ، فعل عنيف وصدمة قوية أُصيبت بهـا الأسواق فكانت من بوادر الضيق وحدوث الأزمات الاقتصادية للاسباب الآتية :

اولا : ان الشام ولا سيما دمشق كانت تكتنز كميات عظيمة من ورق النقد المختلف الضروب فطرأ عليها النزول العظيم وأصبح قسم منها في حكم المعدوم مثل الروبل الروسي والكرون النمسوي والمارك الالماني وغيرها ، وكانت الخسارة تقدر بنحو خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهباً خسرتها بلاد الشام ولم تعوض منها شيئاً .

ثانياً : نزول أسعار البضائع المتوالي منذ عام ١٩٢٠ الى ١٩٢٢ وورود كميات كبيرة من البضائع المتنوعة التي ما زالت مخزونة على التوالي عند أصحابها فطرأ النزول التدريجي عليها ، وذهب بقسم كبير من ثروة كبار الأغنياء والتجار .

ثالثاً : حدث بعد ان دخلت الجيوش الفرنسية الى المنطقة الداخلية في أواخر عام ١٩٢١ ان وضعت الحواجز الجمركية بين جنوب البلاد وشمالها وشرقها ، وكانت من قبل وخصوصاً دمشق مركزاً عظيماً لتصدير البضائع والمصنوعات الوطنية الى الحجاز وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والاناضول فأصبحت بمعزل عن هذه البلاد المجاورة ، بالنظر للتبدل السياسي الذي حدث بعد الحرب العامة ، وصارت مصنوعات الشام التي كانت تصدر الى هذه الأقطار حرة لا مراقبة عليها ولا قيد من القيود الثقيلة والحواجز الجمركية فكاد يقضى على هذه الصناعات وعلى تجارها وعمالها .

***

الحواجز الجمركية { عقدت المفوضية الفرنسية العليا في الشام اتفاقاً مع المفوضية الانكليزية العليا في فلسطين يوم ٢٢ ايلول سنة ١٩٢١ م لتأسيس جباية الجمارك على البضائع التي تتبادل هاتان المنطقتان التجارة بها ، واحداث دوائر مكس على الحدود وداخل البلاد لما تقتضيه هذه الجباية ، وعلى أثر ذلك اجتمع عدد كبير من تجار دمشق وتفاوضوا قضية هذه الحواجز وأضرارها على التجارة والصناعة وقر رأيهم على انتخاب لجنة من كبار تجار البلاد مؤلفة من عشرة اشخاص للعمل في هذه القضية ، وايجاد حل مناسب لها ، ورفع هذه الحواجز الجمركية الضارة ومنهم كاتب هذه السطور فبدأت اللجنة عملها بان قدمت تقريراً مطولاً

للمراجع الرسمية بينت فيه مقدار الأضرار التي تنتاب الشام من وضع هذه الحواجز الجمركية بين جنوبها وشرقها وشمالها خصوصاً الصناعات الوطنية المتنوعة وضمنته احصاءً دقيقاً في أنواع هذه الصناعات ومقدار النفوس والأموال والقيم المصدرة للأنواع المصدرة خلاصته :

ان في مدينتي دمشق وحمص نحو ١٠٢٦٠ نولاً يشتغل بها ٤٦٢٦٠ عاملاً ، وهذه الأنوال تخرج مقدار ٤,٥٦٨,٥٠٠ قطعة قماش قيمتها ثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، وذلك للأصناف الآتية فقط : الألاجه الحريرية والقطنية ، التركية ، الديما ، الحامدية ، الملاآت الحريرية والقطنية ، العباآت ، الستور على اختلاف أنواعها ، السلوكات الاغباني ، الشال الحريري والصوفي ، والكر والمضربات في مدينتي حماة وحلب مثل هذا المقدار من الأنوال والعمال لمختلف الصناعات الوطنية التي هي برسم التصدير الى الجهات المجاورة ، وتابعت بياناتها في الأضرار التي تعود على البلاد وقدمت احتجاجاً مطولاً بينت فيه الأضرار السياسية والإدارية والاقتصادية التي تنتج من وضع هذه الحواجز الجمركية وخلاصته بعد ان أتينا على وجهة النظر الحقوقية التي هي غير داخلة في بحثنا ما يأتي مختصراً :

اولا : انه ليس من مصلحة سورية وفلسطين إلغاء الاتحاد الاقتصادي وفصل احداهما عن الأخرى هذا الفصل المضر لانه يقلل العلائق التجارية ومبادلات الأعمال بين المنطقتين وهذا يُفضي بالتدريج الى انقسام هذه الأمة الواحدة الى أمتين و يؤدي الى تباعد المشارب وتباين الأطوار وانحلال الروابط بينهما تدريجاً الى ان يصبح البون عظيماً وتضعف عرى الألفة والاتحاد المستقرة الآن . وقد اتفق جميع علماء الاجتماعيات على ان الصلات التجارية والمعاملات المدنية هي العروة الوثقى التي تربط بين الشعوب وتقارب بين القلوب ، وان الحواجز الجمركية هي الضربة القاضية على هذه المعاملات والصلات ، ولما كان السوريون لا يختلفون في شيء عن الفلسطينيين كما ان الفلسطينيين يحسبون انفسهم قسماً من الشعب السوري العربي فجميعهم لا يرضون بوجه من الوجوه ان نفتح بينهم هذه الهوة العميقة التي تقوض أركان وحدتهم القومية والعنصرية ، و تقضي على آمالهم الوطنية و يرجون من الدولتين المحتلتين ان لا تعاونا الدهر على تفريقهم والايقاع بينهم .

ثانياً : سلطت السياسة على إخواننا في الجنوب مناظراً شديداً وخصماً لدوداً ، ونعني بهم الصهيونيين الذين لا يفتأون يدسون الدسائس لاضعاف الوطنيين وإذلالهم ليتمكنوا هم من الاستعلاء عليهم واستلاب أموالهم والأخذ بمخنق أوطانهم . واي وسيلة أنجع لهؤلاء الصهيونيين من تفريق أهالي فلسطين عن إخوانهم في سورية وقطع العلائق بينهم تدريجاً ! .

نحن لا نرى في احداث هذا الحادث الجمركي سوى تدبير مهلك سعى به جماعة الصهيونيين ليتمكنوا من الوصول الى أغراضهم ، ومعاذ الله ان تكون الدولتان العظيمتان منفذتين لرغائب الصهيونيين في امر ليس فيه الا النكاية الاهلين وإضعافهم وهما قد تعهدتا في المادة العاشرة من معاهدة سيفر بحماية جميع مصالح الوطنيين قبل كل شيء .

ثالثاً : ما زالت جمارك البر الموضوعة في داخلية البلاد عرضةً لصعوبات عظمى في ضبطها وجبايتها حتى عند أرقى الدول وأقدرها ، والقيام بهذا العمل بين سورية وفلسطين شاق جداً لا يستطاع اتقانه ولا تُرجى سلامته ، ولذلك اسباب كثيرة لا تسهل إزالتها ، منها ان الوسائط النقلية بالقطر الحديدية بين المنطقتين محدودة جداً والطرق الأخرى مفتحة على طول الحدود تجتازها الجمال والبغال وسائر حيوانات النقل في الليل والنهار ، ولا سبيل لمنع التهريب منها ، وقد يكون المهرب من التجارات اكثر مما يمر بادارة الجمرك فتكون النتيجة ان الذي يتمكن من تهريب بضائعه بدون جمرك يزاحم التاجر الأمين الذي يؤدي جمركها المفروض عليها ، و يتعذر بيع البضائع المدفوع رسومها فتضطر الحكومة الى مراقبة جميع الطرق واقامة الخفراء على الحدود ، وانفاق الأموال الطائلة في هذا السبيل ، ولا يخفى على درايتكم وخبرتكم ما ينتج عن ذلك من المحاذير الجمة التي منها :

(ا) القتال الذي يقع بين المحافظين والمهربين كما هي الحال في مسائل تهريب الدخان او هي محصورة في صنف واحد من التجارة وهي زهيدة بالنسبة الى الأصناف الأخرى لمختلف البضائع المتنوعة التابعة لهذا الجمرك الجديد .

(ب) افساد أخلاق الناس باعطائهم سبباً جديداً لمخالفة القانون وارتكاب جريمة التهريب التي تحملهم أحياناً على ارتكاب جرائم أخرى للفرار باموالهم .

(ج) افساد أخلاق المأمورين الذين يتولون امر المحافظة بفتح سبيل جديد أمامهم لأخذ الرشوة ، والاشتراك مع المهربين كما هو المألوف والمعروف في الأعمال التي هي من هذا القبيل ولسنا نجد فائدة تقابل هذه الأضرار ، ولا حسنة توازي هذه السيئات .

***

العامل الاقتصادي

ان الأضرار المادية التي تحل بالبلاد السورية من تطبيق هذا الاتفاق غير قابلة التعداد ، و يقال على وجه الاجمال ان هذا الحاجز الجمركي بيننا وبين القسم الجنوبي من سورية يكون سبباً لبقاء عشرات الألوف من الخلق بدون عمل وتعطل تجارة البلاد وصناعاتها ، لان القسم الاعظم من الغزول والمنسوجات الاوربية التي ترد الى دمشق وحمص وحماة حتى وقسماً عظيماً مما يرد الى حلب ينسج و يفصل و يخاط و يصبغ و يحول الى سلع تجارية من ألبسة وغيرها والسجة منوعة وتصدر الى الجنوب ، فاذا وضع عليها ضريبة جديدة بمعدل احد عشر بالمئة رسماً جمركياً يتعذر تصريفها و يضطر المشتغلون بها الى ترك هذه الصناعة والتجارة وعددهم عظيم جداً وهذه الصناعات القديمة في سورية هي المورد الوحيد لرزق الكثيرين من السكان كما ان هذا الضرر يلحق ايضاً سكان فلسطين بحرمانهم من إصدار معمولاتهم ومصنوعاتهم الينا وكساد العمل عندهم وعندنا في آن واحد ونلفت انظاركم الى مقابلة العلائق التجارية والبريدية والنقلية بين سورية وفلسطين قبل تطبيق الاتفاق المذكور وبعد تطبيقه في هذه المدة الوجيزة .

و يناقض هذا الاتفاق الجمركي نصوص الحقوق الدولية ولا يأتلف مع العادات المعمول بها و يضر بمصلحة الشاميين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية و يأتي هادماً لعمران البلاد ومورداً للفقر والعدم ، و يودي بالتجارة والصناعة الوطنية ، و يخدم خطة الصهيونيين المؤسسة على اقتلاع جذور العرب من تربة الشام الجنوبية وهو مضعف لعلائق الشام في التجارة مع اوربا وراجع بالصناعة السورية القهقرى وضارب على الآمال الوطنية سوراً من اليأس والعفاء وموهن للثقة التي وضعها الشاميون في دول الحلفاء فهو أضرار مجسمة بعضها فوق بعض ولذلك نطلب ابطال هذا الاتفاق

وإزالة كل حاجز اقتصادي بين أقسام الشام الشمالية والجنوبية ويمكن الاتفاق بجباية الجمارك على الواردات الأجنبية في ثغور الشام البحرية فقط من العريش الى الاسكندرونة وتقسم حاصلات هذه الجمارك بين المناطق بنسبة تقريبية تقاس بمقدار الاستهلاك في كل المناطق . واذا حصل فروق زهيدة بهذه النسبة على احدى المناطق بسبب خطإ التقسيم فهو أسهل بكثير من تحمل الأضرار المدهشة التي يولدها تأسيس الجمرك الداخلي .

ووقَّع على هذا الاحتجاج بضع مئات من كبار التجار أرباب الأموال والأعمال والصناعات ، وقُدّم مثله من تجار المدن الفلسطينية ، فأُلغيت هذه الاتفاقية وحل محلها اتفاق آخر عقد بين المفوضتين في سورية وفلسطين وجعلت فيها الصادرات والواردات بين هاتين المنطقتين حرة غير تابعة لتقاضي الرسوم الجمركية الا ما كان من استيفاء واحد في المائة على قيمة البضائع الصادرة والواردة رسوماً للبلديات ، وعلى التجار ان يقدموا قوائم صحيحة بقيمة البضائع الصادرة والواردة ، وعلى أساسها يجري الحساب بين ادارة الجمارك في المنطقتين بنسبة ما يوجد في البضائع من المواد الأولية المؤدى عنها رسوم جمركية ، حين دخولها الى ثغور الشام وهو ما يحملونه على قاعدة الجمارك المشتركة وذلك أحسن قاعدة للبلاد المتاخم بعضها لبعض والمتصلة اجزاؤها وحدودها ، والمتداخلة في أعمالها ونقلها من حيث التجارة والصناعة . وعلى قاعدة الجمارك المشتركة عقد اتفاق مع الشرق العربي اي حكومة شرقي الأردن .

ولما كانت قد حصرت جباية الرسوم الجمركية بجميع الواردات الأجنبية الى البلاد السورية في الثغور البحرية نشأ خلاف كبير بين حكومتي الاتحاد السوري التي كانت مؤلفة من ولايتي حلب ودمشق والاسكندرونة وانطاكية ومنطقة العلويين وبين لبنان الكبير ومع ان هذه البلاد تستهلك القسم الأعظم من الواردات الاجنبية ، كانت حصة الجمارك التي كانت تدفعها الادارة العامة الى حكومة الاتحاد السوري لا تتجاوز ٣٢ في المئة وهي أقل بكثير مما كانت تدفعه الى حكومة لبنان الكبير وذلك استناداً على طريقة الاحصاء التي كانت متخذة لمعرفة أنواع البضائع التي ترد الى بلاد الاتحاد السوري . وبعد أخذ ورد أصدر المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في -

سورية ولبنان حكمه في ان تأخذ سورية اثنين وخمسين في المئة والباقي يخصص بلبنان الكبير ، كما انه قرر فساد طريقة الاحصاء المتخذة قبلاً والغاءها ، وعلى هذا الأساس لم تزل توزع الحصص الجمركية رغم ما فيها من الاجحاف بحقوق الدولة السورية الداخلية .

***

الواردات والصادرات } تستورد البلادالسورية البضائع المنوعة اللازمة لأسواقها من الخارج ، واهم وارداتها انسجة القطن والحرير على اختلاف أنواعها ، والأجواخ والأواني البلورية والأدوات القرطاسية والادوات والآلات من الحديد والكاز ومواد البناء كالخشب والشمنتو والمواد الكيماوية وحاجيات الصيدليات وغير ذلك .

وتصدر الى الخارج ما يزيد عن حاجتها من حاصلات الزراعة وبعض المنسوجات من القطن والحرير المعروف بجودة صنعه واتقانه وجماله في بلاد الشرق وكذلك بعض المصنوعات من الخشب والنحاس الممتاز بدقة الصنع والسكاكر وصبيات الفواكه والحرير والصوف والجلود والتبغ والصابون وغير ذلك .

ويجري اكثر التصدير والتوريد في أسواق المدن الآتي ذكرها مرتبة حسب مكانتها وهي : بيروت ، طرابلس الشام ، الاسكندرونة ، اللاذقية ، صيدا ، من الثغور البحرية وحلب ودمشق من المدن الداخلية ، ويجب ان لا يفهم ان مقطوعية الاستهلاك في هذه المدن تتبع التصدير والتوريد بل بالعكس فان شأن الاستهلاك غالباً في الحواضر الداخلة وما يتبعها من القرى وكثرة السكان كما تقدم في بحث تعيين الحصة الجمركية بين سورية ولبنان ، ولكن المعول في حركة التوريد والتصدير على الثغور البحرية كما لا يخفى وهي واسطة النقل والشحن . ومن الاطلاع على الجداول الآتية المأخوذة من إحصاآت ادارة الجمارك يظهر مقدار الواردات والصادرات في السنين التالية والبلدان الاجنبية التي تستورد منها بلادالشام بضائعها بحسب مكانتها :

واردات سنة ١٩٢١

من	بيروت عدد طن	بيروت فرنك	طرابلس عدد طن	طرابلس فرنك	الاسكندرونة عدد طن	الاسكندرونة فرنك
فرنسا	٢١٢٢٥	٩٤٨١٥٠٠٠	٩٣٨	٢٧٤١٣٣٢	٦٠٦	٣٤٨٣٥٣٢
انكلترا	٢٦٦٣٠	١٣١٤٦٠٠٠٠	١٥٥٣	٣٧٢٤٠٣٢	٣١٥٤	٨٩٨٧٤٥٩
ايطاليا	١٢١٣٥	٤٧٣٣٠٠٠٠	٢٠٩٢	٢٧٦٣١٣٠	٤٣٦	٢٧٩٦٦٤٦
المانيا	٣٤٩٠	١٢٠٠٠٠٠٠	٢٨٧	٦٨٧٥٢٢	١٠٥	٨٠٥٧٠
بلجيكا	١٣٣٠٠	٢٣٢٩٠٠٠٠	١٦٩٣	٢٩٨٢٥٢٦	٦٠٥	١٣٤١٩٤٤
الولايات المتحدة	١٧١٤٥	٣٣٠٧٥٠٠٠	٥٠٧٧	٩٧٦٧٥٥٥	٥٦٢	٣١٢٣٥١٣
هولاندا	١٧٤٥	٨٠٠٠٠٠٠	٥٥٢	٩٤٣٦٣٥	٤٧	٢٨٩٦٦٦
مصر	٤١٨٣٠	٩٦١٥٠٠٠٠	١٩٥٥٩	٣١٩٦٨٧٦١	٢٨٢١	٦٠٦٥٠٧٣
تركيا	١٦٩٢٥	٢٥٦٤٠٠٠٠	٥٢٢٩	٩١٩٨٢٧٧	١٤٥٠	٥٢٢٤٤٠٩
بلاد مختلفة	٣٧٩٥	٧٧٤٠٠٠٠	١٥٠	١٣٢٦١٦	١١٣	٤٨٣٣٥٢
المجموع	١٥٨٢٢٠	٤٧٩٥٠٠٠٠٠	٣٧٢٣٠	٦٤٩٠٩٣٧٧	٩٨٩٩	٣٢٥٨٦١٦٤

واردات سنة ١٩٢٢

من	بيروت عدد طن	بيروت فرنك	طرابلس عدد طن	طرابلس فرنك	الاسكندرونة عدد طن	الاسكندرونة فرنك
فرنسا	٩٧٣٢	٣٣٥٥١٥٣١	١٢٦٩	٢٤٦٤٠٩٧	١٠٩١	٢٢٨٣١٠٤
انكلترا	٧٨٤٣	٤٥٦٩٦١٤١	٦٣٨	٣١١٥٤٥٢	١٦١٣	٢٥٨٦٣٢٣
ايطاليا	٧٥٠٠	٢٠٤٢٦٤٩٠	١٦٣٢	٤٠٧٣٤٤٩	٤٢٥	٦٦٨٩٦٤
المانيا	٤٧١٧	١٥٠٠٥٤١٤٠	٩٢٢	٤٢٨٤٥٦٦	٢٩٨	٧٩٢٣٦٩
الولايات المتحدة	٥٩٨٩	١٣٣٢٦٨٧٢	٦١٨	٢٠٠٢٥١١	١٦٠٤	٢٢١١٣٠٩
بلجيكا	١١١٩٤	١١٨٨٣٥٧٤	٢٨٦١	٢٨١٥٢٩٩	٣١٧	٤٢٥٩١٣
هولاندا	٨٦٢	٣٠١٩٩٠٩	١٩١	٣٧٢٩٤٤	٢٨	٧٩٩٥٧
مصر	٢٠٢٦٥	٢٩٠٣٤٥٣٥	١٠١٣٤	١٣٨٥٢٤٧٧	٢٥٢٥	٢٩٦٠٥٤٦
تركيا	٥٨١٢	٨٧٨١٢٢٩	١٠٧٧	١٨٣٠٩٩٨	٧٠٨	١٦٦٤٠٤٩
بلاد مختلفة	٥٣٥١	٥٥٩٥٩٣٢	٣٢٤٦	٩٨٩٨١٥	٣٥٠	٦٤٦٠٥٤
المجموع	٧٩٢٦٥	١٨٦٣٧٠٣٥٣	٢٢٥٨٨	٣٤٨٠١٦٠٨	٨٩٥٩	١٤٣١٨٥٨٨

صادرات سنة ٣٩٢١

الى	بيروت عدد طن	بيروت فرنك	طرابلس عدد طن	طرابلس فرنك	الاسكندرونة عدد طن	الاسكندرونة فرنك
فرنسا	١٠٥٠	١٣٠٠٠٠٠٠	١١١	٨٣١٩٥٣	٣٠٥	٢١٦٢٨٩١
انكلترا	٩٥	٥٢٥٠٠٠	١٢٦	١٣٥٨٧٧	٩٠	١٩٨٠٨٨
ايطاليا	١٥٥	١١٢٠٠٠٠	١١٢	٨٢٣٦٧٤	١٣٣	٦٣٦٧١٢
المانيا	٣٠٠	٤٩٠٠٠٠				
بلجيكا	٥	٦٠٠٠٠				
الولايات المتحدة	٢٧٥	١٩٨٥٠٠٠	١٠٤	٧٦٦٥٧٦	١٧٩	١٤٥٩٢٦١
هولاندا	٦٠	٨٠٠٠٠				
مصر	١٧١٠	٤٩٢٠٠٠٠٠	٦١٣	١٣٥٩٠٨٣	٣١٤	١١٩٤٠٩٢
تركيا	١٠٥٥	٤٩٧٠٠٠٠	٩٠٣	٣١٩١٢٦٩	١٦٥	١٢٠٧٢٠٦
بلاد مختلفة	١٤٥	٥٢٥٠٠٠	١٧٠	٣٥٩٩٤٦	١	٢٠٨٧٦
المجموع	٤٨٥٠	٢٧٦٧٥٠٠٠	٢١٣٩	٧٤٦٨٣٧٨	١١٨٧	٦٨٧٩١٢٦

صادرات سنة ١٩٢٢

الى	بيروت عدد طن	بيروت فرنك	طرابلس عدد طن	طرابلس فرنك	الاسكندرونة عدد طن	الاسكندرونة فرنك
فرنسا	٣٣٣	٥٥٩٧٥٦٢	٣٥	٢٥١١١٠	١٧٣	٧٨٥٢٥١
انكلترا	٢٥٠	٣٠٦٧٢٤	٤٧	٩٢٦٦٦	٦١	١٤٩١٧٠
ايطاليا	٩٣	٤٧٢٣٩٩	٢٦	١٥٥٠٩٠	١٣٠	٦١١٣١١
الولايات المتحدة	١١٥	٥٩٨٥٩٨٦	٨٣	١٨٩٥٠٣	٥١٣٩	٥٣٨٨٦٨٧
المانيا	٢٧٥	٦٩٦٧٣٦	٦٤	٥٤٣٩١	٢٩	٥٧٥١١
مصر	٢٣٦٩	٤٨٧٣٨٨٩	٧١٩	٦٧٧٤٩٧	٢٥٥	١١٦٠٠١٣
تركيا	٢٤٠	٢٤٥٦٦٠٢	٧٢٧	١٧٨٩٨٣٥	٢٤٠	١١٩٢٧٦٩
بلاد مختلفة	٢١٦	٦٧٣٢٦٧	٣٣٤	٧١٤٤٦٩	٣٤	٢٤٨٩٢٠
المجموع	٤١٧٣	١٥٦٧٥٧٦٥	١٩٨٥	٤٤٢٤٥٦١	٦١١١	٩٥٩٣٥٣٢

✵ احصاء تجاري اجمالي للوارد والصادر بواسطة جميع جمارك سورية ولبنان ✵
«في السنين الآتية»

تعيين	الوارد الكمية بالكيلوغرام	الوارد القيمة بالغروش السورية	الصادر (و يدخل فيه البضائع المعاد تصديرها) الكمية بالكيلوغرام	الصادر (و يدخل فيه البضائع المعاد تصديرها) القيمة بالغروش السورية	من اصل الصادر البضاعة المعاد تصديرها القيمة بالغروش السورية	ملاحظات
١٩٢٠		٣٢١٥٠٠٠٠٠٠		٢٨٥٠٠٠٠٠٠		
١٩٢١		٢٩٥٠٠٠٠٠٠٠		٣٤٥٠٠٠٠٠٠		وكان سعر الورق يختلف من ٣١ الى ٣٤ غرشاً ذهباً
١٩٢٢		٢٥٦٥٠٠٠٠٠٠		٤٣٥٠٠٠٠٠٠		(العثمانية ١٠٠)
١٩٢٣	٢٨١٩٢٠٢١٠	٢٨٠٢٣٨٥٠٠٠	٧٠٧٨٧٦٩٤	١٢٣٠٠٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠٠٠	سعر السوري من ٣٠ الى ٢٧ ذهباً العثمانية ١٠٠ غرش
١٩٢٤	٣٣٧٩١٠٧٠٢	٣٩٨٥٠٠٠٠٠٠	٧٠٩٥٧٩٣١	١٧٠٠٠٠٠٠٠٠	٤٩٢٥٠٠٠٠٠	وزنها بالكيلوغرام ١٤٩٢٠٠٠٠ — سعر الورق السوري من ٢٤ الى ٢٣ ذهباً العثمانية ١٠٠
١٩٢٥	٤٤٧٤٨٨٥١٨	٤٨٧٥٠٠٠٠٠٠	٧٧١٥٠٥٤٣	٢٢٥٠٠٠٠٠٠٠	٧٣٣٢٥٠٠٠٠	٢٢١٩٠٠٠٠ — السوري بالذهب من ٢٣ الى ٢٠

وكان معدل الوارد الوسطي لهذه البلاد قبل الحرب ٨٢٥٠٠٠٠ ليرة افرنسية ذهباً
« الصادر « « « « « ٤١٢٠٠٠٠ ليرة افرنسية ذهباً

بيان إحصاء ما ورد وما صدر الى البلاد السورية كل بلد بمقدار ما ورد اليها وصدر منها في سنة ١٩٢٤

اسماء البلاد	الوارد سنة ١٩٢٤		الصادر	
	الكمية بالكيلو غرام	القيمة بالغروش السورية	الكمية بالكيلو غرام	القيمة بالغروش السورية
بيروت	٢٢٢٨٨٩٤٩٠	٢٥١٢٠٩١٠١٦	٣٠٢٨٠٤١٣	٤٢٤٦٢٥٩٤٠
طرابلس الشام	٣٧١٤٤٢٩٢	٤٥١٠٥٢٦٥٠	١٥٣٠٩٤٨٩	١٤٨٥٣٢١٦٣
الاسكندرونة	٣٨٧٦٠٠٨٤	٤٢٧٠٩٢٥٦٧	٢٠٢٦٦٧٩٧	٤١٢٠٣٤٥٢٢
اللاذقية	٤١٩٤٢٣٢	٣٠٨٣٣٩٦٦	٢٤٩٨٦٤٣	٣٢٩٩٣٢٥٥
دمشق	١٨٤٢٥٣٤٦	٢١٩٩٩٥٦٦٣	٨٤٣٤٢٦٦	٤٠٢٨٧٦٧٣٦
حلب	١٦٠١٠٩٤٤	٣٤٢٦٩١٥٧٦	٥٦٦٥٠٧٠	٢٩٥٣٨٨٨١٤
المجموع	٣٣٧٩١٠٧٢٠	٣٩٨٥٠٠٠٠٠	٧٠٩٥٧٩٣١	١٧٠٠٠٠٠٠٠

بيان إحصاء الوارد والصادر في البلاد السورية باعتبار كل بلدة على حدة في سنة ١٩٢٥

اسماء البلاد	الوارد سنة ١٩٢٥		الصادر	
	الكمية بالكيلو غرام	القيمة بالغروش السورية	الكمية بالكيلو غرام	القيمة بالغروش السورية
بيروت	٣٠٦٢٦٦٢٠٩	٢٩٨٤١٠١٧١٧	٢٣٠٢٤٧٦١	٧١٥٩٩٦٢٩٨
طرابلس الشام	٤٣٨٤٣١٢٥	٣٩٢٤٣١٦٨٣	١٦٨٣٢٠٨٨	١٣٥٧٧٥٠٦٢
الاسكندرونة	٤٦٣٨٨٨٢٢	٦٦٦٦٩٣٧٦٦	١٩١٥٥١٨١	٦٤٥٧٧٨١٠٠
اللاذقية	٤٣٩٤٣٢١	٣٦٠٩٤٨٨٤	٣٢٤٦٣٧٢	٣١٢٣٣٨٢٨
دمشق	٢٤٦٥٣٥٩٣	٢٨٩٨٢٢٢٧٨	٨٩٤٧٥٥٥	٤٤٨٤١٠٣٩٥
حلب	٢٣١٤٣٢١٦	٥٠٦٠٨٢٠٦٠	٦٦٠٦٩٦٦	٣١٨١٠٠٧٣٥
المجموع	٤٤٧٤٨٨٥١٨	٤٨٧٥٠٠٠٠٠٠	٧٧١٥٠٥٤٣	٢٢٥٠٠٠٠٠٠٠

ونرى من النظر في جداول الإحصاء المتقدمة ان فرنسا وانكلترا هما في الدرجة الاولى بالنسبة للصادرات الى الشام ويأتي بعدهما كل من ايطاليا وبلجيكا والولايات المتحدة ·

وكذلك يظهر ان المقايضات في التجارة بين الشأم ومصر في تقدم مستمر ، وان حركة التصدير من سورية الى البلاد المجاورة كفلسطين وشرقي الأردن حسنة جداً وعليها المعول في كثير من المصنوعات الوطنية بالنظر للرغبة فيها والحاجة اليها في تلك البلاد المجاورة ، وكذلك حركة النقل (الترانسيت) بين الشام والعراق والبلاد الايرانية فانها قد ارتقت وتحسنت وذلك بعد فتح طريق السيارات بين سورية والعراق وسيكون لهذه الطريق شأن كبير في تحسين العلائق التجارية وتنشيطها بين هذه الأقطار المتجاورة ·

***

الصادرات والواردات } بلغ محصول الشام من الصوف في سنة ١٩٢٥ ٤٦٠٠ طن موزعة على الترتيب الآتي من حيث قوة الإنتاج :

حلب	٢٠٠٠	طن خام
حماة	١٥٠٠	«
حمص	٣٠٠	«
دمشق	٣٠٠	–
بلدان مجاورة	٥٠٠	«

ومن مجموع هذا المحصول الذي كان ينقص ٢٠ ٪ عن محصول سنة ١٩٢٤ نتج ٢٣٠٠ طن من الصوف المغسول ، وكانت الولايات المتحدة هي التي تستورد صوف البلاد الشامية بالدرجة الاولى ·

كانت حركة التصدير للاقمشة على اختلاف أنواعها خلال ثلاث السنين الاخيرة كما يأتي : وقد اقتصرنا على الوارد بطريق بيروت لان معظم كمية الوارد كانت تمر من تلك الميناء ٠

	سنة ١٩٢٣		سنة ١٩٢٤		سنة ١٩٢٥	
ايطاليا	١٠١٧٩	طن	١٢٥١٦	طن	١٣٥٦٣	طن
مصر (ترانسيت)	٩٣٣٦	«	٧٧٧٩	«	٦٣٧٤	«
انكلترا	٦٩٤٠	«	٦٤٤٧	«	٥٦١٤	«
فرنسا	٣٥١٢	«	٤٢٧٦	«	٣٨٤٠	«
بلجيكا	٢٠٥٩	«	٢٧٩٧	«	٣١٠٤	«



❋ إحصاء محاصيل الحرير في لبنان سنة ١٩٢٥ ❋

اسم المقاطعة	عدد شجرات التوت ومحصول الفيالج: عدد شجرات التوت: الموجود	المجدد غرسه سنة ١٩٢٥	الهالك في سنة ١٩٢٥	عدد العلب التي وضعت للتبذير (البيض)	كمية الفيالج الحاصلة بالكيلو غرام	المعدل الوسطي المحصول العلبة
طرابلس الشام	١٦٣٩٤٥٠	٨٨٣٨٦	٤٠٠٠	١٣٤٩٤	٣٣٧٣٥٠	٢٥
البترون	٦١٠٠٨٢	٨١٥٧٠	٩٤٠٠	٤٩٨٧	١١٩٦٨٨	٢٤
كسروان	٢١٨٤٢٠٢	١٠٠٥٩٨	١٠٣٥٠	٩٥٣٧	٢٢٨٨٨٨	٢٤
المتن	١٨٩٨٧٠٥	١١٢١٥٠	٥٨٩٠	٨٣٢١	١٨٣٠٦٢	٢٢
بيروت	٢٠٠٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠	١٥٠٠	٤١٥٠	١٠٣٧٥٠	٢٥
الشوف	٣٣٢٨٠٣٧	٢٢١٦٤١	١٥٥٠	٤١٥٠	١٠٣٧٥٠	٢٥
بعلبك	٢١٥٥٠	٤٠٠٠	٠٠٠٠	٣١٢	١٠٩٢٠	٣٥
زحلة	٢٦٠٧٠٠	٢٤٧٥٠	٢٠٠	٩١٩	٢٥٧٣٢	٢٨
صيدا	٧١٣١٠٠	٤٥١٥٠	٥٠	١٧٧٨	٤٤٤٥٠	٢٥
صور	٤٠٧٧٥	١٥٠٠٠	٢٠٠٠	٢٣١	٧٧٧٨	٣٨
مرجعيون	٢٢٦٢٠	٨٩٠٠	٠٠٠٠	٣٦٤	١٠٥٦٠	٤٠
دير القمر	٥٧٤٨٨٠	١٩٧٨٦	١٥٠٠	١٦٠٠	٣٢٠٠٠	٢٠
المجموع	١٣٠٥٨١٠٧	٩٣٨٩٣١	٣٦٤٤٠	٥٩٨٤١	١٤٧٠٦٢٦	٣٣٢

وقد اشتغل في موسم (١٩٢٥) ٨٩ حلالة حرير:

منها ٧٥ تعمل على طرفين
١٠ « على اربعة أطراف
٣ « على ستة أطراف
١ « على ثمانية أطراف
٨٩ المجموع

فهذه الـ ٨٩ حلالة مجهزة بـ ٣٤٥٥ مغطساً ·

بلغ الوارد من الحيوانات الى هذه البلاد خلال سنة ١٩٢٤ عدد ٣٠١٫٦٤٣ رأس حيوان والوارد في سنة (١٩٢٥) ١٨٤٫٧٣٨ رأساً · واما الصادر في سنة ١٩٢٤ فكان ٢٠١٫٧٢٦ حيواناً وفي سنة ١٩٢٥ كان ٢٨٤٫٣٨٩ حيواناً · وهذه الحيوانات تشمل أجناس الخيل والبغال والحمير والبقر والجمال والخنازير ·

***

صناعة البلاد في سنة ١٩٢٥ } ولاية حلب — ان التدابير التي اتخذتها الحكومة التركية بشأن تغيير لباس الرأس الوطني قد أثرت تأثيراً سيئاً في نشاط الصناعة الحلبية · فقد اشتغل في حلب ٢٤٠٠ نول في شهر كانون الاول يقابلها تشغيل ٢٧٠٠ نول في شهر تشرين الثاني وقد بلغ معدل ما يحصل منها ٧٥٠٠ ثوب قطني مغزول بطول ستة أمتار و ١٢٠٠ ثوب بطول خمسة أمتار و١٠٧٥٠ سلكاً أغبانياً كوفيات ومناديل · ويصنع في دير غطا وابو الظهور الكتان الاهلي والقماش المستعمل لصنع الخيم (الوبر) · وقد بلغ محصول الصابون في حلب ١٢٦٫٠٠٠ كيلو غرام ومحصول الزيت ١٨٢٫٥٠٠ كيلو غرام والدباغات قد حضرت ٧٥٠٠ من جلود الخرفان و١٩٠٠ جلد ماعز و٢٠٥٠ جلد حملان (خرفان صغار) و٣٠ جلد ثور يكون مجموعها ١١٫٤٨٠ وقد أمنت المطاحن في حلب منتوجاً يقدر بـ ٢٥٥٠ طناً من الطحين وأنواعه · وقد شوهد نقص محسوس في تحضير أدوات التعمير في هذه النسبة بالنظر للأزمة الاقتصادية التي بدأت فيه ·

لواء الاسكندرونة — لا يزال النشاط الصناعي عظيماً في حلالات الحرير في السويدية وجبل موسى وفي معامل الصابون في انطاكية وفي المطاحن ٠

حكومة العلويين — قد خطط انشاء معملين لحلج القطن احدهما في اللاذقية والثاني في جبلة كما ان المعاصر تعمل عملاً جيداً ٠ وقد اخذت انوال القطن الخامي في قرى اللاذقية وصهيون تعمل بجد ونشاط وكذلك مدابغ اللاذقية ٠

* * *

وهاك الوارد الى ميناء بيروت من الأقمشة على اختلاف انواعها من الحرير والقطن والصوف والكتان بالبالات او الطرود او الرزم في ثلاث السنين الأخيرة ٠

سنة	١٩٢٣	١٩٢٤	١٩٢٥	
فرنسا	٣٥١٢	٤٢٧٦	٣٨٤٠	بالة او طرد او رزمة
انكلترا	٦٩٤٠	٦٤٤٧	٥٦١٤	
اميركا	٦٢	١٤٣	٢٢٨	
ايطاليا	١٠١٧٩	١٢٥١٦	١٣٥٦٢	
بلجيكا	٢٠٥٩	٢٧٩٧	٣١٠٤	
هولاندا	٥٧٢	٥٢٢	٣٢٥	
المانيا	٨٢١	٣١٧	٢٧٠	
بواسطة تريستا	٥٨٦	٨٥٥	٦٥٩	
بواسطة الاستانة	٢٥٦	٢٣٠	٥٠	
ترانسيت مصر	٩٣٣٦	٧٧٩٩	٦٣٧٤	
المجموع	٣٤٣٢٣	٣٥٩٠٢	٣٤٠٢٦	

ويظهر لمن يدقق في هذه الجداول الفرق الكبير بين الصادرات والواردات في البلاد الشامية ويحكم عليها حالاً انها سائرة في طريق الافلاس ، ولكن الحقيقة هي ان الفرق أقل مما يظهر لاول وهلة ، لان للبلاد الشامية موارد أخرى غير صادراتها وان كانت لا تسد هذا العجز ، ولولا هذه الموارد لوقعت البلاد في هوة الافلاس منذ زمن طويل ، وهي تنحصر فيما يلي :

اولاً — الأموال المرسلة من المهاجرين الشاميين المنتشرين في انحاء الارض ولاسيما في البلاد الاميركية حيث أصبح الشاميون بجدهم واجتهادهم يملكون ثروة كبيرة بواسطتها يوالون ارسال معاوناتهم الى اهلهم وأقربائهم في الشام ونقدر هذه الاموال بمليون ليرة انكليزية و بحسب إحصاء سنة ١٩٢٢ بثلاثين مليون فرنك سنوياً .

ثانياً — واردات الاصطياف والسياحة وهي تقدر بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات واذا ساعدت الحكومات على تنشيط الاصطياف وتنظيم الطرقات وتسهيل المواصلات ونشر الأمن والطمأنينة تجني الشام موارد كبيرة من هذا السبيل ذلك لان هواء الشام المعتدل وماءها العذب وجمالها الطبيعي كل هذا مما يحمل المصطافين على ارتياد مناهلها ، وكلما زادت العناية في هذا المورد الكبير تزيد واردات البلاد على نسبة ما يبذل من العناية لتنشيط وسائل السياحة والاصطياف .

ثالثاً — فوائد الأموال والأسهم والقطع المالية الموجودة في ايدي السكان وهي تقدر بثلاثمائة وخمسين الف ليرة انكليزية . الى غير ذلك من الموارد الأخرى الضئيلة ولا سبيل الى تنظيم موازنة اقتصادية جيدة الا بتحسين زراعتنا ، وبلادنا زراعية من الدرجة الاولى ، والعناية متوجهة اليوم الى تعميم زراعة التوت لتربية دود القز وموارد الحرير الشامي آخذة بالزيادة وصناعته سائرة نحو الاتقان كما يظهر من مراجعة الجدول المتعلق بتربية انتاج الحرير . وكذلك زراعة القطن في الجهات التي تصلح له وهي كثيرة جداً ، ومثل ذلك يقال في التبغ والأثمار وغيرها والعناية بتربية المواشي . وكذلك بذل الجهود في ترقية الصناعات الشرقية المنوعة والاستغناء بقدر الإمكان عن المصنوعات الغربية . و بهذه الواسطة نصل الى التوازن بين الصادرات والواردات فيزول الخطر الاقتصادي الذي يهدد البلاد والذي نعاني شدته الآن

خصوصاً اذا طرأ على البلاد حوادث لم يحسب حسابها كما حدث في السنة التي نحن فيها فالبلاد الشامية استقبلت عام ١٩٢٦ وهي تكاد تنوء بضائقتها الاقتصادية ، وأزمتها المالية . فالاشغال تعطلت ، والصناعات وقفت ، والتجارة فلجت ، والاسواق التجارية كسدت ، — لاسباب عديدة نذكر هنا أهمها — اولاً : ان الشام مُني في السنة السابقة بقحط مزروعاته سواء كان في حوران او في الغوطة وفي جهات حمص وحماة التي بليت بحشرة السونة فعطلت الموسم وفي الجهات الشمالية ايضاً ، وبدأت الشام تستورد الحنطة والحبوب من البلاد الاجنبية لسد حاجتها منها وذلك عوضاً عن ان تصدر هذه الغلال الى البلاد المجاورة وكان مقدار ما استوردته على أقل تقدير يربو على المليون ليرة ذهباً قيمة المواد الغذائية .

وبهذه المناسبة أصدرت الحكومة قراراً أجلت فيه استيفاء الديون التي لمدينة دمشق على حوران الى السنة القادمة فلم يتمكن تجار الحبوب من استيفاء ديونهم بسبب هذا االقرار الذي لم تكن هناك ضرورة تستدعي إصداره وكان سبباً لعرقلة سير المعاملات بين الدائنين والمدينين ، وقد قامت غرفة التجارة في دمشق حين صدوره بتقديم تقرير مطول تنتقد فيه هذا القرار وتبرهن على عدم وجود الاسباب الكافية لصدوره ، وعلى مبلغ الاضرار التي تنتج عنه كما يظهر من مراجعة نشرتها الصادرة في شهري ايار وحزيران من السنة الماضية .

ثانياً — بعد ان اصطدمت الاسواق التجارية بعدم تمكنها من استيفاء ديونها التي في حوران وهي تربو على مائة الف ليرة عثمانية ذهباً منعت ايضاً حكومة شرقي الاردن إصدار السمن والغلال الى جهات سورية وبذلك ايضاً تأخر تسديد الديون التي لدمشق على تلك الجهات وتقدر قيمتها بثلاثين الف ليرة عثمانية ذهباً .

ثالثاً — نشبت الثورة في جبل حوران في آخر ايام موسم الحبوب والغلال اي في شهر تموز وتعرقلت أعمال التجارة وامتنع إصدار الحبوب الى أسواق مدينة دمشق ، وكانت حالة الموسم في الجبل جيدة والتجار الذين لهم علاقات كبيرة مع جبل الدروز سواء كانوا من تجار أنسجة الالبسة على اختلاف أنواعها او من تجار الحبوب لم يتمكنوا ايضاً من قبض شيء من ديونهم الطائلة وامتنع عليهم التحصيل ، وسدت في وجوههم

ابواب الرزق ، وقد قدرت الديون التي لمدينة دمشق على جبل الدروز بمئة وخمسين الف ليرة عثمانية ذهباً لم يتمكن الجبل من تسديد شيء منها بسبب الثورة الناشبة فيه .

رابعاً — وكانت توالت في شهر تشرين الاول حوادث العصابات في الجهات القريبة من دمشق وهددتها باكتساحها فخاف التجار على أموالهم وعلى بضائعهم المتراكمة في محلاتهم ومخازنهم وكان يخشى حدوث فوضى ونهب في الأسواق فبدأ التجار ينقلون بضائعهم وأموالهم الى البيوت القريبة من أهم أسواق المدينة كمحلة الحصرية القريبة من سوق مدحت باشا وزقاق سيدي عامود القريب من سوق الحميدية وذلك خشية السلب والنهب ، وفي أواخر الشهر المذكور تمكنت بعض العصابات من الدخول الى المدينة فضربتها السلطة بالقنابل واحترقت الاحياء القريبة من تلك الأسواق وهي التي نقل التجار بضائعهم اليها خشية النهب ولم يحسبوا للحريق حساباً فتدمرت تلكم الأحياء العديدة برمتها وفيها أمتعة وأثاث ومفروشات وبضائع تقدر الخسارة باربعة ملايين ليرة عثمانية ذهباً .

خامساً — على أثر حصول هذه الحوادث بدأت الاسواق التجارية تشعر بالضيق الشديد وقلة النقد وتشددت المصارف المالية بقبض ديونها المستحقة ، وصار يخشى ان تقع إفلاسات عديدة ، لو لم تتدارك غرفة التجارة بدمشق الامر وتسعى بصورة حبية مع مديري المصارف لاجراء بعض التسهيلات اللازمة للتخفيف من هذه الضائقة ، وبذل المعونة بتسهيل معاملات الاقراض وقبض الديون ، فبدأت بعض المصارف لاجراء بعض التسهيلات في تسديد الديون المستحقة وقبلت ان تقبض في المئة خمسين من اصل السندات المستحقة وترجئ الباقي الى مدد قريبة بالتواقيع السابقة وبعضها شدد الوطأة على دائنيه فلم يقبل اجراء مثل هذه التسهيلات واما فيما يتعلق بالاقراض فانهم أجمعوا كلهم على عدم التسليف ، واذا جرى لبعضهم فبالفائدة الباهظة والشروط الثقيلة .

* * *

ما يجب للنجاح في الاقتصاديات | لا يجد المفكر في أحوال التجارة والصناعة أمامه سوى الطرق الآتية لنجاح تجارتنا ووضعها على اساس اقتصادي متين ورقي صناعتنا لتضاهي الصناعات الغربية وتقاوم مزاحمتها العنيفة .

اولاً — تأليف الشركات الصناعية لتأسيسها على الاصول الميكانيكية الحديثة ، ولقد جربنا القيام لتأليف شركات مساهمة في أحوال مختلفة ، واتخذنا وسائط التشجيع فلم نتوفق لذلك الى الآن ، ذلك لأننا لم نألف بعدُ مثل هذه الاعمال المشتركة . ولا سبيل الى تحسين صناعتنا وإتقانها الا بتأليف هذه الشركات المنوعة ، ومتى تم لنا الظفر للقيام بمثل هذه المعاهد نعتقد اننا بدأنا نقاوم تيار الصناعات الغربية لتحل محلها صناعتنا الجميلة ، الممتازة بقوتها ومتانتها ، والتي تحتاج الى مفاداة أبنائها لتوسيعها واتقانها . خصوصاً وان رخص اليد العاملة ورخص المواد الأولية كفيلان بنجاح كثير من صناعاتنا بالنظر لتوفر هذين الشرطين الأساسيين .

ثانياً — وضع الرسوم الجمركية على قاعدة حماية الصناعة الوطنية .

ثالثاً — العناية الفائقة بتحسين زراعتنا وعلى الاخص منها القطن والقنب والفاكهة المعروفة بجودتها في ارض الشام والعناية بتصديرها الى الخارج فان جارتنا مصر تستورد من أنواع الفاكهة حسب إحصاآتها ما تساوي قيمته ٣٧٥ الف جنيه فهل فكرنا في تحسين وسائل الإصدار لأنواع فاكهتنا المعروفة بكثرتها وطيبها ؟ وكذلك القول في زراعة التبغ . وعلى ذكر هذا الصنف العظيم لا بد من القول ان بقاء شركة حصر الدخان (الريجي) مع انتهاء مدة امتيازها أضر بزراعة الدخان ضرراً بليغاً حال دون الاستفادة منه فائدة تعود بالخير والنماء ، اذا كانت حرة طليقة من قيود هذه الشركة واستبداد رجالها . ومن المحقق ان تنشيط زراعة الدخان على أنواعه وتشجيعه يقلل من تقليل هجرة المهاجرين وتخفيف قوة تيارها الجارف ويقتصد للبلاد مبالغ طائلة تدفعها ثمناً للدخان الأجنبي .

رابعاً — جعل عملة البلاد على قاعدة الذهب، ذلك لأن وضع عملة البلاد الشامية على قاعدة (الفرنك) الفرنسي واستصدار الاوراق النقدية السورية على هذا الاساس قد أضر الاسواق التجارية ضرراً بليغاً ، وسبب لها خسائر كبيرة بسبب صعوده وهبوطه المتوالي ، وليس ثمة ما يبرر جعل عملة البلاد على هذا الاساس من الوجهة الاقتصادية او من الوجهة الحقوقية فقد كان سبباً لاخراج كمية كبيرة من الذهب المخزون في البلاد وتصديره الى الخارج واحلال هذه الاوراق التي مضى عليها وقت

طويل وهي تميل نحو الهبوط وتحل محل الذهب ، حتى أصبح المتداول منه قليلاً جداً شعرت به البلاد شعوراً محسوساً ، وكان له أثر سيئ في أسعار العقارات والارضين وسبب نزولها نزولاً فاحشاً ، فالمعروض من مختلف الاملاك كثير جداً ، والمشتري لا يوجد الا قليلاً بالنظر لقلة الذهب الموجود ٠

خامساً — الاقلال من استعمال الكماليات وأدوات الزينة والترف وبذل الغيرة في استعمال المصنوعات الوطنيــة بقدر الإمكان لاسيما الحلويات والسكاكر الافرنجية فان مصنوعات البلاد من هذه الأنواع تفوقها جمالاً وإتقاناً ولذة ، فقد ارتقت هذه الصناعة في البلاد رقياً حسناً كان من أثره تصدير كميات كبيرة منها الى البلاد الغربية ايضاً وخصوصاً أصناف مربيات الفاكهة على اختلاف أنواعها والاقتصار على مصنوعات البلاد من هذه الأنواع يوفر مبالغ طائلة تقدر بمئات الالوف من الدنانير الذهبية ٠ وربما يظن بعضهم ان المسألة أبسط من ان تحتاج لمثل هذا الاهتمام ، ولكنه اذا رجع الى إحصاآت الوارد من هذه الاصناف رأى ان الوارد من أصناف (الشكولاته) وحدها يربو على المئة والخمسين الف ليرة ذهباً وعندنا من انواع الحلوى التي مادتهــا من ثمر البلاد وعمل ايدي ابنائها ما يقوم مقامها حتى عند أشد الناس ترفاً وبذخاً ٠

سادساً — تخفيف الضرائب عن عاتق الاهلين وقد أصبحوا لا يطيقون حملها بالنظر لكثرتها وتعددها وزيادتها بالاضافات التي طرأت عليها ، مع قلة أسباب الرزق وضعف موارد الاقتصاد ، وبما ان قضية الضرائب قضية مهمة جداً اذكر كلمة موجزة عنها فأقول :

***

الضرائب — تتقاضى الحكومة الآن ضرائب فاحشة بحجة الضرورة الماسة لتسديد ميزانيتهــا ، واذا كانت القاعدة الاقتصادية القائلة (ان ثروة الحكومة من ثروة الشعب) صحيحة وجب على الحكومة ان تراعي ثروة الاهالي والاحوال الاقتصادية الحاضرة ، ولا يمكنها ذلك الا اذا أمعنت النظر في حقيقة الثروة التي يملكها الشعب مع نسبة الضرائب التي تتقاضاها الحكومة الى هذه الثروة ٠ فثروة الشعب اليوم سواء كانت عقاراً او تجارة ضعيفة جداً والدليل المقنع الذي لا يحتمل الرد على ذلك هو : ان الثروة الحقيقية في البلاد وهي الارض

والاملاك التي أصبحت قيمتها الآن أقل من قيمتها قبل سنتين بمعدل اربعين بالمئة وأقل من أثمانها قبل الحرب العامة عشرين بالمئة على أقل تعديل · فاذا كانت هذه نسبة أثمان الثروة الحقيقية التي يملكها الشعب أصبح من المتحتم على الحكومة اليوم الاهتمام الكلي لتخفيف هذه الاعباء الثقيلة عن عاتق الشعب ولا يمكن تخفيفها الا بتعديل جباية الضرائب وطرحها على وجه يلائم مصلحة الشعب والحكومة في وقت واحد ·

وقد وضعت هذه الضريبة موضع الاجراء يوم البداءة بالتنظيمات الخيرية اي من سنة ١٢٥٥ هجرية وذلك عندما ألغيت رسوم الاحتساب · واخذت تجبى اعتباراً من السنة المذكورة بصورة موحدة مع ضريبة الخراج ، وعلى نسبة القيمة التي يجري تقديرها في الاملاك والمزارع والاموال والحيوانات ودرجة الثروة والاستطاعة في كل فرد من الاهلين واخيراً بمقتضى تعليمات التحرير المؤرخة بسنة ١٢٧٥ ونظام التحرير العمومي المؤرخ سنة ١٢٧٧ وأخذت تستوفى على نسبة ثلاثة في المئة من مجموع الارباح التي تقدر لكل شخص من ارباب الصناعة والحرف · وبعد ذلك بمقتضى قرار الاملاك والاغنام والاعشار المؤرخ في ٥ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ وفي ٤ شباط سنة ١٩٢٥ أبلغت النسبة المذكورة الى اربعة في المئة وبعد ذلك اي اعتباراً من سنة ١٣٠٣ أبلغت الى خمسة في المئة وبعد ذلك بمقتضى نظام الخراج (الويركو) المؤرخ في ٢٢ آذار سنة ٣٢٣ والنظام المؤرخ في ٨ كانون الثاني سنة ٣٢٧ المعدل الى النظام السابق صار تحرير طرحها ·

وبدأت الحكومة العثمانية تجبي ضريبة المسقفات منذ سنة ١٢٧٥ بترتيب ضريبة الخراج فأجرت تحرير المسقفات في المدن والقرى والقصبات وبدأت بجبايتها بنسبة خمسة في الالف من بيوت السكن التي لا تتجاوز قيمتها العشرين الف قرش وثمانية في الالف من بيوت السكن التي تربو قيمتها على ذلك المقدار وعشرة في الالف في بقية المسقفات المعدة للايجار مهما تكن قيمتها وعشرة في الالف ايضاً من البساتين والكروم المستثناة من الاعشار واربعة في الالف من مسقفات الاوقاف المكلفة بدفع خرج المحاسبة ثم انها في سنة ١٣٢٦ مالية غيرت هذا الشكل وأصدرت قانوناً يقضي بتحرير جميع المسقفات وتعيين ايراد غير صاف لها بدلاً من القيمة السالفة الذكر وفي سنة ١٣٢٨

بدأت بتعيين هيئات التحرير وباشرت بتطبيق مواد ذلك القانون في أقضية دمشق وحماة وحمص وبعلبك والبقاع والزبداني وهو يقضي باستيفاء اثني عشر في المئة من جميع المسقفات سواء كانت للسكن او للايجار وتسعة في المئة من الطواحين والمعامل والبيوت المعدة للسكن المعمولة بالخشب واللبن ومن جملة مقتضيات هذا القانون استثناء بيوت السكن التي وارداتها ٢٥٠ قرشاً او اقل من ذلك واعفاء هذا المقدار من واردات البيوت التي وارداتها من ٢٥١ الى ١٠٠٠ واستيفاء الضريبة المذكورة من بقية الواردات الى آخر ما جاء في هذا القانون الذي وضع موضع الاجراء اوائل سنة ١٣٣٣ شرقية ثم ان الحكومة العثمانية قررت ضم ضريبة الحرب التي أحدثتها في سنة ١٣٣٨ على الضريبة المذكورة وقدرها خمسة وعشرون في المئة وفي سنة ١٣٣٠ زادت عليها ايضاً عشرة في المئة باسم حصتي الولاية وطرقها وعشرة في المئة ايضاً باسم حصة البلدية وما كان من تلك الزيادات التي هي حصتا الولاية وطرقها وضريبة الحرب فانها أدخلتها في موازنتها وجعلته من جملة وارداتها خلافاً لحصة البلدية فانها كانت وما زالت تدفعها الى صندوق البلدية بنسبة مجموع الجباية . ثم ان الحكومة العربية ألغت ضريبة الحرب منذ سنة ١٣٣٥ (١٩١٩م) ونحت نحو الحكومة السابقة باستيفاء بقية الضمائم كما انها اعتباراً من سنة ١٣٣٦ (١٩٢٠م) زادت على ضريبة المسقفات هذه خمسين في المائة على الاملاك المعدة للايجار وخمسة وعشرين في المائة على البيوت المعدة للسكن التي تربو ضريبتها على المائة . وأضافت على حصة البلدية عشرة في المائة وأبلغتها الى عشرين في المائة . و بهذه الواسطة اذا نظرنا في نسبة ضريبة المسقفات التي يجب استيفاء اثني عشر في المائة عنها نجد ان الحكومة تستوفي الآن احد وعشرين في المائة وستين سنتياً .

***

مثال من الشركات النافعة قدمنا اننا لم ننجح في تأليف الشركات المساهمة لتأسيس صناعاتنا على الاصول الحديثة ، لاننا لم نتشرب بعد روح الاعمال المشتركة ، غير ان الواجب يقضي علينا بان نذكر كلمة عن اول مشروع كبير قام به الدمشقيون مشتركين ، وكان مثالاً حسناً لفائدة التضامن

والتعاون في سبيل الاعمال النافعة ، ذلك مشروع جر ماء عين الفيجة الذي دعت اليه غرفة التجارة وبذلت جهودها في سبيل إتمامه فقدمت لائحة المشروع الى حكومة دمشق (٢٤ آب عام ١٩٢٢) . وقدرت كلفة جر المياه ومصاريفه بمائة وخمسين الف ليرة عثمانية ذهباً يدخل فيها نفقات الشبكة الداخلية في المدينة وُزعت على خمسة آلاف متر فأصاب المتر ثلاثون ليرة عثمانية ذهباً وهكذا أُقرت اللجنة التي أُلفت لهذا الغرض المشروع وقامت بالدعاية اللازمة للاشتراك به . ثم ان اللجنة الاولى حينما أتمت عملها التأسيسي عرضت الخمسة آلاف متر للاكتتاب العام وسعت لترويجه بقدر ما ساعدتها الحال الى ان اكتتب قسم كبير من الاهلين وأعلنت ان الذين يدفعون القسط الاول من قيمة اكتتابهم يصبحون اعضاء في جمعية ملاك الماء ولهم وحدهم حق انتخاب ثمانية اعضاء يؤلفون نقابة ملاك الماء حسب نص قانون هذه الجمعية وهؤلاء يضمون الى الاعضاء الطبيعيين الذين نصت عليهم المادة السادسة من المقاولة المعقودة بين حاكم دولة دمشق ورئيس بلديتها ويؤلفون (لجنة ماء عين الفيجة) .

واكتتبت الاهالي بثلاثة آلاف متر ودفعت قيمة القسط الاول البالغ ثلاثين الف ليرة عثمانية في الاوقات المعينة الى المصرف السوري اللبناني ثم تقدمت المالية واشترت مقدار الف وخمسمائة متر بشروط حسنة . وبعدئذ عرض المشروع للالتزام في البلاد الاوربية والاميركية والآسيوية وتقدمت شركات قديرة من الوجهة المالية والفنية للمناقصة فيه بعد ان أرسلت مهندسيها ودرسوا المشروع بصورة عملية على الجبال وعلى المصوّرات الموضوعة له ، وجرت المناقصة بين اثنتي عشرة شركة بعد اثبات اقتدارها المالي والفني على الاصول . وشوهد ان شركة الخواجات أصفر وسارة هي التي قدمت أقل الاسعار وهي تنزيل خمسة ونصف في المئة من القيمة المخمنة لجر المياه من نبع الفيجة الى خزان المهاجرين وهكذا باشرت الشركة المذكورة العمل بالانفاق مع شركة (تيك) المتخصصة بحفر الانفاق بأحدث الادوات والعمل سائر في طريق النجاح وسيكون مثالاً حسناً لفوائد الاعمال المشتركة ومقدمة لتشجيع الناس على الإقدام لتأليف الشركات للقيام بالاعمال الكبيرة التي لا يمكن لفرد ان يقوم بها وستجني

مدينة دمشق من هذا المشروع العظيم فوائد كبيرة من الوجهة الصحية والعمرانية ذكرت هذا المشروع لان له علاقة كبيرة بتاريخ البلاد الاقتصادي (انتهت مقالة الاستاذ الحفار) ٠

* * *

تجارة فلسطين في الدور الجديد } اما فلسطين فقد كانت تجارتها في العهد الاخير في صعود وهبوط وصادراتها أقل من وارداتها لكن التحسن مطرد في حالتها و يؤخذ من تقرير ادارة الجمارك والمكوس والتجارة على ما عربته المجلة التجارية ان مجموع واردات الجمارك والمكوس والموانى كان سنة ١٩٢٥ ١٫١٠٩٫٩٥٥ جنيهاً مصرياً يقابله ٦٥٦٫٨٨٠ ج٠م في سنة ١٩٢٤ وقد زاد الدخل من مكوس التبغ على ١٠٠ الف جنيه ٠ وأعفيت من الرسوم الجمركية الفحم والكاز الوسخ وزيت ديزل وسدلر والمازوت والبراميل والمواد الاولية التي تدخل في الصابون وكسر بزر الزيت والدباغة والنسيج ٠ وأعفيت ايضاً بضائع قيمتها ٥٩٫٢٤٤ ج لما تقضي به حقوق المعاهدات الدولية ٠ و بلغ مجموع قيمة الواردات ٧٫٣٣٨٫٤٩١ ج مقابل ٥٫٢٦٦٫٣٠٩ في سنة ١٩٢٤ ومجموع قيمة الصادرات من نواتج فلسطين ١٫٢٩٧٫٥٥٩ مقابل ١٫٢٠٠٫٨١٢ في السنة التي قبلها وكانت أهم الزيادة في الواردات الحبوب والدقيق ومواد البناء والبضائع القطنية من الادوات والسيارات وأنواع الكاز ٠ وبلغ ما بيع من الملح ٤٧٩٤ طناً مقابل ٣٤٥٧ طناً في سنة ١٩٢٤ ٠

ان انتعاش التجارة من أزمة سنة ١٩٢٣ الذي ابتدأ منذ سنة ١٩٢٤ قد ظلّ مستمراً بتأثير النازحين الجدد وما جلبوه معهم من رؤوس الاموال التي أودعوها المصارف فسهلوا بذلك اعطاء السلفات وقد هبط معدل الفائدة الى أدنى رقم منذ الاحتلال ولكن المشتريات المبنية على المضاربة توقعاً لزيادة الطلب وعلى الخصوص فيما يتعلق بتجارة المباني واستثمار الأموال في أبنية واسعة النطاق مع مشتري الارض أدت الى قلة النقد قرب نهاية السنة فنتج عن ذلك قبض المصارف يدها عن التسليف ٠ وقد زاد معدل المعيشة بنسبة ٤٫٤ بالمائة عن سنة ١٩٢٤ وارتفعت اسعار الجملة ٧٫٢ بالمائة ٠ وبلغت صادرات البرتقال ١٫٨٦٨٫٢٩١ صندوقاً مقابل ١٫٨٨٠٫٧٨٣ في سنة

١٩٢٤ وكانت الاسعار عالية وكان معدل المبيعات الاولى ١٢ — ١٥ شلناً الصندوق ٠ وكسدت تجارة الخمور الصادرة وقل الوارد منها ٧٨٥٠ ج وصدر من الصابون ٥٨٥٥ طناً قيمتها ٢٤٧٫٧٢٥ وأدخل تحسين على صناعته فصار يعمل منه الصابون المطيب ٠ وفي فلسطين سبعة معامل للتبغ واللفائف وسبعة معامل للتنباك وكان ناتجها من اول ايار ٢١٩٫٨٠٠ كيلو غرام من اللفائف و ١٢٠٠٠ من التبغ المفروم و٤٠ في المائة من التبغ المصنوع في المعامل وهو من ناتج فلسطين والمساحة المزروعة تبغاً وتنباكاً في فلسطين هي ثلاثة آلاف آكر (الآكر ٥٢ آراً والآر مئة متر مربع) وما زال تهريب التبغ مستمراً على درجة واسعة ٠

وقسمت الواردات المستهلكة في فلسطين في سنة ١٩٢٥ اربعة أقسام منها ١٫٩٨٧٫١١٠ ج ثمن مأكولات ومشروبات وتبغ و٦٢٧٫٥١٨ مواد خام وبضائع اكثرها غير مصنوع و٣٫٩٦٧٫٥١٨ بضائع مصنوعة كلها او معظمها و٧٥٦٫٣٤٤ صادرات شتى وأهم مصادر الواردات ونسبتها الى المجموع بريطانيا العظمى ١٫٠٨٣٫١٥٦ ج اي ١٤٫٥ بالمائة وسورية ١٫٠١٧٫٩٠٣ اي ١٤٫٥ في المائة والمانيا ٩٣٠٫٤٣٩ اي ١٢٫٥ في المائة واميركا ١٦٦٫٩٩٩ اي ٩٫٥ وبلدان بريطانية اخرى ٥٨٣٫٠٥٠ اي ٧٫٥ وفرنسا ٥٦٣٫٦٨٩ اي ٧٫٥ ومصر ٣٧٥٫١٦٩ اي ٥٫٥

وتقسم الصادرات الى مأكولات ومشروبات وتبغ وقيمتها سنة ١٩٢٥ ٨٨٢٫٢٣٤ ج ومواد خام وبضائع اكثرها غير مصنوع ٦٦٫٨٠٨ بضائع مصنوعة كلها او معظمها ١٢٨٫٣٠٠ وأشياء أخرى ٤٨٫٣٣٩ وأهم موارد الصادرات مصر ويصدر اليها بما قيمته ٥٧٧٫٢٧٧ ج اي ٤٤٫٥ في المائة و بريطانيا العظمى ٤٤٣٫٧٧٤ ج اي ٣٠ في المائة وسورية ١٥٨٫١٠٢ اي ١٢٫٥ واميركا ٢٥٫٦٠٠ وفرنسا ٢٢٫٩٣٢ والمانيا ٢٠٫١٩٠ وايطاليا ١١٫٩٦٨ وأهم الزيادة في الصادرات التي كانت في البرتقال وصابون الغسيل فزادت صادرات الاول ٩١٫١١٥ والثاني ٤٣٫٨٣٤ ج ٠

وذكرت المجلة التجارية ان النسبة بين الواردات والصادرات في فلسطين تقل شيئاً فشيئاً فالنسبة بين البضائع الصادرة والمعاد تصديرها وبين الواردات هي في سنة ١٩٢٥ ١—٣٫٥ وكانت ١—٥٫١ في سنة ١٩٢٢ و١—٤٫٦ في سنة ٢١ و١—٥٫٤ في

سنة ٢٠ و ١ — ٥٫٣ في سنة ١٩ فتجارة فلسطين في تحسين مطرد · ولكن الزيادة في واردات سنة ١٩٢٥ هي نحو ٤٠ في المائة عن سنة ٢٤ ونحو ٥٣ في المائة عن سنة ٢٣ اما الصادرات فزيادتها نحو ٨ بالمائة عن سنة ٢٤ ونحو ١٤ بالمائة عن سنة ٢٣ وشتان ما بين سير الصادرات وسير الواردات · ويعرف مركز البلاد الحقيقي ويقدر مالها وعليها من ميزان تجارة البلاد لسنة ١٩٢٣ وهو ميزان صحيح في الجملة مأخوذ من قلم إحصائي دائرة التجارة ومن بعض ذوي الخبرة والاختصاص ·

جنيه مصري	الواردات	جنيه مصري	المصروفات
	الواردات الظاهرة		المصروفات الظاهرة
١٣٧٧٢٠٧	قيمة الصادرات المعاد تصديرها	٤٨٢٥١٨٥	قيمة الواردات
	الواردات الخفية		المصروفات الخفية
١٥٠٠٠٠	الصادرات الى شرقي الاردن	٥٠٠٠٠	واردات من شرقي الاردن
١٦٠٠٠	تجارة السياح	١٥٠٠٠٠	وفر الموظفين الاجانب
٢٥٠٠٠٠	اموال المهاجرين	١٠٠٠٠٠	ارباح المصارف
٥٠٠٠	تجارة الترانسيت	١٠٠٠٠	أرباح شركات التأمين
٥٠٠٠٠٠	اللجنة الصهيونية	٢٥٠٠٠	أرباح شركات غيرها
٨٠٠٠٠٠	الجمعيات الخيرية	١٥٠٠٠	مصارف الطلبة الفلسطينيين
٢٠٠٠٠	اموال مشغلة في الخارج	٩٨٠٠٠	خط سكة حديد يافا — القدس
١٥٠٠٠٠٠	نفقات الجيش البريطاني	٤٤٨٠٠٠	المجموع
١٠٠٠٠٠	نفقات المهاجرين الشرقية		
٥٠٠٠	واردات الموالي		
٣٦٧٠٠٠٠	المجموع		
٢٢٥٩٧٨	عجز سنة ١٩٢٣		
٥٢٧٣١٨٥	المجموع العام	٥٢٧٣١٨٥	المجموع العام

ومن الاسباب العديدة التي تحول دون الانتاج في الوقت الحاضر وفي فلسطين

قلة الايدي العاملة من بشر وحيوان وقلة العمال الفنيين في سبيل الانتاج المختلفة ومشكلة الارض وخصوصاً المشاع وقلة رؤوس الاموال اللازمة للقيام بالمشاريع الكبرى . وفي الحق ان بريطانيا العظمى تعني باصلاح الحالة الاقتصادية في القسم الذي هو تحت إشرافها من ارض الشام شأنها في كل ارض احتلتها وربما لا يصدر هذا الكتاب حتى تصدر بريطانيا العظمى في حكومة فلسطين قرضاً باربعة ملايين ونصف مليون جنيه انكليزي وتضمن الخزانة الانكليزية رأس المال والفائدة و يصرف هذا المبلغ في انشاء سكك حديدية وفرض بحرية وغير ذلك من المشاريع النافعة وفي شراء السكك الحديدية الموجودة ورؤوس الاموال التي تستثمر الآن من حكومة بريطانيا العظمى وأعظم بذلك من عمل اه .

***

تجارات[1] الامم المختلفة في الشام — يقدر الخبيرون الواردات الى سورية ولبنان من القارات الخمس بثمانية ملايين دينار ذهبي مسانهةً وغالب ذلك من الاشياء الكمالية التي تقتضيها حالة الحضارة والترف ، فمن أهم ماتستورده الشام من فرنسا الكتب المدرسية والمطبوعات العلمية والادبية والسياسية وادوات الكتابة من أقلام ومحابر وورق وأنوال النسيج الافرنجية ومواد الصيدلة والعقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة ومعدات موائد الطعام من سكاكين وملاعق ومتممات اخونة الطعام ، ولوازم القاطرات الحديدية والشاحنات ، ومن مواد البناء الترابة الكلسية والطوب والقرميد والبلاط الصناعي وآلات النجارة ومعدات الأبواب والنوافذ الحديدية والآلات الكاتبة من عربية وافرنجية وأسلحة الصيد والمسدسات من معامل سانت اتين الشهيرة وغيرها مع ما يلزمها من القذائف والبارود ، والأجواخ الصيفية على اختلاف أنواعها ، وأقمشة النساء من حريرية وقطنية ، وأوان خزفية وبلورية وروائح عطرية على اختلاف أنواعها ، والخمور والدقيق والمطابع وما يقتضي لها من حروف وآلات طابعة والمواد الكيماوية وغير ذلك .

---

(١) كتب هذه المقالة صديقي الدرّاكة السيد محمد شخاشيرو .

ومن أهم ما نستورد من انكلترا القصدير وجميع المعادن والاجواخ الشتوية الغالية الثمن ، وجميع المنسوجات القطنية وهي أنواع كثيرة والغزل بانواعه والموسى والسكاكين المعروفة بالانكليزية وسرر النوم على اختلاف أنواعها المعمولة من الحديد والنحاس وسرر السفر وبعض مطبوعات علمية وأدبية وأسلحة الصيد والمسدسات وما يتبعها وكثير من العقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة والأسلاك النحاسية والمركبات ولوازمها . وأهم ما يرد على الشام من ايطاليا البسة الصوف على اختلاف أنواعها واكسية القطن كالمدام واليمني والأجواخ الرخيصة الثمن والرخام المرمر الملون وبعض مطبوعات علمية وأدبية وقسم من السيارات والمركبات . وأهم مايردنا من المانيا المطبوعات العلمية والادبية وورق الكتابة وأدوات النجارة على تعدد أنواعها وأشكالها من مناشير ومطارق وأدوات الأبواب والنوافذ الحديدية وسرر النوم من النيكل والحديد والنحاس وسرر السفر والمسامير وأسلحة الصيد والمسدسات وتوابعها والرصاص والقصدير والاواني الخزفية وآلات الجراحة والعقاقير والمستحضرات الطبية والاواني النحاسيه من طسوت وأباريق وأواني الحديد المدهون المستعمل في المطابخ والأصباغ على أنواعها والادوات الكهربائية على تنوع ضروبها والآلات الرافعة للماء وادوات الزراعة الحديثة والجوخ .

وأهم ما يرد من النمسا الصناديق الحديد والمقاعد والكراسي الخشبية المعروفة بالخيزران على اختلاف اشكالها والورق . ومن بلاد المجر الكبريت والفاصوليا . ومن روسيا سخانات الشاي الفاخرة (السماورات) منها الابيض ومنها الاصفر ، وخيطان الفضة المموهة وتدخل في الصناعة الشامية لوشي الحرير ، والبترول والطنافس والبسط الغالية الثمن ، والفراء الفاخرة والاحذية المطاطة تجيء عن طريق الاستانة .

وأهم ما تصدر الينا بلجيكا بلور المرايا وزجاج النوافذ وأسلحة الصيد والمسدسات وحديد البناء وحديد الصناعة ولوازم حافلات الكهرباء وآلات الزراعة . وأقمشة وأجواخ كثيرة والصودا والسلك والورق . ومن بولونيا الخشب والمسامير . ومن اسبانيا القمصان والجوارب والفلين والزئبق وبعض الادهان . ومن سويسرا الساعات الذهبية والفضية للنساء والرجال والمطرزات الصيفية من الأقمشة والدنتلا والشوكولاتا

والجبن واللبن المعقم والزبدة وأدوات النسيج والاحذيه · ومن هولاندة الجبن والغليسرين والسبيرتو والجعة والشمع والملبس (دروبس) والبسكوت والبويا والأواني الخزفية البديعة والحليب المعقم والكتب العربية الجيدة ·

وأهم ما يردنا من اسوج (السويد) الكبريت والمقوّى · ومن النروج زيت السمك والقطران وزيت النفط (الترينتين) · ومن الدانيمارك الحليب المعقم والسمك المقدد والمغموس بالزيت والجعة · ومن البرتقال سمك السردين · ومن التشيكوسلوفاكيا السكر والبلور والمالقي والجوخ العربي والجوخ العادي والازرار والطرابيش والحرامات الصوف والاواني الزجاجية على اختلاف انواعها · ومن بلغاريا الجبن البلغاري · ومن رومانيا الاخشاب على تعدد أنواعها وتعرف بالقطراني والشوح وقليل من البترول · ومن اليونان التبغ والزيوت والكونياك · ومن اميركا الشمالية والجنوبية آلات الخياطة والسيارات وما ينبغي لها والدراجات والمركبات والزيوت المعدنية والبترول والالكحول والبنزين والاحذية والقهوة والخشب المعروف بالاميركاني والساعات الاميركانية وآلات الهاتف والبرق والمطاط (الكاوتشو) وادوات الكتابة · ومن اوستراليا الدقيق الاوسترالي وغير ذلك ·

وأهم ما يرد علينا من اليابان والصين الخزف الصيني والياباني وهو اشكال متعددة وله قيمة باهظة والحصر المقوشة والحرير الياباني والصيني والغزل والشاي الصيني والخام من اليابان والصين والحرير من شنغاي · ومن جاوة بطريق الحجاز الشاي والقهوة وأقمشة الحرير الصفيق المعروفة بالاستكروزة ·

وأهم ما يردنا من طرابلس الغرب وتونس والجزائر والغرب الاقصى نسيج صوف فاخر يعرف بالحرام وهو دثار الشتاء وحرير للصناعة هو أحسن أنواع الحرير · ومن الجزائر النبيذ الفاخر · ومن السودان الفول السوداني وبعض البهارات والصمغ والريش والعاج · ومن الحبشة القهوة · ومن مصر الأقمشة الصوفية يخيطونها عباآت في جميع بلاد فلسطين والشال الحريري والارز والسكر والمطبوعات العربية في مختلف العلوم والفنون ·

ويردنا من تركيا الاحجار الكريمة وبعض مصنوعات الصياغ من الاواني الفضية

الدقيقة الصنع ، والبسط الاورفلية نسبة الى اورفة والطنافس وغالبها تعرف باسماء البلاد التي تعمل فيها فيقال لها الرشواني والقيصري والكرداسي الى آخر ما هنالك من الاسماء . وأهم ما تستورد الشام من بلاد الكرد الغنم والخيل المعروفة بالجلب وهي لحمل الاثقال والحرث والبسط والطنافس واللبد المعروفة بالكردية وهي بغاية المتانة والجمال . واكثر ماتبعث العراق البسط المعروفة بالبغدادي والعباآت المعروفة بالجيلانية نسبةً الى جيلان وهي غالية الثمن ومتقنة جداً والملاآت الحريرية وتعرف بالبغدادية يتخذها نساء القرى الشامية غطاء . وأهم ما نتناوله من اليمن والحجاز البن او القهوة المعروفة بالعدنية ومن المدينة المنورة بعض الطيوب والمراوح والتمر والحناء . ومن نجد الإبل والخيول العربية المشهورة .

وأهم ما يرد من بخارى الطنافس والبسط المفخرة وتعرف باسماء حواضرها . ويرد من الافغان الطنافس والبسط الجيدة وتعرف بالافغاني . ومن الخليج الفارسي اللؤلؤ ومصنوعات يدوية من بسط وطنافس وخراج واعبئة وهي على غاية من الإبداع وغالية الثمن . ومن فارس الشال الثمين والبسط والطنافس وعباآت الوبر وتعرف غالباً تلك الاشياء باسماء حواضرها فيقال الشيرازي، التبريزي، الهمداني، الخراساني من حواضر فارس ومن أهم مجلوباتنا التنباك الاصبهاني وهو اكثر مقطوعية في البلاد الشامية والأسلحة البيضاء من سكاكين وخناجر وسيوف وتعرف بالعجمية والخاويار يجلب الآن من بحر الخزر .

وأهم الوارد من بلاد الهند الطيوب من مسك وعنبر وعود وكافور والنيل والشاي على اختلاف أنواعه ومصنوعات النحاس من أباريق وطسوت وطاسات وأقداح صغيرة وكبيرة وصحاف تعرف بالهندي والبهارات والأفاويه بانواعها . وأهمها الشال البديع الصنع من صناعة كشمير ولاهور ، ويساوي الثوب منه وطوله ثلاثة أمتار بعرض متر ونصف من اربعين الى خمسين ديناراً .

هذا مجمل ما يأتينا من البلاد المختلفة من ضروب الحاجيات والكماليات ، عدا أصناف المأكولات من شكولاته وثمار محفوظة وبقول وحبوب ودقيق وفاكهة ولحوم مقددة وأنواع السكاكر الافرنجية التي لا يتناولها العد ، مما يصدر الينا بحسب اللزوم

ورواج سوقه اذا أصيبت البلاد بآفة في نواتجها ، وهذه الأصناف والأنواع المجلوبة تدل على دقة نظر تجارها وحسن انتقائهم ، وضربهم طول البلاد وعرضها ، حتى لا تكاد ترى فيما نعلم بلداً في الارض لم ينزله شامي يبيع او يشتري . ويقال في الأمثال العامة «أعرج الشام وصل الهند» ، واذا تأملت هذه المجلوبات الصناعية وجدتها مثال الجمال والمتانة مما يدل على ذكاء مستهلكيها ورسوخ قدمهم في الحضارة والترف . وقطر كهذا بينه وبين الغرب صلات مستحكمة في التجارة منذ أكثر من ألفي عام وبينه وبين الشرق صلات مثلها منذ عرف التاريخ هو عميل قديم أمين جدير بان ينظر اليه بعين العطف ويهتم بشأنه ولا سيما من اهل الغرب اهـ .

***

رأي في ازدياد الثروة والتجارة } بعد ان عرفنا بالفصول السالفة تاريخ التجارة في هذا القطر ، وعلائقه مع الامم في القديم ، ووقفنا على حالة تجارته اليوم ، وصلاته الاقتصادية مع الشرق والغرب ، ورأينا العجز الظاهر في موازنته واختلال مجاريه الاقتصادية ، وان دخله أقل من خرجه في الجملة ، يجدر بنا ان نلفت نظر ارباب الشأن في الامة ، الى ان الشام باعتدال أهويته وجميل طبيعته ، وتوسطه بين أقطار الشرق والغرب ، وما في تاريخه وآثاره من البدائع والروائع ، يستطيع اهله ان يجعلوه محط رحال معظم المسلمين في آسيا وافريقية وأقرب السبل الى ذلك في نظر المفكرين ، ان يصلح ما تخرب في الثورة العربية من خط السكة الحجازية الممتد من دمشق الى المدينة المنورة ، و يتم مد الخط الحديدي الى مكة المكرمة وجدة ، وعندها يستطيع حجاج العراق وفارس وافغانستان وبلوجستان والهند والصين وغيرها ان يسلكوا الى الارض الطاهرة عن طريق الشام من العراق على السيارات ريثما يمد خط حديدي عريض ، وتكون دمشق المحطة المهمة للصادرين والواردين ، ودمشق هي المدينة الاسلامية الرابعة بقدسيتها ، بين اكثر بلاد الشرق الاسلامي وبين الحجاز ، فاذا تم ذلك لا يقل عدد الحجاج الذين يؤمون دمشق عن ثلاثمائة الف كل سنة فاذا صرف الفرد عشرة دنانير ، واصطاف في الشام من العراقيين والمصريين بين عشرون الفاً كل سنة على أقل تعديل ، وزارها

عشرون الفاً من سياح الافرنج ، لا يقل ربح الشاميين كل سنة عن اربعة الى خمسة ملايين دينار من هذه الطرق التجارية . ومما يسهل الوصول اليه عقد معاهدة بين حكومات الشام وحكومة سلطان نجد وملك الحجاز جلالة عبد العزيز آل سعود . حينئذ يعمر الحجاز وتتم للشام سعادتها لانها بالسكة الحجازية كانت تمون الحجاز قبل الحرب الكبرى فيسافر كل يوم من دمشق سبع مركبات تحمل من الطعام والبضائع ما لا يقل وزنه عن مئة الف كيلو ، وناهيك بذلك من تبادل المنافع بين هذه الاقطار والممالك ، وما في ذلك من تيسير سبل الحج على شعوب لا تقل عن مئة وثلاثين مليوناً في العد ، كانت ترحل الاشهر لتحج واليوم تكفيها الاسابيع القليلة مهما بعدت عليها الشقة اذا امتطت هذه السيارات وهذه القطارات .

ثم اذا تم انشاء الخط الحديدي بين طرابلس وحيفا تتصل كالة في فرنسا بالقاهرة عن طريق اوربا وتركيا وتصبح الشام نقطة الاتصال بين اوربا وآسيا وافريقية وفي ذلك من الفوائد لتجارة الشام ما لا ينكرها عاقل يريد خير هذه البلاد .



فهرس الجزء الرابع

«من خطط الشام»



انتهى الجزء الرابع من خطط الشام و يليه الجزء الخامس واوله (التاريخ المدني — الجيش) .

6534.

7 1 A